



الأدب والشوق ضيق

عصر الدول والدمارات

الشام

تاريخ  
الأدب  
العربي



عصر  
الدول والإمارات  
الشام



تاريخ  
الأدب العربي  
٦

عصر  
الدول والإمارات  
الشام

تأليف  
الدكتور شوقي ضيف





shiabooks.net

رابطہ بديل < mktba.net



منشورات ذوی القربی

اسم الكتاب:	تاریخ الادب العربی (ج ٦) □
المؤلف:	شوقی الضیف □
الناشر:	ذوی القربی □
الطبعة:	الأولى □
تاریخ الطبع:	١٤٢٨ □
الكمية:	١٠٠٠ نسخة □
المطبعة:	ستاره □
شابك ج ٥:	٩٧٨ - ٩٦٤ - ٥١٨ - ١٨٩ - ٣ □

مرکز التوزیع: قم - پلساز قدس - الطابق الاول - رقم ٥٩ - تلیفون: ٧٧٤٤٦٦٣ - ٢٥١ - ٩٨ +

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمته

تحدثت في هذا الجزء عن تاريخ الأدب العربي بالشام في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث، ورأيت أن أرجع بالحديث عن الشام إلى تاريخها منذ الفتح العربي، وبالمثل عن مجتمعتها والحركة العلمية والأدبية فيها، وكنت ترجمت في الجزء الخاص بالعصر الإسلامي لشعرائها المبكرين: عدى بن الرقاع العاملي والطرماع الطائي والوليد بن يزيد، وترجمت في الجزء الخاص بالعصر العباسي الأول لشعرائها الأفاضل: منصور النجيري والقشبي وأبي تمام، كما ترجمت في الجزء الخاص بالعصر العباسي الثاني لشاعريها البارعين: البحتري والصنوبري. ومنعاً للتكرار لم أَر العودة إلى تراجمهم جميعاً في هذا الجزء وقصرته في تراجم الشعراء على حملة لواء الشعر بالشام بعد العصر العباسي الثاني.

وقد بدأت الجزء ببيان مجمل لتاريخ الشام القديم، وتحدثت عن الفتح العربي لها وقيام الخلافة الأموية بدمشق، وكان سلطانها يظل العالم الإسلامي من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي، ثم ما كان من تحول الشام زمن الخلافة العباسية إلى ولاية تابعة لبغداد، وتبعيتها للدولتين: الطولونية والإخشيدية حين تأسست بمصر، واستيلاء الدولة الفاطمية بالقاهرة على الشطر الأكبر منها، وتأسيس إمارة الحمدانيين في شاليها بحلب ثم إمارة بني مرداس، وما حدث من نزول حملة الصليب بها في أواخر القرن الخامس الهجري، وجهاد عباد الدين زنكي في القرن السادس وابنه نور الدين أمير حلب - لهم - جهادا عظيما، وضربات صلاح الدين الأيوبي لجموعهم ضربات قاصمة وسحقه لهم في حطين وغير حطين. وتدين الشام لخلفائه الأيوبيين، ثم تدين للمماليك، ويمزقون المغول في عين جالوت شر ممزق، ويطردونهم من الشام كما يطردون منها بقايا حملة الصليب نهائيا. ويدور الزمن دورات، فتتزلها - مع مصر - جحافل المنانيين وتظل ولاية عثمانية إلى أن تشرق عليها أضواء العصر الحديث.

وكان المجتمع الشامي - حين الفتح العربي - يضم أخلاطا من أم شق آسيوية وأوربية، وأخذ الإسلام يمزج بين هذه الأخلاط مكونا منها أمة شامية عربية واحدة. وصبت

فيها - زمن الدولة الأموية - كنوز العالم الإسلامي، مما أتاح لها في تلك الدولة رخاء غير قليل، وظلت - بعدها - تنعم بعيش رغيد لما فيها من أنهار وعميون وزروع وفاكهة متنوعة ونقل من فستق وغير فستق. وكان أهلها يتقنون - من قديم - صناعات الحزف والأثاث والمعادن والزجاج الملون والنسيج. وظلت التجارة منتعشة بها إلى نهاية أيام المالك، إذ كانت بوابة كبرى لتجارات آسيا وأوروبا. وعرفت - مثل شقيقاتها العربيات - كثيراً من فنون اللهو والفناء. وشاع التشيع في جوانب من ديارها وتعددت بها فرقه المتطرفة من إسماعيلية ونصيرية ودروز وفداوية، وشاع فيها الزهد والتصوف وطرقه وما يتصل به من الخانقاهات.

وكانت الحركة العلمية في الشام نشيطة، وألمت بما كان بها - قديماً - من تراث يوناني علمي وفلسفي، وتحديث عن رعاية حكامها - منذ الفتح العربي - لحركتها العلمية، ثم ما كان من تأسيسهم للمدارس فيها منذ القرن الخامس الهجري وكثرتها كثرة مفرطة في القرون التالية. وألمت بحركة الترجمة في القرون الأولى للهجرة بها وكبار مترجميها وازدهار علوم الأوائل فيها من طب وفلسفة وفلك وهندسة ورياضيات وجغرافيا. وأوضحت ازدهار علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة مع عرض أعلامها جميعاً عرضاً تاريخياً دقيقاً، وبالمثل أوضحت ازدهار علوم القراءات والتفسير والحديث النبوي والفقه ومذاهبه وعلم الكلام مع التتبع الدقيق لأعلام كل منها تاريخياً، وعرضت الكتابات التاريخية ومؤلفيها النابيين في السيرة وتاريخ المدن والتاريخ العام وتاريخ الدول وكتب التراجم، وبذلك كله اتضحت الحركة العلمية في الشام على مر الزمن، واتضح معها التاريخ الدقيق لجميع العلوم وأعلامها المجليين.

وتحدثت عن اللغات في الشام قبل الفتح العربي وكيف أنها كانت قد أخذت في التعرب قبله بقرون، وتم لها هذا التعرب سريعاً بحيث أصبحت العربية لسان سكانها جميعاً. ولم يكن لها في الشعر العربي نشاط يذكر قبل الإسلام، حتى إذا دخلت في الدين الحنيف وهاجرت إليها جوع من القبائل القيسية النجدية المشهورة بنظم الشعر أخذ الشعر يكثر في السنة أهلها من البدو والحضر، وأخذ يظهر فيها شعراء ناهون. وطوال أيام الأمويين كان شعراء الحجاز ونجد والعراق يفتدون على دمشق لمديح الخلفاء، ونهغ في البيت الأموي وبين خلفائه غير شاعر.

وتشارك الشام بقوة في ازدهار الشعر العربي في العصرين العباسيين: الأول والثاني.

ويتكاثر شعراء الشام في القرن الرابع الهجرى وتوَجَّه بهم حلب في عهد سيف الدولة الحمداني، وترجم الثعالبي في كتابه «الهيئة» لكثيرين منهم، كما يترجم الباهرزى في كتابه «دُمَةُ القصر» لطائفة من مشهورهم في القرن الخامس الهجرى، وترجم العباد الأصهباني وزير صلاح الدين الأيوبي في القرن السادس لنحو مائة وثلاثين من شعراء الشام، وتحفل كتب التاريخ والتراجم - بعده - بالشعراء الشاميين في أزمنة الأيوبيين والمماليك والعثمانيين. وتشارك الشام - منذ القرن السادس - مشاركة خصبة في الأشكال الجديدة من الشعر الدورى فتكثر بها المسططات والرباعيات والموشحات، ويشتهر فيها غيرُ وشاح. ومنذ أُنْهِيَ قَامَ بِكثْر شعرائها من الهديميات، ويدخل الشعراء عليها صوراً مختلفة من التعقيدات. وأخذتُ أحلل شخصيات شعراء الشام في عصر الدول والإمارات منذ القرن الرابع الهجرى، فللمديح أعلامه يتقدمهم ابن الخطاط بملكته الشعرية المخصصة، والفلسفة والحكمة أعلامها يتقدمهم أبو العلاء المعرى مفخرة الشام الذى لا يماثله أديب سابق ولا لاحق في الأدب العربى شعراً ونثراً، وللتشعب أعلامه يتقدمهم كُشَّاجِم بلوغاته وأَنَاتِه لفاجمة الحسين، وللغزل أعلامه يتقدمهم عبدالمحسن الصورى الذى نُوهَ به ابن خفاجة دُرَّة الأندلس طويلاً في ديوانه، وللغنى أعلامه يتقدمهم أبو فراس الحمداني بروميَّاتِه التى جَسَّدَ فيها الفروسية العربية بكل ما لها من فتوة وصلابة عاتية. ويتوالى أعلام في شعر الطبيعة والزهد والتصوف والمدائح النبوية. ومع كل علم من الشعراء جميعاً ما يَتميز به من الخصائص وروائع الأشعار. وبلغ عدد من ترجمت لهم من أعلام الشعراء في الشام خمسة وثلاثين شاعراً فذاً وذكُرت بينهم في كل غرض من أغراض الشعر شاعراً مجيداً من الشعراء في أيام العثمانيين، ولم أترجم لعشرات من شعرائها ترجمت لهم كتبُ الطبقات لأنه لم يكن لأحدهم دور واضح في تطور الشعر بالشام، وأنا لا أكتب دائرة معارف لشعرائها، وإنما أكتب تاريخ شعرها ومنَ تطوَّروا به وتركوا فيه بصَّات واضحة جعلت لهم حظاً كبيراً أو قليلاً من الشهرة والمجد الأبدى. وفسحتُ لدراسة الشعر الشسمى وترجمت لأهم أعلام الزجاليين بالشام: أبى العلاء بن مقاتل مع عرض أزجاله.

وترقى الرسائل الديوانية بالشام في عهد الدولة الأموية وتوضع رسومها وتقالدها، حتى إذا انتهى عهدهم ولم يعد لديوان الإنشاء عمل بعدهم تراجعت هذه الرسائل وما طُوى فيها من رقى إلى أن أخذت الدول منذ القرن السادس تتعاقب في الشام وأخذت تعفى بهذا

الديوان وتختار له كُتَّابًا بلفاء، حينئذ ازدهرت كتابة الرسائل الديوانية في زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية. ومنذ العتاني في أوائل القرن الثالث تنشط كتابة الرسائل الشخصية، وللبنهاء كاتب سيف الدولة فيها رسائل بديعة، وما يلفت أبو العلاء أن يهdy إلى قراء العربية رسائله الشخصية الغضة، وتكثر تلك الرسائل بعده - طوال العصر - شاكراً أو مهنتاً أو معانبة أو معزية، وهى - مثل الرسائل الديوانية تعتمد دائماً على السجع والمحسنات البديعية. ويكثر الكتاب من صنع المقامات غير أنها لا تعتمد على أدهب متسول وحيله الكثيرة وما يطوى فيها من حركة درامية كما كان الشأن عند الحريري في مقاماته، وإنما تعتمد غالباً على الوصف أو المناظرة بين أشخاص أو بين أزهار أو نهار، وهى بذلك أشبه برسائل مطولة. وتتكاثر كتب المواعظ، ومن أروعها كتاب الفصول والغايات لأبى العلاء، وجميعه تسبيحٌ وتحميدٌ وتعجبٌ في الله العلي العظيم، ويجرى ابن غانم على لسان الطيور والأزهار حكماً بديعة.

ولأدباء الشام أعمال نظرية رائعة، في مقدمتها رسالة الغفران لأبى العلاء، وقسمها الأول يصور أهوال المحشر والصراف ونعيم الجنة وعذاب النار، وقد ألهم هذا القسم - بشهادة المستشرقين - دانتي الشاعر الإيطالى كتابه «الكوميديا الإلهية». ومن الأعمال النثرية القيمة رسالة النسر والبلبل لابن حسان الدمشقى وفيها يسأل النسر البلبل عن السر في جمال صوته وسحره، ويدور بينها حوار بديع. ومن تلك الأعمال كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ وهو أشبه بترجمة شخصية يصف فيها زيارته لمصر أيام الفاطميين وتنقلاته بين حملة الصليب لزمه، ومنها كتاب نسيم الصبا لابن حبيب في وصف الطبيعية والأخلاق الاجتماعية، وكتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لابن عَرَبْشاه، وفيه يتناول كثيراً من شئون الحياة والسياسة والتربية.

وواضح أننى عرضت في صحف هذا الجزء تاريخ الأدب العربى في الشام طوال عصر الدول والإمارات مع بيان تاريخها منذ الفتح العربى وبالمثل صورة مجتمعيها والنشاط الثقافى والعلمى بها مسترشداً بمصادر ومراجع كثيرة، ولا أزعم أننى صوّرت ذلك كله تصويراً تاماً، وإنما حاولت بقدر ما استطعت. والله ولى الهدى والتوفيق.

# الفصل الأول

## السياسة والمجتمع

١

### فتح العرب للشام والحلب<sup>(١)</sup> الأولى

#### (١) فتح العرب للشام

تقع الشام في قلب الشرق الأوسط وَسَطَ العالم القديم على أبواب آسيا الغربية وشواطئ البحر المتوسط ، وهي سهل ساحلي يمتد من خليج إسكندرونة في تركيا شمالا إلى طورسياء جنوبا ، ومن البحر المتوسط غربا إلى بادية الشام شرقا ، والشام بذلك تشمل سوريا الحالية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن . وتجري فيها أنهار صغيرة أهمها العاصي المتجه إلى الشمال في سوريا ، والليطاني المتجه إلى الجنوب ، ويردئ المتجه إلى الشرق مكونا بساتين دمشق المسماة بالغوطة ، ونهر الأردن الذي يصب في البحر الميت ، وفي أطراف الأردن الشمالية بحيرة طَبْرِثَة . ويجنوى دمشق هضبة حوران . وفي شمال الهضبة الشرق منطقة اللجأ وفي جنوبها الشرق جبل الدروز . وتنساب الشام شرق حوران والأردن في بادية الشام المتممة لصحراء العرب . ومن قديم يُزْرَعُ بها القمح والزيتون والتين والفواكه ، وبها في الشمال أشجار الثقل المختلفة وهياً ذلك أهلها لكي يعرفوا الاستقرار من أعتى الأزمنة ، كما هياً البلاد لاندفاع بدو الجزيرة العربية إليها ، إذ تفيض عسلا ولبنا . وقد اندفعوا إليها في شكل هجرات كبيرة ، لعل أقدمها هجرة الأموريين إلى شمالها حوالى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ، وتلتها - وربما صحبتها - هجرة الكنعانيين أو الفينيقيين إلى السهل الساحلي . وقد استولى نحوتمس فرعون مصر حوالى سنة ١٤٤٠ ق . م على جزء كبير من الشام ، وظل الأموريون والفينيقيون خاضعين لمصر نحو قرن إلى أن شُغلت عن ممتلكاتها في الشام لعهد

نقري بردي وللغرب ( قسم القسطنطين ) لابن سعيد وتاريخ ابن خلدون وتاريخ الدولة العربية وسقوطها لظهوزن وتاريخ العرب - مطول لفليلب حتى ( الترجمة العربية ) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ( نشر دار العلم للملايين ) .

(١) انظر في تاريخ الشام القديم وزمن الدولة الأموية والولاة العباسيين كتاب تاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفليلب حتى ( الترجمة العربية نشر دار الثقافة ببيروت ) وراجع في فروعها وتاريخها الإسلامي تاريخ الطبري وابن الأثير ، ومرجع الذهب للمسعودي والنجوم الزاهرة لابن

إخاتون بسبب ثورته الدينية المعروفة . وقد على الشام حجرة كبيرة من الجزيرة العربية هي حجرة الآراميين إلى الشام الأوسط ومنطقة دمشق وهجرة العبرانيين إلى فلسطين .

ولم يكون الفينيقيون لأنفسهم دولة في السهل الساحل بل ظلوا جماعات صغيرة لكل جماعة أميرها في طرابلس وجبل وبيروت وصيدا وصور وعسقلان وغزة ، وكانوا شعبا بحريا تجاريا ، وازدهرت تجارتهم بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد ، وكوّنوا لهم مستعمرات في إسبانيا ومراكز تجارية في كورسيكا ومردينيا وصقلية وكريت وساموس في اليونان . وقضى على النشاط التجاري لهذا الشعب الفتح الآشوري في القرن الثامن قبل الميلاد . وكون العبرانيون لأنفسهم مملكة أورشليم في القرن العاشر ق . م . وفيه بلغت ذروتها لعهد داود وسليمان ، ثم أخذت في الضعف حتى قضى عليها الآشوريون في القرن الثامن ق . م . ودمر بختنصر أورشليم في القرن السادس ق . م . وجلاهم عنها إلى بابل ، حتى إذا سقطت دولة بابل سنة ٥٣٩ ق . م . أذن كورش لمن يريد منهم العودة إلى أورشليم أن يعود . وظل الشام منذ هذا التاريخ تابعا للدولة الفارسية إلى أن فتحه الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٤ ق . م . وتولّت بعده شؤنه دولة السلوقيين اليونانية حتى انتزعه منها الرومان في القرن الأول ق . م . ولما انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية كان الشام من نصيب الإمبراطورية الشرقية وظل تابعا لبيزنطة حتى استخلصه العرب منها .

وقد استطاع العرب الشماليون أن يقيموا مملكتين أو إمارتين لهم في أطراف الشام : إمارة النبط في شرق الأردن أقاموها منذ القرن الثالث ق . م . وكان لها عاصمتان : بَطْرًا في الجنوب وشرق الأردن وبُصْرَى في الشمال بالقرب من دمشق ، وكانت تتكلم العربية في أحاديثها اليومية بينما كانت تكتب نقوشها بالخط الآرامي ، وقضى الرومان على استقلالها سنة ١٠٦ للميلاد وضموها إلى دولتهم الرومانية . والمملكة الثانية مملكة تَنْتُر شمالى بادية الشام ، وبلغت أوجها في القرنين الثاني والثالث للميلاد وخاصة في عهد أميرها أُذْبَنَة ، وقد نصبه الرومان ملكا على سوريا جميعها وعادوا في عهد زوجته الزباء ، ففقدوا عليها وعلى الإمارة في سنة ٢٧٣ للميلاد . ولم تلبث قبيلة حمرية أن شَقَّت طريقها إلى منطقة حوران جنوب دمشق ، وهي قبيلة الفساسنة واستطاعت أن تقيم لها إمارة ، ولم تكن لها عاصمة مستقرة ، فقد كانت تنتقل من مكان إلى آخر ، فرة تتخذ عاصمتها في الجولان ومرة في جَلْق أو الحلب ، وكانت موالية لبيزنطة وتحارب في صفوفها ضد إيران وعرب الحيرة . ومن أهم أمراتها الحارث بن جبلة وهزيمته للمنذر صاحب الحيرة يوم حَلِيمَة بالقرب من قَنْسَرين سنة ٥٥٤ مشهورة وفيها خُر المنذر صريحا . وما نصل إلى أواخر القرن السادس الميلادى

حتى تتمزق وحدة هذه الإمارة ، ويتوزع أجزاءها غير أمير . ونستطيع أن نميز بينهم النعمان بن الحارث ممدوح النابغة وأخاه عمرو ممدوح حسان ، ولحق منهم الفتوح الإسلامية جيلة بن الأيهم وأسلم ، ثم تنصر ولحق بيزنطة .

وحين دخلت الجزيرة العربية جميعها في دين الله الحنيف وانضوت تحت لوائه أحست دولة بيزنطة في الشام ودولة الفرس في العراق بأنها قوة ينبغي أن يُنزلَ خطرها . وهو ماجمل أبا بكر الصديق يبادر بتجهيز الجيوش لتجاهد في سبيل الله ونشر دعوة الإسلام الدولتين الكبيرتين قبل أن تتآزرا على حرب الإسلام والمسلمين في الجزيرة شرقا وشمالا . وكان الفساد قد استشرى في حكم الدولتين واستشرى معه ظلم الرعية والبنى الأثيم . واستولى المسلمون من الفرس سريطا على جنوى العراق ، وتوالت انتصاراتهم عليهم ، وبادر الصديق فسّر في سنة اثنتى عشرة للهجرة جيشين للحرب البيزنطيين أو الروم في الشام : جيشا بقيادة يزيد بن أبي سفيان إلى البلقاء في شرق الأردن ، وجيشا بقيادة عمرو بن العاص إلى الجنوب الشرق من فلسطين ، وكتب إلى خالد بن الوليد في العراق أن يلحق بجيش الشام ، فلقق بها وتولى قيادتها ، وقَّع بُقْرى شمالى البلقاء . ونازل الروم في أجنادين بفلسطين بين بلدق الرملة وبيت جبرين الحاليتين ، وهى أول معركة كبرى بين العرب والروم ، وفيها سحقهم سحقا ذريعا ، وتقدم إلى الشمال حتى دمشق وظل محاصرا لها حتى استسلمت . وجمع الروم صفوفهم في اليموك أحد روافد نهر الأردن فدمرهم خالد وجنوده ولم تقم لهم بعد ذلك في الشام قائمة وضحت بلدانها جميعا أبوابها للعرب المتصرين . وبذلك استولى العرب على الشام في نحو ستين .

وخرج عمر بن الخطاب في سنة ١٦ إلى الحلاية - جنوى دمشق على مسيرة يوم منها - وهى إحدى عواصم الفساسنة كما مر آنفا ، وبها عقد مؤتمرا ضمّ ولاية الشام وقوادها لتنظيم الإدارة في ديارها ، وفتحت له القدس أبوابها ، وأمن عمر النصارى بها ورحبانها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وحرثيتهم الدينية ، والتسموا منه أن يُخلّ القدس من اليهود وأجاب متمسكين ولم يبق بها يهودى . وقسم الشام إلى أربعة أجناد : جند الأردن وجند فلسطين وجند دمشق وجند حمص ، وزيد فيها بعد لمعد الأمويين جند قنسرين والعواصم والثغور . واشتهرت سنة ١٨ للهجرة باسم سنة طاعون عمواس ، وكانت بلدة بين نابلس والرملة الحاليتين ، وفيه توفى أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ ابن جبل ويزيد بن أبي سفيان وإلى دمشق ، وولاهها عمر بن الخطاب بعده أخاه معاوية . وامتد لواء ولايته لها في عهد عثمان حتى شمل الشام ، وعمل على الاستعانة بيد الشام في



شئون الإدارة مما جعلهم يلتفتون حوله ، وظهر ذلك سريعا حين تولى الخلافة على بن أبي طالب ، وهزله . فإنه سرعان ما طالب بدم عثمان وناصره بدو الشام .

وتطورت الظروف سريعا إلى أن نشبت حرب صيفين بين معاوية وبين علي بن أبي طالب كما هو معروف ، حتى إذا أيقن معاوية بالهزيمة أمر جنده - استجابة لمشورة عمرو بن العاص - أن يرفضوا المصاحف على أسنة رماحهم داعين إلى الاحتكام إلى كتاب الله . ورضى على وأقيم حكام للفصل بين الطرفين : أما جند على المراقبون ، فاختروا أبا موسى الأشعري ، واختار معاوية وجند الشام عمرو بن العاص ، ويروى الجاحظ أن معاوية قال له : « يا عمرو إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبي موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك ، وقد ضُمن إليك رجل طويل اللسان قصير الرأي فأجِدِ الحُرَّ وطَبِّقِ التَّفْصِيلَ ، ولا تلقه برأيك كله » . وصدق حَدْسُ معاوية فقد استطاع عمرو أن يقنع أبا موسى بعزل علي عن الخلافة لوقف الحرب وحقق دماء المسلمين . وأعلن الحكم ، وانقسم جيش علي : فرقة معه وفرقة سَمَّتْ أَنْفُسَهَا الخَوَارِجَ ، وهو أول ظهورهم في التاريخ الإسلامي وحاربهم ونكَّلَ بهم ، ولم يلبث أن اغتاله خارجي أثيم . وبذلك خلا الجو لمعاوية وخاصة حين أعلن الحسن بن علي تنازله عن الخلافة له . وقد بايحه جنده وأمرأؤه بالخلافة في بيت المقدس واتخذ دمشق حاضرة لخلافته .

### (ب) زمن الدولة الأموية

أسس معاوية في الشام الدولة الأموية وتوزعها فرعان : فرع سفياني نسبة إلى أبي سفيان ، معاوية على رأسه وابنه يزيد ، وفرع مرواني من البيت الأموي نسبة إلى مروان بن الحكم ومن خلفه من أبنائه وأحفاده . وكان معاوية بعيد النظر سبوسا حازما ، وكان له بصير بالشخصيات من حوله ، فاستعان بطائفة من صفوة الحكام في مقدمتهم عمرو بن العاص في مصر ، والمغيرة بن شعبة الذي ولاه الكوفة ، وزباد بن أبيه الذي اختاره للبصرة وإيران حتى إذا توفى المغيرة ضم إليه الكوفة وقد استطاع زباد أن يقضى على معارضة علي في شرقي الدولة وأن ينشر في ربوعه الأمن . ووجه معاوية حملات مختلفة إلى ييزنطة واستطاع حصار القسطنطينية مرتين ووجه حملة بحرية إلى قبرس ، وكانت دمشق قاعدة الخلافة في زمنه وكان يستعين بأهل الشام في شئون الحكم وعصمها الرخاء . وشمل المسيحيين بتسامح واسع واتخذ لنفسه مستشارا ماليا منهم هو سرجيوس ، إذ وكل إليه فيما يقال الشئون المالية . ويبدو أنه كان حاكما لدمشق قبل فتحها . على كل حال استعان به

معاوية في الشئون المالية للمشرق ، وظلت أسرته بعده في خدمة الأمويين فكان ابنه بشرف على الحجاج لعهد عبد الملك ، وبالمثل استعان الأمويون بمخيدته ، وفي عهده توغل عقبة بن نافع - ابن خالة عمرو بن العاص - في البلاد المغربية ، وأسس في وسطها القيروان بتونس ، وواصل فتوحه في عهد معاوية وابنه يزيد حتى أشرف على المحيط الأطلسي .

ولما خلف معاوية ابنه يزيد أبى البيعة له عبدالله بن الزبير ولاذ بالحرم المكي ، كما أباهما الحسين ابن علي وانجه إلى العراق ، فلقبته طلائع جيش لعبيد الله بن زياد وإلى العراق قبيل دخوله الكوفة في « كربلاء » غربي القرات ولما أبى الاستسلام نازلوه واستشهد الحسين ومن كان معه من أهله وأنصاره مما كان له أكبر الأثر في التطور السريع للشيعه ، ولا يخلو ضربه طوال العام من حجاجهم إليه حتى اليوم . وكانت المدينة قد انضمت إلى ابن الزبير فأرسل يزيد إليها جيشا بقيادة مسلم بن عقبة فنكل . بها وفي طريقه إلى مكة لحرب ابن الزبير توفى وخلفه حصين بن نمير السكوني ، ففضى حتى حاصر ابن الزبير بمكة وجاءه نعي يزيد بن معاوية ، ففك عنها الحصار وعاد يجمده إلى الشام . وخلف يزيد ابنه معاوية وتوفى بعد أربعين يوما من خلافته . واضطربت العراق ، واضطر واليها عبيد الله بن زياد إلى مبارحتها ، وانتشر الفرقة مروان بن الحكم واعتلى عرش الخلافة يؤيده بدو الشام من البنية وأبى بدوهم من القيسية مبايعته وهزمهم في موقعة مرج راهط ، وتبعته مصر ، أما العراق فظل الاضطراب سائدا فيها ، وبايع قسم منها ابن الزبير وقسم تحرك للطلب بدم الحسين وكان عبيد الله بن زياد فكر في العودة إلى العراق على رأس جيش ففضى عليه هذا القسم ، وحاول المختار الثقفي وإلى الكوفة أن يجمعه تحت لوائه وقضى عليه مصعب بن الزبير وإلى أخيه عبدالله على البصرة .

وكان مروان بن الحكم قد توفى وخلفه ابنه عبد الملك وسر سرورا عظيما لما حاق بالمختار الثقفي وجنوده على يد مصعب ، وأخذ يتحين الفرص للقضاء عليه في العراق وعلى أخيه عبدالله بن الزبير في مكة والحجاز ، أما مصعب فذهب إليه عبد الملك في سنة ٧١ للهجرة على رأس جيش ضخم ، وقضى عليه ، وبايعه العراقيون . وأما عبدالله بن الزبير فأرسل إليه الحجاج في جيش كثيف ، ومازال به حتى تفرق عنه أصحابه ، وظل يسبيل في قتال القوم حتى خسر صريعا . وقد حُني بيته المسجد الأقصى وتغرب إدارة الدولة واستطاع أخوه عبدالعزيز واليه على مصر أن يقضى نهائيا على المعارضة في المغرب .

وبعد زمن الوليد بن عبد الملك أزمى أيام المروانيين لفتوحاته العظيمة شرقا وغربا ، أما في

الشرق فاستطاع محمد بن القاسم فتح السند واستطاع قتيبة بن مسلم أن يمتد بانتصاراته إلى الإقليم المسمى الآن باسم أوزبكستان وعاصمته حينذاك سمرقند . وأما في الغرب فقد استطاع موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد أن يقضيا على الدولة القوطية في إسبانيا ، وأن يبلغا بفتوحها هناك أقصى الشما . وهذه الفتوح كانت تعود على الدولة بأموال عظيمة ثم هباً لرخاء واسع في ديار الشام ، كما هباً للوليد نفسه أن يهتم في دمشق بالصران وأن يقيم بها الجامع الأموي العظيم ويقال إنه عمل به من البيزنطيين وحدثهم ألف ومائتا عامل سوى من عمل به من الفرس وأهل الشام وقد زُيِّت جدرانها وسقوفها بالرخام المطعم والفُصَيْفِساء التي كانت تمثل مدناً وأشجاراً من كل نوع سوى ما كان فيه من أعمدة وتراويق عجيبة .

وخلف الوليد أخوه سليمان واتخذ بلدة الرملة بفلسطين حاضرة له . وكان من سوء تدبيره أن نكّل بقواد الوليد العظام ، قُتِلَ قتيبة ولم يعرف مصير موسى بن نصير ولا محمد بن القاسم ، وحسنت الوحيدة انه استخلف بعده ابن عمه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، وقد أُلْغِيَ سبُّ علي بن أبي طالب على المنابر وعمل على استمالة الشيعة والخوارج والنصارى وخُفِّفَ من ضرائب الجزية المفروضة على الأخيرين في قبرس وأيلة ( العقبة ) ونجران ومصر ، وسوّى بين العرب والموالي في الضرائب وأعفى منها المشتركين منهم في حرب خراسان مع فرض أعطيات لهم ، غير أن حكمه كان قصيراً من سنة ٩٩ إلى ١٠١ . ولم يأخذ خلفاؤه بإصلاحاته ، وعجّل ذلك باضمحلال الدولة . وأولهم بعده يزيد بن عبد الملك الذي لم يأخذ بسيرته وإصلاحاته وانغمس في الملاهي ، وتلاه بعد نحو أربع سنوات أخوه هشام الذي اتخذ مقره في الرصافة على الفرات ، وفي عهده ثار زيد بن علي بن الحسين في الكوفة سنة ١٢١ وقُتِلَ وصُلِبَ ، واستغل ذلك دعاة العباسيين مما مهد السبيل لقيام خلافتهم بعد نحو عشر سنوات . ومُنَى عرب الأندلس بجزيتهم جنوى فرنسا سنة ١١٤ للهجرة أمام شارل مارتل .

وتوفي هشام سنة ١٢٤ وخلفه عهد تضعضعت فيه الدولة الأموية وآذنت شمسها بالمغيب ، فقد خلفه ابن أخيه الوليد بن يزيد وكان شاعرا ماجنا فلقى مصرعه سريعا ، وجاء بعده يزيد بن الوليد وسرعان ماتوفي بعد خلافته بنحو خمسة أشهر وتلاه أخوه إبراهيم ولم يرضه الناس ولا الأسرة الأموية ، وتحولت مقاليد الخلافة إلى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وكأنه لم يعد في أسرة عبد الملك من يصلح لها . وكان محاربا على الهمة ، وأخطأ بنقله عاصمة الخلافة إلى حرّان ، فانفض عنه بدو الشام ، ونشبت فن كثيرة أضحت قواه ، بعضها في الشام وبعضها في

العراق حيث الخوارج والشيعية . ولم تكد هذه الفتنة تبدأ حتى تحرك العباسيون براياتهم السود من خراسان ، وأخذت المدن الإيرانية تسقط في أيديهم ودخلوا العراق واستولوا على الكوفة ومضوا إلى شمال العراق وهزموا مروان عند الزاب الأكبر ، فأخلى الجزيرة ونجته إلى الشام وتخلّى عنه أهلها ، فالتجأ إلى مصر ، ولقى مصرعه بها في بوعصير . وكان السفاح قد أعلن الخلافة العباسية في الكوفة وطورد الأمويون في كل مكان وأيدوا بوحشية ، وتُبشّت قبور خلفائهم - عدا معاوية وعمر بن عبدالعزيز - وأُذريت عظامهم ورفاتهم في الهواء ، ونجا من هذا البطش والقتال عبدالرحمن الداخل أحد حفدة هشام بن عبدالملك ، إذ فرّ إلى الأندلس وأسس بها دولة أموية جديدة ظلت نحو ثلاثة قرون .

### (ج) زمن الولاة العباسيين

قضت الشام - بسقوط الدولة الأموية - السيادة المطلقة في الإسلام وفقدتها العرب معهم تدريجاً . إذ أخذ الاعاجم يشغلون المناصب العليا في الدولة العباسية ، وكان العباسيون يعرفون أن دولتهم إنما قامت على أسنة رماحهم ، فقبوهم منهم ونسحوها لهم في الوزارة وغير الوزارة . وكان لذلك صداه السيئ في نفوس أهل الشام ، مما هيأ بعد نحو عشرين عاماً لثورة القيسية في قيسرين بزعامة أموى هو أبو محمد السفياي ، وسرعان ما قضى عليها العباسيون وفرّ السفياي إلى الحجاز ولقى حتفه هناك ، ولم يصدق أتباعه وفاته فظلوا يترقبون عودته ليجدد للشام مجده الغابر . ونمضى إلى سنة ١٩٥ في عهد الخليفة الأمين فيظهر في دمشق سفياي جديد هو علي بن عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفياي ، ويطرد عامل الأمين عن دمشق ، ويبايعه الدمشقيون بالخلافة . وشغل عنه الأمين بحرب أخيه المأمون مدة . ولم يلبث أن قضى على ثورته. أهوان الأمين واختفى بالجزيرة بالقرب من دمشق وأقام بها أياماً ومات . وفي سنة ٢٢٧ لمهد للمعتصم ثار بفسططين المبرقع أبو حرب اليماني وزعم أنه السفياي المنتظر ودعا أولاً إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن قويت شوكة فادعى النبوة ، وتبعه قوم من فلاحى القرى وقوى أمره وسار إليه أحد قواد المعتصم في ألف فارس وأسره وجبه ومات في حبسه .

وكان أول من تولى الشام للسفاح عمه عبدالله بن علي بعد قضائه على مروان بن محمد في موقعة الزاب حتى إذا فرّ مروان إلى الشام مضى يتبعه إلى دمشق فضحها وهدم سورها وقتل من الأمويين ثمانين رجلاً في منجبة مشهورة ببلدة الرملة . وولاه السفاح دمشق ، ولما ولي الخلافة بعده

أبو جعفر المنصور ، خرج عليه عبدالله ودعا لنفسه فهزمه أبو مسلم الخراساني ، وجسه المنصور ومات في حبسه . وتولى أمر الشام ودمشق بعد عبدالله كثير من الولاة وكان بعضهم من الأعاجم مؤيدى الدولة . واتباع العباسيون سياسة غير حكيمة أن لا يبقوا والياً لهم في بلد إلا مدة قصيرة . وكان هذا سبباً في أن لا يُتمنى الولاة بالتهوؤ ببلدانهم من جهة ، كما كان سبباً في أن يحاولوا الإثراء سريعاً قبل أن يُعزلوا من مناصبهم ، مما كان يدفعهم في كثير من الأحيان إلى الزيادة في الضرائب ، كما كان يدفع الناس إلى الثورة عليهم ، وسرعان ما كان يقضى على ثورتهم كما حدث في حلب سنة ١٦٢ وفي حمص سنة ١٩٤ .

ويبدو أن القبائل القيسية واليمانية لم تمنع بما أصابها من فقدان موطنها لاستقلاله الذاتي ، فقد اندلعت بينها نار العصية القديمة وأخذوا يمدونها بحطب جَزَل طوال العقد الثامن من القرن الثاني ، واغتنمت السوق بدمشق الفرصة فنهبت ما استطاعت أيديها نهبه ، وتطاحن الفريقان وسُفكت دماء المئات منها . وأخيراً أرسل اليها هرون الرشيد وزيره جعفر البرمكي ، فأطفأ نار العصية المحتدمة بين الطرفين بتجزيتهما من السلاح وعاد إلى دمشق الهدوء والسلام . وفي سنة ٢٢٧ يولى المتصم موسى بن إبراهيم الرافقي دمشق فثور عليه القيسية ويقتل منها خمسة عشر نفساً ، فتشند ثورتها وتحاصر دمشق ، ويتوفى المتصم فيرسل الوائلي خلفاً له أحد قواده فيهزم القيسية ويقتل منها ألفاً وخمسمائة ، وتهدأ الثورة ، ويعود الأمن إلى دمشق .

وكان الخلفاء العباسيون يرحلون إلى الشام أحياناً ، لزيارة بيت المقدس أو للحج منه ، وأكثر رحلاتهم إنما كانت لحرب البيزنطيين ، والسقوط عليهم من ثغوره . وما يذكر لهم أنهم أقاموا في حدوده الشمالية كثيراً من الثغور للاندفاع منها إلى آسيا الصغرى . وكانت جيوشهم مائتة ذاهبة إلى شمالي الشام آتية منه ، مما عاد عليه بكثير من الرخاء وانتعاش التجارة . واشتهر المهدي والرشيد بنضالهما لبيزنطة وما كان من فتح هرقله وضرب البيزنطيين ضربات قاصمة . وأخذ المأمون منذ سنة ٢١٥ يقود حملات عنيفة لمدة ثلاث سنوات متوالية استولى في اثنتان على لؤلؤة أقوى وأمنع الحصون البيزنطية بالقرب من طرسوس ، مما اضطر تيوفيل إمبراطور بيزنطة إلى التماس الصلح . وفي سنة ٢٢٣ دق المتصم وقواده أعناق البيزنطيين دَقّاً وأوطوهم دَلّاً وصَغَاراً إذ هدموا أنقرة وحرقوا عُمُورَها وأمنع بلادهم في آسيا الصغرى . وظل قواده من أمثال محمد بن يوسف الثغري وابنه يوسف يكيلون لهم ضربات ساحقة . وبظل غزو البيزنطيين صيفاً في أيام الخليفة المتوكل ، ويفيرون على بعض الثغور في شمالي الشام . وينكل بهم على بن يحيى الأرمني والفارس المغوار عمر

ابن عبد الله الأقطع ، ويتم فتح صقلية ، ويدمر أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول البيزنطيين . وزار المتوكل الشام في آخر سنة ٢٤٣ ودخل دمشق وأعجبه ، وبقي له قصراً بالعوطة وعزم على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها . ويفطن قواده من الترك إلى مأربه ، وأنه يريد التخلص منهم ، فطالبوا بروايتهم حتى يضطروه إلى العودة إلى سائر ما حاصته في العراق . ونزل على إرادتهم ، وبارح دمشق سريعاً . وربما كان من أهم ما خلفه عصر الولاة العباسيين بالشام كثرة العناصر الفارسية التي دخلت بين ولاة وقضاة وعلماء وفقهاء مختلفين .

## (٢) الطولونيون - القرملطة

### ١- الطولونيون<sup>(١)</sup>

كان أحمد بن طولون تركي الأصل خدم العباسيين وولى مصر فأنشأ بها الدولة الطولونية محققاً لها نوعاً من الاستقلال الذاتي ، وكان قد ولى إمرة الثغور وجاهد في سبيل الله . ويقول مؤرخوه إنه نشأ يعنى بالفقه مع كثرة الدرس وطلب العلم ، وكان يقول : ينبغي للرئيس أن يحصل اقتصاده على نفسه وسماحته على من يقصده ويشتمل عليه ، فإنه يملكهم ملكاً لا يزول به عن قلوبهم ، وقد غم الرخاء مصر منذ وليها في سنة ٢٥٤ ويقال إنه كان يتصدق في كل يوم بمائة دينار غير ما كان يرسله إلى الشام والعراق والحجاز . ومنذ توليه مصر وضع نصب عينيه الاستيلاء على الشام ، ولم يكن ذلك غائباً عن فكر الموفق القائم على تدبير دولة أخيه للمعتد ، غير أنه كان مشغولاً بشورة الزنج والقضاء عليها ، وانتهر ابن طولون الفرصة بعد موت والي دمشق سنة ٢٦٤ وأناب عنه بها مولاه لؤلؤاً ولم يلبث في سنة ٢٦٨ أن أظهر الخلاف عليه وضرب نقوداً باسمه وكتب للموفق ليرسل إليه جيشاً يفتح به مصر . وخشى ابن طولون أن يهم الموفق بتبليته ، فأرسل إلى الخليفة المعتد وكان كاهجور عليه يرغبه في الرحيل إليه بمصر ، وتوجه إلى سوريا كي يكون في استقباله . وعزم المعتد على اللحاق به وتبى للموفق ، فحال بينه وبين الرحيل عن العراق . ومضى ابن طولون يتأصب الموفق فقطع اسمه من الخطبة يوم الجمعة بمصر والشام إذ كان يُذكر فيها ولما

(١) الإسلامية وتاريخ النحوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٠ .

(١) راجع في هذه الدولة كتب التاريخ السالفة في أول الفصل وسيرة أحمد بن طولون للبلوي وماترة الماروف

للمعهد ، ولم يردّ على ذلك الموفق إذ كان يميل معه إلى السلام ، ولذلك لم يرسل إلى ثولوز جيشاً لغزو مصر . وعادت الشام إلى ابن طولون سريعاً .

وكان عهد ابن طولون في الشام عهد رخاء وأمن ، ويقال إنه أول دخول له في دمشق وقع بها حريق ، فأمر بأن يعطى لكل من احترق له شيء من المال ما يعوّضه ، ثم أمر بمال عظيم ففرّق في فقراء دمشق والقوطة . وتوفى سنة ٢٧٠ فخلّفه ابنه خنارويه ، وثار عليه واليه على دمشق وولاة آخرون هناك . وأيدهم الموفق بجيش ، ففى خنارويه بالهزيمة ، وتابعت هزيمته في سنتي ٢٧١ و٢٧٢ . وأخذ نجمه في الصعود لسنة ٢٧٣ إذ كتب إلى الموفق في الصلح فأجاب ، وكتب له بولايته على مصر والشام والثغور لمدة ثلاثين سنة . وسرّ خنارويه سروراً عظيماً ، وأمر بإعادة الدعاء للموفق في خطبة الجمعة ، وكان يتردد على الشام بجيشه الضخم كثيراً ، مما كان يعود على أهلها بروج واسع في التجارة . وبدمشق قتله خادم له في قصره سنة ٢٨٢ ويقال إن هذا الخادم كان أولع بجارية له فتهددها خنارويه بالقتل فانفقت مع الخادم على قتله . وسرعان ما أخذت شمس الدولة الطولونية في الغروب ، وولى بعده ابنه « أبو العساكر جيش » وعكف على الشرب واللهو ففقر القواد - ونفرت الناس - منه . وخلعه أخوه هرون بعد ولايته بسبعة أشه ، وكان لا يزال صبيّاً ضعيفاً ، فأخذت الدولة في التضعف ، وعاث القرامطة فساداً في الشام ، ولم يستطع قواده وجنوده أن يردوهم عن دمشق وغيرها فاستغاث أهل الشام بمجيوش الخليفة المكتنفي وأغاثنهم . ووضح أنه لم يعد يوجد أي مسوغ للإبقاء على الأمير الطولوني المستضعف ، وخلّفه عمه شيبان وكان لا يقل عنه ضعفاً ، ومنه تسلم مصر محمد بن سليمان سنة ٢٩٢ .

## ٢ - القرامطة (١)

كان أول ظهور القرامطة في العراق سنة ٢٧٧ ، وهي حركة سياسية دينية خطيرة تحدّثنا عنها بالتفصيل في كتابنا العصر العباسي الثاني ، وأوضحنا كيف بدأت بإيحاء من عبد الله بن ميمون

ص ١٢٦ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان  
ص ٢٢٩ وكتابنا العصر العباسي الثاني ص ٣٣ وما بعدها .

(١) انظر في القرامطة كتب التاريخ وخاصة الطبري ، وكتب الملل والنحل وخاصة الفرق بين الفرق لليهودي .  
ودراسات في المنصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز الموري

القشاح منظم الدعوة الإسماعيلية الشيعية من مركزه في «سَلَمِيَّة» بالقرب من اللاذقية . وكيف أنه أرسل دعاته إلى العراق وخاصة الكوفة وسوادها وعلى رأسهم الحسين الأهوازي ، وقد التقى في لسواد بنبطي يلقب بقرمط ووجد فيه أمنيته من التحمس الشديد للدعوة . ولما دنا أجله عهد إليه بها فظلمها . وتبعه كثيرون مكونين فرقة القرامطة نسبة إليه . وسرعان ما تحولت الفرقة إلى فرقة مارقة تُحلُّ أتباعها من الفرائض الدينية وتفرض عليهم نظاما اشتراكيا في الأموال . وانضم إلى قَرْمُط قليل من الطبقة الكادحة لا في السواد والريف فقط بل أيضا في المدن ، ومن أهم أتباعه الحسين بن بهرام الجنابي الفارسي الذي نشر الدعوة في البحرين والأحساء . وبخلفه في سنة ٢٨٩ زكرويه القرمطي وكان أكثر نشاطا من قرمط ، فرأى أن يعنى بنشر الدعوة بين البدو في جنوبي العراق ولم يبنعه إلا القليل ، حينئذ أرسل أولاده يحيى والحسين ومحمدا إلى عشائر قبيلة كلب في بادية الشام وزعموا لها أنهم من سلالة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتبعهم كثيرون وخاصة بنو العَلَيْص . وكانوا قد جعلوا زعامتهم لأخيهم يحيى فابعه البدو وكانت له عضد ناقصة فكشفها لهم وقال إن هذه آيته . لمَّا بَيت له ثانية هي ناقته ، وزعم أنهم إذا تبعوها في لقاء عدو كُتِب لهم النصر المبين . وساق جموعه في الشام يمشون ويفسدون ، وحاصر بهم دمشق فقتل على أبوابها ، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا به خليفة له ، وأظهر لهم شامة في وجهه اللثم وقال إنها آيته ، ولذلك لُقِّب صاحب الشامة . وخافه أهل دمشق فصالحوه على خراج يؤدونه إليه ، وتغلب على حمص وخطب على منابرها بأنه المهدي المنتظر ، وهاجمت جموعه بطبك وحماة والمرة تقتل وتنهب . وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية كما مر بنا ، وكانت تعاني ضحفا شديدا ، فلم تستطع أن تنقذ الشام من القرامطة وما أحدثوه بها من الفوضى والدمار ، مما جعل أهل الشام يستغيثون منهم بالخليفة المكني ، ولهي استغاثتهم فأرسل إليهم محمد بن سليمان على رأس جيش كثيف ، فواقع القرامطة بالقرب من حماة في المحرم سنة ٢٩١ وأنزل بهم هزيمة ساحقة ، وفر كثيرون منهم إلى البوادي . أما الحسين بن زكرويه فاتجه إلى الفرات ، وأسر هناك وُصِّل ببيضان مع عشرات من القرامطة . وكان أخوه محمد لا يزال حيا بين بدو الشام ، فأخذ في جمعهم حوله ، حتى إذا كانت سنة ٢٩٣ أغار بهم على دمشق وحارب أهلها ودخلها وأعمل فيها القتل والنهب ، ثم صار إلى طَبْرِية فانتصر على أهلها ودخلها وقتك بكثير من رجالها ونسائها وعاد إلى البادية . وفي نفس السنة أرسل زكرويه داعية له يسمى أبا غانم إلى بادية الشام ، وتبعه كثيرون ونهب بهم بُصْرَى وأذرعَات ، وتحقَّبته جنود الخلافة ولم يلبث أحد أتباعه أن قتله . وبذلك تنتهي حركة



زكرويه وأولاده ودعائه في الشام ، وكانت قد أصبحت منذ انتصار محمد بن سلیمان على صاحب الشامة تابعة لبغداد ، ترسل إليها ولادة مختلفين .

### (هـ) الإخشيدون - الحمدانيون ( سيف الدولة )

#### ١ - الإخشيدون<sup>(١)</sup>

الإخشيد هو محمد بن طُفَّح ولي مصر فأسس بها الدولة الإخشيدية سنة ٣٢٣ وما نُقِلَ سنة ٣٢٨ للهجرة حتى تَحَلَّثَ محمد بن رائق صاحب دمشق نفسه بالاستيلاء على مصر ، وابتلى به الإخشيد في القُرْمَا ، ويتم بينها الصلح . وسرعان ما ينقضه ابن رائق ويتيأ الإخشيد لقتاله ، ويلتقيان ثانية في العريش وتحدث بينهما وقعة عظيمة . ويصطلحان على أن تكون للإخشيد الرملة وجنوبها في فلسطين ، أما شاليها من بلاد الشام جميعا فتكون لابن رائق . وحدث في سنة ٣٣٠ أن قتل الحمدانيون محمد بن رائق وانتزح الفرصة الإخشيد وجهاز الجيوش إلى الشام واستولى عليها ، ودخل دمشق وأصلح أمورها وأقام بها مدة ، ثم عاد منها إلى القسطنطين في السنة التالية . ووقعت بينه وبين سيف الدولة الحمداني أمير حلب وحشة امتدت من سنة ثلاث وثلاثين إلى أول سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، واصطلحا على أن تكون لسيف الدولة حلب وحمص وأنطاكية وتظل بقية بلاد الشام للإخشيد . وسرعان ماتوف بدمشق سنة ٣٣٤ مستخلفا بعده على مصر والشام ابنه أنوجور وعاهدا إلى مولاه كافور الإخشيدى بتدبير أمور مملكته . وفي أوائل إمارة أنوجور لسنة ٣٣٥ استولى سيف الدولة الحمداني على دمشق ، فحشد له أنوجور عسكرا ضخما ولقيه في مدينة الرملة ، ونشبت بينهما وقعة طاحنة انكسر فيها جند سيف الدولة وسار المصريون وراءهم إلى حلب . واستقر الأمر على الصلح وأن يظل لسيف الدولة ما يده من حلب وحمص وأنطاكية ، أما دمشق وبقية الشام فظل لأنوجور . وينزل المنتهى مصر في أيامه سنة ٣٤٦ ويتوفى أنوجور سنة ٣٤٩ قبل مبارحة المنتهى لما يخلفه أخوه علي ويظل كافور قائما بتدبير الدولة وتصريف شئونها . وفي سنة ٣٥٢ قدم قرامطة البحرين إلى الشام وعاثوا فيها فسادا ولم يستطع جند مصر دفعهم عنها لاضطراب أعمال الديار المصرية بسبب عظم الغلاء وكثرة الفتن ، وفسد في أثناء ذلك ما بين علي

خلكان وخطط القريزي ٦١٧/١ ومصر في مصر  
الإخشيدون للدكتورة سيدة كاشف.

(١) انظر في الإخشيدون كتب التاريخ المذكورة في أول  
الفصل وخاصة النجم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة  
لأبن خنري برميه وانظر ترجمة الإخشيد وكافور في ابن

ابن الإخشيد وكافور ولم يلبث على أن توفي سنة ٣٥٥ وتولى أمر الدولة في مصر والشام بعده كافور الحبشي بانفاق من أعيان مصر وجندها . وكان الإخشيد اشتراه من بعض رؤساء مصر وأعتقه ورأه حتى جعله من كبار قواده لما رأى فيه من الحزم وحسن التدبير ، وكان شجاعاً مقداماً . وظلت ولايته على مصر والشام إلى وفاته في جمادى الأولى سنة ٣٥٧ وتولى بعده على بن أحمد بن الإخشيد ، وكان صبيها ، واضطربت أحوال الشام في عهده اضطراباً شديداً بسبب غارات القرامطة المتكررة وما كان يصحبها من الفوضى والنهب والسلب . وسرعان ما سقطت مصر في يد الفاطميين لسنة ٣٥٨ وبذلك انقرضت دولة الإخشيديين .

## ٢ - الحمدانيون<sup>(١)</sup> (سيف الدولة)

منذ أواخر القرن الثالث الهجري أخذ يتألق اسم أسرة تغلبية عربية هي الأسرة الحمدانية ، وقد استطاع مؤسسها حمدان في سنة ٢٧٧ أن يستولى على قلعة مardin في الموصل ، وأخذت أسماء أبنائه وأحفاده تلمع في أحداث الخلافة المضطربة ، ولعب من بينه مبكراً اسم أبي الهيجاء لاستيلائه على مدينة الموصل سنة ٢٩٣ وظلت في يده ويد ابنه ناصر الدولة وحفيده أبي تغلب المتوفى سنة ٣٦٩ . وقد استطاع ابنه على الملقب بسيف الدولة أن يستولى من الدولة الإخشيدية على حلب وحمص واللاذقية وأنطاكية وأسس فيها جميعاً إمارة مستقلة منذ سنة ٣٣٣ للهجرة متخذاً حلب عاصمة له . وحاول الاستيلاء على دمشق من الإخشيد - كما مرنا - غير أن المصريين ردوه على أعقابهم فاكنتي إمارته . وندب نفسه لمهمة عظيمة طالما هيا نفسه لها منذ شبابه ، وهي النهوض بعبء الحرب ضد الروم البيزنطيين . وكان أول لقاء له معهم في سنة ٣٣٦ إذ أغاروا على أطراف الشام ونهبوا وسبوا فلاحهم وأذاقهم نكالا شديداً ، ورد منهم كل ماسلوه من أهل الشام . ويكتب له منذ السنة التالية مجد حربي عظيم ضد الروم ، ويسجله له لوحات شعرية ناطقة بالمتنبي الذي نزل بلاطه حيثئذ ، ولزمه حتى سنة ٣٤٦ يسجل ويصور ملاحمه الحربية الساحقة للروم سحقاً ذريعاً .

سامي الدخان) وراجع البنية للتألي ١٥/١ ومايلهما ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع في الحمدانيين وسيف الدولة

(١) انظر في الأسرة الحمدانية وسيف الدولة كتب التاريخ السالفة والجزء الأول من زبدة الحب في تاريخ حلب لابن المديم (طبع المعهد الفرنسي بدمشق - تحقيق الدكتور محمد

ومضى البطل الحمداني يدير مع الروم معارك باسلة كان ينصبُ عليهم فيها سنويا كل عصار محرق مدمر ، وشاعره المنتهى من ورائه يتغنى بانتصاراته وبخوارقه البطولية حين تلم به كارثة ، إذ يتخلص منها في شجاعة تادرة . ومن أعظم بطولاته أنه كان يبني الحصون في أثناء نزاله للروم على نحو ما صنع بحصن مَرَّعَش في سنة ٣٤١ وهو يكيل لهم ضربات قاصمة . وقد أنزل بهم صواعق الموت التي لا تبتقي ولا تذر في سنة ٣٤٢ وأسر قسطنطين بن الدمستق وساقه بين يديه في دخوله حلب مظفراً منصوفاً . وفي سنة ٣٤٣ جمع الروم له حشوداً هائلة من الترك والروس والبلغار والحزر بقيادة الدمستق ، وسرعان ما أخذ يدق أعناقهم دقا ، وهرب الدمستق على وجهه لابلوى ، وأسر صهره بينا كان البطارقة يقتلون ويؤسرون ، وأخذ سيف الدولة عسكرهم بكل ما فيه . وسيف الدولة في أثناء هذه المعركة ووطيسها المستعربى حصن الحدث شمالى مرعش والمسلمون يكبرون ويهتلون . وفي سنة ٣٤٥ أنزل بهم ضربات مدمرة . وكان ماينى بمد يد المساعدة لأخيه ناصر الدولة في نزاله للروم شمالى الموصل وكثيراً ما نازلهم هناك وفي شمالى الجزيرة . وما تقبل سنة ٣٤٦ حتى يكفهم الجوبين المنتهى وبين البطل العربى . ويرحل عنه وكأنما رحل معه مجده الحرفى فقد واقع الروم في السنوات ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ولم يتركهم ماثوذاً من التثكيل الشديد .

ولم يلبث البطل العظيم أن أصابه في سنة ٣٥٢ فالج في يده ورجله ورغم هذا الفالج النصفى نهض البطل من فراشه وصعد بقوة هجوما للروم على حصن من حصون حلب . وفي سنة ٣٥٦ لبى البطل نداء ربه ، وكان قد أوصى بأن يوضع خده في لحده على كَبَّةٍ بقدر الكف جمعها مما علق بشيابه ودروعه وسلاحه من غبار غزواته للروم . ونُقِذت وصيته . وكان يرعى العلوم والآداب أعظم رعاية . ولمع في بلاطه أكبر تلامذة أرسطو حتى زمنه : الفارابى المعلم الثانى . ولمع كثير من الشعراء والكتاب بتقديمهم المنتهى ، وعقد لهم الثعالبى في كتابه « بتيحة الدهر » فصولاً طويلة في الجزء الأول منه ، وفيه وفى أسرته يقول : « كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء أَوْجُهُم للصباحة ، وألْسَنُهم للفصاحة ، وأيديهم للسباحة ، وعقولهم للرَّجاحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواسط قلاذتهم ، وحضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجرد ، وقبلة الآمال ، ومحط الرِّحال ، وموسم الأدباء ، وحلقة الشعراء » . وخلفه ابنه سعد الدولة ، وكان ابن عمه أبوفراس الشاعر المشهور عامل آية على حصن قد ظلم وأكثر من الظلم وكثرت الشكوى منه ، فقاتله وخرَّ أبوفراس في ميدان الحرب صريعاً . وفى نفس السنة علم باستعداد الروم لحربه ، فأسل إليهم قَرْغُوبه الحاجب وأسر وأظلت منهم وانهمز أصحابه وخرَّب نفقور كثيراً من بلدان الشام وأعمل النهب

والسلب . وعصى قرغويه سعد الدولة واستولى على حلب في أول سنة ٣٥٨ ولم يلبث نقفور أن استولى على انطاكية ، وظلت في أيدي الروم إلى أن فتحها السلاجقة سنة ٤٧٧ وأمضى معه قرغويه صلحا ذليلا ، واصططح مع سعد الدولة الذي ظل أميراً لحلب حتى توفي سنة ٣٨١ فخلفه ابنه سعيد الدولة ، وقد عقد مثل أبيه حلفا بينه وبين الروم ضد الفاطميين الخطر المشترك للطرفين ، وتوفي سنة ٣٩٢ . وخلفه ولدان له ، ولعب بهما ثورث مولى جدما واستولى على الأمور إلى أن توفي وقام مكانه ابنه منصور . وحاول ابن لسعد الدولة يسمى أبا الهيجاء أن يسترد إمارة آباءه ولم يلبث أن فر إلى بلاد الروم في مطالع القرن الخامس الهجري ، وبذلك انتهت إمارة الحمدانيين بحلب وشمال الشام ، ولم تكن إمارة لهم حقا إلا في عهد سيف الدولة الهجيد

## ٢

**الفاطميون - بنو مرقاس - السلاجقة - الصليبيون - آل زنكي (نور الدين) .**  
(١) الفاطميون<sup>(١)</sup>

دولة شيعية إسماعيلية تأسست في تونس وتحوّلت إلى مصر بعد فتح قائدها جوهر لها سنة ٣٥٨ ، ولم يلبث أن أرسل إلى الشام جعفر بن فلاح على رأس جيش للاستيلاء عليها . ولم يلق مقاومة تذكر ، ودخل دمشق وخطب بها للمعز الخليفة الفاطمي في اهرم سنة ٣٥٩ ، وفي السنة التالية أعلن المؤمنون في الشام - بأمره - « حتى على خير العمل » شارة الأذان الشيعي . وأخذ القرامطة يغيرون على دمشق ومدن الشام وكان يردهم جعفر بن فلاح ، ولم يلبث كبيرهم في البحرين الحسين بن أحمد - كما مر بنا في الحديث عن الجزيرة العربية بعصر الدول والإمارات - أن قطع علاقته بالفاطميين في مصر وأعلن خضوعه للخلافة العباسية ، وسأل الخليفة المطيع بالله العباسي على لسان عز الدولة البرهسي أن يولي مصر والشام ويعطيه مالا وسلاحا لحرب المعز لدين الله ، وأمهده عز الدولة بالسلاح والمال في سنة ٣٦٠ وقيل بل في سنة ٣٦٢ فسار إلى الشام وملكها ولعن المعز الفاطمي وأباه على منبر دمشق ، وأقام الدعوة للعباسيين ، وسار إلى القاهرة بصاكره وحصلت - بالقرب منها - بينه وبين المعز مناوشات ، وتقهر المعز ، وأغرى قواده بالمال فخرجوا

الوزارة لابن الصيرفي وذهل تاريخ دمشق لابن القلانسي (طبع لبنان) في السنوات ٣٦٣-٥٥٥ وانحاطت الحنفا بأخبار الحنفا للمعري وكتابه المخطوط ٢١/٢ والفاطميون في مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن.

(١) انظر في الفاطميين بالشام كتب التاريخ العامة: ابن الأثير وابن خلدون وابن تيمر بردي وابن خلكان في تراجم الخلفاء وجوهر الصقل والمغرب لابن سعد (قسم القاهرة) وتاريخ مصر لابن مسر والإشارة إلى من نال

عليه وانضموا إلى المعز ، فعاد إلى الرملة بالشام ومنها إلى البحرين . وكان ذلك أول اضطراب شديد حدث في الشام لعهد الفاطميين وانتشرت في أثنائه وبعده الفوضى في دمشق واشتعلت النار في كثير من أحيائها .

وظل الفاطميون مسيطرين على الشام نحو قرن ، قلما وجدت فيه أمنا وسلاما بسبب كثرة الولاة الذين كانوا يولونهم عليها ، فكان هم الوالي أن يثري بسرعة على حساب أهلها وما يفرض عليهم من الضرائب ، وقد وليها لهم نحو خمسين واليًا ، وكثيرًا ما كان يتولاها اثنان أو أكثر في العام الواحد . وبسبب ظلم الولاة وكثرة الضرائب كانت تنشأ أحيانًا ثورات محدودة لبعض العيارين بها كثورة قسام الحارثي سنة ٣٧٧ لعهد العزيز الفاطمي . وخلف العزيز ابنه الحاكم بهوسه وشذوذه النفسى ودعواه الألوهية مما صورناه في قسم مصر ، وكان من أهم من أغراه بدعوى الألوهية رجل يعرف بالدرزى أمره الحاكم أن يخرج إلى الشام وينشر تلك الدعوة في الجبال ، فنزل هناك وتبعه كثيرون من جبل حوران في سوريا المعروف باسم جبل الدروز ، وانتشرت الدعوة بين سكان الإقليم الجبلي بلبان ، ولا تزال في المنطقتين إلى اليوم ، وسقطت منها أسراب إلى جبال فلسطين وإلى الجبال في أعلى الشام على نهر العاصي وقرب أنطاكية . ومن المؤكد أن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية هي التي دفعت الحاكم ودعائه إلى ربهيته إذ كانت تردّد - كما مر بنا في قسم مصر - أن الخلفاء تجسّد للذات العلية . وكان طبعًا في عهد هذا الخليفة الشاذ المخبول أن تضطرب شئون الحكم في الشام . وكان أبوه وجده يستعينون ببدا الجزيرة العربية الشماليين من طيى ورؤسائهم بنى الجراح ، ونزى حيثنّد حسان بن المقرّب بن دغفل لا يكتفى بإقطاع الفاطميين لأبيه مدينة الرملة ، بل يستولى على أكثر الشام ، ويحاول أن يخلع الحاكم ، ويولى مكانه أبا الفتح أمير مكة الحسنى ، ويقدم عليه أبا الفتح ، غير أن الحاكم يفرى ابن المقرّب بالأموال فينفذ يده من أبى الفتح ويعود إلى إمارته .

### (ب) بنو (١) مرداس

كانت حلب قد دخلت في حكم الفاطميين منذ سنة ٤٠٦ ولاغضى طويلا في سنة ٤١٥ حتى يستقل بها صالح بن مرداس الكلاني ويضع في سنة ٤٢٠ يده في يد حسان بن المقرّب الطائي ويحسمان الجموع ويستوليان على الأقاليم في الشام ويتنيان إلى غزة ، ويلتقي بهما جيش فاطمي ،

(١) انظر في بنى مرداس كتب التاريخ العام وزبدة الحلب

من تاريخ حلب : الجزء ين : الأول والثاني .

فينهزم حسان ويقتل في المعركة صالح وابنه الأصغر ، ويخلفه ابنه شبل الدولة نصر . وطمع صاحب أنطاكية في حلب ، وجمع لها الجموع وأحاط بها وقاتل أهلها ، ولم يلبث نصر أن خرج إليه وتكثرت بمعظم جنوده وفر على وجهه وغنم منه نصر عسكره وأموالا عظيمة . وتوفي نصر سنة ٤٢٩ وخلفه أخوه ثمال وخضع للفاطميين وتوفي سنة ٤٥٤ . ونشب خلاف بعده على حكم البلدة بين أخيه عطية وبين عمود بن نصر واصطالحا . وتخلص حلب لمحمود منذ سنة ٤٥٧ ، وبواقع الروم وهزمهم ويراسل ألب أرسلان السجوق ويستقر بينها الأمر على إعادة الدعوة العباسية والخضوع للسلاجقة . وفي أيامه قاد ألب أرسلان حملة مظفرة ضد دولة الروم الشرقية وأسر إمبراطورها رومانوس ديوجين ، سنة ٤٦٢ وفدى الإمبراطور نفسه بمليون دينار ، على نحو ما مر بنا في حديثنا عن السياسة بالعراق في الجزء السابق من عصر الدول والإمارات . وظل محمود أميراً لحلب حتى سنة ٤٦٧ وأعاد بها ذكرى الحركة الأدبية التي أحدثها بها سيف الدولة ، فالتفت حوله كثير من الأدباء والشعراء ، وخلفه ابنه نصر وكان محبوباً من الحلبيين غير أن الموت اختطفه سريعاً بعد نحو عام من ولايته ، وجاء في إثره أخوه سابق حتى نهاية سنة ٤٧٢ إذ سلم البلدة لمسلم بن قريش العقيلي صاحب الجزيرة فبقيت معه نحو خمسة أعوام وتسلمها منه السلاجقة .

### (ج) السلاجقة<sup>(١)</sup>

مر بنا في حديثنا عن العراق بالجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي حديث مفصل عن السلاجقة واستيلائهم على دقة الحكم في خراسان وإيران والعراق ، وقد أنزل ألب أرسلان بإمبراطور بيزنطة هزيمة ساحقة كانت إرهاباً قوياً لزوال الحكم البيزنطي من آسيا الصغرى كما حدث فعلاً . وكان طبيعياً أن يفكر ألب أرسلان وابنه ملكشاه في الاستيلاء على الشام ، وسرعان ما ظهر في سنة ٤٦٣ أئمز بن أوق الخوارزمي في فلسطين واستولى على الرملة وبيت المقدس ، وفي سنة ٤٦٨ استولى على دمشق ، وبذلك أصبح أكثر الشام تابعا للسلاجقة . حتى إذا كانت سنة ٤٧٢ تسلم تش بن ألب أرسلان من أئمز دمشق وأصبح نائباً فيها لأخيه ملكشاه ، وافتتح في سنة ٤٧٤ أنططوس على ساحل البحر المتوسط ، وهي أول أعمال حمص ، ولم يلبث أن استولى على

ولين ولها بعده حتى استيلاء نور الدين عليا ابن خلكان

٢٩٥/١

(١) راجع في سلاجقة الشام كتب التاريخ العام وذيل

تاريخ دمشق لابن القلائسي وانظر في أئمز تاريخ دمشق

لابن حاكم ٣٣١/٢ وفي تش ابن حاكم ٣٤٠/٣ ولها

حمص نفسها . وظل ساحل الشام جنوبي صور تابعا لمصر . واستقل جلال الملك بن عار قاضي طرابلس بها سنة ٤٧٠ وكان قد أقره عليها ملكشاه السلجوقي وظلت معه حتى أخذها الصليبيون سنة ٥٠٢ . وفي هذه الأثناء استولى على بن منقذ من الروم على حصن شير شمال الشام سنة ٤٧٤ وظلت في يده ويد أبنائه إلى أن هدمتها زلزلة شديدة سنة ٥٥٢ . وكان سليمان بن قُلمش استولى على أنطاكية سنة ٤٧٧ فحاربه تُتُش وخر صريعا في الحرب سنة ٤٧٩ . وبذلك صارت إلى تُتُش واستولى على حلب سنة ٤٨٧ ، وقُتل بالرى في حرب مع ابن أخيه بركياروق سنة ٤٨٨ . وخلفه على حلب ابنه رضوان ، ومن نوابه أخذ الصليبيون أنطاكية سنة ٤٩٢ وخلفه على دمشق ابنه دُقاق .

وتوفي دقاق سنة ٤٩٧ فخلفه عليها أتابكه « طُنْتِكِين » وأسس بها دولة البوريين وله في جهاد الصليبيين بد يضاء وكان شجاعا عادلا في الرعية توفي سنة ٥٢٢ فخلفه ابنه بوري حتى وفاته سنة ٥٢٦ وكان قد قتل جماعة كثيرة من الإسماعيلية فسُلطوا عليه رجلين ضرباه بالسكاكين وظلت جراحه تنتفض وتندمل إلى وفاته . وخلفه ابنه إسماعيل ، وكان ظالما سبي السيرة محبا لسفك الدماء توفي سنة ٥٢٩ وكان أسوأ منه أخوه محمود الذي ولى بعده فقتله أمراؤه سنة ٥٣٣ وخلفه عاما واحدا أخوه محمد ، وتوفي فخلفه ابنه مجير الدين آق . وكان باغيا ظالما ، وكان يضع يده في يد الصليبيين ضد نور الدين صاحب حلب غير مراعى إلا ولا عهدا . واستجار منه أهل دمشق مرارا بنور الدين حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ اضطر إلى تسليمها إليه وخرج منها ذليلا صاعرا . وكان تُتُش ولّى تركانيا يسمى أرتق ييت المقدس فاستقل به مؤسسا دولة الملوك الأرتقية ، وتوفي سنة ٤٨٤ فخلفه عليها ولدها سُكَّان وإيلغازى ، ومنها أخذها الأفضل بن بدر الجبالى سنة ٤٩١ وتوجها إلى بلاد الجزيرة وملكا - كما يقول ابن خلكان - ديار بكر .

#### (د) الصليبيون<sup>(١)</sup>

كانت الدولة الفاطمية قد أخذت في التدهور منذ عهد الحاكم بسبب ما غرق الخلفاء الفاطميون فيه من ترف وما أصاب الحياة الاقتصادية من سوء حتى لقد عظمت المجاعة في عهد المستنصر (٤٢٧-٤٨٧ هـ) . وحاول بدر الجبالى أن يتلافى الأمور، فعمل على

واللغات الأجنبية وراجع تاريخ الشعوب الإسلامية لمؤلفي

(١) انظر في الصليبيين كتب التاريخ العام لابن الأثير وابن نغرى بردى وابن خلدون ومكتبهم حلب في الرعية

إصلاحها ، ولكن الشام كانت قد أفلتت منه لإساحتها الجنوبية . وكان المظنون أن يرث السلاجقة تلك الدولة المنهارة ، غير أنهم اتبعوا في حكمهم نظاما سرعان ما مضى دولتهم إذ اتخذوا فيها نظام الأتابكة ، وهو أن يكون مع كل حاكم لبلد أتابك أو بعبارة أخرى قائد يدير أمرها ، ولم يلبث نفوذ هؤلاء الأتابكة أن ازداد وأصبحوا هم الحكام الحقيقيين . وبذلك تفككت سريعا أوصال دولتهم الضخمة وتحولت إلى دويلات على نحو ما مر بنا آنفا من دولة البوريين في دمشق والدولة الأرمنية في بيت المقدس ، حتى إذا قدم الصليبيون في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري لم يجدوا أمامهم قوة تدفعهم دفعا إلى البحر المتوسط وماوراءه فلا السلجوقيون محتفظون بقوتهم القديمة التي أزالوا بها يزنطة ودفعوها من آسيا إلى أوروبا ولا الفاطميون محتفظون بشيء من القوة يستطيعون أن يدفعوا به عن بلدانهم الساحلية في الشام هذا الرباء الصليبي الجارف .

ويظهر الجيش الصليبي أمام أسوار أنطاكية سنة ٤٩١ للهجرة ويظل محاصرا لها حتى يستولى عليها سنة ٤٩٢ مؤسسا بها إمارة ، بينما يتسلل بلدوين إلى الرها في سنة ٤٩١ ويستولى عليها دون مقاومة تذكر ويؤسس بها إمارة هي الأخرى . واجتاز الصليبيون جبال التَّصْيَرِيَّة محاذين الساحل واستولوا سنة ٤٩٢ على بيت المقدس متخزين منه إمارة ثالثة جعلوا جودفري رئيسا لها ، ولم يلبث أن رق عرشها بعده بلدوين الأول وعهدوا إلى الكونت ريمونددى تولوز حصار طرابلس والاستيلاء عليها وظلت تقاومه سنين عددا حتى سقطت سنة ٥٠٢ واتخذوا منها إمارة رابعة لهم . وأخذ بلدوين في نفس السنة ينشط في غزو مدن الساحل : عكا وقيسارية وصيدا وبيروت وقاومه مقاومة صلبة . وخلفه أخوه بلدوين الثاني الذي استولى على صور سنة ٥١٨ ولم يفلح في الاستيلاء على دمشق وظلت أيدي الصليبيين أقصر من أن تصل إلى بلدان الشام الداخلية مثل بعلبك ودمشق وحمص وحماة وحلب .

(هـ) آل زنكي (نور الدين)

لم يلبث أن تنبه أتابك عظيم من أتابكة السلجوقيين هو زنكي عماد الدين الزنكي أمير حلب

(١) انظر في آل زنكي ونور الدين التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير وكذلك كتابه الكامل والجزء الخامس لابن خلدون والخامس والسادس من التيجان الزاهرة والعاشر

من للتظم والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا والكواكب الدرية في السيرة النورية لابن قاضي شعبة (طبع بيروت) وابن خلدون ٣٢٧/٢ ، ١٨١/٥ .



إلى أن الداء إنما يكمن في تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لحملة الصليب شيئا ودولا ، فصمم أن يجمع قوتها وكلماتها تحت لوائه ، وكان قد ركز لواءه على الموصل أولا ، فضم إليه حلب ومدن شمال الشام مثل حماة وحمص وبعليك . ومضى يتنازل الصليبيون واستولى منهم على مَعرة النعمان وكفر طاب . ولم يلبث أن ضربهم ضربة قاصمة باستيلائه على مدينة الرها سنة ٥٣٩ للهجرة . وبذلك عا عار هذه الإمارة التي أقامها الصليبيون في بلب الدولة السلجوقية . ولم تكد تمضي سستان على ماحقق من هذا المجد البطولي حتى امتدت إلى جثمائه الطاهر أيد آئمة في الظلام سفكت دمه الزكي .

وكان قد أوصى عماد الدين زنكي لابنه غازي بالموصل ولابنه نور الدين محمود بحلب ، واقتنى البطل الشاب نور الدين جهاد أبيه للصليبيين ، ونازلهم ثوا سنة ٥٤٢ هـ وأخذ منهم حصن أرتاح من أعمال حلب ، وأبطل في إمارته أذان الدولة الفاطمية بمجى على خير العمل . وفي سنة ٥٤٤ هـ هزم حملة الصليب هزيمة ساحقة إذ قتل منهم ألفا وخمسمائة وفتح حصن قايمة ، واستولى على دمشق سنة ٥٤٩ هـ كما مر بنا . وفي سنة ٥٥٢ هـ ملك حصن شيرز بعد أن نقضه زلزال شديد . وفي سنة ٥٦٠ هـ فتح بانياس عنوة . وكان بعيد النظر بعدا جعله يرى أن المفتاح الحقيقي للنصر على حملة الصليب هو مصر بإمكاناتها في المال والرجال ولكن ماذا يصنع وبها دولة منهاره ، وأحس أن حملة الصليب يشعرون أنها لقمة سائغة وخاف عليها منهم خوفا شديدا . ولم تلبث أن واثته فرصة عظيمة فإن وزيرها ضرغاماً وشارعاً وشارعاً ، ولجأ إليه شاور مستغيثاً ، فأعجبه بأمرين أيوبيين : شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، ومحدثها بما في نفسه من تخليص مصر من دولتها المريضة . وتتطور الظروف وتصبح مصر خالصة لصلاح الدين ويؤسس بها الدولة الأيوبية ومؤسسها الحقيقي ومنشئها إنما هو نور الدين . وكان ما بين يتنازل حملة الصليب ، وفتح حصون «مرعش وإعزاز وحارم» وغير ذلك مما تزيد عدته على خمسين حصنا . وكان ملكا عادلا زاهدا ورعاً ، بنى كثيرا من المدارس في بلدان الشام الكبار وكثيرا من الجوامع وبهيارستان دمشق وبها توفي سنة ٥٦٩ هـ وخلفه ابنه وكان صبيا وبقي على حلب حتى توفي سنة ٥٧٧ هـ ودخلت في حوزة صلاح الدين وحكمه .

الأيوبيون (صلاح الدين) - المماليك - العثمانيون

(١) الأيوبيون<sup>(١)</sup> (صلاح الدين)

استقرت أمور الحكم وشئون الدولة في مصر بيد صلاح الدين سنة ٥٦٧ للهجرة، فساد بهمر إلى الخلافة العباسية، وسار في نفس السنة لحرب حملة الصليب فحاصر الشوك ورفع الحصار عنها، وعاد إليها في السنة التالية ثم تركها إلى مصر. وتوفى نور الدين كما ذكرنا وأخذ يفكر جادا في جمع كلمة البلدان المجاورة للصليبيين حتى يقضى عليهم قضاء مبرما. وخرج من مصر في سنة ٥٧٠ فاستولى على حمص وحماة والمرة وكفرطاب، ويولى على حماة أخاه تقي الدين وعلى بطيك ابن أخيه كركشاه ويستولى على منبج وإزاز ويواقع الصليبيين في السنوات : ٥٧٣ و ٥٧٤ و ٥٧٥ وينصره الله عليهم نصرا عظيما. ويستولى على الموصل، وتبلغه وفاة إسماعيل بن نور الدين. ويخرج إلى الشام سنة ٥٧٨ في جيش جرار لجهاد حملة الصليب، وهي آخر مرة يفارق فيها مصر لحربهم ويظل ينازلمهم عشر سنوات طويلا، وتبعه حلب ويولى عليها ابنه الملك الظاهر. وفي سنة ٥٨٢ يقسم البلاد بين أبنائه وأهله فيعطى مصر ابنه العزيز عثمان وكان قد أعطى الظاهر حلب، ويعطى للأفضل ابنه دمشق ويعطى حماة والمرة ومنبج لابن أخيه تقي الدين عمر، وسيبقى هذا التوزيع. وهو من أكبر أغلاط صلاح الدين لأن بساطا قد يتسع لنوم عشرة من الرجال ولكن مملكة ضخمة لاتسع لسلطان حاكمين، ولذلك لم تكد تمضي سنة على وفاته حتى دب الخلاف بين أبنائه ثم بين أمراء أسرته. ويفقر له ذلك بلاؤه العظيم في حرب حملة الصليب المعتدين. ويقود صلاح الدين في سنة ٥٨٣ جحافل جرارة ويتجه بها نحو طبرية، وتتجمع له حشود الصليبيين بقيادة جاي لوزيمان ملك بيت المقدس وتتلقى سرية له في حيفا يجهاة من الداوية والإسبانية الذين نلروا أنفسهم لحرب المسلمين فلا تبقى منهم باقية، ويتلقى الجمعان في سهل حطين إلى الغرب من بحيرة طبرية، وتلقى أعتاق حملة الصليب دقا شديدا ويفر على وجهه ريموند

(١) انظر في الأيوبيين وصلاح الدين كتب التاريخ العام: ابن الأثير وابن خلدون وخطط القرطبي ومرآة الزمان لسيوط ابن الجوزي وفتح الكروب لابن واصل والروضة ونيل الروضتين لأبي شامة والفتح القس في الفتح المقدسي والبرق السامي للهاد الأصماني وسيرة

صلاح الدين لابن شداد وابن خلكان في تراجم صلاح الدين وسلاطين الدولة الأيوبية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ما كتب عن صلاح الدين في العربية حديثا وفي اللغات الأجنبية.

صاحب طرابلس ويستولى المسلمون على الصليب الأعظم صليب الصليبيات ، ويؤمر ملك بيت المقدس وغيره من زعمائهم أمثال مقدم الداوية وريجنالد صاحب الكرك وكان قد أعد أسطولا وحاول غزو مكة والمدينة فقتله صلاح الدين بنفسه وعفا عن الباقيين . وبلغ من كثرة القتل والأسرى أن قال أبو شامة : « من شاهد القتل قال : ما هناك أسير ، ومن شاهد الأسرى قال : ما هناك قتيل » وما يدل على كثرة أسراهم أن الأسير منهم كان يباع بثلاثة دنانير .

وحاصر صلاح الدين بيت المقدس بعد نحو ثلاثة أشهر ، واستسلم له من فيه من حملة الصليب وأزيلت كل آثارهم من القدس ، وضحت البلدان والقلاع في فلسطين وجنوب لبنان أبوابها للبطل العظيم ، فاستولى على نابلس وحيفا وعكا وبيروت وصيداء والرملة وبيت جبريل ( بئر سبع ) وعسقلان وغزة وصغد والكرك والشوبك واللاذقية . وأحيا سقوط القدس في يد صلاح الدين فكرة الحرب الصليبية من جديد ، فحمل الصليب فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وحاصر الأخمين عكا وسقطت في أيديهما وعاد فيليب إلى فرنسا وظل ريتشارد يقود الجيوش الصليبية حتى سنة ٥٨٨ وعقد صلحا مع صلاح الدين لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر على أن تظل لحملة الصليب المدن الساحلية من صور إلى يافا . وبعد نحو ستة أشهر توفي صلاح الدين بدمشق وبكاه المسلمون بدموع غزار في كل مكان . وكان صلاح الدين عادلا ورعا عالما تقيا ، حط عن ظهور أهل الشام ما كان يبهظهم من الضرائب وملأها بالمدارس والمانقاهات والبيهارستانات وكانت سماحته ونبله في معاملة حملة الصليب مضرب الأمثال ، وكان إلى ذلك بطلا مغوارا وغيا مدارا .

وذكرنا آنفا أنه قسم البلاد بين أبنائه وأهل بيته ، فكانت دمشق للأفضل ومصر للعزيز وحلب للظاهر ، والديار الفراتية لأخيه العادل وبعليك لبرام شاه وحمص لشركوه الثاني . وكان ذلك نذير شؤم فلان العادل أخذ بجرم أبناء صلاح الدين بعضهم على بعض واستطاع التخلص منهم ، وخلعت له البلاد من مصر إلى الفرات منذ سنة ٥٩٦ ماعدا حلب فلما ظلت مع الظاهر وأبنائه حتى الغزو المغولي . وصنع صنع أخيه فحمل مصر للسلطان الكامل ودمشق للسلطان للعظم والجزيرة الفراتية لثلاثة من أولاده على التعاقب هم الأوحده والفاخر والأشرف موسى . وبغزو حملة الصليب مصر في سني ٦٠٩ و٦١٥ وينكل بهم السلطان الكامل على نحو ماصورنا ذلك في قسم مصر . ونغضى إلى سنة ٦٢٦ وإذا فردريك الثاني ملك صقلية يأتي على رأس حملة إلى فلسطين

وتصادف أن كان الكامل مشغولا بصراع مع داود ابن أخيه المعظم عيسى صاحب دمشق فارتضى أن يتنازل لفرديك عن القدس في مقابل عونه له ضد ابن أخيه وكان قد استعان بأخيه الملك الأشرف موسى ضده أيضا وحاصراه وتسلم منه دمشق وأعطاهما الكامل لأخيه وعرض داود الشوبك بدلا منها .

وبمجرد أن تسلم فرديك القدس قامت قبالة الناس ظم بقم بها سوى ليلتين وعاد إلى باغا مذموما مدحورا . وتوفى الأشرف موسى صاحب دمشق سنة ٦٣٥ ولم يلبث أخوه الكامل أن توفى على أثره في نفس السنة بدمشق ، وكان ابنه الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيوب نائباً له على الشرق وإقليم ديار بكر ، وكان ابنه العادل الصغير نائباً له على مصر فرأى أمراؤه أن يضيفوا إليه ملك الشام ، ولم يرض ذلك الملك الصالح فضحى أخاه في سنة ٦٣٧ عن ملك مصر وانتزعه إسماعيل صاحب بعلبك القرصة واستولى في نفس السنة على دمشق ونشب صراع بينه وبين الملك الصالح واستعان ضده بجملة الصليب وعقد بينه وبينهم تحالفاً آثار سخط العالم الإسلامى ، وهزم الملك الصالح الحلبين في غزة سنة ٦٤٣ ودخلت دمشق في حوزته .

وبذلك أعاد الملك الصالح توحيد مملكة صلاح الدين من النيل إلى الفرات ، ولم ينم بذلك طويلا إذ نزل به مرض شديد سنة ٦٤٧ وكان بدمشق وسمع بتزول لويس التاسع بدمياط ، فأسرع لمنازلته وهو مريض محمول على عتفة لشدة مرضه ، واتجه توجاً للقاء العدو بالمنصورة شامى الدلتا في الطريق إلى دمياط ، وهناك لجى نداء ربه مجاهدا مدافعا عن الإسلام والمسلمين . وكتمت زوجته شجرة الدر موته حتى قدم ابنه المعظم توران شاه من الجزيرة وأدار المعركة ضد لويس - كما مرتبنا في قسم مصر - وسحق جيشه سحقا ذريعا ، وكبله بالسلاسل والأغلال ، إلى أن فدا نفسه وخرج من مصر . وسئلت له شياطينه أن يلعب إلى حملة الصليب في الساحل الشامى لعله يسترد كرامته التى أهدرت بمصر ويق بين حملة الصليب نحو أربع سنوات لم تسفر عن شيء ، فعاد إلى فرنسا كاسفا مقهورا . أما توران شاه فجزاه ممالك آية جزاء ستمار إذ سفكوا دمه الطاهر . ووقيت إلى العرش شجرة الدر ثم تنازلت عنه للمعز أيك مملوك آية فأسس دولة المماليك . أما دمشق فاستولى عليها الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب . وكان آخر من حكمها من الأيوبيين :

(ب) للمالك<sup>(١)</sup>

تأسست في مصر بعد مقتل توران شاه سنة ٦٤٨ دولة المالك ، وعُدَّهم الحكام الأيوبيون في الشام مفتصبين للحكم من أصحابه الشرعيين ، وأعدوا بزعماء الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب جيشا لحربهم ، ولقيه المزيك التركاني في غزة سنة ٦٤٨ وهزمه . وظلت العلاقات سيئة بين الطرفين حتى أصلح الخليفة العباسي بينها لسنة ٦٥١ على أن يكون للمالك نهر الأردن ونابلس والقدس وغزة والساحل ، وللأيوبيين بقية الشام ، وقد دفعها إلى هذا الصلح اشتداد خطر التار . وحاول الناصر يوسف أن يسترضي قائد هذا الوفاء هولاء سنة ٦٥٥ فأرسل إليه بهدية ، ولم يلبث هولاء أن اندفع بسيول التار إلى بغداد سنة ٦٥٦ فأجرى اللدعاء فيها أنهارا وغربها وأحاطها أنقاضا ، ودخل هولاء في السنة التالية ديار بكر ومثلك حران وبلاد الجزيرة ، وتحقق الناصر أنه سيقصد حلب فتركها إلى شمالي دمشق ، وفي شهر صفر سنة ٦٥٨ استولى التار على حلب معقلين فيها النهب والسلب ، وتقدموا في ربيع الأول إلى دمشق واستولوا عليها ، وقرَّ الناصر يوسف وأسرته التار ، وبق معهم في ذلك وهوان مابعد هوان .

ومضى التار يقتحمون في ديار الشام حتى عين جالوت بين نابلس ونيسان ، وإذا الموت والتشريد ينتظرهم على يد المصريين والبطليين العظميين المملوكين : قطز سلطان مصر والظاهر بيبرس قائده ، وقد أحرقوا بهم ونازلوهم حتى أفنؤهم قتلا . وتبع بيبرس قلوبهم إلى حلب وأطراف الشام . وأصبحت جميع الديار الشامية في قبضة المالك (ماعد) حاة لأن أميرها الأيوبي الملك المنصور ناصر الدين محمد سليل عمر بن شاهنشاه كان قد وضع يده في يد قطز وبيبرس في حربها للتار وظل على حماة حتى سنة ٦٨٣ وولاه قلاوون ابنه تق الدين واستولى عليها الناصر بن قلاوون سنة ٦٩٨ ثم ردها إلى الملك الصالح المريد أبي القدا إسماعيل سنة ٧١٠ وظلت معه حتى سنة ٧٣٢ ووليا بعده ابنه الأفضل ثم أصبحت للمالك يولون عليها من يشامون مثلها مثل بقية بلدان الشام .

وعُني الظاهر بيبرس حين أصبحت مقاليد الأمور بيده منذ سنة ٦٥٩ بالإعداد لحرب من تبق من حملة الصليب في ساحل الشام وأخذ يغير عليهم ويتنازلهم ، حتى إذا دخلت سنة ٦٦٤ خرج

(١) تاريخ الدول والملوك لابن الفرات وسيرة الملك المنصور (قلاوون) طبع القاهرة والتبر المسبك في ذيل السلك للسفاوى وأخيرة المالك لابن زنبيل وبروكلمان ص ٣٦٥ .

(١) انظر في الممالك النجوم الزاهرة وغيره من كتب التاريخ العام والسلك للمقريزي والمختصر في أخبار البشر لأبي القدا والبداءة والنهاية وديان الزهور لابن إياس

إليهم على رأس جيش جرار واستولى على قيسارية وبافا وأرسوف وكان بها حامية من الإسطبارية الذين نفروا أنفسهم لحرب المسلمين . وفي العام التالي استولى على صفد ورتين والرملة في فلسطين . وتوالى هجومه عليهم واستولى على الشقيف وطبرية وبُغْراس والقَصْر وحصن الأكراد والقرين من حصون صفد وكان به حامية من الفرسان التبتون . وأعظم أنجاده الحرية ضد حملة الصليب أخذته أنطاكية سنة ٦٦٧ ويقال إن أسراها بلغوا مائة ألف وأن الغلام من أهلها كان يباع باثنى عشر درهما والجارية بخمسة . والمهم أنه محاذ هذه الولاية التي أقامها حملة الصليب في أول دخولهم للشام . وبدأ في الأفق من حيث أن خروج حملة الصليب نهائيا من الشام أصبح قاب قوسين أو أدنى ، وقد استولى منهم قلاوون في سنة ٦٨٦ على اللاذقية ولم يلبث أن استولى على طرابلس في سنة ٦٨٨ وبذلك أزال آخر إمارة أو ولاية لحملة الصليب ، وسرعان ما سلمت بيروت وجبله . حتى إذا تولى بعده ابنه السلطان خليل جهز جيشا ضخما للاستيلاء على عكا واستولى عليها سنة ٦٩٠ وتبعها صور وصيداء وحيفا وأنطراطوس ، وخرج من بقى من الصليبيين إلى البحر المتوسط وما وراهه يحملون الذل والفضة والهوان والصغار .

وقد قسم المماليك الشام إلى ست نيابات كبرى هي : دمشق وحلب وحماة في سوريا وطرابلس في لبنان وصفد في فلسطين والكرك في شرقي الأردن . وكانت دمشق أهم هذه النيابات ، وكان حاكمها يعد نائب السلطان للملوك في الشام مما أتاح له مكانة خاصة . وجعل نفرا منهم غير قليل يطمح إلى أن يكون هو السلطان التالي للسلطان القائم بمصر ، ولعل ذلك ماجل سلاطين مصر يكثر من عزلهم ، حتى ليتولى دمشق في زمنهم الذي امتد نحو مائتين وخمسة وسبعين عاما أربعة وسبعون نائبا . وقد درسهم ( فليت ) وتبين له كما ذكر في كتابه مساجد القاهرة ص ٥٦ : أن اثنين منهم هما لاجين ( ٦٩٦-٦٩٨ ) والمؤيد شيخ ( ٨١٥-٨٢٤هـ ) رقبا إلى السلطنة ، وسبعة وعشرين منهم ثاروا على السلطان فرمهم خارج الحدود اثنان وسبعين خمسة وأعدم خمسة وعُفي عن خمسة . وكان لنائب دمشق من الدواوين مثل السلطان مصر وكثيرا ما كان ينقل رئيس ديوان في القاهرة إلى دمشق وبالعكس ، وكثر ذلك في كتاب السر والإنشاء . وبذلك كله كانت دمشق تعد المدينة الثانية في دولة المماليك مما عاد عليها بغير قليل من الازدهار . وأمر الظاهر بيبرس في سنة ٦٩٣ أن يتولى القضاء أربعة يمثلون مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وعم ذلك في دمشق والمدن الكبرى بمملكته في مصر والشام . وظل هذا النظام قائما طوال زمن المماليك .

وظل التار يتوثن من عار الهزيمة الفاضحة في عين جالوت ، وظلوا يحاولون غسل هذا العار بغارات فاشلة على أطراف الشام ، وكسرتهم جيوش الظاهر بيبرس مرارا ، من ذلك كسرتهم على حمص سنة ٦٥٩ ، وأغاروا على البيرة سنة ٦٦٤ وعلخوا بتحريك بيبرس فولوا مديرين . وفي سنة ٦٦٨ أغاروا على نهر الساجور بمنجج ، وسرعان ما انهزموا ، وعاودوا الهجوم على عينتاب وحارم سنة ٦٧٠ وساعدهم حملة الصليب فهاقت بهم الهزيمة جميعا . وظلوا يعاودون المناوشة وهاجموا البيرة في سنة ٦٧١ وأشرفوا على أخذها فعبر إليهم الظاهر الفرات وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وتغنى الشراء طويلا بهذا النصر المبين ، ونكل بهم في سنة ٦٧٥ تنكيلا شديدا . وظل التار يعاودون هذه الغارات والمناوشات في عهد قلاوون ويوهون منها بالهزيمة ، وقد استولى منهم ابنه السلطان خليل على قلعة الروم غربي الفرات سنة ٦٩٢ . وتولى شئون التار غازان وكان قد دخل في الإسلام مع جنوده . ومع ذلك أعد في سنة ٦٩٩ حملة لغزو الشام ولقبه محمد الناصر بن قلاوون بين حمص وحماة ودارت الدوائر على الناصر ، واستولى جيش غازان على دمشق وغيرها من مدن الشام وعاثوا فيها فسادا . وعاد الناصر إلى مصر وجهز جيشا جرارا التقى به مع التار قرب دمشق سنة ٧٠٢ وسحقهم سحقا ذريعا ، بحيث لم يعودوا يفكرون في غزو الشام وإن هم فكروا ارتدوا إلى صوابهم سريعا .

ونمضى إلى سنة ٨٠٣ فيقدم تيمورلنك بمجموعه غازيا الشام ، ويلقاه جيش المالك ، فيهزمه ويقتحم حلب ويعمل فيها السيف والسلب والنهب ، ويتقدم إلى دمشق وينزل بالسلطان فرج في طريقه إليها هزيمة نكراء . وترضى دمشق بالتسليم وينهب جنوده التار ويشعلون فيها النيران وتأتي على جامعها الأموى وعلى كثير من آثارها ، ويقتلون مالا يكاد يحصى من أهلها نساء ورجالا وأطفالا : كارثة لم يُصب دمشق مثلها لا من قبل ولا من بعد . وضاعفها أن تيمور جمع رجال الفن والمهندسة والمهار وصناع الزجاج والصلب وأخذهم معه إلى عاصمته سمرقند .

وتتحدث كتب التاريخ عن ثورات وفن حدثت في الشام لعهد المالك ، غير أن أكثرها إن لم تكن كلها ، إنما كانت صراعا على السلطة بين السلاطين ونوابهم في الشام . ومن هذا الصراع ما حدث من تحول الملك من المالك البحرية إلى المالك البرجية الجراكسة على يد برقوق سنة ٧٨٤ . وقد عانت الشام - كما عانت مصر - من التزاع المستمر بين أمراء المالك ، حتى كانوا يقتلون كل مع أنصاره في شوارع دمشق والقاهرة . وكثر ذلك في القرن الأخير من حكم

المالِك ، وأخذت دولتهم في الضعف تدريجاً حتى لفظت أنفاسها الأخيرة في معاركها مع السلطان سليم الثاني على أبواب الشام في مَرَج دابق .

(جـ) العثمانيون<sup>(١)</sup>

قضى سليم الأول العثماني على دولة المالِك في الشام ومصر بعد هزيمته لقائصوه الغوري في موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢ للهجرة . وبعد أربعة أيام من الموقعة دخل حلب ولحقه أهلها بترحاب شديد وأوقدوا له الشموع وتعالّت أصواتهم له بالدعاء ، وخطبوا له على منابرهما . وفتحت له مدن الشام أبوابها ، فاستولى على دمشق وقصده فيها أمراء لبنان وخاصة من بني مَعْن الدروز النازلين بجبالها مما جعل سلباً ومن خلفوه من سلاطين آل عثان يعترفون لهم بالإمارة في لبنان . ومضى سليم يستولى على بقية مدن الشام . وفتح مصر وظل بها ثمانية أشهر وعاد منها إلى دمشق ، ورأى بوضوح تدهور الأوضاع الاقتصادية في تلك الديار بسبب اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح والنفوذ منه إلى الهند ونقل توابلها وتجاراتها منه مما أضر إضراراً شديداً بطريق البضاعة الهندية القديم خلال حلب والشام . وكانت حروب الصليبيين والتتار التي حوّلت الشام إلى بساحة حرب كبيرة لمدة قرنين من الزمان قد أحوالت أجزاء كثيرة من مدنها إلى خرائب وخاصة مدن الساحل . وكانوا يؤسّم أهل الشام أن العثمانيين سيميدون إلى طريق التجارة الهندية ازدهاره الماضي ، ولذلك رحبوا بسليم والعثمانيين ، وتلاشى هذا الحلم مع الأيام . وكان قد فرّ إلى سليم من المالِك مملوك خائن هو الغزالي الذين زين له فتح الشام ومصر فكافأه بتوليته على الشام ما عدا حلب إذ جعلها لبعض الباشوات العثمانيين . وبمجرد أن توفي سليم الأول سنة ٩٢٦ أعلن الغزالي استقلاله بالشام ولقب نفسه بالملك الأشرف ، وسرعان ما هزمته الجيوش العثمانية وخرّ صريعاً عند أبواب دمشق . ورأى العثمانيون أن تتوزع الشام ثلاث نهايات على رأس كل نهاية باشا : أولاهها نهاية حلب وتشمل سوريا الشمالية ، وثانيها نهاية طرابلس وتشمل أربعة سناجق أو ألوية هي : حمص وحماة وسلمية وجبله ، وثالثها نهاية دمشق وتشمل عشرة سناجق أهمها بيروت وصيدا وناہلس وبيت المقدس وغزة . وفي سنة ١٠٧٣ خصوا صيدا ببنية مستقلة تشمل ساحل الشام ما عدا نهاية طرابلس في لبنان .

لساطع المصري . ومقدمة تاريخ العرب الحديث لمحمد الكرمي  
خرابة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ١٤٤٨ ،  
وتاريخ العرب ( مطول ) للفيصل حبي .

(١) انظر في العثمانيين بالشام بدائع الزهور لابن لابس  
وأخرة للمالك لابن زبيل وتاريخ الجبريل والمخطط  
التوفيقية لمل مبارك والبلاد العربية والدولة العثمانية



وكان يساعد الوالى فى الإدارة ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار أو رئيس العسكر والدفتردار أو مدير الخزانة والروزنامجى أو حافظ السجلات وقاضى القضاة وأمير الحج ورؤساء المذاهب الفقهية الأربعة . وبجانب هذا الديوان ديوان صغير خاص بنائب الوالى ومعه دفتردار وروزنامجى .. ومنع أصحاب السناجق أو الألوية لقب بك . وكثير من الولاة كانوا يختارون من الإنكشارية وهم شبان أوريون من أجناس مختلفة كانوا يُربّون تربية إسلامية عسكرية ، وكان هم الوالى منهم أن يجمع لنفسه فى مدة ولايته القليلة ما يستطيع من الأموال مما جعلهم يرهقون أهل المدن بالضرائب ، وقلا كان حكم الوالى يتجاوز المدينة وضواحيها . أما داخل البلاد فقد ترك للإقطاعيين من سكان الشام ومن وراءهم من بدو الجزيرة ، وكان عددهم قد تزايد زيادة كبيرة منذ زمن المالك ، وكان أكثرهم من الدروز مثل آل معن وآل أرسلان والشهابيين ومن التركمانيين مثل آل عساف ومن البدو مثل آل فضل . وفى كل مكان نجد هؤلاء الإقطاعيين مثل آل حرفوش يعطيك وآل فريح فى البقاع وآل جبار فى سلمية ، ولم يكونوا يؤدون للعثمانيين أو الباب العالى إلا ضرائب محدودة ، وخاصة أن الموارد كانت قد تضاءلت إذ تدهورت التجارة وتدهورت أيضا الزراعة . ويدل على فساد الحكم العثماني واضطرابه فى الشام كثرة من كانوا يؤلون ويعزلون من الولاة ، حتى ليؤلى على دمشق فى مائة وثمانين عاما مائة وثلاثة وثلاثون باشا أو واليا ، مما جعل فخر الدين من آل معن الدروز ( ٩٩٠-١٠٢٣هـ ) يسيطر على أكثر أرجاء الشام من أنطاكية إلى صفد لنحو نصف قرن ، وأذن لفلورنسا بإقامة قنصلية لها فى بلاده ولم ير بأسا من الإذن لفرنسا بفتح فندق فى صيداء وأذن للمبشرين المسيحيين بالتبشير بين المسلمين والدروز . وتنتهت له أخيرا الدولة العثمانية فأرسلت إليه جيشا لتأديبه ففر من البلاد راكبا البحر إلى صديقه فرديناند أمير توسكانيا . وغضى إلى سنة ١١٦٤ هـ / ١٧٥٠ م فيسط ضاهر العمر صاحب صفد سلطانه على عكا ويعلن استقلاله وعصيانه للباب العالى بفضل معونة على بك الكبير المملوك المشهور أيضا بعصيانه للعثمانيين ومحاولته الاستقلال عنهم بمصر . ويحاصر العثمانيون ضاهر العمر وتدركه المنية سنة ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م . ويلبى بعده أحمد الجزار ويلب دورا شييا بدور ضاهر العمر ومحصن عكا . وعبثا يستطيع نابليون فتحها ويضطر إلى رفع حصاره عنها بعد ثلاثة أشهر ، إذ باء حصاره لها بالإخفاق الذريع سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م . وكانت الأحوال الاقتصادية فى الشام تزدى من سيئ إلى أسوأ طوال الحكم العثماني ، وظل كابوسه جاثما على صدر البلاد طوال القرن التاسع عشر الميلادى بل طوال شطر كبير من العصر الحديث .

المجمع<sup>(١)</sup>

حين دخل العرب الشام وجدوا فيها أخلطاً من أجناس شتى لموقعها على أبواب آسية الغربية وفي قلب الشرق القديم ولكثرة من نزلوها من الكنعانيين الفينيقيين ومن الفلسطينيين الأوريين القدماء وكثرة المهاجرين إليها من البابليين والكلدانيين والحثيين والآشوريين والآراميين والعبرانيين واليونانيين والرومانيين ومن العرب أنفسهم : الفساسة وغير الفساسة . وهذا الخليط من الاجناس في الشام ربما هو الذي هيأها من قديم لأن تكثر فيها الدويلات والمدن المستقلة بعضها عن بعض .

وأخذ الإسلام سريعاً يضم هذا الشتات الجنسي في وحدة سياسية ، بل سرعان ما أصبح لواء الشام يضم العالم الإسلامي جميعه في وحدة عربية منذ رقى إلى عرش الخلافة معاوية مؤسس الدولة الأموية ، إذ اتخذ دمشق حاضرة لهذا العالم ، واتخذ من أهلها عوناً في الحكم وإدارة دفة الأمور في هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف . وبذلك كانت كنز هذه الإمبراطورية تتدفق إلى دمشق والشام وعاش أهلها طوال العصر الأموي في رخاء لم يبلغه هذا الاقليم في أى عصر من عصوره .

ومر بنا وصف سريع لجغرافيتها وأنها كثيرة الأنهار والوديان والعيون والزروع ، ومن قديم تتج العنب والفواكه وصنوف الثقل من فستق وغير فستق إلى ما تنتج من قمح وغير قمح . ومن قديم أيضاً عُنى أهلها بالصناعات : صناعات الحزف الملون والخشب المحفور أثاثاً وغير أثاث والمعادن والأسلحة سيوفاً وغير سيوف والزجاج الملون والقاشاني ونقش الفولاذ بالذهب والفضة ونسج الأقمشة والعمارة .

وحياة الشام بذلك كانت تقوم على إتيان كثير من الصناعات والزروع ، وأيضاً على المهارة في التجارة ، وكانت نافذة كبرى لتبادل تجارات آسية وأوروبا من قديم ، وظلت تجاراتها تكون مصدراً أساسياً لثروتها في عهد الفينيقيين وبعدهم حتى احتلال الصليبيين لديارها ، فقد كانت من أعتى

(١) الشام لم يذكر على الجزء الأول من محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق .

(١) انظر في مجمع الشام كتب التاريخ العام وشرح البلدان للبلاذري وأدب الكتاب للصول وذييل تاريخ دمشق لابن القلانسي وخرات الأوراق لابن حجة الحسوي والمجانية

الأزمة إلى نهاية زمن المالك الباب الكبير لمرور نوابل الهند وعروض آسيا إلى الغرب . ومهر أهلها في التجارة ومعرفة أسرارها والقدرة على إغراء الأسواق التجارية ومعرفة متطلباتها من لبنان جنوبي الجزيرة العربية ونباتات العطور والعقاقير ، مما أتاح لكثير من تجارها على مر الأزمنة الثراء الطائل . وتحف الشام في الشرق بوادي الجزيرة العربية ، وكان لذلك أثره البعيد في تكوين سكانها فأكثرهم نزحوا إليها قديما من الجزيرة على نحو ما هو معروف عن الكنعانيين والآراميين والعبرانيين ، وقد ظلت أبوابها الشرقية مفتوحة على مصاريحها لبدو الجزيرة ، مما جعل الغساسنة يقيمون على الحدود بينها وبين الجزيرة دولتهم الفسائية . ولا يقفون هم ومن كانوا وراءهم من البدو عند الحدود بل يتغلغلون إلى داخل الشام ، حتى يمكن أن يقال إنه قد أخذ في التهرب قبل الإسلام . وظل بدو الجزيرة طوال الأزمنة الإسلامية يكونون شطرا منها في سكان الشام ، وكان الشطر الثاني ، وهو الأكبر ، متحضرا ويقيم في المدن . وبذلك كان سكان الشام ينقسمون طوال الحقب الإسلامية إلى بدو وحضر . وكان البدو يعتمدون على الأغنام والأنعام ، بينما كان الحضر يعتمدون على الزراعة والصناعة والتجارة . وكان حكام مصر والشام يقرّبون زعماء البدو ، ولكي يدعروا عن الشام شرهم كانوا أحيانا يقطعونهم بعض مدن فلسطين على نحو ما هو معروف من إقطاع الفاطميين للمفرّج بن دغفل مدينة الرملة .

على كل حال كان اعتماد الشام في حياتها الاقتصادية طوال الحقب الإسلامية على سكان الحضر وما يؤدونه للدولة من الخراج والعشور والجواري أو الجزية ، وكانت ضريبة محدودة قلما زادت عن دينارين ، وكانت تؤخذ من أهل الكتاب : النصارى واليهود نظير عدم انتظامهم في الجيش العربي . وهي بذلك كانت ضريبة دفاع ولم تكن تؤخذ إلا من القادرين ، أما النساء والأطفال والشيخ والقساوسة والرهبان فلا تؤخذ منهم البتة .

وحين عقد عمر بن الخطاب مؤتمر الحجابة سنة ١٦ للهجرة أوصى عماله أن يرققوا بالربعة فيما تودي من ضرائب للدولة ، وبلغ خراج الشام على عهده - كما يقول الصولي - خمسمائة ألف دينار . وبمجرد أن أصبحت الخلافة خالصة لمعاوية جعل خراج كل من دمشق وقنشرين أربعمائة وخمسين ألف دينار ، وخراج كل من فلسطين والأردن مائة وثمانين ألفا . وأخذ يهب بعض أصفياه إقطاعات واسعة ، وتارة يكون الإقطاع تملك ، وتارة يكون إقطاع استئجار ، وكان عثمان بن عفان أول من سنّ هذه السنة في الإسلام .

وجاءت معاوية كنوز الأرض فكان يكثر من توزيعها على الشخصيات المهمة في قرش

والأنصار وعلى زعماء القبائل في الجزيرة العربية والعراق ، وعُني عناية واسعة بأهله ونفقائه . وبني لنفسه داراً كبيرة في دمشق سماها « الخضراء » ودورا أخرى في مكة ، وسنُّ للخلفاء الأمويين من بعده البذخ . ويُروى أنه كان يستقبل من عماله هدايا العيدين الفارسين : عيد الثَّيروز وعيد المهرجان ، ولا بد أن كانت تقدم له الهدايا في أعياد النصارى لما انعقد بينه وبينهم من علاقة وثيقة ، ولما منحهم من الإشراف على الشئون الما للدولة ، وخاصة سرجيوس وأسرته ، وأيضاً لابد أن كانت تقدم ل الهدايا في الأعياد الإسلامية .

ويبدو أن الدولة ظلت تتم برخاء واسع بعد معاوية ، مما دفع الوليد بن عبد الملك إلى تشييد الجامع الأموي بصورة هندسية بالغة الفخامة في زخرفته وتصويره ، وقد استقدم - كما مرُّ بنا - لصنع التَّسْيِيساء في جُدره وفصوصه اثني عشر ألف عامل من بيزنطة ، غير من استقدمهم في تشييد ونقشه من مصر وفارس ، وقد مثَّلت فيه أشجار وقُرعت أعصان منظومة بالفصوص المذهبة ، ويقال إنه أنفق فيه خراج الشام ستين وكان خراجها على عهده مليون دينار ومائتي ألف ، وفي رواية أنه أنفق عليه أحد عشر مليوناً من الدنانير ومائتي ألف . وعُدَّ الجامع عجيبة من عجائب الدنيا ، وبه حظيت دمشق بمجد وشهرة عظيمين . ويبدو أن الوليد زاد ، بسبب هذه النفقة الباهظة على جامعهِ ، الضرائب على أهل الشام ، أو لعل أخاه سليمان الذي خلفه هو الذي صنع ذلك . ويخلفه عمر بن عبد العزيز فيأمر عماله أن يأخذوا أهل الكتاب من النصارى واليهود بالرفق وأن تُمنَح السخرة منها باتا كما يمنع أخذ الضرائب على الجسور والمعابر وأن يكتبني في المعادن بالصدقة ولا يؤخذ منها العشر . وأمر أمرا صارما أن تُرفع الجزية عن أسلموا من الموالي بحيث ينسوي بينهم وبين المسلمين في الخراج والعشور . ويتوقَّى عمر فيعود العمال إلى الضرائب الاستثنائية ظلماً وعدواناً . ولا بد أن نذكر للأمويين أن الشام كانت تحظى برخاء غير قليل في أيامهم ، ويشهد بذلك ماشادهو في دمشق والبادي من قصور ، وقد أصبحت دمشق بفضلهم عاصمة ومدينة عربية كبرى .

وكان المجتمع الشامي في دمشق وغير دمشق يتألف من ثلاث طبقات : عليا ووسطى ودنيا ، والطبقة الأولى تشمل الحكام وكبار الموظفين والدواوين وأصحاب الثراء الطائل من التجار والإقطاعيين . وتشمل الطبقة الوسطى العلماء وأوساط الزراع والتجار والصناع ، أما الطبقة الدنيا فهي طبقة العامة من صغار الفلاحين والعمال . وكان يتبع هذه الطبقة الرقيق الذي يؤسر في الحروب أو يبيعه النخاسون ، وكان أخلاطا من البيزنطيين والأوربيين والإفريقيين . وظلت هذه

الصورة لطبقات المجتمع الشامي متصلة طوال الحقب التالية ، مع ما حدث للشام من تحول الخلافة منها إلى بغداد ، ومن مشرفة على الدولة الإسلامية الكبرى إلى ولاية منذ أن استولى العباسيون على أداة الحكم . وكان من أهم أعمالهم فيها إنشاء المراكز العسكرية على حدودها مع الروم المعروفة باسم العواصم والثغور ، وكانت جيوشهم ماتي تخرج منها لحرب الروم . محدثة فيها غير قليل من الرواج التجاري .

وكان العباسيون في القرن الأول من خلافتهم يأخذونها بغير قليل من الرفق واللين . ويروى أن بعض ولاية الخراج بها لمعهد هرون الرشيد شدد في استخراج الأموال من أهلها فسخط عليه الرشيد سخطا شديدا وأنزل به عقابا صارما ، قائلا له : ولبت الشام وهى جنات وعيون وجملتها أجرد من الصخر وأوحش من القفر . وحين ضمها ابن طولون إلى دولته في مصر أخذت تتمتع وخاصة في عهد خنارويه لكثرة ما كان يُجرى على الناس في رعيته بمصر والشام من الأموال ولما كان ينفقه على جيشه بها من الارزاق ، وقد بنى لنفسه بالقرب من دمشق قصرا فخا . وعنى الإخشيد بالشام ، كما عنى بها كافور . وكانا يكثران من الخلع والهبات على أهلها ، وكانت حلب والثغور بيد الحمدانيين وفرضوا فيها ضرائب ثقيلة <sup>(١)</sup> .

وتتبع بقية الشام مصر أيام الفاطميين حقا متصلة . وعلى الرغم من أن المقدسى يقول إن ضرائب العروض والسلع التجارية فيها هينة لزمته في أواخر القرن الرابع الهجرى فإن من المؤكد أن الضرائب زادت واضطربت تبعا لكثرة الولاة الفاطميين وعمل كل منهم على جمع كل ما يستطيع من الأموال لنفسه ، فكانت تدخل على الضرائب والجبايات زيادات ترهق الشعب الشامي إرهاقا شديدا . وبلغ هذا الإرهاق غايته في ولاية الملح بن حيلدة الكتامي لما سنة ٤٦١ ، حتى هجر الفلاحون مزارعهم في الغوطة بدمشق وغير الغوطة ، وعظم شغب العامة سخطا على هذا الظلم الصارخ وشبت النار حيثند في الجامع الأموى العظيم ، وكادت أن تذهب ببيانه وروثه لولا أن تداركه الناس . ولعل أحدا لم يصور ما كان يقع على أهل الشام من ظلم قاذح في جمع الضرائب دون أن تستخدم في مصالح الرعية كما صور ذلك أبو العلاء ساخطا بمثل قوله :

وأرى ملوكا لا تحوط رعية      فعلام تؤخذ جزية ومكوس

ومانصل إلى سنة ٤٦٨ حتى تتحول دمشق إلى السلاجقة ، وينحصر الحكم الفاطمى إلى

(١) اضطرت الحمدانيين إلى ذلك حروبهم مع بيزنطة .  
ويقول المقدسى إن الضرائب كانت ثقيلة حيثند على العواصم والثغور وإنما كانت ثلاثمائة وستين ألف دينار .

الجنوب . ومانكاد نشرف على نهاية القرن الخامس حتى تأتى جحافل الصليبيين وتستول على ساحل الشام منذ سنة ٤٩٢ . ويتدارك طُغتكين أتابك الدولة البورية نسخة من النسخ القرآنية التي وزعها عمّان في الأمصار كانت بطريّة فيقلها إلى دمشق ، وكان ذلك عملا جبلا زاد دمشق مجدا وجلالا ، وخلص له الأمر بها . ومن أهم ما قام به بناء مارستان وخانقاه وأول مدرسة أنشئت بها . وتصبح الشام ساحة حرب كبرى أيام الصليبيين ، ولا يقر لأهلها قرار .

وأخذ حكام الشام من الأرتقيين أصحاب دمشق وغيرهم يضيفون بعض ضرائب استثنائية لجهاد الصليبيين والإنفاق عليه . وكان طُغتكين عادلا ، ولكن أبناءه أخذوا يرهقون المدمشقيين بالضرائب الاستثنائية وصنع صنيعهم حكام المدن الأخرى ، حتى إذا نهض عماد الدين زنكى واستولى على شمالي الشام ، وكان قد أصبح خرابا من ظلم الولاة ومن حرب الصليبيين ، نشر فيه العدل وفتح الرُّها وامتلاّت كل هذه البقاع أهلا وسكانا .

وخلف عماد الدين زنكى ابنه نور الدين محمود، وحين خضعت له دمشق وحاة وبعلبك وغيرها من المدن الشمالية أبطل كل ما كان بها من الضرائب الاستثنائية على الأسواق وما يباع فيها من الفواكه والبقول والحلوى والغنم والحب واللين . وسار نفس هذه السيرة بعده صلاح الدين فألغى جميع المكوس والمغارم من ديار الشام وسامع الناس في أموال عظيمة . ووزع في عماله منشورا جاء فيه : إن أشق الأمراء من سجن كبيه ، وأهزل الخلق وأبعدهم من الله من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق . وعمّ الرخاء في عهده وعهد نور الدين ديار الشام لكثرة ما صبأ في حجور الناس من القناطير المقتطرة من أموال حملة الصليب المدحورين . وسار بعد صلاح الدين سيرته في حظ المغارم عن كواهل الناس أخوه السلطان العادل ويقال إن مجموع ما خص دمشق من ذلك لعهد بلغ مائة ألف دينار . وقد عاد بعض هذه المغارم والمكوس في بعض بلدان الشام بأخرة من أيام الأيوبيين وخاصة في بعلبك ودمشق حين أظفلها حكم الصالح إسماعيل .

وقد يكون من المفارقات أن نعرف أنه على الرغم من الحروب التي كانت متصلة بين أهل الشام وحملة الصليب نشطت التجارة بينها نشاطا واسعا ، فجار المسلمون يتزلون بلادهم وحصونهم وبالمثل يتزل حملة الصليب بلاد المسلمين حاملين لسلعهم ومشتريين سلعاً جديدة . وكان الحرب شيء والتجارة شيء آخر ، ويعرض علينا أسامة بن منقذ في كتابه « الاعتبار » صورة لآفة من تواصل الحياة بين العرب المدينين والصليبيين . ورأى ذلك ابن جبير رأى العيان ووصفه في رحلته المشهورة متعجبا قائلاً : من أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفتيين : مسلمين

ونصارى ، وقد يلتقى الجمعان ويتقاتلون وتجارهم تختلف بينهم دون اعتراض ، وهكذا دائما أهل الحرب من الفتيين مشغولون بحربهم ، والناس من ورائهم - كما يقول ابن جبير - في عافية : يتعاضون ويتبادلون السلع وحُروض التجارة ، وكان حملة الصليب يرسلون ببعض هذه العروض في سفن لهم كانت تجوب البحر المتوسط والمحيط الأطلسي حتى السويد . وورثت الشام عنهم ذلك حين جلوا عنها فكانت تجاراتها تتغلغل في البلاد الأوربية .

ولم نعرض حتى الآن لما كان في المجتمع الشامي طوال هذه الحقب من فنون اللهو . وكان طبعاً والشام دائما حاملة للسيف أن يشع فيها مبكرا سباق الخيل واللعب بالصوالجة والتنافس في إحسان الرماية . وكان أهلها يجارحون أحيانا بين الكباش والكلاب ، وكانوا يخرجون للصيد . وكانت أسواقهم تموج بالأقنعة الحريرية وبالطيب والعمود . وعنى خلفاؤها الأمويون مبكرين بالغناء وبدأ ذلك منذ عهد الملك بن مروان الذي استقبل ابن مسجع مغنى مكة وغناه الغناء المتفن على نحو ما أشرنا إلى ذلك في كتابنا الشعر والغناء في المدينة ومكة واستقبل أيضا بُدَيْعًا واستمع إلى غنائه ، واستقبل ابنه الوليد بعده ابن سريج مغنى مكة . وتحول يزيد بن عبد الملك بقصره إلى مسرح لمغنى الحجاز من أمثال معبد وابن عائشة ، واشترى جاريته من جواري المدينة المغنيات ، وهما حَبَابَة وَسَلَامَة الْقَسَّ ، ووصفه أبو حمزة الخارجي ، فقال إنه يشرب الخمر ويلبس الحلة قُومَتْ بألف دينار .. حَبَابَة عن يمينه وسلامة عن يساره . ونشأ ابنه الوليد في هذا الجو المشبع بالترف والخمر والغناء ، وكان شاعرا بارعا ، وله خمريات تكتظ بها ترجمته في كتاب الأغاني ، وحين استولى على مقاليد الخلافة بعد عمه هشام تحول بقصره إلى مقصف للخمر والعزف والغناء ، وندماؤه من حوله يشاركونه قصفة ولهو وطربه ، وكاد أن لا يترك مغنيا مشهورا في المدينة أو مكة إلا استقدمه وعقد له في قصره مجالس للطرب والسماع ، ويقول أبو الفرج في ترجمته إنه « كان يضرب بالعود ويوقّع بالطلل ويمشى بالذُف على مذهب أهل الحجاز » .

ولا ريب في أن شيئا من ذلك كان ينمكس على أهل الشام في دمشق وغير دمشق . إذ يوجد في كل زمن منحرفون ينفسون في اللهو والخمر وشرب الدُّنَان ، وكان يهين لهم ذلك في الشام كثرة ما يزرع فيها من كروم وكثرة ما كان بها من أديرة . وكانوا يشربون في الطيعة بين الأزهار وغناء الطير وفي قاعات الأديرة والبيوت ، وكانوا يفرشون القاعات بالورود والزجس والأصحوان والأزهار المختلفة . وكان يكثر في تلك المجالس سماع المغنين والمغنيات وهم يعزفون على آلات الطرب المختلفة . ويسوق ابنُ جبَّة الحموي في كتابه ثمرات الأوراق خبرا طويلا عن جماعة من

كتاب القرن الرابع الهجري كانوا قاصدين مصر. فزلوا بدمشق في طريقهم ، والتقوا فيها بشاب أضافهم . فقبلوا الضيافة وأضوا في منزله ليلة ماجة أحضر لهم فيها نبيذاً على عشايمهم ، فشرىوا ، وسرعان ماخرجت عليهم طائفة من الجوارى مابين عوادة وطنبورية وزامرة وصناجة ورقاصة ودقاقة وهن يلبسن فاخر الثياب والحلى وسألهن في الصباح أنحبون الذهب إلى بعض البساتين للفرج أو الجلوس في المنزل واللعب بالشطرنج والتزود أو القراءة في الكتب . والخبر تدخله مبالغات تجعله أشبه بأسطورة ، لكنه على كل حال يدل على ماكان بدمشق من فنون هو .

ولا ريب في أن حرب أهل الشام بعد ذلك مع حملة الصليب أتاح لهم كثرة من الجوارى الأوربيات المسترققات . ويبدو أنهم كن من عوامل شيع الغناء ، إذ نقرأ في تراجم نور الدين وصلاح الدين والعاقل أنهم طهروا البلاد من الفواحش والخمور والقمار . وكانت هناك دور النخاسين تحمل الجوارى من كل جنس وكل بلد . ويدل على كثرة الجوارى في الشام من بعض الوجوه أن نجد قتيبا دمشقيا توفى سنة ٦٣٢ هو عبد السلام بن المطهر بن أبي عصرون يروى عنه أنه كان بيته نيف وعشرون جارية فما بالنا بأهل الثراء وبالحكام وكبار الموظفين ذوى الرواتب الضخمة . ولم يقف المتحرفون بالمجتمع في لهومهم حينئذ عند شرب الخمر . فقد أخذ يشيع بينهم شرب الخشيس ، ولذلك أمر الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٥ بهدم دور الخشيس والخمر جميعا وإقامة الحدود بشدة على من يتعاطونها . ومن حين إلى آخر نسمع عند بعض السلاطين يمثل هذا الأمر ، ولكن المجان كانوا يعمدون إلى تعاطيها ولا يزدجرون . وظل الغناء مزدهرا طوال زمن المماليك ، ونجد مغنيا بدمشق يلزم واليا تنكر نائب الناصر محمد بن قلاوون ويختص به ويعلم جواريه الغناء ، وكان يعاصره شمس الدين الدمشقي محمد بن علي وكان يجيد العزف واللعب بالقانون وينظم الشعر ويلحنه ويأخذه عنه الملحنون وأهل الملاهي .

وظلت الشام تفيض في رخاء إلى نهاية القرن الثامن الهجري إلا فترات كانت تدب فيها وخاصة في دمشق الفوضى بسبب ماكان يحدث فيها من نزاع بين الأمراء على السلطة كما حدث في السنوات ٧٥٣ و٧٦٢ و٧٩٠ و٧٩٦ و٨٠٦ ولعل هذا كان أحد العوامل في انتصار تيمور لذك السريع على المدافعين عن حلب وما وراءها من البلدان إلى دمشق ، وقد عاث جنوده فيها - كما مر بنا - نهباً وسفكاً للدماء . وعلى الرغم من أن دمشق استسلمت له بميثاق أو عهد أخذه على نفسه أن لايمس أهلها بأذى لم يكده بدخلها مع جنده حتى نكث عهده وميثاقه فسبى جنوده النساء وشدوا الرجال والأولاد في جبال وأشعلوا النار في المنازل والدور والمساجد ثلاثة أيام فاحترقت المدينة ، وسقطت



سقوف الجامع الأموى وصارت دمشق أطلالا عافية أو بالية ، بعد أن كانت فردوسا من فراديس الجنان ، وهى طامة كبرى ظلت دمشق تعاني منها طويلا . وزاد تيمور لك الطين بلة بتجريد دمشق - كما مرّ بنا من صفوة صناعتها ومهندسيها ، إذ أخذهم معه الى عاصمته سمرقند . وحاول سلاطين المماليك بعد خروجه من دمشق للحرب السلاجقة فى آسيا الصغرى أن يعيدوا لدمشق والشام شيئا من الرخاء بإلغاء المغارم والمكوس وكل ما كان يبهظهم من الضرائب الاستثنائية .

واستعادت دمشق مبانيها وعمارتها بعد تيمور ، ولا بد أنها ظلت تعاني من خسائر الحريق وانقراض عائلتها الباذخة فترة طويلة . وسرعان ما نسمع أنه أصبح بها مائة حمام . وشاد حكامها فيها قصورا فخمة على مر السنين ، واتسع ذلك فى بلدان الشام جميعا : من حلب شمالا إلى غزة جنوبا ، وبدأ ذلك منذ أوائل عهدها بالاسلام لزمن الأمويين ، فإن خلفاءهم وأمراءهم وبعض نسايتهم شادوا فى دمشق لأنفسهم قصورا باذخة ، وامتد ذلك إلى حلب وغير حلب من مدن الشام وإلى البوادي . وظلت هذه العناية بتشيد القصور لحكام الشام على مر السنين ، ومرّ بنا أن خمارويه بنى لنفسه بجوار دمشق قصرا ، وتتابع بناء حكام دمشق وبلدان الشام للقصور ، سوى ما كانوا يبنون من المساجد والخانات والمؤسسات والمدارس . وتحدث المؤرخون طويلا عن قصر أنيق بدمشق بناه الظاهر بيبرس . وعنى الصليبيون ببناء الحصون كما عنى الأيوبيون والمماليك ببناء المساجد والمدارس والرباطات والمؤسسات والقلاع والجسور وكان لكل ذلك أثر واسع فى نشاط الحياة بالشام ورواج الصناعة والتجارة .

وترزح الشام - كما رزحت مصر - تحت حكم العثمانيين ، ويظلون بها أربعة قرون ، ويتقوض كل أمل لأهل الشام فى تدارك الأمور ، وبدأ ذلك الغزالي نائب سليم بما أخذ يفرض على أهل الشام من ضرائب ثقيلة ، وزال حكمه ، كما مرّ بنا ، وظلت المكوس تزداد وظلت البلاد تنزوى من سيئ إلى أسوأ إذ دأب العثمانيون على التضييق السريع لحكامهم فى البلاد ، ودأب الحكام على اعتصار خيراتها حتى آخر قطرة . وكانت الدولة العثمانية تدفع إلى استنزاف كل ما فى ديار الشام من أموال وظلموا الناس أشد ظلم ، بل نهبهم أعسف نهب وابتزوا أموالهم أسوأ ابتزاز . وهيا ذلك لمظالم لاتطاق فى المدن بين الصناع والتجار وفى القرى بين الزراع ، مما جعل بعض الفلاحين يفرون من قراهم إلى الجبال أو يتزلون عن ممتلكاتهم فيها إلى بعض ذوى الجاه مفضلين أن يعيشوا فقراء على معيشة الحرية النعمة المنتهكة . وانتكست بذلك الزراعة ، ولم تعد هناك عناية بإنتاج القطن

والحرير ، فانتكست أيضا الصناعة والتجارة . وزاد في انتكاس التجارة اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح واستثمارهم للهند وحملهم عروضا وتوابلها عن هذا الطريق مستغنين بذلك عن طريق الشام ومصر القديم . وبذلك فقدت الشام في أيام العثمانيين موردا ماليا ضخما كان على رأس مواردها التي أتاحت لحكامها بناء منشآتهم المعارية الكثيرة من الأسوار والقلاع والحصون والقصور والمساجد والمدارس . وعم الكساد الشام طوال الحقب العثمانية . بل عم البؤس والظلم والخراب ، كما عمت الفوضى الإدارية ، وكلما تقدمنا دورة زمنية مع الحكم العثماني ازدادت الشام انتكاسا وفسادا وظل ذلك سائدا طوال زمن العثمانيين حتى القرن التاسع عشر بل حتى نهاية حكمهم .

### ٥

**التشيع : الإسماعيلية والإمامية - النصيرية - الدرزية - الإسماعيلية النزولية أو القدواوية أو الحشاشين .**

#### ( ١ ) الإسماعيلية والإمامية

مربنا - في كتاب العصر العباسي الثاني - أن عبدا لله بن ميمون القداح اتخذ سَلَمِيَّة قرب حاة بالشام حوالي منتصف القرن الثالث الهجري مركزا للدعوة الإسماعيلية التي كانت تجعل الإمامة بعد جعفر الصادق في ابنه إسماعيل لا في ابنه موسى الكاظم مخالفين بذلك فرقة الإمامية الاثني عشرية الشيعة . وانتقلت بعد إسماعيل في أئمة مستورين ، إلى أن قرَّ المهدي بالله من سلمية إلى تونس وأسس هناك الدولة الفاطمية وصار إليها حكم مصر والشام منذ أواسط القرن الرابع الهجري . ونشط دعائهم في الديار الشامية بدعون إلى عقيدتهم التي تقصر إمامة المسلمين على أبناء علي بن أبي طالب من السيدة فاطمة الزهراء ، زاعمة لهم العصمة وحق تأويل الذكر الحكيم ومعرفة أسرارهِ ، ولذلك سموا باسم الباطنية ، وزعموا أن الأئمة يتوالون في أدوار كل دور يتألف من سبعة منهم ، والسابع هو الإمام الناطق المثل للعقل الكل وإليه تنتقل قدرة الله وعنه تصدر النفوس الكلية للأئمة الستة قبله ، وأطلقوا اسم الذات العلية وكل صفات الله على أئمتهم .

وعرفت الشام بجانب العقيدة الإسماعيلية العقيدة الإمامية أو الاثنا عشرية التي يتوالى في الإمامة بها عندهم اثنا عشر إماما يجتمعون بالإمام أبي القاسم محمد الذي اختفى وهو في الثامنة من

عمره حوالي سنة ٢٦٠ ويؤمنون بأنه لا يزال حيا باقيا وأنه لابد من عودته يوما أو رجعه ليهدى الناس إلى طريق الرشاد ويعيد سنن الرسول ﷺ ويرد حق أسرته المسلوب ويملأ الدنيا حقاً وعدلاً ، ويسمونه في أثناء غيابه الجسدية قائم الزمان وإمام الوقت . وهو بذلك كله المهدي المنتظر الذي ينتقد العالم من مفساده وشروره . وعند الإمامية أن أنتمهم وحدهم يتميزون بمعركة المعاني الباطنة أو المسترة وراء ظاهر النصوص القرآنية ، ولذلك يعد التأويل من أسس العقيدة الإمامية ، ويرون أنتمهم فوق الطبيعة البشرية ، ولذلك يعتقدون فيهم العصمة وأنهم مطهرون لا يسيئهم أى ضرب من ضروب المعاصي والآثام .

وإذا كان مركز العقيدة الإسماعيلية منذ أوائل هذا العصر في القرن الرابع مصر فإن مركز العقيدة الإمامية كان العراق وإيران . وكان قرب معتقبيها من الشام سببا في أن يدخلها كثيرون منه منذ وقت مبكر وكانوا يبنون في حلب وأيضا بين بعلبك وصفد ، ويسمون باسم المتوالي الإمامية ومنهم أمراء حرفوش . ونقف لتحدث عن فرق شيعية غالبية هي فرق النصيرية والدروز والإسماعيلية التزارية المسمون بالقدادية والحشاشين .

### (ب) النصيرية<sup>(١)</sup>

فرقة شيعية غالبية غلوا مفرطاً ، ولم تكن تتبع الفرقة الإسماعيلية ، بل كانت تتبع الفرقة الإمامية الاثني عشرية ، أو قل إنها تفرعت منها ، وكانت تسكن في قرى بسفوح الجبال الممتدة من طرابلس إلى أنطاكية أنشأها فيها داعية يسمى محمد بن نصير النصيري زعم لهم أنه مبعوث الإمام الحادي عشر حسن العسكري وأخذ ينشر فيهم عقيدته منفصلاً بها عن العقيدة الإمامية إذ جعل مبدأها أو محورها الأساسي ألوهية علي بن أبي طالب وأنه خالد في طبيعته الإلهية ومسكنه السحاب ، والرعد إنما هو صوته المائل ، والبرق إنما هو ضحكته العالي ، ولا يلصقون ابن ملجم قاتله ، بل يقولون إنه خلص اللاهوت أو الجزء الإلهي من الناسوت أو الجسم المادي ، ويعظمون الخمر ويرونها من النور الإلهي ، ويحفظون بالأعياد المسيحية ويزعمون أن سلمان الفارسي إنما كان رسولا لعل بن أبي طالب ، ويحفظون بطل قاتلين : وحق على العلي الأعلى ، كما يحفظون بالنور

ديارهم بالشام عن عقيدتهم وكتاب الضيعة والفرقة في الإسلام لجورلدهنر ص ٢٢٠ وما بعدها وتاريخ النصيرية وديانهم للدوس طبع باريس .

(١) انظر في النصيرية فرق الشجرة للتونسي والملل والنحل للشهرستاني وصبح الأعشى ١٣/٣٥ ، ٢٤٩ ، والتعرف لابن فضل الله المصري ورحلة ابن بطرطة وحده فيها حين زار

قاتلين وحتى النور وما نشأ منه . وواضح أنه تختلط بعقيدتهم عناصر فارسية كمعصر النور وعناصر مسيحية كمعصر قداس الحمر والطعام وهو شبيه بالعشاء الرباني ، ويروون عن الرسول ﷺ أنه قال لعل : « لولا أن يقول الناس فيك ما قالوا في عيسى لقلت فيك مقالا » وهو حديث موضوع . ويقول التومبتي في فرق الشيعة وابن فضل الله في التعريف إنهم يحلون المحارم ، ولهم كتاب مقدس يخفونه عن الناس كما يخفون عقيدتهم ولا يبيحون لأحد منهم أن يلجئ شيئا من مبادئها وأسرارها المصونة عندهم . ويقول الشهرستاني إنهم يقولون بأن عليا كان موجودا قبل خلق السموات والأرض ، وأن الإله ظهر بصورته وخلق يديه وأمر بلسانه . ولكل ماسبق قال جولد تسيبر : « تغلب على تلك الفرقة أفكار وعقائد وثنية » ويقول « إن إسلامها إسلام اسمي فحسب » . ونظن ظنا أن استيلاء الفاطميين على الشام ونشر دعائهم لنحلهم الغالية المفرطة في الظو هناك . ثم ما كان من انشغال الأيوبيين بحربهم لحملة الصليب ، كل ذلك كان سببا في اتساع حركتهم حتى إذا كان عهد الناصر بن قلاوون رأيناهم يكتب في سنة ٧١٧ للهجرة إلى ولاته في الشام أن يأخذوا على أيديهم ، ويأمرهم أن يعمروا في كل قرية من قراهم مسجدا وأن يحوها منها الخمر وكل ما يتصل بالآثام ، وصعدت قراهم لأمره .

### (ج) الدرود<sup>(١)</sup>

الدرود فرقة شيعية تفرعت عن الفرقة الإسماعيلية الكبرى ، آمنت بأن التجسد الإلهي حل في الحاكم بأمر الله ( ٣٨٦ - ٤١١ هـ ) أسسها أو أنشأها بالشام داع إسماعيل أعجمي من دعاة الحاكم يسمى محمد بن إسماعيل الدرزي ، وكان من غلاة الدعاة الباطنية يؤمن بالتناسخ ، فأقوى الحاكم على ادعاء هذا التجسد ، وصنف له كتابا ذكر فيه أن روح الله مازالت تنتقل من رسول إلى رسول ، وبعد النبي ﷺ انتقلت إلى علي بن أبي طالب وتناسخت في الأنمة من أبنائه حتى انتهت إلى الحاكم ، فهو ليس بشرا ، إنما هو لاهوت تجسد في الناسوت . وعلمت الرعية في مصر بما يوسوس له الدرزي فصممت على قتله ، وأنفذوه منها الحاكم وقال له اخرج إلى الشام وانشر دعوتك في الجبال فإن أهلها سريعو الانقياد ، فخرج إلى الشام ونزل في قبيلة تنوخ بوادي التيم من

وديان قرية بانياس غربي دمشق ، وأخذ ينشر دعوته في منازل تلك القبيلة بجبل حوران وأيضاً في القسم الجبلي من لبنان . وتوفى فقام بالدعوة بعده حمزة بن أحمد الهادي وكثر أتباعها وعُرفوا بالدروز نسبة إلى مؤسس الدعوة . وانتشارها على هذا النحو في جبل لبنان وحوران بسوريا جعلها تزدحج بين قبائل وعشائر عربية ، وسقطت إلى الجنوب حتى جبل كركم بالقرب من صفد في فلسطين ، وصعدت إلى الشمال حتى الجبل الأعلى بين حلب وأنطاكية . وأتاح لها ذلك أن تشيع بين عرب ذوى بأس وأهل شجاعة ، ومنذ وطئت أقدام الصليبيين الشام وضعوا أيديهم في أيدي الدولة البورية صاحبة دمشق ثم في أيدي عماد الدين زنكى ونور الدين وصلاح الدين ضد حملة الصليب . وظلوا يجهادونهم في زمن الأيوبيين والمماليك متعاونين أوثق تعاون مع سلاطين الدولتين في طردهم من الشام . وأبلوا بلاء حسناً في حرب التار . ولعل ذلك هو الذى دفع الدولتين إلى مسالمتهم والإبقاء عليهم مع إقرارهم على إقطاعاتهم ، حتى يظلوا عُصّة في حلق أعداء الإسلام والعروبة .

ولديهم رسائل مقدمة لمؤسس دعوتهم محمد بن إسماعيل الدرزي وخليفته حمزة بن أحمد وتلميذه بهاء الدين . ويردد حمزة أن للحاكم بأمر الله حقيقة لاهوتية لاتدركها الحواس ولا الأوهام ، ويقول إنه ليس له مكان وإن حل في كل مكان . وحاول هو وأستاذه الدرزي وتلميذه بهاء الدين أن يقتنوا الناس من حولهم بأن الحاكم تجسّدُ إلهى وأنه يتشكل في صورة بشرية هي الصورة الإنسية التى عاش بها مع الناس كأنه فرد مثلهم . وليس الحاكم أول صورة بشرية تشكل فيها الله بل هو آخر صورة تجسد فيها ، فقد تجسد قبله في الأنبياء والأئمة مما يفسح عند الدروز لفكرة التناسخ . ويصور القلقشندي عقيدتهم قائلاً : « إنهم يقولون بأن الألوهية انتهت إلى الحاكم وتديرت ( سكنت ) ناسوته كما يقولون برجعته وإنه يغيب ويظهر بهيته ويقتل أعداءه قتل إبادة لامعاد بعده إذ ينكرون المعاد » . فلامعاد عندهم ولابعث ولاقيامة ، إذ القيامة في رأيهم يوم رجعة الحاكم وظهوره في صورته اناسوتية ، . وحينئذ يوقع العذاب والثواب على الناس ، أما الثواب فارتفاع بالدرجة في العلوم الدينية ، وأما العذاب فهب بالدرجة إذ يستمر الشخص يتقل من جسد إلى جسد أو قل تستمر روحه تنتقل في أجساد تهبط به في الدين درجة بعد درجة .

وتُسقط شريعة الدروز الفروض الدينية وتوجب صيام الأيام التسعة الأولى من شهر ذى

الحجة ، ويقول القلقشندي إنهم يذهبون مذهب الطائفة في قولهم إن الطائفة هي المولدة ، والموت بقاء الحرارة الغريزية كانهفاء السراج بقاء الزيت ، ويقول : إنهم زادوا في البسطة أيام الحاكم : باسم الحاكم الله الرحمن الرحيم ، ثم جملوها باسم الله الحاكم الرحمن الرحيم . ولهم دعية خاصة يتجهون بها إلى ربهم ، من ذلك ما نقله الدكتور محمد كامل حسين من رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد لحمزة بن أحمد من مثل : « سبحان مولانا جل ذكره عن إحاطة الأشياء به وعز سلطانه عن حكومة الألسن والأوهام عليه لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » .

على أنه ينبغي أن نعود فنذكر أن عقيدة الدروز أصابها بعض التعديل في فروعها بما يتلاءم والإسلام ومن أهم من عملوا على ذلك عباده التنوخي الملقب بالسيد المتوفى سنة ٨٨٤ وقد حاول العودة بهم إلى مذهب الجعاعة .

#### (د) الإسماعيلية<sup>(١)</sup> النزارية أو القدادية أو الحشاشون

مر بنا في الحديث عن التشيع بإيران في الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي أن داعية من دعاة الحركة الإسماعيلية الفاطمية بإيران هو الحسن بن الصباح زار مصر لعهد المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) وسأله من الخليفة بملك ؟ فقال له : ابنى نزار ، فعاد إلى إيران يدعو للمستنصر وابنه نزار ، واستطاع مع طائفة من أتباعه أن يستولى على قلعة « الموت » الجبلية الشاهقة ، واتسمت دعوته حتى ضم إليه قلاعا وحصونا كثيرة بإيران وبعض بلدانها في قزوين وطبرستان . وكانت الأمور تتطور بالقاهرة فتوفى المستنصر ورأى الأفضل بن بدر الجمالي أن لا يولى نزارا بعده وإنما يولى أخاه المستمل . وبذلك انقسمت الإسماعيلية الفاطمية قسمين : قسما عريا في مصر والشام بيده مقاليد الحكم يدعو للمستمل وقسما شرقيا في إيران يمثلهم الحسن بن الصباح يدعو لنزار .

واستطاع الحسن بن الصباح أن يحول فرقته أو طائفة كبيرة منها إلى فرقة إرهابية مهمتها اغتيال خصوم الدعوة من حكام الأقاليم والدول ووزرائهم ومن العلماء والفقهاء المناوئين لها ، وكان ممن اغتالوه الوزير السلجوقي العظيم نظام الملك سنة ٤٨٤ . ومن أجل ذلك أطلق على اسم هذه الفرقة

(١) ٣٥٥ و٣٦٦ وكتاب طائفة الإسماعيلية : تاريخها . نظمها .

عقائدنا للدكتور محمد كامل حسين .

(١) انظر في هذه الفرقة وقلاعها بالشام وبنائها صبح

الأعشى ١٢١/١ و١٢٦/٤ و١٧٩ ورحلتي ابن جبير وابن

بطرطة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٨٢ .

اسم الفدائيين أو الفداوية كما غلب اسم الحشاشين لأنهم - فيما يظهر - كانوا يتعاطون الحشيش المهدر. وعمل الحسن بن الصباح على نشر الدعوة الإسماعيلية لاف أقاليم إيران فحسب ، بل أيضا في إقليم الشام ، فأرسل إليها دعائه ، وبادر بإرساله الحكيم النجم أسعد إلى حلب في أيام حاكمها رضوان بن تثنى السلجوقي ( ٤٨٨ - ٥٠٧ هـ ) فشر بها الدعوة وكثر أتباعه وأوهر إلى بعض الحشاشين معه باغتيال جناح الدولة صاحب حمص ، واغتيال سنة ٤٩٦ هـ . ووفد على حلب داعية ثان للحسن بن الصباح هو أبو طاهر واستولى مع شيعته على حصن قامية من الصليبيين ثم استردوه منه . وأخذ الفدائيون من فرقة ابن الصباح يفتدون على الموصل والشام واغتالوا في سنة ٥٢٠ هـ صاحب الموصل آق سقز . وفي نفس السنة وفد على دمشق نزارى من أئمة ، وتقرب من طغتكين صاحبها ، وتنازل له عن قلعة بانياس فأخذ يدير دعوته منها ، وكثر أتباعه ، وأدخل المردخاني وزير بوري ( ٥٢٢ - ٥٢٦ ) في دعوته فعين أحد رجاله ، وهو أبو الوفا قاضيا لقضاة دمشق . وبعث أبو الوفاء سرا لبلدوين الثاني صاحب بيت المقدس أنه على استعداد لتكثيفه من الاستيلاء على دمشق في نظير تنازله له عن صور ، وقدم حملة الصليب إلى دمشق سنة ٥٢٤ هـ لتنفيذ المؤامرة وفتن بوري فقتل أبا الوفاء ووزيره المردخاني ، ورد لله حملة الصليب عن دمشق مدحورين .

وأخذ الإسماعيليون التزاريون في بانياس يمتدون لأنفسهم بالاستيلاء على طائفة من القلاع في السفوح الشرقية لجبال النصيرية بالقرب من طرابلس إلى الشمال بينها وبين حماة ، حتى إذا خلاص الأمر لرشيد الدين ستان منذ سنة ٥٥٨ هـ أخذ ينظم هذه الجبهة الإرهابية الخطيرة جاعلا من قلاعها وهي مصياف والرصافة وقنقوس والحوائى والكهف والميمنة والطبقة ، مركزا للدعوة . وبعد دوره في الدعوة بالشام كدور الحسن بن الصباح في إيران ، فقد ضاعف تحصينات قلاعها وزودها بالصلاح والعتاد ، وكان ستان مباينا لنور الدين ولم يحاول أن يساعده في حربه لحملة الصليب ، وفكر نور الدين في منازلته ولكنه توفي قبل تحقيق فكرته . وبالمثل كانت بين ستان وصلاح الدين مباينة ، وأرسل إليه بعض فدائييه أو حشاشيه مرتين ليقتاوه ونجى الله صلاح الدين من خناجرهم ، وجردهم في سنة ٥٧٢ هـ جيشا جرارا حاصره قلاعهم وضيق عليهم ، فسألوه الصفح عنهم ، فأجابهم إلى ذلك ليضرب مريعا لحرب حملة الصليب مؤملا أن يمدوا له يد العون في تلك الحرب ، وكانوا قد وعدوه أن يقفوا معه ضدهم ، فلم يتعرض صلاح الدين بعد ذلك قلاعهم .

ونمضى معهم إلى أيام هجوم التار على الشام فنجد داعيتهم أبا المعالي رضى الدين يرضخ لهم ويسلمهم بعض القلاع سنة ٦٥٨ بينا ظل الدروز يقاومون التار - كما مرنا - ولعل ذلك ما جعل الظاهر يبرس بعد قضائه على التار يفكر فى الاستيلاء على قلاعهم منذ سنة ٦٦٤ وسرعان ما أعلنوا له الطاعة وأنهم جزء من رعيته . وفى سنة ٦٦٩ عزل داعيتهم نجم الدين وولى مكانه داعية ثانياً يسمى صارم الدين ، غير أنه أعلن الثورة عليه ، وسرعان ما أخفقت ثورته . وأخذ الظاهر يبرس يستولى على قلاعهم حتى سلمت له وخضعت جميعا ، ولم يعمد إلى إجلائهم عن قلاعهم كما صنع هولاء حين استولى على قلعة الموت وغيرها من قلاعهم بليزان ، بل أبى عليهم ليقيد من سفاكيهم فى الفضاء على خصومه . وظل سلاطين المالك بعده يستخدمونهم نفس الغاية .

ويسجل ذلك ابن بطوطة حين زار حصونهم لمهد الناصر بن قلاوون سنة ٧٢٧ إذ يقول : « وهذه الحصون لطائفة يقال لها الإسماعيلية ، ويقال لهم الفداوية ، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم ، وهم سهام الملك الناصر بهم يعيب من يعدو عليه من أعدائه ، ولهم المرتبات ، وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه دينه ، فإن سلم بعد تأدية ما يراد منه ففى له ، وإن أصيب ففى لولده » . ويقول القلقشندى نقلا عن ابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة : « ولصاحب مصر بمشايعة الفداوية مزية يخاف بها عدوه ، لأنه يرسل منهم من يقتله ولا يزال أن يُقتل بعده ، ومن بعثه السلطان إلى عدو له فحين عن قتل أهله إذا عاد إليهم ، وإن هرب تبعوه وقتلوه » . وبالقاهرة جامع منسوب إلى هذه الجماعة الإرهائية يسمى جامع الفداوية ، ويقال إن الفداوى الإرهائى الخطير الذى كان يعتمد عليه يبرس هو « شبة » المدفون بمياط .



### الزهد <sup>(١)</sup> والتصوف

الشام - من قديم - بلد دين سماوى ، بل دينين سماويين هما اليهودية والمسيحية ، مما جعل لها تأثيراً بعيداً في تاريخ العالم الروحى ، إذ عملت بقوة على نقله من دور الوثنية إلى دور الديانات السماوية ، وبدأ ذلك منذ أعتق الأزمنة ونقصد زمن إبراهيم الخليل عليه السلام الذى آمن بوحداية الله ، وحاول أن يحمل طيها قومه ، وتتابع بعده الرسل تؤكد دعوته وتدعو إلى عبادة الله وإعلاء القيم الروحية ، حتى إذا كانت المسيحية وأدخلت فيها مصر نظام الرهبنة والمعيشة الخالصة لتعبد الله والنسك فى الأديرة والصوامع عَمَّت هذه الروح فى الشام واعتزل كثيرون منه - فى أيام الرومان الظالمة - الحياة اليومية العاملة إلى الرهبنة . وتمتلك كثرة السكان فى الشام الدين الحنيف ويقبلون على تعاليمه وعبادة الله الواحد الأحد حتى عبادته وعلى ماتدفع إليه من النسك والتقوى ، مقتدين بمن نزل بينهم من جلة الصحابة وبخاصة من أهل الصفة الذين كانوا يلازمون المسجد النبوى مقبلين على عبادة الله زاهدين فى الدنيا ومتاعها الزائل من أمثال بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ وأبى عبيدة قاتع الشام مع خالد بن الوليد ، وكان على غرارهما زهدا فى الدنيا معاذ بن جبل المتوفى مع أبى عبيدة فى سنة ١٨ للهجرة بطاعون عمواس ، ويؤثر عنه أنه كان يقول حين نزل به القضاء : « مرحبا بالموت ، مرحبا بزازر حبيب جاء على فاقة ، اللهم إنك تعلم أبى كنت أتخاطبك ، وأنا اليوم أرجوك ، وإنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكزى الأنهار ولا لفرس الأشجار ولكن لظماً المواجه ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلقات الذكر » .

والسلوك للمقرئى والدرد لابين حجر والأخلاق الخطيرة فى ذكر أنراء الشام والجزيرة ، الجزء الخاص بمدينة دمشق ( تحقيق د. سامى الدعان ) ووفيات الأعيان وفوات الوفيات فى تراجم بعض للتصوفة والزهاد وابن تفرى بردى واليدر الطالع للشوكافى وروى الرياحين للياضى وخلاصة الأثر للمحى وسلك الدرد للرمادى وتاريخ الجبل ووجه تسيير ودائرة المطارف الإسلامية والجزء الرابع من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان

(١) انظر فى الزهد والتصوف بالشام كتب تراجم الصحابة ، وبخاصة من صبيانهم ، وراجع فى معاذ تذيب النوى وفى أبى الدرداء البيان والتبيين للجاسط : الجزء الثالث ( انظر الفهرس ) وانظر فى الأسماء التالية طبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلى والطبقات الكبرى للشمراى والرسالة القشيرية ( طبعة عبدالحميد عمود ) وكشف المحجوب للهجرى ( الترجمة العربية ) ونهذب تاريخ دمشق لابن عساكر وأحسن التقاسيم للقسى

وعلى شاكلة معاذ في الورع والتقوى من صحابة رسول الله ﷺ الذين هاجروا إلى الشام أبو الدرداء الأنصاري ، وهو أحد حفظة القرآن الكريم لعهد الرسول وأول من تقلد القضاء بدمشق إلى أن توفي سنة اثنتين وثلاثين للهجرة ، وهو من أهل الصفة الأتقياء ، ويروى الجاحظ عنه أنه كان يقول « نعم صومعة المؤمن منزل يكف فيه نفسه وبصره ، وإياكم والجلوس في الأسواق فإنها تلهي وتغمل على اللغو في الكلام » ويروى عنه أيضا قوله : « أضحكى ثلاث وأبكاني ثلاث : أضحكى مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل لا يُفْقَلُ عنه ، وضاحك ملء فيه ولا يدري ساخط ربه أم راض ، وأبكاني هول المطلع <sup>(١)</sup> ، وانقطاع العمل ، وموقفي بين يدي الله لأبدرى أيومري إلى الجنة أم إلى النار . وأخذ يتكاثر بعد جبل الصحابة في الشام العباد والأتقياء ونلتقي بهم في كل طائفة : في القضاة والفقهاء والمحدثين وقراء الذكر الحكيم .

واتسع ذلك حتى شمل بعض الحكام على نحو ما هو معروف عن الخليفة عمر بن عبدالعزيز وهو يمثل نموذج الحاكم المتكشف الزاهد الذي يغشى الله في كل ما يصدر عنه من قول أو فعل ، ومربتا أنه رفع للكوس وضرائب السود والمباير عن الناس وأنه سوى بين المسلمين الجدد من الموالى والمسلمين من العرب فحط عنهم - مثلهم الجزية - واكتفى بالزكاة . وكتب إليه أحد عماله : إن أهل الذمة قد أقبلوا على الإسلام حتى يتخلصوا من الجزية ، فأجابه : إن الله بعث محمدا داعيا ولم يبعث جاييا . وبفيض ابن سعد في ترجمته له ببطاقته في بيان زهده ورفضه لتنازع الجباة من رقيق يملكه ومن عطر يتطيب به . وعمل بكل جهده على نشر العدل في دولته ورفع المظالم عن الناس . وكان يجهد نفسه في النكس والتعب حتى اصفر لونه ونخل جسمه ، وأنكر منه بعض الزهاد ممن كانوا يلمون به ذلك فقال له : كيف بك لو رأيتني في قبري وقد سالت الحدائق - بعد ثلاث لبال - على وجنتي وتقلصت الشفتان لكنت إذن أشد نكرا . وطبيعي أن يكون عمر من أسباب اتساع موجة الزهد في الشام . ونكتي بذكر بعض من تخرج بهم كعب القراء والفقهاء والتاريخ من هؤلاء الزهاد العباد . من ذلك ما يقولونه عن شيان الراعي المتوفى سنة ١٥٨ وكان من كبار الفقهاء الزهاد وكان من أكابر أهل دمشق وعكف على النكس ، وبلغ به ذلك أن ترك الدنيا وأخذ له صومعة في جبل لبنان فانقطع بها بتعبه الله .

ونسبح كثيرا عن عباد انقطعوا بهذا الجبل مؤثرين الإقامة به للتعب <sup>(٢)</sup> ، ومنهم من كان يتعب الله في جبال أنطاكية والمصيبة ، ومنهم من يتخذ الصوامع ، وظل ذلك متبعا حتى زمن ابن

جبر<sup>(١)</sup> . وكان منهم من لا يبعد عن دمشق إلى الجبال النائية مثل فهر بن جابر الطائي المتوفى عام ٢٢٠ فإنه لما بلغ الخمسين من عمره اعتزل الناس بحوار دمشق ، وأخلص نفسه للتقوى والنسك ، وله في الزهد كتاب سماه : « العروج في درج الكمال والخروج من درك الضلال » . وولتقى بمعاصره أبي سليمان الداراني عبد الرحمن بن أحمد بن عطية المتوفى سنة ٢١٥ وفيه يقول ابن تغري بردي : « كان من واسط ونحو إلى الشام ونزل قرية دارياً غربي دمشق ، وكان إماماً حافظاً كبير الشأن في علوم الحقائق والورع أننى عليه الأنمة ، وكان له الرياضات والسياحات ، ويقول المجويزي : « كان ربحانة القلوب ، اختص بالرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة » . وتسلكه كتب الصوفية ، في تراجمهم . ولم يكن التصوف حتى زمنه استقل عن الزهد بأحواله ومقاماته ، فهو إلى أن يكون زاهداً أقرب منه إلى أن يكون متصوفاً . وحمل عنه نزعة النسكية تلميذان أو مريدان ، هما أحمد ابن عاصم الأنطاكي وابن أبي الحواري الدمشقي ، أما ابن عاصم فوفى بعد أستاذه بخمس سنوات ، ويسلكه المتصوفة بين أوائلهم ويقولون إنه كان يجمع بين الأصول والفروع في الشريعة ، وكان يقول : « أنفع الفقر ما كنت به متجعلاً عنه راضياً » . ويذكر بروكلمان له كتاباً في الزهد سماه « دواء القلوب ومعرفة هم النفس وآدابها » ويقول إن الغزالي ينقل عن هذا الكتاب كثيراً . وتلميذ الداراني الثاني أو مريده ابن أبي الحواري أحمد توفى سنة ٢٣٠ وكان من بيت زهد ، فأبوه من الورعين وكذلك ابنه عبدالله ، وذكر عند الجنيد متصوف بغداد فقال : « ربحانة الشام » . وكان يعاصره الشيخ أبو عبيد وان عابداً تقياً صالحاً توفى سنة ٢٣٨ وقد وهب نفسه للغزو وجهاد أعداء الله .

ونلتقى في طرس دار حرب الروم بالشيخ أبي الحارث الفيض بن الخضر الأولاسي المتوفى سنة ٢٩٧ وكان أحد الزهاد الصاد وله إشارات ولسان حلو وأقوال عالية ، وهو منسوب إلى أولاس في نواحي طرسوس ، وكان بها حصن يسمى حصن الزهاد ، وكأنما اتخذوه رباطاً للحرب أعداء الإسلام . وهو شاهد على ما قلناه مراراً في كتاباتنا من أن زهادنا ومتصوفتنا كانوا دائماً يرون من تمام تصوفهم وزهدهم أن يحاهدوا العدو ويرابطوا له في الثغور ، حتى إذا كان تغير الحرب تقدموا الصفوف يقتلون أعداء الدين الحنيف ويستشهدون . وكان يعاصر الأولاسي أحمد بن يحيى

مضى سلفه للقام بحد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجردى  
(شأن الوصل) يلقى بها المريدون للقطيع إلى الله عز  
وجل فيهم معهم ما شاء وينصرف إلى حيث شاء .

(١) يقول ابن جبر في كلامه عن دمشق سنة ٥٧٨ كان  
الحجر يتال على الغرباء من الخطباء واللمطين لاق دمشق  
وحسناً بل أيضاً في القرى والضياع ، ومن سلفه للقام فيها

المعروف باسم ابن الجلاء المتوفى سنة ٣٠٦ تلميذ ذى النون المصرى مؤسس التصوف الإسلامى كما سنذكر ذلك فى حديثنا بجزء مصر، وتلمذته لذى النون تجعله أول متصوف شامى بالمعنى الحقيقى. وكان ذوالنون يجمع بين الشريعة وفروضاها وبين الحقيقة الصوفية الروحية ، فلا تعارض بين الشرع والتصوف ، بل هما متلاحقان ، وعنه أخذ ذلك ابن الجلاء كما أخذ بقية مبادئه الصوفية من التوكل والحب الإلهى . ويقول ابن تفرى يردى إنه أحد مشايخ الصوفية الكبار ، ويقول مريده وتلميذه الرقى محمد بن داود : « لقيت نيفا وثلاثمائة من المشايخ المشهورين ، فالتقيت أحدا بين يدى الله وهو يعلم أنه بين يديه أهيب من ابن الجلاء » . وعاش الرقى بعده فى الشام إذ توفى بعد سنة ٣٥٠ . ومن مريديه وتلامذته فى الشام أبو عمرو الدمشقى المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يقول : « التصوف رؤية الكون بعين النقص بل غرض الطرف عن كل ناقص ليشاهد مَنْ هو متره عن كل نقص » يريد تعلق التصوف بالرؤية الإلهية التى يغض فيها المتصوف بصره عن كل ما يشاهده فى الكون أملا فى أن يفنى فى الذات الربانية ، وذكر مترجموه أن له كتابا فى الرد على القائلين بقدم الأرواح .

ومن كبار المشايخ فى الشام أحمد بن عطاء الروذبارى المتوفى سنة ٣٦٩ وهو ابن أخت أبى على الروذبارى شيخ الصوفية فى القسطنطينية ، أما هو فكان شيخ الشام فى وقته ، وكان ممن جمع بين الحقيقة وعلم الشريعة . ودخل الشام محمد بن خفيف الشيرازى شيخ المشايخ المتوفى سنة ٣٧١ ويحكى أنه : « دخل مدينة صور وهو جائع عطشان وفى وسطه خرقه للتصوفة ، يقول : فدخلت المسجد ، فإذا شابان مستقبلا القبلة فسلمت عليهما فأجاباني ، فقلت : ناشدتكما الله إلا رددتما على السلام ، فرفع أحدهما رأسه من مرقمته الصوفية فنظر إلى ورد السلام وقال لى : يابن خفيف الدنيا قليل وما بينى من القليل إلا قليل ، فخذ من القليل الكثير ، فذهب جوعى وعطشى ونصى ( تعي ) فلما كان وقت العصر قلت له : عطشنى ، فقال : يابن خفيف : نحن أصحاب المصائب ليس لنا عظة . وربما كان أهم تلامذة أحمد بن عطاء الروذبارى ومريديه محمد بن إبراهيم السوسى شيخ الصوفية بدمشق المتوفى سنة ٣٨٦ وكان زاهدا عابدا ماعقدا على درهم ولادينار . وظل كثيرون من العباد والناسك يؤثرون جبال الشام ويقومون بين ربوعها ويذكر المقدسى الجغرافى المتوفى حوالى سنة ٣٧٥ أنه لقي فى جبل الجولان شرق الشام أبا إسحق البلوطى فى أربعين رجلا يقتاتون البلوط ، يفلقونه ويطحنونه ويخلطونه بشعر برى ويلبسون الصوف . وينبئ أن نذكر أن المتصوفة كانوا غالبا لا يستقرون فى أوطانهم ، بل يرحلون سائحين للقاء مشايخ

الصوفية . ومعنى ذلك أن الشام كانت تستقبل كثيرين منهم . وكان يحدث كثيرا أن يتخذوها دار مقام كما صنع الداراني الواسطي وأحمد بن عطاء الروذباري . وغيرهما كثيرون مثل الخنثلي نزيل الشام المتوفى سنة ٤٥٣ هـ وهو أستاذ المهجوري الغزنوي الأفغاني ، وكانت أكثر إقامته بالديار الشامية . ومعنى ذلك أن الشام كانت دائما ساحة كبرى لنسك والتقوى والعبادة .

وواصل إلى سنة ٤٨٨ هـ حتى ينزل الإمام الغزالي الطوسي الصوامع النائية في مساجد بيت المقدس ، وكانت قد انتابته أزمة روحية من الخلافات العنيفة بين الفرق والملل وحتى بين الفقهاء في فروع الشريعة . وقد أوضحنا ذلك في حديثنا عن الزهد والتصوف بإيران في الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي وكيف أخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة ، وحمل على فرقة الإسماعيلية الشيعية حملة عنيفة في كتابه « فضائع الباطنية » . وكان قد رأى في موطنه ضعف الوازع الديني عند طوائف الصوفية ، وأن جماعات منهم كانت تُسقط عن نفسها الفرائض الدينية ، بينما كان منهم من يؤمن بالحللول والاتحاد بالله والفناء فيه . وكل ذلك أشعل بينهم وبين الفقهاء حربا شموا ، وأخذ الغزالي يفكر في كل ذلك على هدى ما كتبه أبو نصر السراج والقشيري في رسالته ، ورأى أنه لا بد من الوصل بين التصوف والشرع ، فلا تصوف بدون الفرائض والنوافل ولا صلاة بدون عمل القلب والإخلاص وصدق السريرة ، وأخذ يؤلف موسوعته الرائعة « إحياء علوم الدين » بقصد تنمية الجوانب الروحية في الفرائض الشرعية وبيان الوسائل إلى ذلك بحيث تصل النفس إلى مبتغاها من محبة الله . وأنتم الكتاب في دمشق . واستقبلته استقبالا عظيما لأن متصوفها لم يكونوا قد انحرفوا بتصوفهم إلى مزالقه التي وصفناها في إيران ، بل كانوا دائما يجمعون بين التصوف والشريعة ، إلا من دفعته السياحة إلى ديارهم من متصوفة إيران .

على كل حال كانت إقامة الغزالي بدمشق وبيت المقدس فائعة الشام وثيق بين الفقهاء والمتصوفة ، وزاد هذا الالتئام توثقا نزول حملة الصليب بديار الشام ، ولعل ذلك ماجعل حكامها التابعين للدولة السلجوقية يأخذون في العناية ببناء الخاناتها للمتصوفة ، من ذلك بناء دقاق بن تشل خانقاه الطواويس بدمشق . ودعم هذا التصوف السني عناية نور الدين ثم صلاح الدين وسلاطين الحكم الأيوبي وناوهم وأمرأهم ببناء الخاناتها والرُّبُط في ديار الشام ووَقَف الرواتب والأموال التي تتفق على متصوفها عن سعة . وقد عدَّ ابن شداد في الجزء المنشور من كتابه الأعلام الخطيرة الخاصة بدمشق خانقاهاتها وحدثها فبلغت تسع عشرة وبالمثل عديرا طائفتها بلغت أيضا تسعة عشر رباطا . وكان لا يزال يخرج منها صفوف وجنود لجهاد حملة الصليب . وفي هذه

الأثناء ظهرت ببغداد طريقة صوفية سنية هي الطريقة القادرية لمؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ واعتنقها كثيرون لافى العراق وحدها بل أيضا في الشام والبلدان العربية . وتبعها ظهور طريقة صوفية سنية ثانية هي الطريقة الرفاعية لمؤسسها الشيخ أحمد الرافعي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ وانتظم فيها كثيرون في العراق والشام وشاعت سريعا في العالم العربي .

ومعنى ذلك أن التصوف السني الجامع بين علم الحقيقة أو علم التصوف وبين علم الشريعة أو علم الفقه وما يتصل به من السنة تداخلت عوامل كثيرة في أن يكون هو التصوف الشائع في الديار الشامية . وحاول التصوف الفلسفي القائم على أفكار الحلول والاتحاد بالله أن يتسرب إلى الشام عن طريق يحيى السهروردي الإيزاني ، وكانت له فلسفة صوفية إشراقية ألمتها بها في حديثنا عنه في الفصل الرابع من قسم إيران ، وذكرنا هناك بأنه كان يؤمن بأن النبوات لا تنقطع وأن الحكميم الصوف من أمثاله أفضل من الأنبياء ، وكفره فقهاء حلب وحملوا الملك الظاهر بن صلاح الدين على قتله ، فقتله سنة ٥٨٧ هـ للهجرة .

وكان من أثر دخول الشعوذة على التصوف ، وخاصة في إيران ، ظهور فرقة بدمشق سنة ٦١٩ تسمى القلندرية وهم أتباع قلندر يوسف ، لا يتقشفون ولا يتنكبون ولا يصلون سوى الفرائض ، ويعلقون لحاهم وحواجيمهم . وتسرب ثانية إلى الشام جدول صوفي فلسفي زاخر على لسان يحيى الدين بن عربي المولود بمرسية في الأندلس سنة ٥٦٠ هـ وقد تلقى تعالجه في إشبيلية وفارقها في الثلاثين من عمره إلى المشرق لحج بيت الله الحرام . وظل في مكة فترة ثم بارحها معلّّفا في البلاد العربية ودخل الأناضول ، وألقى عصاه بدمشق وبها توفى سنة ٦٣٨ هـ . وكان إماما في التصوف الفلسفي للمقائل بوحدة الوجود وصنّف كثيرا من الكتب أهمها الفتوحات المكية والفصوص ، وله غير ديوان ، ومن أهم دواوينه ترجمان الأشواق ، وكان شاعرا مبدعا كما كان كاتباً بارعا . وعلى الرغم من اتجاهه الفلسفي في التصوف استطاع أن ينجز من العامة والفقهاء ، فلم يحكموا عليه بالكفر أو الإلحاد كما حكموا على السهروردي ، بل لقد وجد بينهم مريدين كثيرين مما هيأ فيها بعد لكى يظل التصوف الفلسفي - على قلة - حيا بجانب التصوف السني ، وكانت عباراته في كتاباته تحتل ظاهرا وباطنا ، ظاهرا مع السنة وباطنا مع التصوف الفلسفي ، وجعل ظاهرها كثيرين يرونه من جهة الإلحاد على نحو ما مر بنا في مصر عند الشمراني .

وتمتد دولة المالك بالخانقاهات والرُّبُط وزوايا المتصوفة ، وترصد لها أموالا كثيرة ، مما كان سببا في ازدهار التصوف وازدياد طرقه بجانب طريقى القادرية والرفاعية السالفتين ، فشاعت فيه

كما مر بنا آنفا الطريقة القلندرية . ودخلته الطريقة المولوية ، ومؤسساها جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٣ وتبع هذه الطريقة كثيرون . ونزل الشام غيف الدين التلمساني المتوفى سنة ٦٩٠ وكان صوفيا فلسفيا يؤمن بمذهب وحدة الوجود واحتمله فقهاء الشام فيها يبدو لحسن عشرته .

ولعل فقها لم يحمل على الصوفية كما حمل ابن تيمية الحنبلي المتوفى سنة ٧٢٨ . وكان يحمل على أصحاب التصوف الفلسفي . وهذا طبيعي . وحمل أيضا على أصحاب التصوف السني من أتباع الشيخ أحمد الرفاعي لما كانوا يأتون من أعمال شاذة كنفوذهم من النار المضطربة ، وأكلهم الحبات وهي حبة ، ولبسهم أطواق الحديد الثقيلة في أيديهم ، ولفهم شعورهم وتليدها . وثار عليهم ثورة عنيفة بدعته واجتمع الناس إليه ، فذهب بهم إلى نائب السلطان وعرفه ماتصنعه هذه الطائفة من بدع عجيبة ، فأمرهم بالكف عنها . أما أصحاب التصوف الفلسفي وما يتصل به من القول بالحلول ووحدة الوجود فقد أشعل ابن تيمية ضددهم نارا حامية ظل يذكرها بوقود جزل يزيدها لهبًا واضطراما ، واصطلى النار الباجريقي محمد بن عبد الرحمن ، وكان قد ترهد وتصوف فصاحبه جماعة من الأراذل ، فهوّن لهم أمر الشرائع وأراهم بوارق شيطانية ، وكان يقول لهم : إن الرسل طوّلت على الأمم الطريق إلى الله تعالى ، وزعم أنه وصل في سلوكه إلى السماء الرابعة ، وحُكّم عليه بإراقه دمه فاخفى إلى أن مات سنة ٧٢٤ . ودعا إلى مقالاته بعده متصوف من متصوفة خانقاه السيمسابة بدنسقي يسمى عثمان بن عبد الله الدوكالي ، وشاع أمره قبض عليه ، وكان ممن شهد عليه قتيان كبيران هما المزيّ والذهبي ، فحُكّم عليه بالقتل سنة ٧٤١ .

وشاعت في الشام لأواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجري الطريقة النقشبندية ، ومؤسساها محمد النقشبندى المتوفى سنة ٧٩١ . وأخذت تشيع معها لأواخر زمن المماليك الطريقة البكتاشية التي تدين بالنظريات الحلوية ولا تقيم وزنا للسان والفرائض الدينية وتقدس حليا والأئمة من بعده . ومنذ القرن الثامن الهجري نحس بوضوح أن العامة تخضع لمشايخ الطرق الصوفية بأكثر مما تخضع للفقهاء وعلماء الدين ربما بسبب خضوعهم للحكام بخلاف مشايخ الطرق الصوفية فإنه لم يكن لهم أى تعلق بالدنيا وكانوا يكتفون بما يجرى على خانقاهاتهم من أموال ولم يكن الشيخ يمدّ يده للحاكم يأخذ منه مالا . وكانوا كثيرا ما يحملون على الحكام إذا رأوهم انغرفوا عن الطريق السيئ . ونحول كثير من أتباعهم إلى دراويش يطوفون في العالم الإسلامي ، وكان لهم أثر غير قليل في حفاظ العامة على الروح الإسلامية .

ونعنى إلى زمن العثمانيين فتشط الطرق الصوفية لاهتمامهم بها ورعايتهم لها ، وتشيع معها

الطريقة الخلوتية ، ويعظم أمر الدراويش ويكثرون في العالم الإسلامي . ومما لا شك فيه أنه كانت تكثر الطرق الصوفية المخلصة التي تعنى بالنسك والعبادة ، وإن كان من الحق أنه أساء إلى هذه الطرق الدراويش المتسولون الذين كانوا يتكففون الناس . وهم دراويش رُحَّل كانوا يعيشون معيشة مطلقة ، وقد يتحللون فيها من الفرائض الشرعية . وبدون ريب كان بينهم من يتخذ الدروشة خداعا للناس ووسيلة إلى البطالة . ومع ذلك لانعدم أن نجد من حين إلى حين صوفيا حقيقيا يحاول النفوذ إلى معرفة أسرار الكون وخفاياه والتخلص من عالم الحس المادى للفناء في عالم الحقيقة والحب الإلهي ، على نحو ما نجد عند عبد الغنى النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ للهجرة وقد قلب بين الطرق الصوفية وعكف على دراسة أئمة التصوف الفيلسوف وغير الفيلسوف ، ولقى كثيرا من شيوخ الصوفية في لبنان وفلسطين ومدن الشام والحجاز ومصر ، وكان شاعرا كما كان ناثرا .



## الفصل الثاني

### الثقافة

١

#### الحركة العلمية

ظهرت الشام على مسرح الحضارة العالمية منذ أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد ، وهياها لذلك موقعها بين حضارتى وادى النيل وادى دجلة والفرات ، مما جعلها تستقل سريعا من عالم البداوة والرعى إلى عالم الزراعة والاستقرار ، وكان مما أسرع بها إلى هذه الغاية وقوعها في مفترق طريق العالم على الحافة الشرقية للبحر المتوسط ، مما أتاح لها أن تكون دولة بحرية على الأقل في شواطئها فتشارك في الملاحة والتجارة على نحو ما هو معروف عن الفينيقيين وإتقانهم لفنى التجارة والملاحة ، وقد استطاعوا أن يشتقوا من حلال الحروف الهيروغليفية المصرية أبجدية لهم ، هى أم الأبجديتين اليونانية والرومانية اللاتينية . وقد أخذت الشام تعيش عصرا هيلينيا منذ دخلها الإسكندر المقدونى ، ومضت تعمق الثقافة الهيلينية في زمن خلفائه السلوقيين اليونانيين وزمن الرومان ، واستطاع كثيرون من أهلها أن يتقنوا اليونانية وأن يسهموا في تراث اليونان الفكرى والأدبى ، وبخاصة سكان الثغور من غزة جنوبا إلى أنطاكية شمالا . ولعلت أسماء كثيرين من أبناء هذه الثغور في مجال المشاركة الفلسفية وبخاصة في صور وصيداء ، ساهم وتحدث عن نشاطهم الفكرى فيليب حتى وخاصة في مجال الفلسفة الرواقية والأفلاطونية الحديثة ، إذ ذكر أنه كان في بيروت مدرسة تعنى بدراسة القانون الرومانى منذ أوائل القرن الثالث الميلادى ، ويستظهر أن تكون اللاتينية لغة التعليم بثلث المدرسة ، وإن كانت قد عادت مع أوائل القرن الخامس وسيطرة القسطنطينية عليها إلى اللغة اليونانية . وبالمثل شارك أبناء الثغور الشامية في الأدب اليونانى ولمع في صيداء اسم غير شاعر كان ينظم باليونانية .

وكل ذلك كان يصل الشام فكريا وفلسفيا وأديا ولغويا بالثقافة اليونانية ، وإذا كانت قد اشتقت أبجديتها من الأبجدية الفرعونية ، فإن مصر أثرت فيها تأثيرا بعيدا في عصرها المسيحى ، إذ

أخذت عنها الرهينة التي أسسها أحد قساوسها في أواسط القرن الرابع للميلاد ، وكانت أول بلدة شامية استجابت إليها غزوة لقرها من مصر ، ومنها انتقلت إلى كل بلدان الشام حتى أنطاكية ، وكانت طوال العصر المملوكي تُعدّ ثالثة المدن في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية والإسكندرية .

وما يدل بوضوح على مدى تأثير المبلينية في الشام أن نراها تتعمق باديها أيام الرومان إلى دولة تدمر النبطية حين بلغت الذروة الطامعة إليها في عهد أذينة . وحين خلفته في الحكم أرملة زنوبيا اتخذت لونغينوس الذي علمها اليونانية مستشاراً لها ، ويظن أنه كان حمصى الموطن ، وقد أعلمه الرومان بعد قضائهم على زنوبيا سنة ٢٧٣ م . وهو بوضع في سلسلة النقاد المتأخرين من اليونان لما خلف من أفكار نقدية وبلاغية كثيرة .

وكل ذلك معناه أن الشام حين فتحها المسلمون كان بها تراث يوناني ومسيحي<sup>(١)</sup> بعدها للمشاركة سريعاً في نشاطها العلمي والأدبي بمجرد دخول الإسلام في ربوعها الذي كان يدفع أتباعه دفعا إلى التزود بالعلم والمعرفة . وقد دخل أهل الشام في دين الله أفواجا ، وكان من حولهم الصحابة الفاتحون لديارهم ، وعُنى كثيرون منهم بإقراء من أسلموا القرآن وعرض أحاديث الرسول عليهم ، حتى يفقهوا فقها حسنا تعاليم دينهم الحنيف . وكانوا مايزالون يفتونهم في المسائل حتى يتبينوا الحلال فينبهوه والحرام فينبذوه . وكان من حسن حظ أهل دمشق خاصة أن نزل بين ظهرانيهم أبو الدرداء أحد حفظة القرآن لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما مر بنا ، وكان أول من تقلد القضاء بدمشق حتى توفي ، وحبس وقت فراغه على إقراء الناس القرآن ، وقد بلغ من أقرأهم ألفا وستائة ونيفا ، وكان يحملهم عشرة عشرة وعلى كل عشرة عريف مقرئ ، وكان يقف في محراب الجامع يراقبهم ويرمقهم بصره . وإذا غلط واحد من أى عشرة رجع إلى عريفه ، وإذا شك العريف في شيء رجع إلى أبى الدرداء ، وأيضا يرجع إليه كل قارئ من العشرة إذا أحكم قراءة القرآن واستظهره جيدا<sup>(٢)</sup> . وهذا العدد الضخم من حفظة القرآن في دمشق لأول عهدها بالإسلام يوضح مدى إقبال أهلها على العلم بالإسلام ، وكان هناك كثيرون يفسرون لهم آيات منه كما كان هناك كثيرون يفتونهم ، ونهض بذلك من نزل ديارهم من الصحابة واتخذوها موطناً ، ثم

(١) انظر في هذا التراث وكل ما ذكرت آنفا كتاب

(٢) انظر ترجمته في كتاب « غاية النباهة في طبقات

« تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » لتلييل حتى - الجزء الأول - الترجمة العربية .

الفراء ، لابن الجزري ( نشرة برجستراسر ) ٦٠٦/١ .

من حملوا عنهم علمهم من التابعين . وأصبحت دمشق سريعا حاضرة الخلافة الإسلامية منذ ولها معاوية ، وطبيعى أن يعنى الأمويون بمن يفقه الناس فى شئون دينهم ، ومن يروى لهم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم من كبار الحفاظ ، ومن يفسر لهم بعض آى الذكر الحكيم ، ومن يعظمهم ويبلغ تأثير وعظه شفاف قلوبهم . وكان هناك القضاة الذين يحكمون بين الناس بالحق ، ويفتنونهم فيما يحسد من شئونهم .

ومعروف أمر عمر بن عبد العزيز لواليه على المدينة أبى بكر محمد بن عمرو بن حزم : أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أوسطه أو نحو هذا فاكتبه لى ، فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، وكتب بمثل ذلك إلى الآفاق ، وتوفى سريعا قبل تمامه . وكان أول من صدر عن هذه الرغبة العظيمة ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة . وتدوينه للحديث أول تدوين عام له ، وأخذ تدوينه بعده يتسع فى الشام وغير الشام .

وسجلت الشام مبكرة سبقا فى قراءة القرآن وإتقانها ، فإن عريفا ممن كانوا يقومون على عشرة من حفظة القرآن بين يدى أبى الدرداء هو عبد الله بن عامر المتوفى سنة ١١٨ للهجرة استطاع أن يبلغ من إحكام قراءة الذكر الحكيم أن يكون له قراءة مستقلة ، وأن يكون أحد القراء السبعة المشهورين فى الأمصار الإسلامية لزمنه وبعد زمنه . ومائتيت بأخرة من العصر الأموى وأوائل زمن الولاة فى العصر أن تلقى بفقهاء مجتهد ، وبلغ من اجتهاده أن أصبح إماما فى الفقه وصاحب مذهب مستقل هو الأوزاعى أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو المتوفى سنة ١٥٧ بيهوت مسقط رأسه . ومعنى ذلك أن الحركة العلمية التى بعثها الأمويون فى الشام وقاموا عليها بما كانوا يتفقون على علماء الدين فى كل بلد شامى من أموال آتت ثمارها ، فإذا الشام يصبح لها إمام فقيه يتدارس الفقهاء فقهه وكتبه فى الأجيال التالية ، وكذلك يصبح لها قارئ من القراء السبعة يقرأ أهل الشام بقراءته حقا متعاقبة .

ونشطت الدولة الأموية لترجمة علوم الأوائل اليونانية وبعض الرسائل الأدبية الفارسية ، وسنلم بذلك فى غير هذا الموضع ، إنما نهم الآن بمتابعة الحركة العلمية الدينية واللغوية ، ودائما توجد مع العناية بالقراءات عناية واسعة باللغة والنحو ويقوم عليها مؤدبون ، يطمعون الناس العربية فى المساجد حتى لا يخطئوا فى تلاوة الذكر الحكيم . ولم يقصر الخلفاء وأمرأ البيت الأموى فى تأديب أبنائهم وإحضار المعلمين لهم ، وفى كتب الأدب لهم وصايا تؤدى أبنائهم وكيف يهذبونهم ويقومون ألسنتهم . وكانوا ابتغاء دربتهم على العربية والنطق الفصيح يرسلون أحيانا بهم

إلى البادية ، حتى يتزودوا باللغة من يتاييها الأصلية ، وكان الوليد بن عبد الملك يلحن أحيانا ، ولاحظ ذلك أبوه فقال : « أضرَّ بالوليد حبنا له فلم نوجهه إلى البادية »<sup>(١)</sup> .

وظل هذا النشاط في تعلم اللغة بجانب النشاط في تعلم الدراسات الدينية ، وأخذت تتوالى طبقات في زمن الولاة العباسيين تجمل همها التعليم في المدن وأيضا في القرى ، والدولة لا تقصّر ، بل دائما تُجبرى عليهم الرواتب ، مما دفع إلى ظهور علماء في كل فرع من فروع الدراسات الدينية واللغوية .

ويُظَلِّ الشَّامَ عهدُ الطولونيين ثم عهد الإخشيديين وتزيد إذارات الرواتب على العلماء ويُطرد النشاط العلمي في الشام . واهتم معاوية أول خليفة أموي بأخبار الأمم القديمة ، واستقدم لذلك من اليمن عبيد بن شَرِيَّة الجرمي ، وجعلها حيد موضوعا لسره وأحاديث معه ، وجمع كثيرا من هذه الأحاديث في كتاب له سماه « كتاب الملوك وأخبار الماضين » ، طُبِعَ له في حيدر آباد مع كتاب التيجان في ملوك حمير ويلقانا منذ القرن الرابع للهجرة مؤرخون مختطفون في الشام ، على نحو ما ستوضح ذلك في نهاية الفصل ..

وجدير بنا أن نقف قليلا عند حركة علمية وأدبية باهرة دفع إليها سيف الدولة الحمداني (٣٣٣-٣٥٦ هـ) حين أظَلَّ لواءه حلب وإقليمها ومادان لحكمه من أنطاكية وحاة وضيها من بلاد الشام ، ومر بنا حديث عن بطولته الحارقة وكيف كان يقف درعا ، بل سَدًا منيعا للبلاد العربية أمام البيزنطيين وكيف نكَلَّ بهم وبمجموعهم مرارا وتكرارا . ويجانب هذه البطولة الحارقة كان راعيا عظيما للعلوم والآداب والفتون في زمنه ، مما جعل حلب عاصمته تصبح كعبة للقصاد من الفلاسفة أمثال الفلارابي للعلم الثاني أكبر فلاسفة المسلمين حتى أيامه ، ومن اللغويين والنحاة أمثال أبي علي الفارسي وابن جنى وابن خالويه . وسنراه عما قليل يرحى علماء الطب وألفاظه ، كما يرحى بعض المنجمين . أما الشعراء فلم يجمع بين أحد من الأمراء - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه كما يقول التالبي ، وقد أفرد له ولشعراته فصولا طويلة في الجزء الأول من كتابه البتيمة أمثال التامى والبيضاء وألؤلؤاء الدمشقي والمحالدين والسري الرقاء وكشاجم وابن نباتة السعدي . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق شاعر في الشام والعراق وإيران إلا قدم إليه مدائحه ، ويكنى أنه نزل عنده لمدة

تسع سنوات أعظم كوكب في سماء الشعر العربي لزمنه : انتهى الذي ملأ الدنيا بوصفه لبطلته وملاحمه مع الروم .

وتحكم الدولة الفاطمية الشام نحو قرن ، وفي أثنائه يتخلص حكمها عن حلب إذ لم تكد تستقر في يدها لأوائل القرن الخامس الهجري حتى استولى عليها بنو مرداس كما مر بنا في الفصل الماضي ، ولا يبق معها في العقد السابع من هذا القرن سوى صور وجنوبها على شاطئ البحر المتوسط حتى غزة . ومن يرجع إلى كتب التراجم في تلك الفترة يجد هناك كثيرا من طبقات العلماء من محدثين وقضاة وقراء ومفسرين ونحاة . وليس بين أربابنا نصوص توضح مدى الرواتب والأموال التي كان ييئها للفاطميون ونوابهم وولاتهم للعلماء الشام . ولكن يكفي أن تكون الشام أنتجت في هذه الحقبة أبا العلاء أكبر مفكر متفلسف إسلامي . وأكبر من تحمل مؤلفاته وأشعاره كل فروع الثقافة لزمنه ، يكفي ذلك للدلالة على ما كانت تحظى به الحركة العلمية والفلسفية والشعرية من خصب وازدهار رائع . وقد استقل بنو مرداس بحلب ، وبصور ابن العديم في كتابه زبدة الحلب من تاريخ حلب رعايتهم للشعر والشعراء ، وكان الشعر فيها لا يزال حيا ناشطا منذ سيف الدولة ، على الأقل من حيث استقبال الشعراء وبذل العطاء لهم . وكان جلال الملك ابن عمار قاضي طرابلس استقل بها لسنة ٤٧٠ وحاول أن يحدث بها حركة علمية شبيهة بما أحدث الفاطميون من دار العلم لمعهد خليفته الحاكم ، فأنشأ بها دارا سماها بنفس الاسم ، وجعلها على غرارها في تنوع الدراسات بها وفي جلب الكتب الكثيرة إليها <sup>(١)</sup> ، وكان من الممكن أن تحدث هذه الدار نشاطا علميا واسعا في الشام ، غير أن حملة الصليب سرعان ما قلدوا واستولوا على طرابلس سنة ٥٠٢ وأقاموا فيها إحدى إمارتهم ، وبذلك وُثِدَتْ حركتها العلمية وهي لا تزال ناشئة في المهد .

وبدخل أكثر الشام في حكم السلاجقة كما مر بنا في غير هذا الموضع ، وكان وزيرهم نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٥ رأى أن ينشئ مجموعة من المدارس في المدن الكبيرة لدولتهم في إيران والعراق لمحاربة النحلة الإسماعيلية ونشر المذهب الشافعي والعقيدة الأشعرية الكلامية ، وعُرفت كل مدرسة من هذه المدارس باسم المدرسة النظامية . وكان السلاجقة كلما دان لهم بلد لم يلبثوا أن أسسوا فيه مدرسة ، وظلت المساجد بجانب مدارسهم ساحات كبيرة للعلم والمعرفة ، وهو ما جعل العلم العربي بجميع فروعه شاميا ، فكل فرد من أفراد الشعب يحق له أن يجلس إلى أى حلقة من

(١) خطط الشام لمحمد كرد علي ٦٧/٦ وما بعدها

حلقات الشيوخ ، أما إذا انتظم في مدرسة فإنه كان يأخذ راتباً معيناً يكفل له الحياة . وكان السلاجقة يفسحون في بناء المدارس لقوادهم ولذوى الثراء . وأول مدرسة بنيت في دمشق المدرسة الصادرة<sup>(١)</sup> بناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله لدراسة الفقه الحنفي سنة ٤٩١ . وفي سنة ٥١٤ بنى أتاكك الصاكر الملقب بأمين الدولة أول مدرسة<sup>(٢)</sup> للشافعية ، ثم بُنيت للأحناف المدرسة الطرخانية سنة ٥٢٥ وبعدها بقليل بنيت لهم المدرسة البلخية . وبنيت في هذه الأثناء أول مدرسة بحلب سنة ٥١٦ وهي المدرسة الزجاجة بناها حاكمها الأرتقى بلر الدولة أبو الرّيح سليمان

ويُظَلُّ الشَّامَ لواء الزنكيين عماد الدين ونور الدين محمود وخليفته صلاح الدين ثم الأيوبيين ، وتتفلسف الصمداء ، فبالرغم من أن هؤلاء الحكام كانوا في شغل مستمر بجروب حملة الصليب وهدم قلاعهم وحصونهم كانوا يبنون ويؤسسون المدارس لفقهاء المذاهب الأربعة ، ومضى على منوالهم المالك بحيث تردهم في الشام نهضة علمية رائعة . وكان يوقف على كل مدرسة أوقاف دائرة تكفل للمدرسين والمعيدين رواتب مجزية . وكان يلحق بالمدرسة مبان للطلاب ، يقدم لهم فيها الغذاء ، ويقومون فيها للراحة والنوم . وكانت تلتحق أيضاً بالمدرسة خزائن كتب يختلف إليها الطلاب للقراءة والبحث ، وكان يقدم إليهم الورق وأدوات الكتابة . ويذكر ابن جبير في رحلته لسنة ٥٧٨ أنه رأى بدمشق عشرين مدرسة وبحلب خمس مدارس يقول : « ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين ، وبها قبره نُورُه الله ، وهي قصر من القصور الأنيقة ، بناها سنة ٥٦٣ لأصحاب الفقه الحنفي . وقد أخذت المدارس تتكاثر كثرة مفرطة في دمشق وحلب وغيرها من بلدان الشام . ولم يقف تشييدها عند السلاطين الأيوبيين ، فقد اشترك معهم فيها نساؤهم وقوادهم والأمراء من بينهم خاصة حكام البلدان الشامية ، كما اشترك بعض ذوى اليسار . وقد عدَّ ابن الشحنة منها في كتابه الدرر للمتخبط في مدارس حلب نحو خمسين مدرسة في بلدة شامية واحدة أسست بين سنتي ٥١٦ و ٥٦٥ وجاء بعده ابن شداد ، فعدّ لدمشق في سنة ٦٨٠ وهي سنة تأليفه للأحلاق الخطيرة أربعة وثلاثين مدرسة حنفية وأربعين مدرسة شافعية وثلاثة مالكية وعشرة مختلطة . ويعكس هذا العدد حقيقة كبرى هي مدى شيوع هذه المذاهب في الشام فأكثرها انتشاراً

بجلبا مدرسة سميت الجاروعية وانظر في حديثنا عن المدارس للمصنفين السابقين .

(١) الأحلاق الخطيرة لابن شداد : تاريخ مدينة دمشق ص ١٩٩ والدارس في تاريخ المدارس للشمس ٤٢٩/١ .

(٢) سميت الأمانة نسبة إلى مؤسسها ، ويقال إنه بنيت

فيه المذهب الشافعي ثم المذهب الحنفي ثم المذهب الحنبلي ثم المذهب المالكي . ولم يبقَ للمذهبيين الآخرين مدارس إلا في عهد الأيوبيين منذ صلاح الدين . وكان بيت المقدس يحتفظ هو الآخر بمدارس المذاهب الأربعة ، وعلى شاكلته كثير من مدن الشام الكبرى ، وفي ذلك يقول ابن خلكان عن نور الدين محمود إنه « بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل دمشق وحلب وحماة وحمص وبلبك ومنبج »<sup>(١)</sup> . وبجانب مدارس للمذاهب الفقهية عتوا بتأسيس مدارس الحديث النبوي ، من ذلك دار الحديث النورية التي أسسها نور الدين محمود بدمشق ، وولي مشيختها الحافظ المؤرخ الكبير ابن عساكر . وبنى الأشرف موسى الأيوبي صاحب دمشق دار حديث بها ثانية سنة ٦٣٠ وألحق بها خزانة كتب ومسكنًا لشيخها ، ووقف عليها أوقافًا كافية ، وأسند مشيختها إلى ابن الصلاح الحافظ المحدث المشهور ، وفيها بعد أسندت إلى الإمام الشافعي : النوري .

ويدون ريب بمثل هذه المدارس الكثيرة كثرة مفرطة بالشام نهضة علمية باهرة ، فكثرت العلماء في كل علم حتى ليمر العاد الكاتب في كتابه « الفتح القدسي » أنه وُزِعَ في إحدى المناسبات على علماء دمشق ستمائة دينار فخص كل عالم دينار واحد<sup>(٢)</sup> ، أي أنه كان بها حينئذ ستمائة عالم غير من لم يشملهم التوزيع ومن لم يحضره . وما بالنا إذن بما كان ينفعه نور الدين بل صلاح الدين بعده على العلماء والمدارس ، لا بد أنه كان يبلغ مئات الألوف من الدنانير . وساعد على هذه النهضة نور الدين وصلاح الدين وسلاطين أسرته : ويروى ابن خلكان في ترجمة نور الدين إنه كان لا يزال يحتاج إلى الأموال الكثيرة في حربه لحملة الصليب فقال له بعض أصحابه إن في بلادك إضرارات وصدقات وصلات كثيرة على قراء الذكر الحكيم والفقهاء والصوفية ، ولو استعنت بها لكنت أصلح ، فنضب من ذلك غضبا شديدا وزجر صاحبه زجرا عنيفا . وكان صلاح الدين على شاكلته في العناية بالفقهاء والقراء والصوفية ، وكان يختلس من أوقاته ما يطيعه الفرصة لحضور مجالس العلماء مها بمدت الشقة كما حدث في ذهابه إلى الإسكندرية للاختلاف إلى حلقة السلطان الحافظ المشهور<sup>(٣)</sup> واشتهر المعظم عيسى صاحب دمشق بصمقه في الفقه وأنه ألف فيه كتابا وأيضا

(١) ابن خلكان في ترجمة نور الدين محمود ١٨٥/٥ . (٢) سمع ابنه العزيز صاحب مصر بعده الحديث على

العلق أيضا : انظر النجوم الزاهرة ١٣٧/٦ .

(٣) الفتح القدسي ص ٤٨١ .

فإنه كان يتعمق في دراسة النحو<sup>(١)</sup>. فسلطين بنى أبواب كانوا متقنين<sup>(٢)</sup>، ولذلك حاولوا أن يدفعوا الحركة العلمية إلى النور.

ويعدُّ صاحب الأخلاق الخطيرة للمشق نحو ثلاثمائة مسجد غير الزوايا والخانقاهات، وكثير منها كانت تُلقَى فيه المحاضرات والدروس. وظل هذا الحشد المائل من الخانقاهات والمساجد والمدارس في زمن المالك وأخذوا يضيفون كثيرًا من الخانقاهات ومدارس الفقهاء وغيرهم من علماء الدين والعريّة. وحققا كانت كثرة المالك غير متقنين، وهم من هذه الناحية يخطفون عن سلطين بنى أبواب، ومع ذلك عنا عناية واسعة بالثقافة وبناء المدارس والمساجد والخانقاهات والإنفاق عليها عن سعة، على أنه عُرف بعض متأخريهم بمدرسة العلم ورعاية العلماء والأدباء مثل السلطين: بروق والمؤيد شيخ وقابنای والغوري.

ومعنى ذلك أن الحركة العلمية ظلت مزدهرة طوال أيام المالك، غير أنه يلاحظ أن نفوذ الفقهاء ازداد في هذا العصر وازداد معه نفوذ المتصوفة وشاع معه الاعتقاد في كراماتهم والمبالغة في ذلك، وبدون ريب كان بينهم كثيرون أجلاء على معرفة وقته بصير بالشعر، ولكن كان بينهم دخلاء مشحونون جعلوا العامة يتلقون بالأولياء، ومنحورهم علم الغيب والقدرة على إنفاذ مايريد المتوسلون بهم. ويقف المستشرقون عندما نزل باين<sup>(٣)</sup> تسمية من نحن، ويحاولون أن يتخذوا من ذلك دليلا على جمود الفكر الديني حيث لا غير ملاحظين أن ابن تيمية نفسه كان إماما حنبلياً يدين بمذهب ابن حنبل وهو أكثر المذاهب سلفية. ومع ذلك كان من أكثر فقهاء عصره تحرراً فكرياً، وقد حارب الصوفيّة في منازعهم الفلسفية وكل ما قالوا به في الحلول ووحدة الوجود، وحارب الشيعة الإسماعيلية وما يزعمون لأنتمهم من العصمة وتغليل العقل الكلي وما يتصل به من تجسد الإله

(١) مختصر مرآة الزمان ٤٢٦ وما بعدها

(٢) مما يذكر عن هؤلاء السلطين أنه كان لهم بعض مؤلفات، فكانا كان للمظلم عيسى كتاب في الفقه الحنفي كان للمصور محمد الأيوبي صاحب حياة كتاب في تاريخها ومن زادها أو اتخذها مسكناً من الأعلام (مختصر مرآة الزمان ٤٢١) وكان الأجد الأيوبي صاحب بطلك بمحضر دروس الحافظ البيهقي، وكانوا يعدون حضور مجلس العلماء شرقاً ما بعده شرف.

(٣) انظر في ترجمة ابن تيمية فوات الوفيات ٦٢/١

والنجوم الزاهرة ٢٧١/٩ وللنبل الصافي ٣٣٦/١ وذكره الحفاظ للجبى ٢٢٨/٤ والتاريخ ابن الوردي ٢٨٤/٢ والدرر الكامنة ١٥٨/١ والقول الجلي في ترجمة الشيخ تقي الدين بن تيمية الحنبلي لشيخ الدين الحنفي والكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية لمحي الكرمي وابن تيمية للشيخ محمد أبو زهرة وابن تيمية للتذكير محمد يوسف موسى وأسبوع الفقه الإسلامي ومهرجان ابن تيمية طبع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة وماترة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع.



في الخليفة ، وخصهم بكتابه عن الباطنية . وجعله تحرره الفكرى بفتح باب الاجتهاد على مصاريعه ويفى فتاوى حرة في كثير من مسائل الشرع . وجلب عليه ذلك سخط فئات كثيرة وخاصة من الفقهاء وعلماء الكلام الأشعرية ، إذ شملتهم هجائه . وهى هجمات صريحة جريئة ألّبت عليه كثيرين من الخصوم في بيئات مختلفة ، وبدأ ذلك بوضوح منذ سنة ٦٩٨ إذ جاءه سؤال من حماة عما في القرآن الكريم من آيات قد تُفيد التشبيه على الذات العلية إذا فهمت على ظاهرها كمثل : ( الرحمن على العرش استوى ) و ( يدُ الله فوق أيديهم ) ومذهب المعتزلة والأشعرية تأويل مثل هذه الآيات ، وأن المراد في الآية الاستيلاء على العرش ، ومعنى كلمة يد في الآية الثانية القدرة . ومذهب الحنابلة ، وهو ما أجاب به ابن تيمية في رسالة مستقلة : أن واجباً أن تؤمن بما جاء في القرآن من هذه الصفات دون كيفية ودون تشبيه بال مخلوقات وأيضاً دون تأويلها فوق طاقة الإنسان . وسرعان ما اتهمه الفقهاء الأشاعرة بأنه يرى في الذات العلية رأى المجسمة أو المشبهة ، ورفضوا أمره إلى قاضى القضاة بدمشق فبرأه من التهمة . ونجّاه الله من هذه المهنة .

ثم كانت التهمة الثانية لابن تيمية في سنة ٧٠٥ بسبب حملته على الطريقة الصوفية الرقاعية ومايموه به أصحابها على الناس من النفوذ من النار وغير ذلك من كرامات يدّعونها ، وشكّوه إلى نائب السلطنة بدمشق ، فأمرهم النائب أن يكفوا عن حيلهم وخداعهم للناس كما مربنا . وفي نفس السنة طُلب إلى القاهرة لمناظرة علمائها واجتمعوا له - وخاصة فقهاء الشافعية الأشاعرة - وأخذوا يناقشونه في إثبات الصفات على الله حسب ظاهرها القرآنى ، فآله استوى - كما يقول - حقيقة على العرش ونحو ذلك . وجادلهم ابن تيمية طويلاً موضعاً رأيه في الإيمان بهذه الصفات دون كيفية ودون إثبات تجسيد على الله ، غير أنهم حكوا عليه بالسجن وظل فيه عاماً وبضعة أشهر . ولبت في القاهرة يعلم ويعظ ، وسرعان ما أوقع به خصومه بدعوى حَمَلِهِ على أصحاب المتزعم الفلسفى في التصوف القائلين بالحلول ووحدة الوجود . وسُجن بالإسكندرية ، حتى إذا رق عرش مصر الناصر بن قلاوون سنة ٧٠٩ ردّ إليه حريته وأكرمه إكراماً عظيماً . وفى سنة ٧١٢ عاد إلى دمشق وتفرغ للتأليف والإفتاء ، حتى إذا كانت سنة ٧١٨ وأفتى أن الحلف بالطلاق كالحلف بالله بكثرة عنه وأن الطلاق بالثلاث يُعدُّ طلقة واحدة . حيثلث ثارت ثائرة الفقهاء ، حتى أُجبروا السلطان على منعه من الفتوى بذلك ، وصعد السلطان لمشيئتهم . غير أنه عاد إلى الإفتاء بما ذكرنا في سنة ٧٢٠ وعُقد بدمشق مجلس لهاكمته ، وسُجن ولبت في السجن خمسة أشهر وأياماً ثم رُدَّت إليه حريته . حتى إذا كانت سنة ٧٢٦ أفتى بأن الرحلة إلى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين

معصية من أشد المعاصي ، فاحتُقل بسبب هذه الفتوى وجُمِل في قاعة حسنة بقلعة دمشق وأقام بها مشغولاً بالتصنيف والتأليف ، وبأخرة من أيام سجنه مُنِع من الأوراق والدواة والقلم ، ولم يلبث أن توفي سنة ٧٢٨ .

وواضح أن محنة ابن تيمية وسجنه لم يكونا بسبب اجتهاده في مسائل الشرع وإنما بسبب تعرضه لمسألة عقيدية تتصل بصفات الله وأخرى تتصل بزيارة قبور الأنبياء والأولياء . وكان في الصفات يأخذ برأى السلف ويترك رأى الأشاعرة والمعتزلة أى أنه لم يكن اجتهاداً منه ، أما مسألة الاجتهاد في الشرع فقد تركها العلماء له . ولستأ بصدد إحصاء آرائه الفقهية الجديدة . إنما حسبنا أن نشير إليها وأن نتخذ منها دليلاً - كما مر بنا آنفاً - على أن باب الاجتهاد ظل مفتوحاً على مصاريمه طوال زمن الماليك حتى بين الحناابلة . واشتهر في كل مذهب فقهي مجتهدون جدد مثل النووي في المذهب الشافعي . ونفس آراء ابن تيمية ظلت حية عاملة بعده إلى أن استمدت منها الحركة الوهابية بروعها بعد أربعائة من السنين . وإذا كان قد تورط بعض فقهاء الشافعية في محاكمته بدمشق والقاهرة فإن ابن تفرى بردى يذكر أن كبيرهم في دمشق ابن الزملكاني ونظيره في مصر ابن دقيق العيد أثبتا عليه ثناء عطرا وينقل عن ابن الزملكاني قوله عنه : « العلامة الأوحيد الحافظ المجتهد الزاهد العابد القدوة إمام الأئمة ، وقدوة الأمة ، علامة العلماء ، وارث الأنبياء ، آخر المجتهدين ، أوجد علماء الدين .. محيى السنة ومن عظمت به لله علينا الميثة » .

وعلى هذا التحركات الحياة العلمية نشطة مزدهرة في زمن الماليك ، وكانوا يشجعون العلماء والأدباء ، وطلما اقترحوا على بعض المؤلفين تأليف هذا الكتاب أو ذاك ، وكانت البلاد دائرة وقضاتها على المذاهب الأربعة يحكمون بين الناس بالعدل . فلما أطل لواء العثمانيين الشام أصابها ما أصاب مصر من انتكاس الحركتين العلمية والأدبية ، ومع ذلك ظلت جنوة منها متقدمة في بعض المدارس والجوامع وخاصة في الجامع الأموي بدمشق ، إذ ظلت فيه حلقات التدريس . ومُرِّباً أن الحكم العثماني بالشام أخذ يسوء سوءاً شديداً ، وأخلت المظالم فيه تزداد والضرائب تتضاعف ، وكان لذلك أثره في تدهور الحركتين العلمية والأدبية . وألغى العثمانيون نظام قضاة المذاهب الأربعة الذي وضعه الظاهر بيبرس وظل قائماً طوال أيام الماليك ، حتى إذا حكموا البلاد استعاضوا عن هؤلاء القضاة بقاضى عام واحد هو قاضى العسكر ، وألغوا استخدام العربية في دواوين الولاية ، واستعملوا مكانها التركية ، وكان لذلك تأثيره على الكتابة والكتاب ، فلم تعد تكتب رسائل ديوانية ولا مناشير وتقاليد بالعربية ، غير أن العربية كانت لغة الدين الحنيف ، فظلت

حية في ديار الشام هي والعلوم الدينية ، وأيضا العلوم اللغوية ، حتى ليلقانا من حين إلى حين نابغون في الدراسات الدينية وفي الشعر والنقد والتصوف والتاريخ .

## ٢

## علوم الأوائل - علم الجغرافيا

### (١) علوم الأوائل

مر بنا - في فاتحة الفصل - أن الشام شاركت في التراث اليوناني منذ انتشرت فيها الثقافة الهيلينية وبخاصة في نخورها : صور وصيدا وبيروت وأنطاكية . وظلت هذه المشاركة مستمرة حين اعتنقت المسيحية . فكان كثيرون من سكان الأديرة ورهبانها يعرفون ما لليونان من تراث في الفكر الفلسفي والعلمي ، ومنهم من كان يحذق اليونانية ، وبذلك كانت الأديرة مراكز للثقافة الهيلينية قبل الفتح الإسلامي وبعده . وبالمثل ظلت أنطاكية وبعض النخور الشامية تعنى بتلك الثقافة . ويلقانا في عهد معاوية بطييان من الأطباء المتميزين في دمشق حيثئذ هما ابن أنال ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه كان خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة<sup>(١)</sup> ، وأبو الحكم وكان عالما بأنواع العلاج والأدوية<sup>(٢)</sup> . وهما يرمزان إلى مانقوله من أن التراث العلمي اليوناني ، وبخاصة علم الطب ، ظل حيا في ديار الشام ، مما أتاح لحالد بن يزيد بن معاوية أن يتعلق به ، وقال مترجموه إنه كان يشغف بكتب الكيمياء والطب والنجوم ، كما قالوا إنه أحضر من الإسكندرية بعض الفلاسفة الحاذقين لليونانية والعربية وأمرهم أن يترجموا له كتب الكيمياء ، ويبدو أنه تعمقها حتى استطاع أن يؤلف فيها كتابا ورسائل ، يقول صاحب الفهرست : « رأيت من كتبه كتاب الحرات وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغرى وكتاب وصيته في الصنعة (الكيمياء) »<sup>(٣)</sup> . ونغضى بعد خالد فلتلحق بالخليفة عمر بن عبد العزيز ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه نقل تدريس علوم الأوائل من الإسكندرية إلى أنطاكية وحران<sup>(٤)</sup> وناقش ماكس مايرهوف هذا القول وأثبت بطلانه<sup>(٥)</sup> ، إذ كانت أنطاكية وحران جميعا من المراكز التي عنيت قديما بدراسة التراث اليوناني . وربما دفع ابن أبي أصيبعة إلى هذا القول أنه رأى عمر يستقدم طبييا من الإسكندرية هو عبد الملك بن

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة (٣) الفهرست ص ٣٣٨ (٤) ابن أبي أصيبعة ١٧١

الحياة ببيوت) ص ١٧١ . (٥) انظر مقالة ماكس مايرهوف : من الاسكندرية إلى

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٥ بغداد في كتاب التراث اليوناني للدكتور عبد الرحمن بدوي

أبجر ، ويتخذ طيباً<sup>(١)</sup> له ، ويبدو أنه كان قد تعرف عليه في أثناء ولاية أبيه على مصر ، فلما ولى الخلافة استقدمه وأسلم على يديه ، وظل يعتمد عليه في صناعة الطب . وربما دفع ابن أبي أصيبعة إلى هذا القول أيضاً أنه أمر بنقل كتاب القس أمرون الإسكندري في الطب إلى العربية ، ويبدو أنه كان قد نال شهرة في علم الطب لزمته ، ومع ذلك لم يترجمه أحد علماء أنطاكية لعمر ، وإنما ترجمه ماسرجويه<sup>(٢)</sup> البصري . ولو أنه فكر حقاً في نقل التعليم - وخاصة تعليم الطب - إلى بلد بالشام لنقله إلى عاصمته دمشق كما صنع خالد بن يزيد بن معاوية .

على كل حال كان التراث اليوناني الفلسفي والعلمي معروفاً - طوال زمن بني أمية - في أنطاكية وبعض مدن الشام وفي الأديرة ، وأخذت تؤلف بعض الكتب على ضوئه كما صنع خالد ابن يزيد بن معاوية ، كما أخذت تنقل منه إلى العربية بعض الرسائل والكتب . ويروى أن سالماً رئيس ديوان الإنشاء لهشام بن عبد الملك ترجم بعض رسائل أرسططاليس إلى العربية<sup>(٣)</sup> ، ويذكر بروكلمان أنه ترجم - أيام الأمويين سنة ١٢٥ - كتاب مفتاح أسرار النجوم<sup>(٤)</sup> . وكل ذلك يؤكد أن جو الشام كان مشبعاً بالتراث اليوناني العلمي والفلسفي . وظل المعنيون بطوم الأوائل يتفنسون في هذا الجبو طوال زمن الولاة العباسيين . ويبدو أن دمشق ظلت تعني بها وبخاصة الطب ، ومن أطبائها في القرن الثاني للحكم<sup>(٥)</sup> بن أبي الحكم ، وكان أبوه طبيب معاوية وقد عُمر طويلاً حتى لحق القرن الثالث ، وكان طبيباً مسيحياً عالماً بأنواع العلاج والأدوية . وكان ابنه عيسى<sup>(٦)</sup> - على غواره - طبيباً ، واستقدمته أم ولد للرشد لمعالجتها ، وله في الطب كناش كبير . ويبدو أنه أسس في دمشق مرصد كبير ، إذ نرى للمأمون يطلب مراجعة جداول بطليموس الفلكية على أرصاد تمت في بغداد ودمشق ، وقد طلب أن تقاس إحدى درجات خط الزوال<sup>(٧)</sup> ويقطع على ذلك بروكلمان بأن المسلمين استطاعوا ببحوثهم المستقلة أن يسبقوا معلمهم من الهنود والإغريق في وقت قصير .

وظلت الشام تشارك في حركة الترجمة للتراث اليوناني ، ومن كبار مترجميها عبد المسيح<sup>(٨)</sup>

(١) ابن أبي أصيبعة ص ١٧١

(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٨٠ ، ٣٢٤

(٣) الفهرست ص ١٧١

(٤) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف)

٩/٤

(٥) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٦

(٦) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٧

(٧) بروكلمان ١٩٦/٤ ويذكر القفطي ص ٢٨١ منجاً

نحيها بالكواكب تول الرصد للمأمون على جبل قاسيون

بدمشق، انظر القفطي ص ٣٥٧

(٨) انظر في عبد المسيح بروكلمان ٩٥/٤ ودی بور ص ٢٢

وطوم اليونان لأولهي ص ٢٢٧

ابن عبد الله بن ناعمة الحمصي المتوفى لعهد المعتمد (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) اشتهر بترجمته لكتاب الأغاليط لأرسطو وشرح بحجى النحوى على كتابه : السماع الطيبي ، وترجم أيضا عن اليونانية كتابا منسوبا إلى أرسطو خطأ وهو المسمى أثولوجيا أوروبية ، وهو تلخيص مقتبس من تاسوعات أفلوطين الإسكندري ، ولذلك تشيع فيه نزعة أفلاطونية محدثة .

ونغضى إلى النصف الثاني من القرن الثالث الهجرى ، ويلمع اسم قُسطا<sup>(١)</sup> بن لوقا المولود ببعلبك في أوائل القرن ، وقد ترجم للخليفة المستعين (٢٤٨ - ٢٥١ هـ) كتابين : كتاب لثيودوسيوس وكتاب الحيل لهربون . وذكر له ألدوميلل ترجمات أخرى : وترك مؤلفات كثيرة منها رسالة في العمل بالكرة الفلكية ، والجامع في الدخول إلى علم الطب ، ومقدمة إلى علم الرياضيات ، والمدخل إلى الهندسة ، والمدخل إلى علم المنطق ، إلى مؤلفات أخرى كثيرة تناول فروع العلم والفلسفة ، توفى سنة ٣٠٠ للهجرة . وكان يعاصره مترجم كبير هو حبيش<sup>(٢)</sup> بن الحسن الأعمى الدمشقي وهو ابن أخت حنين بن إسحق وتلميذه ، وكان يترجم عن اليونانية والسريانية ، وساعد خاله في كثير من ترجمه ، وما ترجمه عهد بقرط وكتاب الحشائش لديسقوريدس ، وكل كتب جالينوس ، وله كتاب في الأدوية المفردة وآخر في الأغذية . ومن كبار أطباء دمشق سعيد<sup>(٣)</sup> ابن يعقوب الدمشقي وقد ولاه على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر أمر مارستان بغداد سنة ٣٠٢ وله ترجمات كثيرة ، ترجم إيساغوجي (لفوفوريوس) والمقالات السبع الأولى من كتاب الجدول لأرسطو ، ونُحى بترجمة الكتب الرياضية اليونانية وفي مقدمتها الجزء العاشر من أصول إقليدس وشرحه لبايوس ، ولا يوجد من هذا الشرح سوى ترجمته العربية ، وترجم أيضا كتابا لجالينوس . وهذه الأسماء التي ذكرناها إنما هي رمز لما ظل بديار الشام من نشاط لعلوم الأوائل والمتعلقين بها طوال القرون الثلاثة الأولى وحقا من القرن الرابع ، وفيه يقود سيف الدولة - كما مر بنا - حركة أدبية وفلسفية علمية ناشطة في عاصمته حلب ، مما جعل كثيرين من أعلام الفكر والعلم والأدب في زمنه يلمون بحضرته ، وكثيرا ما كانوا يختارون الإقامة عنده ، وكان ممن اختار المقام ببلاده في حلب أكبر فيلسوف عربي في زمنه الفارابي<sup>(٤)</sup> ، وقد ظل عنده حتى لبى نداء ربه سنة

(٣) انظر في سعيد ابن أبي أصيبعة ٢٨٢ وبيروكلمان

١١٨/٤ وألدوميلل ص ٢١١

(٤) راجع في الفارابي وظفته ومراجعته كتابه العصر المباسي الثاني ص ١٤٠ وما بعدها

(١) انظر في ترجمة قسطا القفطي ٢٦٢ وابن أبي أصيبعة

٣٢٩ وبيروكلمان ٩٧/٤ وألدوميلل ص ١٦٥ وما بعدها

(٢) راجع في حبيش القفطي ١٧٧ وابن أبي أصيبعة

٢٧٦ وبيروكلمان ١١٧/٤ وألدوميلل ص ١٤٣

٣٣٩ . وأحدث نزول الفارابي بحلب نشاطا فلسفيا وفكريا ظل سنوات مقامه بها وامتد بعد وفاته ، ومعروف أنه عُني بمزج فلسفة أرسطو بالمذهب الأفلاطوني الجديد . ولعل مما يدل على اتساع النشاط الطبي والعلمي والفلسفي بالشام لتلك الأيام مذكره القفطي عن سيف الدولة من أنه كان إذا أكل الطعام وقف على مائدته أربعة وعشرون طبيا ثم يقول : كان فيهم من يأخذ راتبين لأجل تعاطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة رواتب لتعاطيه ثلاثة علوم ، ويذكر أن طبيبه المسمى عيسى النفسي كان يأخذ ثلاثة رواتب : راتبين بسبب إحسانه لطمين وراتبا ثالثا جزاء ترجمته من السريانية إلى العربية <sup>(١)</sup> . وذكر القفطي بينهم في موضع آخر من كتابه ابن كسكرايا <sup>(٢)</sup> وكان طبيا مشهورا عنه فيما بعد عضد الدولة البرصى بالبارستان النسوب إليه ببغداد ، كما ذكر أيضا بين من كانوا يحضرون مجالس سيف الدولة أبا القاسم <sup>(٣)</sup> الرق ، وكان من أصحاب التنجيم وعلم الهيئة والطب .

وهذا نشاط لعلماء الأوائل في بيئة واحدة من بيئات الشام أثناء القرن الرابع ، ويبدو أنه بقيت بقايا من هذا النشاط زمن الفاطميين بدمشق وشاطئ الشام وعند المرداسيين بحلب والسلاجقة في حلب ودمشق ، يدل على ذلك مايلقانا من أطباء مختلفين في تلك الديار مثل البيرودي <sup>(٤)</sup> في القرن الخامس وظافر <sup>(٥)</sup> بن جابر السكري ومبشر <sup>(٦)</sup> بن فائق في نفس القرن ومثل ابن الصلاح <sup>(٧)</sup> وابن البدوخ <sup>(٨)</sup> في القرن السادس . ومن المؤكد أن نزول حملة الصليب بديار الشام أصاب هذه الحركة بغير قليل من العطل ، ومع ذلك فقد تحولوا تلامذة لأطباء العرب يتعلمون على أيديهم فنونا من الجراحة والطب ، ورأى بعض أطباء العرب - كما روى أسامة بن منقذ - أحد أطباهم يعالج بعض مرضاه علاجا يدل على جهله بالطب ، فسخر منه سخيرة شديدة ، وسجل على الصليبيين عامة انحطاط الطب عندهم انحطاطا مزريا ، على نحو ماصور ذلك في كتابه « الاعتبار » .

وندخل في زمن الزنكيين ونور الدين محمود وصلاح الدين والأيوبيين ، ويعظم الاهتمام بالمرضى ويمن يعالجه من الأطباء ، وتنشأ لهم بيارستانات ، يتزولونها وتقدم لهم فيها الأدوية

(٥) ابن أبي أصيبعة ص ٦١٤

(٦) القفطي ص ٢٦٩

(٧) القفطي ص ٤٢٨ وابن أبي أصيبعة ص ٦٣٨

(٨) ابن أبي أصيبعة ص ٦٢٨

(١) القفطي ص ٢٥٠

(٢) القفطي ص ٤٠٣

(٣) القفطي ص ٤٢٩

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٦١٠

والأغذية حتى يتم شفاؤهم . ويذكر ابن جبير في رحلته بيارستانين رأهما بدمشق سنة ٥٧٨ : أحدهما قديم والثاني حديث ، ويقول إن الحديث أحفظها وأكبرها وجرايته ( نفقته ) في اليوم نحو خمسة عشر ديناراً ، وله قومة ( موظفون ) بأيديهم الأوراق المتهوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك . والأطباء يكرّون إليه كل يوم ، ويتفقدون المرضى ، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسب ما يليق لكل إنسان منهم . ويقول إن للمارستان القديم على هذا الرسم ولكن الاحتفال في الجلبد أكثر ، ويذكر أن للمجانين للمعتقلين ضرباً من العلاج وهم في سلاسل موقوفون . ثم يقول : وهذان المارستانان مفخرة عظيمة من مفاخر الإسلام . ولم تكن المارستانات دور علاج فحسب ، بل أيضاً كانت مدارس يمرّن فيها شباب الأطباء ويتلقون فيها عن شيوخ الطب محاضرات متنوعة . وأخذت البيارستانات تبنى في ديار الشام حتى لتلقى بمارستانات في صَرْخَد بفلسطين . وجعل ذلك الطب يعود إلى نشاطه ، فيتكاثر الأطباء ويتكاثر المهتمون بعلم الأوائل حتى ليعدون في كتاب ابن أبي أصيبعة بالعشرات . ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعاً إنما نقف عند مشهورهم ، ونبدأ بشمس<sup>(١)</sup> الدين اللبدي المتوفى بدمشق سنة ٦٢١ وكان يَطبُّ في البيارستان النوري الكبير بدمشق ، وكان له مجلس للاشتغال عليه بصناعة الطب وغيرها . وكان يعاصره الدُّخْوَار<sup>(٢)</sup> مذهب الدين عبد الرحيم بن علي الدمشقي مولداً وداراً رئيس بيارستان دمشق الذي أسسه نور الدين محمود ، توفي سنة ٦٢٨ وأفراد ابن أبي أصيبعة له في طبقاته فصلاً طويلاً تحدث فيه عن حياته ، وله مؤلفات كثيرة ، وكان يتخذ داره مدرسة لتعليم الطب ، وقَفَّها على هذه الغاية في حياته وبعد مماته . وكان أثره في تعليم الطب بدمشق واسما ، وثقفته على يديه جماعة كبيرة . وكان مما ساعد على ازدهار الدراسة لعلم الأوائل ما ذكرناه في الفصل الماضي من أن أمراء البيت الأيوبي توزعوا بلدان الشام فيما بينهم ، ونحو كل أمير منهم في بلد إلى راع للعلوم والآداب بها ، ودفع ذلك إلى تنافس بينهم ، مما أكثر من العلماء في كل فروع العلم ، وتلقى بمنصور بن فضل المشهور باسم رشيد<sup>(٣)</sup> الدين الصوري المتوفى سنة ٦٣٩ وُلِدَ بصور ، ولذلك نسب إليها واشتغل بالطب على أساتذته ، وأقام بالقنس ستمين يعالج الناس في بيارستانها ، ثم انتقل إلى

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٦٦٢

(٢) انظر في الدُّخْوَار ابن أبي أصيبعة ص ٧٢٨ ولغات

(٣) راجع في رشيد الدين ابن أبي أصيبعة ص ٦٩٩

الوليات ٥٦٣/١ وألوميل ص ٣٢٠

دمشق وقُرِئتْ إليه رسالة الطب والأطباء بها ، وكان بارعا في معرفة الأدوية المفردة وماهياتها واختلاف أسمائها وصفاتها وتحقيق خواصها وتأثيراتها كما يقول ابن أبي أصيبعة ، وبذلك كان صيدليا كما كان طبيا . وينوه ابن أبي أصيبعة بكتابه في الأدوية المفردة وكيف كان يتحفظا ويسجلها إذ كان يصطحب معه مصورا ومعه الأصباغ واللِّينُ ( جمع لينة ) على اختلافها وتنوعها وكان يتوجه إلى مواضع النبات في الشام مثل جبل لبنان وغيرها مما به نبات يختص به ، وبشاهد النبات وبحقيقه ، ويُرى للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ، ويصوره . وسلك في تصوير النبات مسلكا فريدا ، ذلك أنه كان يريه للمصور في إبان بزوغه فيصوره ، ثم يريه له في وقت اكتمال نموه وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريه له في وقت يسه وذبوله فيصوره . وبذلك ينظر قارئ كتابه إلى النبات في أطوار نموه ، حتى تتحقق له معرفته بدقة . ولسوء الحظ سقط هذا الكتاب الرائع من يد الزمن .

ويتوفى نجم <sup>(١)</sup> الدين اللبدي سنة ٦٦٦ وكان يتعمق ببحوث الفلسفة والفلك وعلم الطب وروى له ابن أبي أصيبعة مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا شرح له على كتاب القانون في الطب لابن سينا ورسالة في مسائل فيسيولوجية . ورعاه في الشطر الأول من حياته الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص . وتقلب في البلاد ثم استقر بدمشق ، وأسس بها مدرسة طبية وأخرى هندسية ، إذ كان رياضيا بارعا كما كان طبيا ، وكانت له كتب في الحساب والجبر والمقابلة . وكان يعاصره ابن أبي أصيبعة <sup>(٢)</sup> الطبيب صاحب طبقات الأطباء الذي يتكرر ذكره في الموامش ، توفي سنة ٦٦٨ وقد ولد بدمشق وفي شبابه نزل القاهرة ، وشُغِفَ بالطب وتلقاه على كبار الأطباء المصريين ، حتى برع فيه ، واشتغل في اليبارستان الناصري مدة ؛ ثم جذبته إليه أمير صرخند بفلسطين في الزمن الذي ذكرناه . زمن رعاية العلوم والآداب المتعديين من الأيوبيين ، وأقام بها حتى وفاته ، وكتابه الطبقات يحمل معارف واسعة عن المشتغلين بعلوم الأوائل : طب وغير طب حتى زمنه .

ونغصى إلى زمن الماليك ، ويظل الاهتمام بعلوم الأوائل مطردا وبلغنا أبو الفرج يعقوب بن إسحق المشهور باسم ابن القف <sup>(٣)</sup> المتوفى بدمشق سنة ٦٨٥ وكان مسيحيا وهو تلميذ ابن

ص ٣٣٠

(١) انظر في اللبدي ابن أبي أصيبعة ص ٦٦٣ ونخط

(٢) انظر ابن أبي أصيبعة ص ٧٦٧ والنوميل

الشام لكرد عل ٤٦٦/٤ ، ١٠٣/٦ والنوميل ص ٣٧١

ص ٣٢٢ ، ٣٢٦

(٣) راجع في ابن أبي أصيبعة التاجم الزاهرة ٢٢٩/٧

وابن سكتة ٢٥٧/١٣ والثغرات ٣٢٧/٥ والنوميل



أبي أصيبعة ، وكان طبيبا حاذقا ، واشتهر له كتابان : جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض ، والعمدة في صناعة الجراحة . وكان يعاصره ابن <sup>(١)</sup> السويدي إبراهيم بن طرخان شيخ الأطباء والصيدالة بدمشق المتوفى سنة ٦٩٠ وهو تلميذ الدخوار ، أخذ الطب عنه وله في الطب « التذكرة الهادية » وفي الصيدلة « الباهر في الجواهر » ذكر فيه كثيرين من العلماء المؤثوق بهم في هذا الموضوع كالبيروني والرازي وأبي حنيفة الدينوري . ولا بد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء الذين ذكرناهم كان وراءهم عشرات في بلدان الشام المختلفة ، ويفيض ابن أبي أصيبعة في الحديث عنهم ، وأيضاً لا بد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء كانوا دارسين للفلسفة اليونانية وفروع العلم المختلفة من رياضيات وفلك وتنجيم ، يصور ذلك أوضح تصوير ما يذكره لهم ابن أبي أصيبعة من مؤلفات تتناول علوم الكيمياء والفيزياء والرياضة والمهنة أو الفلك . وقد مضت الأجيال في زمن الماليك تهل من موارد هذه العلوم واضعة نصب عيونها ممارسة الطب في البيمارستانات المنتشرة في بلدان الشام .

ومن نبغوا في الهندسة وعلم الفلك والرياضيات علاء الدين <sup>(٢)</sup> بن الشاطر المؤقت في الجامع الأموي بدمشق وله كتاب في الزيج توفى سنة ٧٧٧ ومثله ابن <sup>(٣)</sup> الهائم القرظي شهاب الدين المدرس بالقفس في المدرسة الصلاحية ، وله كتب مختلفة في الحساب والجبر ، توفى سنة ٨١٥ . وعُني كثيرون بالتأليف في علم المنطق . وألفت كتب كثيرة في ميادين الحرب والحركات العسكرية نكتني بأن نذكر منها كتاب بغية القاصدين في العمل بالميادين لمحمد بن لاجين الطرابلسي الرماح المتوفى سنة ٧٨٠ ألفه لصاحب حلب .

ومع ما أصاب الحركة العلمية في الشام من تدهور في أيام العثمانيين ظل دائما بصيص من نورها يترأى من حين إلى حين في الاهتمام بعلوم الأوائل وخاصة بالطب بلسم المرضى الشافي وأيضاً بالفلك وفروعه ، واشتهرت حيثئذ تذكرة <sup>(٤)</sup> داود الأنطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ للهجرة ، وهي مهمة في وصف الأدوية والعقاقير والأمراض مع أن مؤلفها كان ضريراً ، وله كتاب يسمى الكامل في الطب طبع مرارا .

(١) انظر في ابن السويدي فوات الوفيات ٥٤/١ والنيل

الصافي ١٢٤/١ وأندوسيلي ص ٣١٩

(٢) راجع في علاء الدين الشفارات ٢٥٢/٦ وأندوسيلي

ص ٥٥٣

(٣) انظر الفقه اللاع للسحاوي ج ٢ رقم ٤٤٩

والشفارات ١٠٩/٧ وأندوسيلي ص ٥٠٦ ، ٥١٣

(٤) راجع في داود الأنطاكي البدر الطالع للنوكان

٢٤٦/١ وعلاصة الأثر ٦٤٠/٢ وأندوسيلي ص ٤١٧ .

## (ب) علم الجغرافيا

من أقدم المرويات الجغرافية عن أهل الشام رحلات تسب إلى بعض الصحابة من أهلها أو من ولائها ، من ذلك رحلة تسب إلى تميم الدارى الفلسطينى الأصل المتوفى حوالى سنة ٤٠ للهجرة ، وهى رحلة بحرية قذفت به فيها عاصفة إلى جزيرة مهجورة فى البحر المتوسط . ومن ذلك أيضا رحلة تسب إلى عبادة بن الصامت وإلى حمص المتوفى سنة ٣٤ للهجرة ، وهى رحلة برية إلى القسطنطينية . وذهب كراتشكوفسكى إلى أنها قصتان ملفقتان بل منحولتان<sup>(١)</sup> . وتلقانا مرويات أخرى مشابهة ، وجميعها لا تدخل فى الجغرافيا بمعناها العلمى ، إذ يتأخر هذا المعنى إلى عصر الترجمة والاطلاع على مالى الأهم الأجنبية من مصنفات جغرافية ، ونفس الكلمة التى سُمى بها العلم كلمة يونانية ، وأعجبهم من التراث اليونانى إلى أقصى حد كتاب الميجسطى لبطليموس ، وأخذت تنشأ على هديه مدرسة جغرافية عربية منذ أواخر القرن الثالث الهجرى . وإذا مضينا إلى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وجدنا القدس ينبج أهم جغرافى حتى زمنه ، ونقصد المقدسى<sup>(٢)</sup> محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء البشارى ، وجده أبو بكر البناء هو الذى بنى سور عكا وأبوابها لأحمد بن طولون . وقد طاف بأرجاء العالم الإسلامى فيها عدا الهند وسجستان والأندلس ، ودون مطوماته فى كتابه «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» سنة ٣٧٥ وأعاد كتابته فى سنة ٣٧٨ وعلى النسخة الأخيرة اعتمد ياقوت فى معجمه الجغرافى . ويذكر فى مقدمة كتابه أنه اعتمد على ثلاثة مصادر : المشاهدة أو المعاينة بنفسه ، وماسمعه من الثقات ، وما وجدته فى الكتب المصنفة ، واتبع فى وصفه لكل قطر منها ثابته ذا ثلاث شعب : الشعبة الأولى تتناول أقسام القطر ومدنه ومواضعه العامة ، والشعبة الثانية تتناول المناخ والزرع والطوائف والفرق واللغة والتجارة والأوزان والنفود والعادات والمياه والمعادن والأماكن المقدسة وأخلاق السكان والتبعية السياسية للقطر والخزاج ، والشعبة الثالثة تتناول ذكر المسافات وطرق المواصلات . وهو يقدم معلومات مهمة عن العادات والمعتقدات والتجارة . ويبدأ القسم الأول

وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بروكس ٨٢ والخفارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لجز ١/٢ وألدوميل ص

٢٢٧ كراتشكوفسكى ٢٠٨/١ - ٢١٥

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى (الدرجة العربية) ص ٥٣ وما بعدها

(٢) انظر فى المقدسى دائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان

٢٥٣/٤ وما بها من مراجع ومقدمة كتابه حتى ص ٤٤

في الكتاب بجزيرة العرب فالعراق فالجزيرة شاليه فالشام فصر فالمغرب فبادية الشام . والقسم الثاني ، جملة للمشرق ، يبدأ ببلاد الحياطة فخراسان فالديلم فأرمينيا ومعها أذربيجان فالجبال فخورستان فقارس فكرمان فالسند ففازة فارس . وأضاف إلى كتابه خريطة مثل فيها الأقاليم وحدودها وخطوطها . ولم تصل إلينا خريطته ، ويقول إنه أوضح فيها الطرق المعروفة بالحمرة والرمال الذهبية بالصفرة والبحار المالحة بالخضرة ، والأنهار العذبة بالزرق ، والجبال المشهورة بالغبرة . وكان يتحرى الثقافات ويسألهم عن بلدانهم كما صنع بالأندلس ومثل سؤاله بساحل عدن لشيخ كان أعلم الناس بالبحر الصيني . والكتاب يعرض البلدان الإسلامية التي زارها بكل مشاهداتها حتى لكأنما يصورها قارؤه بكل سكانها ومعتقداتها وعاداتها ، وهو لا ييأس في عرضه لهذه المشاهد . ويتضح السجع أو النثر المقفى في مقدمته الطويلة وفي مواضع مختلفة من الكتاب مما يدل على أنه كان يحاول أن يختار لكتابه لغة أدبية مصقولة . وكان يعاصره المطهر <sup>(١)</sup> بن طاهر المقدسي ، وهو مثله لا تعرف سنة وفاته ، وله كتاب بدء الخلق والتاريخ كُتب سنة ٣٥٥ للهجرة وهو جمع غير منسق لمعارف كثيرة تتصل بالأديان والعقائد والتاريخ المتصل بالأنبياء والملوك والخلفاء حتى زمنه ، وبه فصل جغرافي كُتب عن صفة الأرض ومبلغ عمرانها وعدد أقاليمها وصفة البحار والأنهار وعجائب الأرض والخلق ، ويعرض للمساجد المشهورة . ونلتقي في النصف الأول من القرن الخامس بأبي الحسن علي <sup>(٢)</sup> بن محمد بن شجاع الربيعي المالكي المتوفى سنة ٤٣٥ وله كتاب الإعلام في فضائل الشام ودمشق وذكر ما فيها من الآثار والباق الشريفة .

وبصحب موضوع فضائل بلدان الشام أساساً منذ أواخر القرن الخامس الهجري ، حين استولى حملة الصليب على أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، إذهب الشاميون - والعرب معهم في كل مكان - يصرخون في وجوه حملة الصليب أن غادروا ترابنا الطاهر وأماكتنا المقدسة . وأخذ الشعراء والعلماء يلوحون في وجوههم ، الشعراء بما يستطيعون أن يصوبوه من سهام الشعر ، والعلماء بما يكتبون عن فريضة الجهاد لأعداء الإسلام . وانتظم الجغرافيون معهم يكتبون عن فضائل بيت المقدس والشام ، وأول من تصدى لذلك من الجغرافيين المشرف <sup>(٣)</sup> بن المرجي المقدسي الذي صنف بأخرة من القرن الخامس بعد استيلاء حملة الصليب على بيت المقدس سنة

(١) انظر في المطهر بروكلمان ٦٢/٣ وكراتشكوفسكي ٥٠٨/١ .

(٢) انظر في المطهر بروكلمان ٧٣/٦ وكراتشكوفسكي

٢٢٤/١ .

٥٠٨/١ وما بعدها .

(٣) راجع في الرعي بروكلمان ٦٨/٦ وكراتشكوفسكي

٤٩٢ كتابه : « فضائل البيت المقدس والشام » ليستثير حساسة الناس من حوله حتى يضرّوا حملة الصليب الضربة القاضية ويطهروا أرض الشام الزكية من رجسهم . وفي نفس هذه اللحظة التاريخية ألف أبو بكر<sup>(١)</sup> بن محمد بن أحمد الواسطي سنة ٥٠٠ للهجرة كتابا عن « فضائل بيت المقدس » . وأخذ يتوالى هذا النوع من الكتب حافزا لسحق الصليبيين . وألف أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي المعروف بابن عساكر<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٦٧١ تاريخ مدينة دمشق عرض فيه أسماء الأنبياء والعلماء والصالحين في ثمانين مجلدا ، ومن ذكرهم من الأنبياء سليمان وشعيب . كل ذلك ليحيط مدينته بحالة قدسية كي يدافع عنها أبنائها والعرب ضد حملة الصليب حتى النماء الأخير . ويستولى صلاح الدين على بيت المقدس - كما مر بنا - سنة ٥٨٣ بعد أن حطم حملة الصليب ودمرهم في حطين تدميرا لم يكذب يبق منهم ولا ينذر . وتكون لذلك فرحة مابعد فرحة في قلوب المسلمين . ولا يكاد يمضي على ذلك ثلاثة عشر عاما حتى نجد ابن هذا الحافظ المؤرخ الكبير المسمى بأبى القاسم<sup>(٣)</sup> ، وكان يشتغل بالوعظ في دمشق ، يلهم بنفسه إلى بيت المقدس سنة ٥٩٦ ليقرأ على الناس هناك كتابه : « الجامع المستقصى في فضائل المسجد الأقصى » .

ويلقانا على<sup>(٤)</sup> الهروي السائح المتوفى بحلب سنة ٦١١ وكان قد أكثر من التجوال والترحال لزيارة أضرحة الأولياء في الشام وغير الشام ، وكان قد ألقى عصاصيابه بحلب وألف كتابه « الإشارات إلى معرفة الزيارات » وأصبح له نفوذ كبير عند الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب ، فشيّد له مدرسة بظاهر حلب ، وهي صورة من صور رعاية أمراء البيت الأيوبي في الشام لاطعاء بلدهم فحسب ، بل أيضا بمن يتزل بها من جلة العلماء ، حتى لينون لهم المدارس ليحاضروا فيها الطلاب . وتلقى عثمان<sup>(٥)</sup> النابلسي المتوفى حوالي سنة ٦٤٥ وله كتاب « لمع القوانين للفضية في دواوين الديار المصرية » وهو فيه يستمد من كتاب « قوانين الدواوين » لابن عثمان وحين حاكما لمحافظة القيوم فكتب عنها كتابا تاريخيا جغرافيا سماه « إظهار صنعة الحى القيوم في

#### (١) راجع كراتشكوفسكى ٦٩/١

#### والهداية والنهاية ٢٩٤/١٢

(٣) انظر في القاسم بن عساكر طبقات الشافعية ٣٥٢/٨

والنجوم الزاهرة ١٨٦/٦ وتذكرة الحافظ ١٣٦٧/٤ وظهر

٣١٤ وشرحات قلبه ٣٤٧/٤ وكراتشكوفسكى ٥٠٩/٢

(٤) راجع في الهروي ابن خلكان ٣٨٦/٣ وشرحات

٤٩/٥ وكراتشكوفسكى ٣٢٠/١

(٥) انظر عثمان النابلسي في كراتشكوفسكى ٣٤٩/١

(٢) انظر في الجبراق المؤرخ الحافظ ابن عساكر معجم

الأدباء ٧٣/١٣ وغيره القصر (قسم شعراء الشام)

٢٧٤/١ وللتنظيم ٢٦١/١٠ ورواة الزمان ٣٣٦/٨ وتذكرة

الحافظ ١٣٢٨/٤ وظهر القهي ٢١٧/٤ ورواة الجبان

٣٩٣/٣ وطبقات الشافعية للسبكي ٢١٥/٧ وابن خلكان

٣٠٩/٣ وشرحات الذهب ٢٣٩/٤ والنجوم الزاهرة ٧٧/٦

ترتب بلاد الفيوم ، ويؤلف <sup>(١)</sup> ابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤ - هو غير بهاء الدين بن شداد صاحب سيرة صلاح الدين - كتابا بديعا سماه الأعلام الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة نُشر منه جزآن عن دمشق وحلب ، وهو يعطى بيانات دقيقة عما في البلدين من المساجد والحقائق والمزارات والحمامات ، وقد رجعتا إليه مرارا في حديثنا عن الحركة العلمية .

وتأخذ الكتب الجغرافية المليئة بالمعاجب والغرائب في الظهور . ونقرأ منها كتاب غيبة الدهر في عجائب البر والبحر لشمس <sup>(٢)</sup> الدين محمد بن أبي طالب الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧ وكان إماما لمسجد الربوة بدمشق ، والكتاب يفيض بمعلومات كثيرة تدخل في التاريخ الطيبي وما يتصل به من نباتات البلدان شرقا وغربا وحيواناتها ومعادنها ، وللشام أو بعارة أدق لسوريا وفلسطين نصيب جغرافي كبير ، وألحق به بعض الخرائط وقُدت منه .

وكان حملة الصليب قد خرجوا نهائيا من الشام ، فكان من الطيبي أن يعنى إبراهيم <sup>(٣)</sup> بن الفركاح المتوفى سنة ٧٢٧ بتأليف كتابه : « الإعلام بفضائل الشام » ، و« باحث النفوس إلى زيارة القدس المحروس » . ويلقانا أبو القدا الملك للمؤيد <sup>(٤)</sup> إسماعيل الأيوبي صاحب حياة المتوفى سنة ٧٣٢ ويشتهر بكتابين في التاريخ والجغرافيا ، وهما الثاني وعنوانه « تقوم البلدان » وهو كتاب جغرافي للعالم في زمنه ، وقد ظل أهم كتاب جغرافي عرقي حتى العصر الحديث ، ودالما يذكر مصادره كأحدث الكتابات الجغرافية . ويؤلف شهاب <sup>(٥)</sup> الدين القدسي المتوفى سنة ٧٦٥ كتابه « مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام » ، ويلقانا عمر <sup>(٦)</sup> بن الوردى المتوفى سنة ٨٥٠ - وهو غير زين الدين بن الوردى المتوفى قبله بقرن - وله كتاب خريدة المعاجب وفريدة الغرائب ، وهو مع وصفه الجغرافي للبلاد والأرض والبحار يعنى بالقصص الغريبة ، وقد جلبنا منه قصصا لطيفة في كتابنا « عجائب وأساطير » . ويؤلف عبد <sup>(٧)</sup> الرحمن العليمي المتوفى لأوائل زمن العثمانيين سنة

٣٩٦/١ وطبقات الشافعية ٤٠٣/٩ والبداية والنهاية

١٥٨/١٤ وتاريخ ابن الوردى ٢٩٧/٢ والنجوم الزاهرة

٢٩٢/٩ وكرايشكوفسكى ٣٨٩/١

(٥) انظر في شهاب الدين الدرر ٢٥٧/١

وكرايشكوفسكى ٥١١/٢

(٦) راجع في عمر بن الوردى ابن لباس ٦٠/٢

وكرايشكوفسكى ٥٠٠/٢ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٧) انظر الطيبي في كرايشكوفسكى ٥١٥/٢

(١) انظر في حر الدين بن شداد تاريخ ابن القرات (طبع

بيروت) ٣٣/٨ والبداية والنهاية ٣٠٥/١٣ وشرحات الذهب

٣٨٨/٥ وكرايشكوفسكى ٣٦٩/١

(٢) راجع شمس الدين الدمشقي في كرايشكوفسكى

٣٨٦/١

(٣) انظر ابن الفركاح في الدرر ٣٥/١ والشرحات ٨٨/٦

وكرايشكوفسكى ٥١٠/٢

(٤) راجع الملك للمؤيد في نوات الوفيات ٢٨/١ والدرر

٩٢٨ كتابه « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » . وتكثر أيام العثمانيين كتب الرحلات والفضائل وتقل قلة شديدة الكتب الجغرافية بمعناها الدقيق . وربما كان أكثر أهل الشام حيث نشأوا في الكتابة عن دمشق ومساجدها ومدارسها ومواضع أحيائها وضواحيها ومزاراتها ابن<sup>(١)</sup> طولون الصالحى المتوفى سنة ٩٥٣ وله في ذلك رسائل متعددة ، وله أيضا وصف للطريق من الشام إلى مكة باسم « منازل الحج الشامي » . ويكثر وصف الرحلات إلى القسطنطينية ، وبدأها بدر<sup>(٢)</sup> الدين محمد الغزى المتوفى سنة ٩٨٤ بكتابه « المطالع البدرية في المنازل الرومية » وتلاه محمد<sup>(٣)</sup> بن أحمد سكيكر المتوفى سنة ٩٨٧ للهجرة بوصف رحلته من حماة إلى القسطنطينية في كتابه « زبدة الآثار فيها وقع لجامعه من الأسفار » . وتلقى برحلات متعددة إلى مصر ، مثل « حاوى الأطلغان النجديّة إلى الديار المصرية » لأحمد<sup>(٤)</sup> بن داود الحموى المتوفى سنة ١٠١٦ ووصف<sup>(٥)</sup> محمد بن أحمد بن حافظ الدين القدسي المتوفى سنة ١٠٥٥ زيارته لدمشق والقدس والقاهرة في كتابه « إسفار الأسفار في أبحار الأفكار » كتبه بلغة مسجوعة بها غير قليل من التكلف . ولعبد الفنى التابلسى الصوفى الذى سترجم له فيها بعد المتوفى سنة ١١٤٣ أربع رحلات إلى طرابلس ويطبك والقدس ومصر . وربما كان أهم من جاءوا بعد ذلك في زمن العثمانيين أحمد<sup>(٦)</sup> المنينى الطرابلسى المتوفى سنة ١١٧٢ ، وكان مدرسا بالجامع الأموى ، وله كتاب « الإنعام (أو الإعلام) بفضائل الشام وهو شارح السيرة المشهورة التى ألفها العنبرى للسلطان محمود الغزنوى .

### ٣

#### علوم اللغة والنحو والتقدم والبلاغة

أعلنت الشام ثغرى بتعلم العربية منذ وضع فيها العرب أقدامهم حتى تحسن النطق بالذكر الحكيم ، وبمجرد أن تحولت مقاليد الخلافة إلى معاوية وأصبحت دمشق عاصمة الدولة الإسلامية

- 
- |   |   |
|---|---|
| (١) انظر في ابن طولون ترجمة شخصية له طبع بدمشق      | (٣) راجع كراتشكوفسكى ٦٨٧/٢                  |
| بنزان : القلق المشعرون في أحوال محمد بن طولون وراجع | (٤) انظر كراتشكوفسكى ٦٩٠/٢                  |
| الكواكب السائرة ٥٢/٢ وشفوات النعب ٢٩٨/٨             | (٥) راجع كراتشكوفسكى ٦٩٢/٢                  |
| وكراتشكوفسكى ٦٨١/٢ وماجدها                          | (٦) انظر في المنينى سلك الدرر للرمادى ١٣٣/١ |
| (٢) انظر كراتشكوفسكى ٦٨٥/٢                          | وكراتشكوفسكى ٧٥٧/٢                          |

ازدادت الرغبة حتى عند المسيحيين في معرفة العربية لغة الحاكم وإدارته الجديدة ، وحقا كانت الشام قد أخذت في التعرب قبل الإسلام ، ولكن كان لا يزال بها كثيرون لا يعرفون العربية ، بل قل إن الكثرة كانت لا تعرفها ، وكان الذين اعتنقوا الإسلام شغوفين بالتزود منها ، ويمكن أن نتخذ مما ينسب إلى عبيد بن شريك جليس معاوية ومحدثه بأخبار الأمم السالفة من أنه وضع للناس كتابا في الأمثال <sup>(١)</sup> رمزا لتلبية هذا الشغف عند أهل الشام ، ولباه أيضا في أيام يزيد بن معاوية أخبارا يسمى علاقة بن كرم الكلالي ، فوضع للناس كتابا ثانيا في الأمثال <sup>(٢)</sup> والحكم . وأخذ بنشأ حينئذ معلمون يعلمون الناس العربية ، كانوا يسمون باسم المؤدبين ، ولم تتم الكتب بإعطائهم بيانات عن كانوا يعلمون العامة منهم ، ولا شك أن كثرتهم كانت من قراء الذكر الحكيم ، حتى يحسن القارئ تلاوته ، أما من كانوا يعلمون الخاصة من أبناء الخلفاء وأمراء البيت الأموي فرودتنا المصادر ببعض أسمائهم ، ومنهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب <sup>(٣)</sup> أولاد عتبة بن أبي سفيان ، وهو أيضا مؤدب <sup>(٤)</sup> الوليد بن يزيد ، ويقال إنه هو الذي دفعه إلى الجهن ، إذ كان زنديقا ماجنا . وكان معبد الجهنى مؤدبا <sup>(٥)</sup> لسعيد بن عبد الملك ، واتخذ هشام بن عبد الملك في خلافته الزهرى المحدث مؤدبا <sup>(٦)</sup> لأبنائه .

ومضت الشام طوال القرنين الثاني والثالث تُعنى بتعلم العربية وإتقان الناشئة لها وقيام أمثال من سميناهم على تعليمها من المؤدبين والمعلمين . ويبدو أنهم كانوا يعدون تلاميذهم إعدادا واسعا ، يدل على ذلك أن شاعرين ممن خرجوها - نخرج أولها وهو أبو تمام في الربع الأخير من القرن الثاني ونخرج الثاني في أوائل القرن الثالث وهو البحري - وضعا أقيم مجموعتين من الاختبارات الشعرية ومنها ، وسمى كل منها بمجموعته باسم الحماسة على نحو ما هو معروف . وكانت بغداد - مركز الخلافة - تجذب إليها بعض هؤلاء المؤدبين ، وكان الخلفاء يتخذون منهم أحيانا مؤدبي أبنائهم ، مثل أحمد بن سعيد الدمشقي وكان مؤدبا لأبناء الخليفة المعتز واختص بتخريج عبد الله بن المعتز الشاعر المشهور . ويبدو أن علماء اللغة في الشام لم يستقلوا عن علماء النحو إلى حقب متطاولة ،

(١) أظني (طبع دار الكتب) ٣/٧ ولسان الميزان لابن

حجر ٢١/٤

(٢) البيان والبيان ٢٥١/١

(٣) بروكلمان (الطبعة العربية بدار الطارف) ٢٥٤/١ .

(١) الفهرست ص ١٣٢

(٢) الفهرست ص ١٣٢ ونسب ابن النديم كتابا في

الأمثال لصاحب البدي معاصر معاوية .

(٣) البيان والبيان ٢٥٢/١

بمعنى أن عالم اللغة والنحو كان واحداً ، وكان يؤلف في الميدانين معاً ، وقد يكون شامياً أصيلاً وقد يكون من نزلاء الشام .

وأول نحوى ولغوى كبير تلقى به في الشام الزجّاجي<sup>(١)</sup> عبد الرحمن بن إسحق ، كان قد لزم الزجّاج العالم النحوى ببغداد ، فُسب إليه ، ونزل الشام فأقام بحلب مدة ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها يعلم كتابه الجمل ، وهو كتاب بارع في تعليم الناشئة ، وظل يُدرّس بعده في مصر والمغرب والحجاز واليمن فضلاً عن الشام مدداً متطاولة لوضوح عبارته ودقة تبويبه . وله أمال تشرح بالمعارف اللغوية وهى منشورة ، وله في علل النحو كتاب نفيس سماه الإيضاح وهو أقدم كتاب تناول هذا الموضوع تناولاً مفصلاً دقيقاً ، نشره الدكتور مازن مبارك مع مقدمة لى تحليلية . وقد ترجمت للزجّاجي في كتابي « المدارس النحوية » وأوضحته أنه من مؤسسى المدرسة البغدادية التى تعتمد على الآراء النحوية البصرية وتضم إليها بعض الآراء النحوية الكوفية مع النفوذ إلى آراء جبيلة . وخرج في سنة ٣٤٠ مع عامل الضياع الإخشيدية - إذ كانت الشام حينئذ تتبع الإخشيد - إلى طبرية فتوفى بها .

وكانت حلب قد أخذت تنافس بغداد في النهضة الفكرية ، إذ بعث فيها سيف الدولة - كما مرّ بنا في غير هذا الموضع - حياة أدبية وعلمية باهرة بما جمع في بلاطه من الفلاسفة مثل الفارابى والمترجمين مثل عيسى النخيسى والأطباء مثل أبى القاسم الرقى . وكان للغة والنحو حظ وافر من العلماء ، إذ كان بحلب حينئذ أبو الطيب<sup>(٢)</sup> عبد الواحد اللغوى ، وله كتاب مراتب النحويين وكتاب في الأضداد ، غير كتب لغوية أخرى . ونزل حلب ابن خالويه<sup>(٣)</sup> اللغوى النحوى واتخذ سيف الدولة مؤدباً لأبنائه ، وله في اللغة كتاب الاشتقاق وكتاب المقصور والمحدود وكتاب المذكر والمؤنث وله في النحو كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن العزيز وطبعته دار الكتب المصرية ، وله كتاب في القراءات منشور ، وعنى بدراسة لغة العامة لأيامه ، ومن أجل ذلك ألف كتابه « ليس في كلام العرب » وعقب عليه الحافظ المصرى مخططاً في مواضع وسمى كتابه « الميس على ليس » ويريد بالميس الاختيال . وكان ينزع في آرائه مترع الكوفة وتوفى بحلب سنة ٣٧٠ .

النحويين وبغية الرواة وبيروكلمان ٢٤٢/٢

(٣) انظر في ابن خالويه إنباه الرواة ٣٢٤/١ وابن خلكان

١٧٨/٢ ومصمم الادباء ٢٠٠/٩ وبغية الدهر ٨٨/١

طبقات الشافعية للسبكي ٢٦٩/٣

(١) انظر في الزجّاجي إنباه الرواة ١٦٠/٢ وابن خلكان

١٧٦/٣ وكتابتا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص

٢٥٢ وبيروكلمان ١٧٣/٢

(٢) راجع في أبى الطيب مقدمة الناشر لكتابه مراتب



وبجانب ابن خالويه وأبي الطيب اللغوي كانت هناك طائفة من نخبة أقل شهرة مثل أحمد بن البازيار وأحمد السيساطي وعلى بن محمد المدوي وعبد<sup>(١)</sup> الله بن عمرو الفياضي ، وكان معهم النامي الشاعر ، وكان سيف الدولة يعجب بشعره ، وبدأ حياته نحويًا في بلدته البصيصية ، ثم تحول شاعرا ، وكانت له إملاءات لغوية ونحوية بحلب والتف حوله كثيرون من التلاميذ . وكان كشاجم حلي شاكلة النامي لغويا وشاعرا وله كتاب المصايد والمطارد وهو منشور ، وكان له كتاب في اليزرة وكتاب ثان في أدب النديم . ومثله كان الخالدانيان : عثمان وأخوه أبو بكر محمد ، ولهما تصانيف في الشعر والشعراء مثل كتاب الحماسة وأخبار أبي تمام وأخبار ابن الرومي . ولمع جيتند في سماء حلب كوكبان نحويان لغويان كبيران هما أبو علي الفارسي وتلميذه ابن جني . وقد تحدثنا عن نشاطها اللغوي والنحوي في كتابنا « المدارس النحوية » وبهنا هنا أن نذكر أن ابن جني لزم المتنبي في بلاط سيف الدولة وبعد ذلك في بغداد وإيران وروى عنه ديوانه وشرحه شرحين ، صغير مختصر وكبير مطول وعلى أساسها بُنيت شروحه فيما بعد . وأهم من شرحه بعده من أهل الشام أبو العلاء المعري ، وله عليه شرحان : كبير ومتوسط وهما معجز أحمد واللامع العزيزي سماه بهذا الاسم لأنه قدمه إلى عزيز الدولة ثابت<sup>(٢)</sup> بن ثمال بن صالح بن مرداس سنة ٤٣٤ وربما كان يتولى المعرة حينذاك . وفي ذلك ما يشير إلى ما قلناه مرارا من أن حكام الإمارات والمدن كانوا رعاة للعلم والأدب ، ولعل فيه ما يشير أيضا إلى أن بني مرداس الذين خلفوا الحمدانيين وظلوا حكاما على إمارة حلب من سنة ٤١٥ إلى سنة ٤٦٧ أعادوا لها ذكرى الحركة الفكرية التي بعثها فيها سيف الدولة الحمداني وأسرته .

ولعل بلدًا عربيًا لم يظفر بما ظفرت به الشام في أبي العلاء الشاعر اللغوي العبقري المولود سنة ٣٦٣ والمتوفى سنة ٤٤٩ للهجرة وقد استوعب كل تراث زمنه من العلوم اللغوية والشعرية وعلوم الأوائل واستظهر ذلك كله في أشعاره وفي رسائله وكتابه النثرية ، وكان للغة وغرائبها الحظ الأكبر ، وكان ليس هناك شاذة ولا شاردة لغوية إلا سلكتها في أشعاره ورسائله . ولذلك كان يفرد دائما شروجا لغوية لأعماله ، وقد أفرد لديوانه سقط الزند شرحًا سماه ضوض السقط وهو منشور ، وأفرد للزوميات شرحا سقط من يد الزمن ، ويقال إنه كان في مائة كراسة ، وأفرد للفصول والغايات وهي في الزهد والعظات شرحًا ، أنشأ في غريبها وسماه « السادن » كان في

(١) انظر كتاب (أبو الطيب اللغوي) لبلاتشير (ترجمة) (٢) راجع إنباه الرواة ٦٥/١ وانظر معجم الأدباء

عشرين كراسة . ولعل في ذلك ما يشير إلى أنه كان ينبغي في نشر هذا الكتاب أفراد الشرح عن متنه ، وكان قد وضع في غاياته شرحا سماه إقليد الغايات مقداره عشرين كرايس كان ينبغي أيضا أن يُفَرَّدَ عنه شرح غاية أو قافية كل فصل من فصوله . وهذا نفسه يلاحظ في رسالته البديعة : رسالة الغفران ، فقد نشرت مع شرح يتخللها ويتظم في تضاعفها ، وكان ينبغي أن ينحى عنها وبوضع في هوامشها بحيث يكون لها هوامش من إملاء أبي الطلاء وهوامش أخرى خاصة بالتحقيق . ومثلها رسالة الصاهل والشاحج التي كتبها على لسان فرس وبغل : فقد أتبعها بشرح سماه « لسان الصاهل والشاحج » . وقد نشرتها هي ورسالة الغفران المذكورة بنت الشاطي ، ويقال إنه قدم رسالة الصاهل والشاحج لتعزيز الدولة فانتك الذي كان واليًا للفاطمين على حلب <sup>(١)</sup> من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٣ وقدم رسالته السُنية إلى والي حلب الذي خلف فانتكا : سند <sup>(٢)</sup> الدولة بن عثمان الكُتامي . ولعل في الرسلتين ما يشير إلى أن ولاية الفاطميين في المدة القصيرة التي تبعت فيها حلب القاهرة من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٥ كانوا يرمعون الأدباء والعلماء بها ، وبالمثل في البلدان الشامية الأخرى التي كانت تتبع القاهرة قبل استيلاء السلاجقة عليها وقبل استيلاء حملة الصليب . وعملُ أبي العلاء اللغوي لم يقتصر على ما أنتج من شعر ونثر فقد مرَّبنا أنه شرح ديوان المتنبي وبالمثل شرح ديوان أبي تمام حبيب بن أوس وسماه ذكرى حبيب وشرح ديوان البخترى وسماه حبث الوليد . وشرح من كتب اللغة فصيح ثعلب . وكان طلابه وتلاميذه الذين يتحلقون حوله يقرءون عليه كتباً لغوية مختلفة ويشتون على نسخهم تعليقاته ، من ذلك كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت وكتاب غريب الحديث لأبي عبيد . ويروى أنه ألف في النحو كتابا سماه النافع وكان في خمسة كرايس ولعله صنفه للناشئة . وفي الحق أنه كان إماما كبيرا في اللغة ، ويقول عنه تلميذه التبريزي : « ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها الممرى » <sup>(٣)</sup> . ويعدد الصفدى من رُزقوا السعادة في أشياء لم يأت بعدهم من نالها ويذكر منهم أبا العلاء في الاطلاع على اللغة . ويقول الذهبي : كان أبو العلاء عجبا في الاطلاع الباهر على اللغة وشواهد ما <sup>(٤)</sup> ويقول ابن فضل الله العمري : « كان أبو العلاء مطلعا على الطوم لا يخلو في علم من الأخذ بطرف ، متبحرا في اللغة ، متسع النطاق في المرية » <sup>(٥)</sup> . وإذا عرفنا أن هذا الإمام اللغوي الكبير

(٤) تعريف القدماء من ١٩٠

(٥) تعريف القدماء من ٢٦٨

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء من ٥٣١

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء من ٥٣٤

(٣) أبو العلاء وما إليه المرجع من ٥٣

لم ينشأ في مدن الشام الثلاث الكبرى : حلب أو دمشق أو بيت المقدس ، وإنما نشأ في بلدة المرأة الصغيرة القريبة من حلب ، وأخذ العربية واللغة عن علماء منها كبنى كوثر<sup>(١)</sup> ومن يجرى مجراهم من تلامذة ابن خالويه وطبقته ، إذا عرفنا ذلك اتضح لنا النشاط اللغوي والنحوي الكبير الذي كان مبثوثا لافي مدن الشام الكبرى فحسب ، بل أيضا في مدنها وبلداتها الصغرى .

وفي كتب التراجم نحاة مختلفون كانوا يدرسون اللغة والنحو ويعلمونها للناس ومن تجاوزوا سن الناشئة نذكر منهم في زمن أبي العلاء ، أحمد<sup>(٢)</sup> بن عبد الرحمن الطرابلسي ويذكر مترجموه أنه كان لا يزال حيا يعلم ويدرس سنة ٤١٣ لطلابه بطرابلس إلى أن وافته بها القدر . وكان يعاصره عالي<sup>(٣)</sup> بن أبي الفتح بن جنى المتوفى سنة ٤٥٢ وكان يعلم العربية في صور وصيداء وتلقى من شراح المتنبي بالوآواه<sup>(٤)</sup> الحلبي اللغوي المتوفى سنة ٥٥١ وهو غير الوآواه المسمى شاعر سيف الدولة ، كما تلقى في شيزر بمهراف بن أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٦١٣ وله شرح<sup>(٥)</sup> على ديوان المتنبي ، وتوفى معه في نفس السنة أبو اليمن التاج الكندي زيد<sup>(٦)</sup> بن الحسن نحوي دمشقي المشهور . وتزدهر الدراسات اللغوية والنحوية في الشام أثناء القرن السابع الهجري ، ويلقانا أعلام ثلاثة كان لكل منهم شطر في هذا الازدهار ، أولهم يعيش<sup>(٧)</sup> بن علي بن يعيش الحلبي الدار والمولد ، ولد بحلب سنة ٥٥٦ للهجرة وأكب في نشأته على تعلم العربية وأخذها عن نحاة موطنه ، ولم يكتف بذلك فقد رحل إلى بغداد ثم دمشق يأخذ عن شيوخها ، وعاد إلى حلب يعلم العربية حتى وفاته سنة ٦٤٣ وكان يقرأ على طلابه بعض كتب ابن جنى ويشرحها مثل اللمع والتصريف ، وأهم من شرحه عليهما شرحه على كتاب المفصل للزمخشري وهو منشور في عشر مجلدات استقصى فيه آراء النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين ، ويكثر من انتصاره للبصريين ، وقلما يستحسن آراء الكوفيين ، وكثيرا ما يؤثر آراء البغداديين من أمثال أبي علي الفارسي ، وهو بذلك يسلك في المدرسة البغدادية التي كانت تجمع في مصنفاتها بين آراء النحاة البصريين والكوفيين وتتخذ إلى آراء جديدة في هذه المسألة أولئك ، وفي كتابنا المدارس النحوية ، توضيح كاف لمنهج ابن يعيش في النحو واختياره لآراء النحاة فيه من بصريين وكوفيين وبغداديين . . .

(٥) بروكلمان ٩٠/٢

(١) إنباه الرواة ٤٩/١

(٦) سذكر مصادر ترجمته بين القراء .

(٢) راجع ترجمة الطرابلسي في إنباه الرواة ٨٩/١

(٧) راجع في ترجمة ابن يعيش ابن خلكان ٤٦/٧ وابن

(٣) انظر إنباه الرواة ٣٨٥/٢

الزوي ١٧٦/٢ والشملات ٢٢٨/٥ ونبذة الفحاة ص ٤١٩

(٤) انظر في الوآواه الحلبي إنباه الرواة ١٨٦/٢

والعلم الثاني لم يكن شاميا بل كان مصرياً ، ومنذ العصر الأيوبي كان علماء الشام ومصر يتبادلون التدريس والتعلم في البلدتين ، وكثيراً ما دُرِّسَ وعُلم جِلَّةُ العلماء الحليين والدمشقيين والمقنسيين في مدارس القاهرة وماسجدها مثل يحيى بن معطى التوفى بمصر سنة ٦٢٨ وقد وضعت بين نخاتها للمصريين . وكثيراً ما نزل بيت المقدس ودمشق وحلب مصريون واستوطنوها وأنشؤوا حياتهم هناك بطلمون ويدرسون ويفعلون ، لا علماء النحو فحسب بل جميع العلماء من كل فرع من فروع العلم . وكان العلم المصرى النحوى الذى نزل الشام ابن الحاجب <sup>(١)</sup> عثمان بن صحر التوفى سنة ٦٤٦ وهو مذكور بين النحاة في القسم المصرى . وبعدها هنا أن نعرف أنه حين أحس نضجه العلمى رحل إلى دمشق وكان مالكيًا ، فترل بزاوية المالكية في جامعها الأموى ، وأخذ يدرس لطلابه هناك كتايه الرائعين في النحو والتصريف : الكافية والشافية ، وأمل شرحين لها . وتواتر بعده لفاستها الشروح عليها بين حرية وقارسية حتى بلغت على الكافية - كما استقصاها بروكلمان - سبعة وستين شرحا ، وظل الشافية - ستة وعشرين . وظل ابن الحاجب طويلا في دمشق وطلاب الحرية مكثبون عليه حتى دخلت سنة ٦٣٩ وتحالف الملك الصالح إسماعيل مع حملة الصليب ضد ابن أنحيه الملك الصالح نجم الدين أيوب وتنازل لهم عن صفد وقلة شقيف ، وجاء ابن الحاجب نبأ الكارثة ، وكان يحضب الجمعة في المسجد الأموى ، وكان إسماعيل قد ملك دمشق برهة ، وغلا الدم في عروقه فقطع اسم الملك إسماعيل من الخطبة معنا بذلك احتجاجه على عمله المزرى ، وردَّ عليه إسماعيل بإبعاده إلى موطنه ، فعاد إلى القاهرة وتركها إلى الإسكندرية وبها توفى سنة ٦٤٣ .

والتلمذ الثالث لم يكن مصرياً ولا شامياً ، بل كان أندلسياً ، وهو ابن <sup>(٢)</sup> مالك محمد بن جد الله ، ولد ونشأ وعكف على دراسة اللغة والنحو في بلدته جيان ، حتى إذا شمر باكتمال تكوينه العلمى رحل سنة ٦٣٠ وهو في الثلاثين من عمره إلى دمشق ، وظل مدة في حلب يأخذ عن ابن يعيش . ثم عاد إلى دمشق واستوطنها متولياً بها مشيخة المدرسة العادلية ، ولم يلبث أن طار صبه في آفاق الشام ، قصده الطلاب من كل فجٍّ ، وكان يحسن إلى أبعد حد نظم الشعر العلمى فنظم في النحو ألفية المشهورة ، وتواتر بعده شروحها حتى بلغت تسعة وأربعين شرحا ، غير ما حل بعض شروحها من حواشٍ . وألف في النحو بجانبا كتابه التسهيل وله عشرة شروح ، وله في

(١) انظر في ابن الحاجب ابن خلكان ٢٤٨/٣ وابن  
 فرحون ص ٣٧٢ و بروكلمان ٣٠٨/٥ والمدارس النحوية  
 (٢) انظر في ابن مالك ومصادر كتابنا المدارس النحوية  
 ص ٣٠٩ و بروكلمان ٢٧٥/٥ - ٢٩٦ .  
 ص ٣٤٣ .

الصرف لامية الأفعال ولها أيضا عشرة شروح ، ونخفة المودود في المقصور والممدود ، وإيجاد التعريف في علم التصريف . وبلغت مصنفاته نحو ثلاثين مصنفا بين منظوم ومتر ، وأوضح في كتاب المدارس النحوية منهجه في النحو وأنه كان منهجا بغداديا مع ميله لاستخدام بعض الرخص الكوفية ، وسنود إلى الترجمة له ترجمة أكثر تفصيلا في السُّفر الخاص بالأندلس والمغرب إذ عداده حقا إنما هو في الأندلسيين .

وتظل دراسات اللغة والنحو في الشام بعد هؤلاء الأعلام الثلاثة مزدهرة ، ويظل التبادل فيها موصولا بين علماء الشام ومصر طوال أيام المماليك ونذكر من نخبة الشام ولغويها الذين تكوّنوا في موطنهم ثم نزلوا القاهرة ودرّسوا النحو واللغة فيها للطلاب بهاء<sup>(١)</sup> الدين بن النحاس الحلبي المولود سنة ٦٢٧ سمع موطنه ابن يعش وتلقى عنه العلم ثم بارح حلب إلى القاهرة والتف الطلاب حوله وصار شيخ العربية بالديار المصرية حتى توفي سنة ٦٩٨ ويُنسَب له شرح على ديوان امرئ القيس نشره الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم مع مجموع شروح الديوان بدار المعارف . ومن هؤلاء اللغويين والنحاة المستوطنين لمصر ابن الصائغ<sup>(٢)</sup> محمد بن الحسن المولود بدمشق سنة ٦٨٥ نزل القاهرة وأقام بها يقرئ الناس العربية وكان شاعرا كما كان لغويا ، وله شرح على مقصورة ابن دريد وشرح على ملحمة الحريري ومختصر لصحاح الجوهري جرّده فيه من الشواهد ، توفي بالقاهرة سنة ٧٢٢ . ومن أهم هؤلاء النحاة المهاجرين من الشام إلى مصر وأشهرهم بهاء<sup>(٣)</sup> الدين بن حنبل عبد الله بن عبد الرحمن الحلبي الأصل والمولد ، وقد لزم شيخو الفقهاء الشافعي والحديث والعربية بمصر يأخذ عنهم ، وخاصة النحوي الكبير أبا حيان ، وألف شرحه المشهور على الألفية ويمتاز بالوضوح ونصاعة العبارة ، ولذلك عُني به الشراح فشرحوه مرارا وله شرح على كتاب التسهيل لابن مالك ، وظل يشغل بالتدريس في مدارس متعددة حتى توفي سنة ٧٦٩ . وإنما أردنا بذكر اللغويين والنحويين الشاميين التازلين بالقاهرة إلى أن ندل من جهة على أن التبادل العلمي بين القاهرة والشام في النحو ظل طوال زمن المماليك نشيطا ، وظلت دراساته حية قوية إلى أبعد حد ، وتتوالى أمامنا تراجم كثيرة طوال القرن التاسع الهجري نقرأ فيها أن هذا الشيخ أو ذاك كان بارعا في القراءات أو في الفقه وأصوله وأيضا في العربية ، ولم تكن توجد بلدة لافي الشام فحسب بل أيضا

(١) راجع ابن النحاس غزوات الرغبات ٣٥٠/٢ وبعية

الرعاة ص ٦ والتفريات ٤٤٢/٥

(٢) انظر في ابن الصائغ غزوات الرغبات ٣٨٠/٢ والبداية

والنهاية ٩٨/١٤ والنجوم الزاهرة ٢٤٨/٩

(٣) راجع في ترجمة ابن حنبل الدرر الكائنة ٣٧٢/٢

والبعية ص ٢٨٦ وكتابنا المدارس النحوية ص ٣٥٥

في كل العالم العربي الا وهي نغى بدراسة اللغة والنحو. وظل كثيرون من شيوخ العربية يصفون الشروح لطلابهم على كثير من متون النحو ومختصراته.

ونغى إلى زمن العثمانيين وظل دراسات العربية بالشام نشطة، إذ لا يستقيم لسان الناس وتلاوتهم للذكر الحكيم بدونها، بل لقد ظلت جميع الدراسات العلمية وانبرى لها علماء في كل الفروع يدرسونها للطلاب دراسة مرتبة مفصلة، وأخذ النحو نصيبه من ذلك فظهر فيه علماء ناهبون في مقدمتهم الشيخ ياسين<sup>(١)</sup> بن زين الدين العليبي المتوفى سنة ١٠٦٦ للهجرة، وله حاشية على شرح التصريح للشيخ خالد الأزهرى المصرى، وهو شرح على التوضيح أو أوضح المسالك لابن هشام. والحاشية تدل بوضوح على أن الشيخ ياسين لم يكده يترك كتابا من كتب النحو الكبرى التي تجمع آراء النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين وأندلسيين ومصريين حتى زمنه من مثل مع الهوامع للسيوطي والمغنى لابن هشام وارتشاف الضرب (عسل النحو) لأبى حيان. بل لقد أمعن في قراءة النحو عند ابن يعيش، وتجاوزه إلى من سبقوه، من أئمة المذاهب النحوية، بحيث تحول بحاشيته إلى ما يشبه موسوعة نحوية كبرى، فإذا قلنا إن الدراسات النحوية واللغوية بالشام في زمن العثمانيين كانت لا تزال نشطة تَحَقُّقُ بغير قليل من الحيوية لم نكن مبالغين.

وإذا تركنا النحو واللغة إلى مباحث البلاغة والتقد وجدنا شعراء الشام متصلين اتصالا وثيقا بالتطور الذى حدث في الشعر لأول أيام بنى العباس وما اصططنه فيه الشعراء من المحسنات المصنوعة واللفظية مما سمي فيها بعد باسم البديع، ويلاحظ ذلك الجاحظ على الصائى الشاعر الشامي لزمن الرشيد فيقول إنه كان يحتذى حذو بشار<sup>(٢)</sup> زعيم المحدثين في العصر العباسى الأول. وما يزال الشعراء العباسيون يصفون بتلك المحسنات حتى استطاع مسلم بن الوليد أن ينميا حتى ليتخذها كالمذهب له، وما لبث أبو تمام الشاعر الشامي أن يتناولها منه ويبلغ بها الغاية للمتظرة من تكوين هذا المذهب الجديد الذى كان يسميه مسلم باسم البديع وفيه يقول أبو الفرج الأصبهاني. (هو فيها زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف وتبعه فيه جماعة أشهرهم أبو تمام الطائي)<sup>(٣)</sup>. وأثرنا في كتاباته الفن ومذاهبه في الشعر العربي أن نسميه مذهب

(٣) انظر ترجمة مسلم بن الوليد للتحفة بنويته نشر

الدكتور سامي الدخان

(١) انظر في الشيخ ياسين خلاصة الأثر للمصنف ١٩١/٥

وحاشية طبعته بمصر مرارا

(٢) البيان والبيان ٥١/١

التصنيع أى التمنيع حتى يشمل البديع وألوانه الحسبة المعروفة كما يشمل الزخرف المعنوى على نحو ماصورنا ذلك عند أبى تمام<sup>(١)</sup> . على كل حال شاعر الشام أبو تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣٠ للهجرة هو الذى تلقى بسرعة البرق هذا المذهب الجديد عن مسلم بن الوليد قبل اكتماله وأعطاه صورته النهائية<sup>(٢)</sup> . ومن ذلك غلص إلى أن الشام إن كانت قد تأخرت فى صنع كتب البلاغة والنقد من الوجهة النظرية فإنها سبقت إلى الرق ببلاغة الكلام نثرا وشعرا كما عند المتألفى الكاتب والشاعر البليغ وأبى تمام حامل لواء الشعر فى زمنه غير متنازع .

وكانت تقدم طويلا فى القرن الرابع الهجرى حتى نلتقى بأكبر حلقة نقدية أدبية طالما طمحت إليها أنظار الشعراء الشاميين ، ونقصد حلقة حلب التى تكونت حول سيف الدولة بطل القوى العربية المصارعة للبيزنطيين . وكان سيدا بالمعنى العربى الكامل شجاعا كريما نبلا مثقفا شاعرا ، وهب نفسه لحرب البيزنطيين وسحقهم ، كما وهبها هى وماله لإحداث حركة أدبية تنافس بها حلب بغداد إن لم تتفوق عليها ، وطارت شهرته فى إكرام العلماء والشعراء كل مطار ، وسرعان ماالتفت حوله وعاش فى كنفه من تحدثنا عنهم آنفا من الفلاسفة والأطباء وعلماء التنجيم واللغويين والنحاة وكثرة من الشعراء وكانما لم يبق شاعر نابه فى إيران والعراق والموصل والشام إلا أقبل إلى هذه الندوة الفكرية التى عاش فيها المنتهى تسع سنوات طويلا ، وحوله من العلماء أمثال ابن جنى اللغوى والشعراء أمثال التامى والكاتب أمثال أبى بكر الخوارزمى ، وهم يدوّنون شعره ويتدارسونه ويتناقشون معه حوله . ولزمه ابن جنى - كما مر بنا - وشرح ديوانه شرحين : كبيرا وصغيرا ، وكان أبو على الفاريسى يراه حجة فى اللغة لانظير له . وكان إذا سئل عن لفظه فى شعره أو تبييره ساق عليه الشواهد الكثيرة من أشعار العرب ، وتصادف أن أنشد سيف الدولة أولى قصائده<sup>(٣)</sup> :

وظاؤكما كالأربع أشجاء طاسية بأن تُسجداً والدمعُ أشفاه ساجية

وكان ابن خالويه حاضرا فقال له : يا أبا الطيب إنما يقال شجاء ، توهمه فعلا ماضيا وهو صيغة تفضيل فقال له أبو الطيب : اسكت فإ وصل الأمر إليك<sup>(٤)</sup> . وكان ذلك سببا فى أن فسد

(١) الفن وملابه فى الشعر العربى ( الطبعة العاشرة - نشر

دار المعارف ) ص ٢٣٩ .

للغليل كما أن الربع أكثر شجاء للمحب إذا درس .

(٢) الفن وملابه ص ٢٤٧

(٣) نزهة الألباء بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم

(٤) يخاطب المتن باليت صاحبين له على عادة العرب .

( طبع ونشر دار النهضة مصر ) ص ٢٩٨ .

أشجاء : أحزنه . طاسمه : دارسه . بأن تسجدا : بالمساعدة

مايينها طوال مقام المنتهى عند سيف الدولة . وظل ابن خالويه يكنُّ له الضغينة ، واستطاع أن يؤبِّب عليه أبا فراس وبعض من كانوا حول سيف الدولة ، مما جعل المنتهى يغادر حلب إلى غير مأب . والمهم أنه كان ينمقد من حين لآخر غبار من النقد اللغوى حول شعر المنتهى فى حلقة سيف الدولة ، وصورُ من هذا النقد كانت تتعدد بين شعراء الحلقة ، وكثيرا ماكانوا يتحاورون فى سرقاتهم ممن سبقوهم من الشعراء ، وهم أثناء ذلك يتناشدون أشعارهم أو أشعار سابقين مستحسنين تارةً ومستهجنين أخرى . وجميعها صور من النقد الذى يصل الملكة الأدبية ، وصورُ ذلك أبو بكر الخوارزمى الكاتب المشهور وأحد من تزود بما كان فى الحلقة من نقد خصب ، فقال : « ماقت قلبى وشحد فهمى وصل ذمى وأرهف حد لسانى وبلغ هذا المبلغ فى إلاتك الطرائف الشامية واللطائف الحلية التى علقت بحفظى وامترجت بأجزاء نفسى ، وغصنُ الشباب رطيب ورداء الحدائة قشيب » (١) .

ونلتقى بعد هذه الحلقة بأبى العلاء ، وقد تعددت وجوه نقده اللغوى ، فهو يضمها شروحه لدواوين أبى تمام وسماه ديوان حبيب وديوان المنتهى وسماه معجز أحمد - كما مر بنا - وراجع البحرى مراراً نقاداً له ولذلك سمى شرحه لديوانه - كما أسلفنا - عبث الوليد وهو اسمه والبحرى لقبه ، واختار الاسم للكتاب لما فيه من تورية واضحة . وهو يتكلم فى شروحه للشعراء الثلاثة عما فى أشعارهم من غريب وماأخذهم من غيرهم وماأخذ عليهم ، وأحيانا ينتصرهم وأحيانا ينتقدهم مع التوجيه - ما استطاع - لما يُظنُّ أن أبى تمام والمنتهى أخطأ فيه . ولأبى العلاء فى رسالة الغفران نقد كثير أجراه فى القسم الأول على لسان صديقه ابن القارح حين أدخله الجنة وجعله يلقى الشعراء والرجاز ويفرض أثناء ذلك نقدا متنوعا لرواية الأشعار ولألفاظها العريضة وتراكيبها النحوية وبعض العيوب فى أوزانها وقوافيها . وسوى من هذا النقد فى الرسالة الدكتور أجد الطرابلسى كتابا بعنوان : « النقد واللغة فى رسالة الغفران » ويظل النقد نشيطا فى الشام حتى أيام العثمانيين إذ نجد يوسف البديعى (٢) المتوفى سنة ١٠٧٣ يؤلف كتابين نفسيين فى النقد والتاريخ الأدبى ، هما « هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام » و« الصبح المنهى فى الكشف عن حيشية المنتهى » وهو يعرض فى الكتابين سيرة الشاعرين عرضا تفصيليا كما يعرض آراء النقاد السابقين فيها ، ولايكاد يترك خبرا منها يتصل

(١) البنية للصابى (بفتح) محمد محى الدين (٢) انظر فى البديعى خلاصة الأثر ٤/١٠١ .



بسميتها ولا رأيا نقديا يتصل بأشعارها مما يحيل الكتابين إلى مبحثين تاريخيين نقديين بارعين للشاعرين .

واهتمت الشام بالدراسات البلاغية اهتمامًا واسعًا ، وكان أول كتاب صدر لها في هذه الدراسات كتاب <sup>(١)</sup> سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٦٦ وسنترجم له بين الشعراء . والكتاب - كما يتضح من عنوانه - يناقش قضية الفصاحة ويقدم لها بمحدث عن أحكام الأصوات وعما رجها ، ثم يصور الفرق بينها وبين البلاغة ، فيجعلها خاصة بالألفاظ ويجعل البلاغة عامة تشمل الألفاظ والمعاني . ويتناول صفات الفصاحة في الكلمة المفردة ثم في الكلام ، ويغوص في تحليلات دقيقة تتصل بفنون الفصاحة وما يرتبط بها من البلاغة والبديع ومحسناته . وولتقى بأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ وسنترجم له بين الشعراء ، وله كتاب سماه البديع في نقد الشعر ، وهو فيه يعنى بالهسنات البديعية ، وقد عرض منها في الكتاب خمسة وتسعين محسنًا . ويصنف الزمكاني <sup>(٢)</sup> الدمشقي عبد <sup>(٣)</sup> الواحد بن عبد الكريم المتوفى سنة ٦٥١ كتابا بعنوان « التبيان في علم البيان » استضاء فيه كما قال في مقدمته بكتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر ، وقد عرض فيه مباحث كثيرة تتصل بطول المعاني والبيان والبديع مع إقحام بعض المباحث النحوية والمنطقية . وولتقى سريعا بيدر <sup>(٤)</sup> الدين بن محمد بن مالك الأندلسي العالم النحوي الذي نحمدتاه عنه أنفا بين النحاة ، وله مثل أبيه مباحث نحوية ، وعنى بتلخيص كتاب المفتاح للسكاكي في كتابه « المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع » وقد أدخل ملخصه أو مختصره من تعقيدات كتاب المفتاح المنطقية والكلامية والفلسفية ، ولم يجعل البديع - مثل السكاكي - ذيلًا لعلوم المعاني والبيان ، بل جعله علمًا مستقلًا كما يتضح من عنوان كتابه . وقد أحصى من محسناته أربعة وخمسين محسنًا .

ولم يلبث الخطيب <sup>(٥)</sup> القزويني الدمشقي المتوفى سنة ٧٣٩ أن ألف تلخيصًا دقيقًا واضحًا

٩٨/٨ والنجوم الزاهرة ٧٧٣/٧ والنشرات ٣٩٨/٥ والبنية  
ص ٩٠٦ وانظر في تحليل كتابه « البلاغة : تطور وتاريخ »  
ص ٣١٥ .  
(٤) انظر الخطيب في الدرر الكامنة لابن حجر ١٢٠/٤  
والنجوم الزاهرة ٩١٨/٩ والنشرات ١٢٣/٦ وراجع في  
تحليل كتابه « البلاغة : تطور وتاريخ » ص ٣٣٥  
وما بعدها .

(١) انظر في تحليل هذا الكتاب كتابنا « البلاغة تطور  
وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١٥٢ .  
(٢) انظر في ترجمة الزمكاني السلوك للمقرئ ٣٨٩/١  
والسبكي ٣١٦/٨ والنشرات ٢٥٤/٥ وبنية الرواة ص  
٣١٦ وراجع في تحليل كتابه « البلاغة تطور وتاريخ » ص  
٣١٤ .  
(٣) راجع في ترجمة بدر الدين السلوك ٧٣٨/١ والسبكي

لكتاب المفتاح كُتب له أن ينيع بين علماء البلاغة وأن يكتبوا له كثيرا من الشروح بحيث أصبح محور الدراسة للبلاغة وفنونها شرقا وغربا منذ زمنه إلى اليوم . وعُني بيسط قضايا علوم البلاغة : المعاني والبيان والبدیع في كتاب ثان له سماه الإيضاح ، وله نفس الشهرة التي حظى بها تلخيصه . ويصنف ابن قيم <sup>(١)</sup> الجوزية الدمشقي المتوفى سنة ٧٥١ كاتبا « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم البيان » وفيه يتحدث عن الفصاحة والبلاغة وفنون البيان والمعاني والبدیع . وتنقص الكتاب دقة الترتيب والتبويب . وكان يحاصره الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ وسنترجم له بين المؤرخين ، وعُني بثلاثة فنون من فنون البدیع : الجناس وله فيه كتاب جنان الجناس وهو مطبوع ، والتورية والاستخدام وله فيها كتاب فض الحتام في التورية والاستخدام وبنار الكتب المصرية مخطوطة منه . ونصيح في زمن تأليف البديعيات وشرحها وهي قصائد في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم يتضمن كل بيت فيها محسنا من محسنات البدیع . وينظم ابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ بديعة في مائة واثنين وأربعين بيتا أحصى فيها محسنات البدیع ، وقد بلغت عنده نحو مائة وأربعين محسنا وشرحها شرحا مفصلا سماه بحق خزانة الأدب ، إذ يشتمل على نظرات تحليلية نقدية وبلاغية كثيرة تتصل بالشعر والشعراء وخاصة في زمن الأيوبيين والمماليك ، بحيث يصبح مصدرا مهما لمن يكتبون عن الأدبين المصرى والشامى في تلك الحقبة ، مع منتخبات بديعة للشعراء والكتّاب تدل على ذوق أدبى مرهف ، وسنترجم له بين الكتّاب . وظل نشاط البديعيات متصلا أيام المماليك ، ولعبد الغنى النابلسى الذى سنترجم له في غير هذا الموضع بديعتان <sup>(٢)</sup> ومع كل بديعة شرح خاص بها .

## ٤

### علوم القرامط والطب والحدیث والفقه والكلام

أعلنت الشام نُقْى بقراءة الذكر الحكيم منذ دخلها الإسلام مع الأفواج الأولى من الصحابة ، ومن أهم قرائها في الصدر الأول أبو البرداء قاضى دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان إذا صلى الغداة في جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه . ومُرُبا ذكر ذلك وأنه كان

ص ٣١٩

(١) راجع في ابن القيم الدرر الكامنة لابن حجر ٢١/٤

(٢) انظر الحديث عنها في كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ

والدرر الطالع ١٤٣/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٩/١٠ وطبقات

٣٦٤ وما بعدها

الحنبلة للشطى ص ٦١ وكتابنا البلاغة : تطور وتاريخ

يحمل الناس عشرة عشرة ويحمل على كل عشرة عريفا ، وعدُّ يوما من بقرونه عنده فوجدهم ألفا وستائة ونيفا ، ولعل في ذلك ما يوضح إقبال الناس في الشام سريعا على قراءة الذكر الحكيم ، وظلوا يدوّنون به في مساجدها . وخَلَفَ أبا الدرداء في إقراء الناس بدمشق عبد<sup>(١)</sup> الله بن عامر البجلي المرقى المتوفى سنة ١١٨ للهجرة وكان عريفا على عشرة عنده ممن يقرأون . ولم يكتف بأخذ القرآن وسماحه منه وعرضه عليه فقد أضاف إليه المغيرة بن أبي شهاب ، قرأ عليه القرآن ، وكان المغيرة قرأه على عثمان بن عفان . واستطاع أن يبلغ من إحكام قراءته ماجل ابن مجاهد بعدُ يختاره بين القراء السبعة المقتنعين ، إذ كان بحق إمام أهل الشام في القراءة ، ويقول ابن مجاهد في أوائل القرن الرابع : على قراءته أهل الشام والجزيرة ثم يعود ، فيقول : « والغالب على أهل الشام قراءة ابن عامر » ويقول ابن الجزري في ترجمته : « لا زال أهل الشام قاطبة على قراءة ابن عامر تلاوة وصلاة وتلقينا إلى قريب من سنة خمسمائة » .

وخلف ابن عامر على قراءته بدمشق يحيى<sup>(٢)</sup> بن الحارث اللّماري الدمشقي إمام الجامع الأموي المتوفى سنة ١٤٥ وخلفه بالقيام على قراءة ابن عامر تلميذان بدمشق : أيوب<sup>(٣)</sup> بن نعيم الدمشقي المتوفى سنة ١٩٨ وعنه أخذها عبد<sup>(٤)</sup> الله بن ذكوان إمام جامع دمشق وشيخ الاقراء بالشام المتوفى سنة ٢٤٢ والتلميذ الثاني عراك<sup>(٥)</sup> بن خالد شيخ أهل دمشق في زمنه المتوفى قبل المائتين ، وعنه وعن أيوب بن نعيم أخذها هشام<sup>(٦)</sup> بن عمار إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفتيهم المتوفى سنة ٢٤٥ . وبذلك أصبح لقراءة ابن عامر في الشام طريقان : طريق ابن ذكوان وطريق هشام بن عمار ، وهما تتقابلان في كتاب السبعة لابن مجاهد : الأول أخذها عن أحمد بن يوسف التخلي ، والثانية أخذها عن أحمد بن محمد بن بكر . ولا بد أن نلاحظ أنه كان بالشام من اختار لنفسه قراءة غير قراءة ابن عامر حتى منذ القرن الثاني فقد نزل المدينة عتبة بن حماد الدمشقي ، قرأ الموطأ على الإمام مالك وأخذ عن نافع أحد القراء المشهورين قراءته<sup>(٧)</sup> ، وبالمثل أخذها عنه أبو مسهر<sup>(٨)</sup> الضافي عبد الأعلى بن مسهر المتوفى سنة ٢١٨ . ويطلب أن يكون هناك آخرون قرءوا بقراءة ابن كثير قارئ مكة أو غيره من القراء السبعة .

(١) راجع في ابن عامر وقراءته وأسانيده كتاب السبعة

لابن مجاهد بتحقيق نشر دار المعارف ص ٨٥ ، ١٠١

(٢) ابن الجزري ٤٢٣/١

(٣) ابن الجزري ٣٦٧/٢

(٤) ابن الجزري ١٧٢/١

(٥) ابن الجزري ٣٥٥/١

(٦) ابن الجزري ١٧٢/١

(٧) ابن الجزري ١٧٢/١

(٨) ابن الجزري ١٧٢/١

ومر بنا ذكر ابن خالويه في بلاط سيف الدولة وكان قد تصدّر في حلب لإفادة الطلاب عشرات السنين ، ونظن أنه عرض عليهم - فيما عرض القراءات السبع ، إذ كان قد حملها عن ابن مجاهد كما ذكر ابن الجزرى ، وأيضا فإن له في توجيه تلك القراءات كتابا معروفا . ويشهد لما نقول أننا نجد بين تلاميذه الحلبيين قارئا كبيرا هو أبو الطيب عبد <sup>(١)</sup> للنم بن غليون الحلبي المتوفى سنة ٣٨٩ وله كتاب الإرشاد في القراءات السبع ، ومن أهم تلاميذه ابنه طاهر <sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٣٩٩ مؤلف التذكرة في القراءات الثمان وهو أستاذ أبي عمرو الداني صاحب كتاب التيسير للشهور في القراءات . وذكرنا في مقدمة الطبعة الأولى لكتاب السبعة أنه كان من بين ما اعتمدنا عليه في تحقيقه مخطوطة لكتاب الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الفارسي تلميذ ابن مجاهد تحفظ بها مكتبة جامعة القاهرة ومجلداتها الأولى بخط طاهر بن عبد النم بن غليون . وربما كان أبوه حمل هذا الكتاب عن أبي علي الفارسي مباشرة حين مقامه بحلب ، كما مر بنا . ويصف عبد <sup>(٣)</sup> الجبار الطرسوسي المتوفى سنة ٤٢٠ كتاب الجتهى في القراءات . وثلثي بالحسن <sup>(٤)</sup> بن علي الأهوازي شيخ القراء بدمشق منذ سنة أربعمائة حتى وفاته سنة ٤٤٦ وكان قد استوطنها منذ سنة ٣٩١ وكان يكثر من الحملة على الأشعرى والأشعرية ، ومن أجله صنف ابن عساكر - فيما بعد - كتابه : تبين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعرى ، وكانت له مؤلفات كثيرة في القراءات والقرآن وعلومه .

وما يزال التأليف في القراءات والقرآن وعلومه مستمرا في الشام حتى نلتقي بآب <sup>(٥)</sup> الطحان عبد العزيز بن سلمة نزيل حلب المتوفى حول سنة ٥٩٠ وله تصانيف مفيدة في علوم القرآن منها كتاب الوقف والابتداء ، وكان على علم واسع بالقراءات . وثلثي في أيام الأيوبيين بأبي اليمن <sup>(٦)</sup> الكندى زيد بن الحسن نزيل دمشق المتوفى سنة ٦١٣ وهو من المعمرين ويقال إنه قرأ القراءات العشر وهو

الزاهرة ٥/٥٦

(١) انظر في عبد النم بن غليون طبقات القراء ١/٤٧٠

(٥) انظر في ابن الطحان ابن الجزرى ١/٣٩٥

وطبقات النافعية للسبكي ٣/٣٣٨

(٦) راجع في أبي اليمن ابن الجزرى ١/٢٩٧ وصحبه

(٢) راجع في «طاهر» ابن الجزرى ١/٣٣٩

الأديب ١١/١٧١ وخطط الشام ٢/٤٧ والبداية والنهاية

(٣) انظر في عبد الجبار ابن الجزرى ١/٣٥٧

١٣/٧١ وإنشاء الرواة ٢/١٠ وابن خلكان ٢/٣٣٩

(٤) راجع في الأهوازي ابن الجزرى ١/٢٢٠ والنجوم

ابن عشر سنين وظل يقرأ القراءات ثلاثاً وعشرين سنة . ومن تلاميذه علم <sup>(١)</sup> الدين السخاوى على بن محمد شيخ مشايخ الإقراء بدمشق وقد ظل يقرئ الناس نيفاً وأربعين سنة حتى توفى سنة ٦٤٣ وله مصنفات كثيرة فى القراءات والتفسير منها شرح الشاطبية وهو أجل شروحها ، ومنها جمال القراء وكمال الإقراء . ومن تلاميذه الذين تصدروا القراءة فى دمشق أبو الفتح <sup>(٢)</sup> محمد بن على ولى مشيخة القراءة بترية أم الصالح ، وأبو شامة التوفى سنة ٦٦٥ تولى مشيخة الحديث الكبرى بالأشرفية ، وسنذكر مصادر ترجمته بين المؤرخين ، والقاضى عبد السلام الزواوى المتوفى سنة ٦٨١ وسنذكر مصادر ترجمته بين فقهاء المالكية ، تولى مشيخة الإقراء الكبرى بالترية الصالحية بعد وفاة شيخها أبى الفتح وإليه انتهت رئاسة الإقراء بالشام . ومن كبار القراء بالشام فى القرن الثامن ابن <sup>(٣)</sup> جبارة المقدسى ، درس القراءات بمصر وطاف بدمشق وحطب ثم استقر فى بيت المقدس موطنه مدرسا للقراءات وعلوم العربية حتى توفى سنة ٧٢٨ . وكان يعاصره برهان <sup>(٤)</sup> الدين الجعبرى استوطن بلدة الحليل بجوار بيت المقدس حتى توفى سنة ٧٣٢ وكان يقرئ الناس بها وصنف فى القراءات كتاب نزهة البررة فى القراءات العشرة . وولتقى بابن البارزى قاضى حماة ومفتى الشام المتوفى سنة ٧٣٨ وله شرح على الشاطبية وكتاب الشريعة فى قراءات السبعة . ومانزال نقرأ عن مؤلفات شامية فى القراءات حتى نصل إلى ابن <sup>(٥)</sup> الجزرى محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٣٣ وله كتاب النشر فى القراءات العشر وهو منشور وكتاب غاية النهاية فى طبقات القراء وهو مصدرنا الأساسى فى الحديث عنهم . ومن كبار القراء والحفاظ بعده شمس الدين الرملى الدمشقى أحمد بن أحمد بن محمد ، ولد بالرملة ورحل إلى دمشق للقاء علماؤها وفيها أكب على القراءات والحديث والفقه ، وتولى مشيخة الإقراء بالجامع الأموى حتى توفى سنة ٩٢٣ . وظلت القراءات بالشام نشطة أيام العثمانيين حتى العصر الحديث ، يتجرد لها العلماء تارة ، وتارة ثانية يجمعون بينها وبين بعض العلوم كالنفسية أو الفقه أو علوم العربية .

وعلى نحو ما عتبت الشام بالقراءات عتبت بتفسير القرآن الكريم ، حتى إذا أخرج الطبرى

(٤) راجع فى الجعبرى ابن الجزرى ٢١/١ والدرر رقم ١٣٠ والتفريات ٩٧/٦

(٥) ترجم ابن الجزرى لنفسه فى كتابه طبقات القراء ٢٤٧/٢ وألحق بالترجمة زيادة عن سنة وفاته لبعض تلاميذه وانظر الفوائد البهية للكنوى ١٤٠ ودائرة المعارف الإسلامية

(١) انظر فى علم الدين السخاوى معجم الأبداء ٦٥/١٥

وابن خلكان ٣٤٠/٣ وإنهاء الرواة ٣١١/٢ وطبقات

القراء ٥٦٨/١ والسبكى ٢٩٧/٨

(٢) راجع ابن الجزرى ٢١١/٢

(٣) انظر فى ابن جبار ابن الجزرى ١٢٢/١ والدرر رقم

٦٦٧ والتفريات ٨٧/٦

تفسيره أكتب عليه ندرسه ، ويلقانا لها مفسرهم هو عبد الله بن عطية الدمشقي المفسر المتوفى سنة ٣٨٣ كان يحفظ الآلاف من آيات الشعر العربي واستخدمها في تفسيره لمعانى الألفاظ القرآنية . وولتقى بعده بسليم بن أيوب المتوفى سنة ٥٤٧ وله تفسير<sup>(١)</sup> للقرآن الكريم . ويلقانا في أيام نور الدين محمد بن ظفر المكي الذي عرضنا له في الحديث عن شعراء الزهد في الجزيرة العربية المتوفى سنة ٥٦٥ استوطن حماة بأخرة من حياته وألف فيها تفسيره المسمى « ينبوع الحياة »<sup>(٢)</sup> . واستوطن حلب تلميذ من تلامذة الزمخشري هو حالي<sup>(٣)</sup> بن إبراهيم الغزنوي وأقام بها يدرس ويصنف حتى وفاته سنة ٥٨٢ وفيها ألف تفسيراً كبيراً في مجلدين سماه تفسير التفسير . واستوطن دمشق الصوفي الكبير ابن عري المتوفى سنة ٦٣٨ وله تفسير صوفي لم ينم وهو مطبوع . وللغزير عبد السلام الفقيه الشافعي الدمشقي نزيل مصر الذي عرضنا له فيها بين قهواء الشافعية تفسير بلاغي ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة منه .

ونلتقى في أوائل القرن الثامن بمفسرين كبيرين هما هبة الله بن البارزي وابن تيمية ، أما هبة<sup>(٤)</sup> الله فكان قاضياً لحماة وإليه انتهت مشيخة المذهب الشافعي بالشام وله شرح على الشاطبية في القراءات ، وله روضات الجنان في تفسير القرآن في عشر مجلدات توفى سنة ٧٣٨ . أما ابن تيمية فقد مربنا حديث مفصل عنه في الحركة العلمية ، ونعرض هنا منهجه في للتفسير القرآني وقد صوره في رسالة عنوانها أصول التفسير ، ومن خلالها أجمعناه في مقدمة كتابنا : « سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة » موضحين أنه حمل على الإسرائيليات المدسوسة في التفسير وعلى المعتزلة والشيعية الباطنية اللذين يؤولون ألفاظ القرآن وعباراته كما حمل على المتصوفة في تفاسيرهم من مثل تفسير ابن عري ، ورأى أن غير طرق التفسير بالقرآن بالقرآن لأن لم يف القرآن أحيانا رجع المفسر إلى الحديث النبوي وأقوال الصحابة والتابعين اللذين عايشوهم وعرّفوا منهم معنى القرآن الكريم . وبعد استيفاء ذلك كله وما يتصل به من إقتان العربية وتعمق علوم الشريعة والوقوف بدقة على دلالات القرآن وحسن تلوه لخصائصه البلاغية يستطيع للمفسر أن يجتهد في التفسير ويستنبط استنباطات سديدة . وطبق منهجه على سورة النور وسورتى المعوذتين القصيرتين

(٤) راجعه في تاج التراجم لابن كثير ص ٤٩ والهداية

والنهاية ١١٨/١٣

(٥) انظر في ابن البارزي الدرر ج ٢ رقم ١١٠٣

وطبقات القراء ٣٥١/٢ والشرحات ١١٩/٦

(١) انظر في ابن عطية الدمشقي طبقات المصريين

السيوطي رقم ٤٣ والنجوم الزاهرة ١٦٥/٤ وروكبان ١٥/٤

(٢) خطط الشام لكردي ٤١/٤

(٣) تكملة المنصور لابن الوردي ٨٧/٢

وخصّ سورة الإخلاص أو التوحيد بكتاب . ويتحول تفسيره للآية الكريمة إلى بحث في مفسونها من خلال القرآن جميعه .

ونجح نهج ابن تيمية في تفسير الذكر الحكيم تلميذه ابن قيم الجوزية على نحو مايتضح في كتابه . « البيان في أقسام القرآن » وفي تفسيره للمعوذتين . وكان يعاصره السمين<sup>(١)</sup> الحلبي أحمد بن يوسف وكان نحويا مقرئا ونزل مصر وبها توفي سنة ٧٥٦ وله تفسير ضخيم في عشرين مجلدا ، وكتاب في إعراب القرآن في ثلاثة مجلدات باسم الدر المصون ، وكتاب في أحكام القرآن ، وله شرح على الشاطبية في القراءات ، وشرح ثان على التسهيل لابن مالك في النحو . وملتقى بابن<sup>(٢)</sup> كثير أكبر المفسرين الشاميين وأهمهم المتوفى بدمشق سنة ٧٧٤ نشرت تفسيره مطبعة المنار في تسعة أجزاء ، وعداده في التفسير بالمأثور من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين والمفسرين السابقين ، وفيه يقول ابن حجر ناقدا : « لم يكن ابن كثير على طريق المحدثين في تحصيل العرائل وتمييز العالي من النازل ونحو ذلك من فنونهم وإنما هو من محدثي الفقهاء » ويقول الشوكاني مثنيا على تفسيره : « جمع فيه فأوعى ونقل المذاهب والأخبار والآثار وتكلم بأحسن كلام وأنفسه ، وهو من أحسن التفسيرين إن لم يكن أحسنها » ويصنف الطيبي عبد الرحمن بن محمد الحنبلي المتوفى سنة ٩٢٧ للهجرة تفسيراً للذكر الحكيم ، وتؤلف كتب تفسير أخرى ، ويظل تفسير ابن كثير التفسير المتداول بين علماء الشام إلى العصر الحديث .

وشغلت الشام منذ دخلت في الدين الحنيف بتلاوة الذكر الحكيم وتفسيره كما شغلت بالحديث النبوي مكمل الدين القيم وميمنة وموضح تعاليمه ، وكان أول المحدثين بها صحابة رسول الله ﷺ ، ثم حمله عنهم التابعون يجلدون به الناس من أمثال مكحول<sup>(٣)</sup> مفتح الشام ومحدثها المتوفى سنة ١١٨ . وكان يعاصره محمد<sup>(٤)</sup> بن شهاب الزهري أول من دُون الحديث تدوينا عاما ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأفاق : عليكم بابن شهاب ، فإنكم لا تجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه ، وعاش بعد عمر ثلاثة وعشرين عاما إذ توفي سنة ١٢٤ ويقال إنه روى عن عشرة من

خلكان ٢٨٠/٥ وميزان الاعتدال ١٧٧/٤ وتهذيب التهذيب

٢٨٩/١ والشرقات ١٤٦/١

(٤) انظر في الزهري صفة الصفة ٧٧/٢ وابن خلكان

١٧٧/٤ وميزان الاعتدال ٤٠/٤ وتهذيب التهذيب ٤٤٥/٩

وطبقات القراء ٢٢٢/٢

(١) راجع في السمين الحلبي طبقات القراء ١٥٢/١

والدر الجزء الأول رقم ٨٤٦ والشرقات ١٧٩/٦

(٢) انظر في ترجمة ابن كثير الدر ج ١ رقم ٩٤٨

والشرقات ٢٣١/٦ والدر الطالع ١٥٣/١

(٣) راجع في مكحول حلية الأولياء ١٧٧/٥ وابن

الصحابة لحقهم ، وقد أتاح للشام أن تكون أول جامعة وناشرة للحديث النبوي وكان موظفا لدى الأمويين وعمل قاضيا ليزيد بن عبد الملك ، وعنه حمل الحديث الأوزاعي فقيه الشام المتوفى سنة ١٥٧ وعنده في الفقهاء ، كما حمله الإمام مالك فقيه المدينة واليث بن سعد فقيه مصر وسفيان ابن عيينة وسفيان الثوري فقيه العراق . وعن تلاميذ الزهري والأوزاعي في الشام حمل الحديث هشام ابن عمار مقرئ دمشق ومفتيها الذي مرّ بنا ذكره بين القراء . ومن حمل عنه الحديث القاضي عبد <sup>(١)</sup> الصمد بن عبد الله قاضي دمشق ، وعنه روى الحديث أبو زرعة الدمشقي شيخ الشام في الحديث . وملتقى بغيضة <sup>(٢)</sup> بن سليمان الطرابلسي أحد الحفّاط الثقات المشهورين المتوفى سنة ٣٤٣ . ولا تلبث بلدة طبرية بالشام أن تقدّم سليمان <sup>(٣)</sup> بن أحمد الطبراني المولود سنة ٢٦٠ والمتوفى سنة ٣٦٠ صاحب المعاجم الثلاثة: الكبير والأوسط والصغير . وقد جمع في الكبير أحاديث جميع الصحابة ما عدا أبا هريرة إذ أفرد له كتابا خاصا . وكان يخاصره الحسين <sup>(٤)</sup> بن محمد الماسريّ جيسي الحافظ المتوفى سنة ٣٦٥ أخذ بدمشق عن أصحاب هشام بن عمار . صنّف المسند الكبير مهذبا مملأ في ألف وثلاثمائة جزء ولم يصف في الإسلام أكبر من مُسنّده وجمع حديث ابن شهاب الزهري جمعا لم يسبقه إليه أحد وكان يحفظه مثل الماء . وملتقى بحافظ من صُهداء هو أبو الحسين <sup>(٥)</sup> محمد بن أحمد القسائي المولود سنة ٣٠٥ والمتوفى سنة ٤٠٢ وله مسند على ترتيب أوائل أسناء الرواة . وعلقنا حافظ من صور هو محمد <sup>(٦)</sup> بن علي الصوري المتوفى سنة ٤٤٦ قدم بغداد وأخذ عنه حفاظها الثقات . وعلقنا حافظ بيت المقدس محمد <sup>(٧)</sup> بن طاهر المقدسي المعروف باسم ابن القيسراني . المتوفى سنة ٥٠٧ وله مصنفات في الحديث النبوي متعددة، منها: «أطراف الكتب الستة» وهي صحيح البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة.

(٤) انظر في الماسريّ التجوم الزاهرة ١١١/٤  
 (٥) راجع القسائي في التجوم ٢٣١/٤ وروكبان ٢١٤/٣  
 (٦) انظر في الصوري تاريخ بغداد ١٠٣/٣ وتذكرة الحفّاط للذهبي ٣١١/٣ وروكبان ٢٣١/٣  
 (٧) راجع في ابن القيسراني للمصنف ١٧٧/٩ وابن خلكان ٢٨٧/٤ والواق للصفي ١٦٦/٣ وميزان الأحصا ٥٨٧/٣ وجبر للذهبي ١٤/٤ والنشرات ١٨/٤

(١) راجعه في التجوم الزاهرة ١٩٣/٣ وانظر في زريعة النجوم ٨٧/٣  
 (٢) انظر في خيشمة تذكرة الحفّاط للذهبي (طبع حيدر آباد) ٧٥/٣ والنشرات ٣٣٨/٢  
 (٣) راجع في الطبراني تهذيب تاريخ ابن حساكر ٦/٢٤٠ وابن خلكان ٢٠٧/٢ والتجوم الزاهرة ٥٩/٤ وجبر للذهبي ٣١٥/٢



وينشط المحدثون أيام نور الدين والأيوبيين في مقدمتهم أبو القاسم<sup>(١)</sup> بن عساكر المتوفى سنة ٦٧١ وبنى له نور الدين دار الحديث النورية بدمشق ، وله في الحديث مصنفات كثيرة مفيدة ، منها الأطراف ، جمع فيه ما اتفق عليه الأئمة الثقات في الحديث ، وله ورله ذلك أمال كثيرة . وجاء بعده جدد<sup>(٢)</sup> الغنى الجماعى للمتوفى سنة ٦٠٠ وله كتاب في أحاديث الأحكام الشرعية سماه «عدة الأحكام في معالم الحلال والحرام عن خير الأنام» وكتبت له الأجيال الطلبة شروحا كثيرة ، وهو صاحب كتاب الكمال في معرفة أسماء الرجال . وكتب له جمال الدين يوسف المزرى الآتى ذكره تكملة بعنوان «تهذيب الكمال» وله مختصرات كثيرة . وأكمل التهذيب مغلطائى بعنوان إكمال تهذيب الكمال ، وتلقى بآب<sup>(٣)</sup> الصلاح همام بن صلاح الدين المتوفى سنة ٦٤٣ وهو حافظ كبير تولى مشيخة دار الحديث الأشرية بدمشق وله كتاب أقصى الأمل والشوق في علوم حديث الرسول ، طبع مرارا بعنوان مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث وله مختصرات كثيرة . ويلقبنا همى الدين النورى الفقيه الكبير المتوفى سنة ٦٧٦ وعداده بين فقهاء الشافعية ، وكان حافظا متقنا ، وله شرح على صحيح مسلم هو أهم شروحه ، وله رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين وكتاب الأدكار المنتخب من كلام سيد الأبرار وله الأربعمون النووية وكتاب التريب في مصطلح الحديث وكتاب تهذيب الأسماء واللغات ، ودرس بدار الحديث الأشرية في دمشق وغيرها . وكان يعاصر النورى البونى على<sup>(٤)</sup> بن محمد بن أحمد شرف الدين المتوفى سنة ٧٠١ وله خدمة عظيمة أداها لصحيح البخارى ، اذ حاول أن يخرج من مخطوطاته نسخة في أدق صورة ممكنة لمنفعة المسلمين في العالم الإسلامى ، واختار أصلا لهذا الإخراج نسخة وثيقة كانت موقوفة بمدرسة أقبغا آص بالقاهرة وقابلها في واحد وسبعين مجلسا على أصل مسموع للحافظ أبى ذر المروى وأصل ثان مسموع للحافظ أبى محمد الأصيل وأصل ثالث مسموع لأبى القاسم بن عساكر المذكور آنفا وأصل رابع مسموع على الشيخ أبى الوقت بقراءة السمعانى . وكان يجواره في تلك المجالس الإمام النحرى ابن مالك للمراجعة والتصحيح مما جمعه فيها بعد يلى كتابا مستقلا

الحفاظ ١٤٣/٤ والسبكي ٣٢٦/٨ والبداهة والنهاية

١٦٨/١٣ والفتاوى ٢٢١/٥

(٤) راجع البونى في الدرر لابن حجر ١٧١/٣ والسرور

٥٢٤/١ والتجوم الزاهرة ١٩٨/٨ والفتاوى ٣/٦

(١) مرت مصادر ترجمته في ص ٥٦٣ .

(٢) راجع في الجاهلي تذكره الحفاظ ١٦٠/٤ وطلقات

الحفاظ للسيوطى ١٨ وكتابه حسن الحاضرة ٣٥٤/١ والعبير

٣١٣/٤

(٣) انظر في ابن الصلاح ابن خلكان ٢٨٣/٣ وتذكره

بعنوان « شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح » وكان أمام اليوناني في مجاله المذكورة جمع من طلاب الحديث وعلمائه وفي أيديهم نسخ من صحيح البخاري للمقابلة . واتخذ اليوناني رموزا لرواة تلك النسخ ولرواة آخرين بحيث بلغت رموزه خمسة عشر رمزا . وقد طبعت مطبعة بولاق الكتاب من نسخة فرعية لتلك النسخة اليونانية ، وهي نسخة ابن مالك وعليها شهادة من اليوناني بجماعه النسخة عليه ، وشهادة من ابن مالك بجماعها منه . وهي ذروة في التحقيق لم يبلغها أحد بعد اليوناني ، كما أشرنا إلى ذلك في كتابنا « البحث <sup>(١)</sup> الأدبي » .

ومن كبار المحدثين في القرن الثامن الهجري الميزي <sup>(٢)</sup> يوسف بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٤٢ وإليه انتهت رئاسة المحدثين بالشام ، ومن تصانيفه تحفة الإشراف بمعرفة الأطراف ، طبع في الهند ، وله « تهذيب الكمال » المجمع على أنه لم يصنف مثله . وكان يعاصره الذهبي محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ حافظ الشام وهو مع المزي من مفاخر دمشق في زمنها وله في الحديث تصانيف كثيرة مثل مختصر سنن البيهقي ومختصر الأطراف للمزي والمعجم الكبير والصغير ، وسنعود للحديث عنه بين اللوذعيين . ومن محدثي القرن التاسع بدر <sup>(٣)</sup> الدين العيني المتوفى سنة ٨٥٥ صاحب كتاب « عمدة القاري في شرح صحيح البخاري » والخيفري <sup>(٤)</sup> الدمشقي محمد بن محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٨٩٤ وله تعليقات على شرح ابن حجر للبخاري المسمى بالفتح الباري . وظل هذا التراث الضخم بأعين المحدثين أيام العثمانيين ، وكان أكثر اهتمامهم بكتب الصحاح الستة وخاصة بشروح ابن حجر والقسطلاني على صحيح البخاري وشرح اننوي على صحيح مسلم .

وطبيعي أن يكون الفقه نشيطا في الشام مع الدراسات الدينية السابقة لحاجة أهل الشام إلى الفتوى في القضايا الشرعية وما يعرض لهم منها في حياتهم اليومية ، وفعلا تكون للشام إمام أنشأ مذهبا قهها ظل فيها طويلا بجوار المذاهب الأربعة المشهورة : مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي

ونذكرة الحفاظ ١٤٩٨/٤ والبر الطالع ٣٥٣/٢

(٣) انظر في العيني حسن المحاضرة ٤٧٣/١ والفتاوى البية

٢٠٧ والفضو اللامع ج ١ رقم ٥٤٥ والنفرات ٢٨٦/٧

والبر الطالع ٣٩٤/٢

(٤) راجع في الخيفري الفضو اللامع ج ٩ رقم ٣٠٥

(١) البحث الأدبي (طبع دار المعارف) ص ١٨٦ وما

بعدها

(٢) انظر المزي في الدرر ٢٣٣/٥ والنجوم الزاهرة ٧٦/١٠

وشلرات الذهب ١٣٦/٦ والبداءة والنهاية ١٩١/١٤

والسبكي ٣٩٥/١٠ وتاريخ ابن الوردي ٣٣٢/٢ وطبقات

الحفاظ للسيوطي ٥١٧ والعارس في أخبار المدارس ٣٥/١

وابن حنبل ونقصد الإمام الأوزاعي <sup>(١)</sup> صاحب المذهب المنسوب إليه أصحابه من الأوزاعية ، وقد توفي سنة ١٥٧ للهجرة ، ومولده بعلبك ومنشؤه ببيروت ، وانحدرها موطنه إلى وفاته ، ويقول السبكي إنه : « لم يكن بلى القضاء بدمشق والخطابة والإمامة - قبل ظهور مذهب الشافعي فيها لأواخر القرن الثالث كما سيوضح عما قليل - إلا أوزاعي على مذهب الإمام الأوزاعي <sup>(٢)</sup> . ويذكر المؤرخون أنه ولي القضاء بدمشق يحيى بن حمزة منذ سنة ١٥٤ إلى سنة ١٨٣ ثم وليه بعده ابنه محمد <sup>(٣)</sup> إلى سنة ٢٣١ . وأكبر الظن أن كلام السبكي يشملها وأنها كانا يقضيان بين الناس بمذهب الأوزاعي . ويبدو أنه ظل بعدهما من كان يقضى بهذا المذهب ، إذ يذكر ابن تيمية يرى أنه توفي سنة ٣٤٧ قاضي دمشق أحمد <sup>(٤)</sup> بن سليمان بن حذلم الأوزاعي المذهب ، ويقول إنه كان له حلقة بالجامع الأموي وأكبر الظن أنه كان يدرس للناس فيها المذهب . ومعنى ذلك أن مذهب الأوزاعي كان لا يزال حياً في دمشق والشام إلى أواسط القرن الرابع الهجري . ومعروف أن الأمويين في أول تأسيس حكمهم بالأندلس كانوا على مذهب الأوزاعي مثل أهل الشام وظلوا عليه إلى أن انتقلوا منه إلى مذهب مالك في أواخر القرن الثاني للهجرة <sup>(٥)</sup> ، وكأنهم كانوا أسبق من أهل الشام انفصالاً عن مذهب الأوزاعي .

وتذكر كتب التراجم والتاريخ أن أبا يوسف تلميذ أبي حنيفة حين ولي قضاء القضاء لعهده الخليفة الرشيد وأصبح هو المسيطر على تولية القضاء في الدولة الإسلامية كان لا يبول قضاء البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال أفريقية إلا أصحابه والمتبعين إلى مذهبه الحق ، ونظن ظناً أنه كان يوجد في دمشق أحياناً قاض حتى بجانب القاضي الأوزاعي ، وربما كانا يتداولان الحكم . ومن تذكرهم كتب التاريخ من قضاة الأحناف قاضي دمشق علي <sup>(٦)</sup> بن محمد بن كاس المتوفى سنة ٣٢٥ للهجرة ، ونظن ظناً أن حلب كانت أسرع من دمشق في الانصباع لمذهب أبي حنيفة

(٣) انظر فيه وفي أبيه النجوم الزاهرة ٢٢/٢ ، ١١٣ ،

٢٦٠

(٤) راجع في ابن حذلم النجوم الزاهرة ٣٢٠/٣ وفي

السبكي ١٩٦/٣ : ابن خديم

(٥) تاريخ الفكر الأندلسي لابن تيمية ترجمة الدكتور حسين

مؤنس ص ٤١٣ ، ٤١٧

(٦) النجوم الزاهرة ٢٦٠/٣

(١) انظر في الأوزاعي الجزء السابع من طبقات ابن سعد

والأسباب للسعدي ٥٣ وابن خلكان ١٢٦/٣ وتاريخ

بخداد ١٩٩/١٠ وتذكرة الحفاظ ٥٨/١ وشذرات الذهب

١٤١/١ والنجوم الزاهرة ٣٠/٢ وعلم الساعات في مناقب

الأوزاعي (طبع القاهرة) صفته مؤلف مجهول سنة ٨٥٠

وضعي الإسلام ٩٨/٢

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ٣٢٦/١

بحكم قربها أكثر من العراق ، ومثلها في ذلك أنطاكية ، ويلقانا فيها ابن أبي الفهم <sup>(١)</sup> التنوخي الأنطاكي المتوفى سنة ٣٤٢ وكان قتيبا حنفياً بارعاً . وولتني في حلب بأحمد <sup>(٢)</sup> بن يحيى بن زهير الحلبي المتوفى سنة ٤٢٤ وله كتاب ذكر فيه الخلاف بين أبي حنيفة وأصحابه من مثل أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني تلميذه ، وأخذ عن ابن زهير المذهب بحلب جد بني أبي جراد هبة الله بن أحمد ، وتولى القضاء بمدينته ، وكانت أسرته على ثراء غير قليل فأكتب على المذهب تدرسه وتعمقه منذ هبة الله إلى حفيده عمر بن العديم في القرن السابع كما سند ذكر عما قليل .

ونخلص من ذلك إلى أنه كان من الأسباب المهمة في دخول مذهب أبي حنيفة إلى الشام أن كثيرين من القضاة منذ أواخر القرن الثاني كانوا أحنافاً ، فأخذ المذهب يشيع ، وتكاثر طلاب العلم الذين يبرغون اعتناقه ، وأخذ يدرسه لهم غير عالم حنفي . ويلقانا المفضل <sup>(٣)</sup> بن محمد المرعي الحنفي المتوفى سنة ٤٤٤ تلميذ الإمام القدوري الحنفي البغدادي وليّ القضاء ببعلبك وناب في القضاء بدمشق ، ومن تصانيفه كتاب في الرد على الإمام الشافعي . ويلقانا البلاساغوني <sup>(٤)</sup> محمد بن موسى المتوفى سنة ٥٠٦ مصنف « أصول الفقه » على مذهب أبي حنيفة ، وليّ قضاء بيت المقدس ودمشق مدة . وكان القضاة قبله في الشام شافعية وكذلك كان أئمة الجامع الأموي ، فحاول أن يقيم فيه إماماً حنفياً ، فأغلق أهل دمشق الجامع ولم يملكوه وعُزل وعاد القضاء في دمشق إلى الشافعية .

وكانت قد أخذت المدارس تنشأ بالشام وكانت قد أُسست في دمشق - كما مر بنا - المدرسة الصادرة سنة ٤٩١ ويعبد ابن شداد من قهاتها حتى سنة ٦٥٨ أحد عشر قتيبا حنفياً ، وذكر النعمي بعده قهاتها إلى نهاية أيام المالك . وقد ذكر ابن شداد بجوارها في دمشق وضواحيها حتى سنة ٦٧٠ أربعا وثلاثين مدرسة للأحناف ويذكر أسماء قهاتها حتى سنة ٦٧٠ ويتابع ذلك النعمي . ويصنع ابن شداد نفس الصنيع بحلب وما أنشئ فيها من مدارس حنفية منذ أسست فيها المدرسة الزجاجة سنة ٥١٦ وكانت حلب قد أقبلت أكثر من دمشق - على المذهب الحنفي من قديم كما مر بنا . واشتهرت فيها أسر بنوارث هذا المذهب مثل أسرة بني العديم ، وعنى نور الدين

بالمذهب وكان حنفياً وأسس له مدرستين : مدرسة بحلب وأخرى بدمشق سميت كل منهما بالمدرسة النورية . ومضى الأيوبيون بعده يعنون بالمذهب ومدارسه ، وكانوا شافعية ، وانفرد من بينهم المعظم عيسى صاحب دمشق ( ٦١٥ - ٦٢٤ هـ ) باعتناقه المذهب الحنفي وتعمقه فيه ، على هدى من أستاذه جمال الدين الحصري <sup>(١)</sup> الذي انتهت إليه رياسة المذهب بدمشق والتوفى سنة ٦٣٦ وله شرحان على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني : شرح مفصل في ثمان مجلدات سماه التحرير ، وشرح مختصر في مجلدين سماه الوجيز ، ومع ليمازاه زاد فيه ١٦٣٠ مسألة مع الإيضاح بالنظائر والشواهد . وشرح أيضا للشيباني كتاب السير الكبير وهو في الأحكام الفقهية المتطوعة بالزوات والحرب ، وله كتاب في الخلاف بين الشافعية والحنفية ، ودفع المعظم للتعلم في المذهب حتى ألف فيه كتابا <sup>(٢)</sup> . وليس ذلك فحسب ، فقد كلف الحصري وفقهاء المذهب بتأليف كتاب جامع فيه ، فألفوا كتابا في عشر مجلدات سموه كتاب التذكرة .

وتظلّ الشام أيام المماليك ويقرر الظاهر يبرس أن لا يُقْتَصَر في مصر على قاض شافعي كما كان الشأن منذ عهد صلاح الدين ، بل يشترك معه في القضاء قاض حنفي وقاض مالكي وقاض حنبلي وعمم ذلك في دولته بدمشق وحلب وغيرها من مدن الشام ، واطرد العمل بذلك إلى أيام العثمانيين ، فكان من الأسباب المهمة في ازدهار المذهب الحنفي بديار الشام بحوار ما كان له من مدارس ، مما دفع إلى حركة علمية نشيطة فيه ، وكان أول من تولى القضاء بدمشق من فقهاء الأحناف حسب قرار يبرس عبد <sup>(٣)</sup> الله بن محمد بن عطا الأذري المتوفى سنة ٦٧٣ ، وتوالى القضاء الأحناف فيها بعده ، منهم شمس الدين الأذري المتوفى سنة ٧٢٢ ولى قضاء دمشق عشرين سنة ودرّس طويلا بمدارسها الحنفية . وتكاثر أسماء فقهاء الأحناف في كتب التاريخ والتراجم ، وحسبنا أن نعرف أن نشاطا وافرًا أداه فقهاء الأحناف في ديار الشام بالحقب التالية . وظل هذا النشاط أيام العثمانيين ، ولبرهان <sup>(٤)</sup> الدين الحلبي المتوفى سنة ٩٥٦ كتاب ملقى

مرآة الزمان ٤٢٦

(٣) انظر في الأذري للنجوم الزاهرة ٧/٢٤٦ والسلوك

للمفريزي ١/٦١٩

(٤) راجع في برهان الدين دائرة المعارف الإسلامية

وبروكلمان ( الطبعة الألمانية ) ٢/٤٣٣

(١) راجع في الحصري الفوائد البلية في طبقات الحنفية

٨٤ والمجاهر للنفية لابن أبي الوفاء ٢/١٥٥ وتاج التراجم

رقم ٢٠٨ والبداية والنهاية ١٣/١٥٢ والنجوم الزاهرة

٢١٣/٦

(٢) انظر في المعظم عيسى ونشاطه في الفقه الحنفي مختصر

الأبهر في فروع الفقه الحنفى ، وقد ترجم قديما إلى التركية والفرنسية . وصنف شمس الدين القرطائى الفزى المتوفى سنة ١٠٠٤ للهجرة كتاب تنوير الأبصار وجامع البحار في الفقه الحنفى ، ومنه ومن شروحه مخطوطات بدار الكتب المصرية .

وكان أقل المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى انتشارا وأتباعا في الشام المذهب المالكي ، وبأخذ في النشاط هناك متأخرا زمن الدولة الأيوبية ، منذ بنى صلاح الدين بدمشق للمالكية مدرسته الصلاحية بالقرب من البهارستان النورى ، ويذكر ابن شداد من أساتذتها المهتمين ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ وقد مرّ بنا ذكره بين النحاة وله مختصران نفهسان في الفقه المالكي وعلم الأصول ، ودرّس الفقه المالكي أيضا في زاوية المالكية الملاصقة لغرى الجامع الأموى ، بناها أيضا للمالكية صلاح الدين . وخلفه في المدرسة الصلاحية عبد <sup>(١)</sup> السلام الزواوى المتوفى سنة ٦٨١ وإليه انتهت رئاسة المالكية بالشام ومشيخة القراء ، وكان معمرا ، توفى عن ٩٢ عاما . ولا يذكر ابن شداد للمالكية وراء المدرسة الصلاحية سوى مدرسة واحدة هي مدرسة الشرايشى في حين ذكر للحنفية كما أسلفنا أربعة وثلاثين مدرسة . وكان قد انتعش المذهب المالكي كغيره من المذاهب حين قرر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ إسناد الحكم في بلدان الشام الكبرى : دمشق وغيرها إلى أربعة قضاة بينهم قاض مالكي ، وكان أول من تولى القضاء المالكي بدمشق حينئذ عبد السلام الزواوى المذكور آنفا ، وتعاقب بعده القضاة ، كما تعاقب فقهاء المالكية بدرسون للناس المذهب ، ومن أهمهم عيسى <sup>(٢)</sup> بن مسعود مدرس الفقه المالكي بالجامع الأموى المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح جيد على مختصر ابن الحاجب ، وشرح المدونة للفقه المالكي . لمصنفها سخنون ناشر المذهب في الديار المغربية ، وله شرح موسع على صحيح مسلم وكتاب في مناقب مالك ، وإليه انتهت رئاسة المالكية في الشام . ويلقانا في كتب التراجم كثيرون ينتقلون بين القاهرة ودمشق متولين لمنصب القضاء المالكي . وبأخذ نشاط المالكية أيام الصليبيين في التضاؤل والشحوب .

وكان أول من أدخل مذهب الشافعى - فيما يبدو - إلى الشام أبو زرعة <sup>(٣)</sup> بن عثمان الدمشقي ولى القضاء بالقاهرة ثمانى سنوات ، ثم ولى القضاء بدمشق سنة ٢٩٢ حتى توفى سنة ٣٠٢ ويقول

(١) راجع في عبد السلام الزواوى النجوم الزاهرة ٣٥٦/٧

(٢) راجع في قضاء دمشق لابن طولون (طبع دمشق) ٢٢ والبداءة والنهاية ١٢٢/١١ والفتاوى ٢٣٩/٢ .

والسبكي ١٩٦/٣ وقابل على ٣٢٦/١

(٣) راجع في عبد السلام الزواوى النجوم الزاهرة ٣٥٦/٧

وطبقات القراء ٣٨٦/١ والبداءة والنهاية ٣٠٠/١٣ والسلوك

٥٤٢/١

(٢) انظر في ابن مسعود الدرر الكامنة لابن حجر ٢٩٠/٣

السبكي في كتابه طبقات الشافعية : لم يل القضاء بعده في الشام إلا شافعي المذهب غير ابن حذّام. قاضي الشام فإنه كان أوزاعي المذهب كما مرّ بنا . ومرّبنا أيضا أنه ولي قضاء الشام حتى توفى سنة ٣٢٥ . ويطلب أن يكون هذا شلوذا وأن تكون عبارة السبكي صحيحة ، كما يتضح ذلك لمن يرجع إلى كتاب قضاة دمشق لابن طولون . ومنهم عبد <sup>(١)</sup> الله بن محمد القزويني قاضي الرملة المتوفى سنة ٣١٥ والحسين <sup>(٢)</sup> بن أبي زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٢٧ وكان قاضيا لدمشق في زمن الإخشيد ، وأبو <sup>(٣)</sup> يحيى البلخي زكريا بن أحمد المتوفى سنة ٣٣٠ وكان مثل سابقه قاضيا لدمشق . ومنهم أيضا أيام الفاطميين أبو بكر الميائنجي قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٧٥ . ويبدو أنه تجرّد في القرن الرابع فقهاء شافعية لعرض المذهب الشافعي ودراسه في مدن الشام الكبرى ، إذ نجد عبد النعم بن غلبون الحلبي المتوفى سنة ٣٨٩ مقرئ حلب يسلكه السبكي بين فقهاء الشافعية ، ويقول إنه تلقن المذهب على الحصائري <sup>(٤)</sup> الحسن بن حبيب الهمشي إمام مسجد باب الجابية بدمشق المتوفى سنة ٣٣٨ ، ويلقبنا في القرن الخامس فقيه شافعي هو أبو <sup>(٥)</sup> الخير المروزي يستوطن المصرة سنة ٤١٨ ويدرس بها للطلاب حتى وفاته سنة ٤٤٧ وله كتاب في فقه الشافعي يسمى الذخيرة حمله عنه طلابه . وتلقن من قضاة دمشق بأبي المظفر عبد <sup>(٦)</sup> الجليل بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٧٩ وكان يعاصره نصر <sup>(٧)</sup> بن إبراهيم المقدسي المتوفى سنة ٤٩٠ تفقه على الفقيه سليم بصور ودرس فيها عشر سنوات ثم انتقل إلى دمشق يدرس ويفقه ويحدّث . وكان قد نزل بصوامع بيت المقدس ودمشق الإمام الغزالي منذ سنة ٤٨٨ وله ثلاثة كتب في الفقه الشافعي : البسيط والوسيط والوجيز ، وشُغف بها الشافعية منذ زمنه في الشام وغير الشام .

ويدخل مذهب الشافعي في مرحلة كبرى جديدة يتشر فيها بالشام أوسع انتشار ، ونقصد مرحلة تأسيس مدارس الشافعية منذ تأسيس المدرسة الأمينية في سنة ٥١٤ وبعد ابن شداد في

- 
- |   |  |
|---|--|
| (١) انظر قضاة دمشق ٢٦ والبدلية والنهاية ١١/١٥٧                            | (٥) انظر أبا الخير في السبكي ٤/٢٩٩   |
| والعبر ١٦٢/٢ والسبكي ٣/٣٢٠  | (٦) راجع في أبي المظفر قضاة دمشق ٤٢ والسبكي ١٠٠/٥  |
| (٢) راجع الحسين في السبكي ٣/٢٨١ وقضاة دمشق ٢٧                             | (٧) انظر نصر بن إبراهيم في تهذيب الأسماء واللغات ١٢٥/٢ والسبكي ٥/٣٥١ والعبر ٣/٣٢٩ ومرآة الجنان ٣/٣٩٥ |
| (٣) انظر البلخي في قضاة دمشق ٢٨ والسبكي ٣/٢٩٨ والشرحات ٢/٣٢٦ والعبر ٢/٢٢٢ | (٤) انظر الحصائري السبكي ٣/٢٥٥ وكارن مع ابن غلبون في السبكي ٣/٣٣٨                                    |

كتابه «الأعلاق الخطيرة» من مدرسى هذه المدرسة حتى زمن تأليفه لكتابه حوالى سنة ٦٧٠ عشرة من كبار فقهاء الشافعية ، ولاتجاوز مدارس الشافعية بدمشق حتى عهد نور الدين عد أصابع اليد الواحدة ، حتى إذا خلص الأمر لصلاح الدين والأيوبيين - وكانوا شافعية إلا ما كان من اعتناق معظم عيسى للمذهب الحنفى - ازدهر المذهب الشافعى منذ هذا التاريخ ، وقد جعل صلاح الدين قاضى القضاة بدمشق شافعيًا ، وبلغت مدارس الشافعية - كما أحصاها ابن شداد - أربعين مدرسة حتى أيامه . وإذا تصورنا أن المدرسين النابئين لكل مدرسة من هذه المدارس بلغوا حتى زمنه فى المتوسط أربعة من المدرسين يكون معنى ذلك أن المذهب الشافعى حظى حتى أواخر القرن السابع الهجرى فى دمشق وحدها بما لا يقل عن مائة وستين فقيها نابها ، وأطرد العمل بذلك فى هذه المدارس بدمشق وفيها أحصاه بعدها النعمى فى كتابه «الدارس» وأيضًا فيها قابلها من مدارس للشافعية فى حلب وغيرها من بلدان الشام الكبرى .

ومن المؤكد أن قرار الظاهر بيبرس بأن يكون للمذاهب الكبرى بجانب مذهب الشافعى قاضى لم يحدث أثرًا عكسيًا فى المذهب كما كان يُظَنّ ، إذ كان زمام القضاء فى أيام الأيوبيين بيد الشافعية وحدهم ، بل ظل للمذهب ازدهاره ، وظل له الجمهور الأكبر من الناس والفقهاء فى الشام ، ونكتفى بالوقوف عند بعض مشهورهم ، فمنهم ابن <sup>(١)</sup> أبى عمرو قاضى القضاة بدمشق لعهد صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٥ وبني له قبل ذلك نور الدين المدارس بحلب وحماة وحمص وبعبلق ، وبني هو لنفسه مدرستين بحلب ودمشق ، ويقول السبكى عنه : ملأ البلاد تصانيف وتلامذة ، ويذكر من تصانيفه «صفوة المذهب» فى سبع مجلدات وكتاب الانتصار فى أربع مجلدات وكتاب المرشد فى مجلدين وكتاب الذريعة فى معرفة الشريعة ، إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة . ومن كبار فقهاء الشام بعده العزيز بن عبد السلام ، ذكرناه بين فقهاء الشافعية بمصر ، إذ استوطنها حتى وفاته .

وفى رأينا أن أعظم فقيه شافعى أنجبته الشام هو محى الدين النوى <sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٦٧٦ عن

(٢) راجع فى النوى السبكى ٣٩٥/٨ والبداية والنهاية

٢٧٨/١٣ وتذكرة الحفاظ ١٤٧٠/٤ والنجوم الزاهرة

٢٧٨/٧ والمبر ٣١٢/٥ وشذرات الذهب ٣٥٤/٥ والسلوك

٦٤٨/١ والدارس فى أخبار المدارس ٢٤/١

(١) انظر فى ابن أبى عمرو غرريدة القصر (قسم شعراء

الشام) ٣٥١/٢ وابن خلكان ٥٣/٣ والسبكى ١٣٢/٥

ونكت المبيان ١٨٦ وطبقات القراء ٤٥٥/١ والمبر ٢٥٦/٤

والنجوم الزاهرة ١٠٩/٦ وتذكرة الحفاظ ١٣٥٧/٤ والبداية

والنهاية ٣٣٣/١٢ والشذرات ٢٨٣/٤



خمس وأربعين عاما ، ومر بنا ذكره بين المحدثين ، وكان إماما مجتهدا واسمه يتردد في كتب الفقه الشافعي بعده وكذلك آراؤه ، ومن أهم مصنفاته في فقه الشافعية منهاج الطالبين لخص به كتاب المهر للرافعي القزويني ، واختصر المناجح فيها بعد الشيخ زكريا الأنصاري ، وسمى مختصره المنهج ، وصنف النووي في فتاويه الفقهية كتابين : كبير وصغير . ومن فقهاء الشافعية الكبار في زمنه وبعد زمنه علاء<sup>(١)</sup> الدين الباجي المتوفى سنة ٧١٤ وكمال الدين محمد الأزمكاني حفيد عبد الواحد الذي ذكرناه بين البلاغين توفي سنة ٧٢٧ . وتخص كتب التراجم والتاريخ بأسماء جلة من هؤلاء الفقهاء ، ولابد أن نلاحظ أن كثيرين من فقهاء الشافعية الكبار بمصر كانوا يتزلون في الشام مثل تقي الدين السبكي قاضي قضاة الشام وابنه تاج الدين عبد الوهاب خطيب الجامع الأموي مؤلف طبقات الشافعية ، ويظل المذهب الشافعي مزدهرا بالشام أيام المالك والعثمانيين .

وكان المذهب الحنبلي في الشام أقل أشياعا وأنصارا من المذهب الشافعي والحنفي ، ومن أوائل من أدخلوه إلى دمشق والشام علم من أعلام المذهب الحنبلي هو أبو القاسم الخرقني<sup>(٢)</sup> عمر<sup>(٣)</sup> بن الحسين المتوفى بدمشق سنة ٣٣٤ وكان قد استوطنها بأخرة من عمره ودرس المذهب فيها ، وله كتاب دوت شهرته هو المختصر في الفقه الحنبلي ، ظل طلاب المذهب يعتمدون عليه طويلا ، ويقال إن عدد مسائله بلغ ٢٣٠٠ مسألة . وظل المذهب لا يتعش في ديار الشام حتى قبض له في القرن الخامس أبو الفرج<sup>(٤)</sup> الشيرازي المقدسي الدمشقي المتوفى سنة ٤٨٦ وكان قد تفقه في بغداد على أبي يعقوب صاحب طبقات الحنابلة ، وقدم الشام فسكن بيت المقدس ونشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل فيها حوله من بلدان فلسطين ، ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها وأخذ ينشر المذهب حتى أصبح له أتباع وتلامذة كثيرون لا في دمشق فحسب بل أيضا في بيت المقدس وغيرها من بلدان الشام ، وله تصانيف عدة في الفقه الحنبلي والأصول ، منها : الميج والإيضاح ، ومختصر في الحدود وفي أصول الفقه ، والتبصرة في أصول الدين ، وله كتاب الجواهر في التفسير ثلاثون

الحنابلة لابن أبي يعلى ٣٣١ والأنساب للسمعاني ١٩٥ وابن

خلكان ٤٤١/٣ والنجوم الزاهرة ٢٨٩/٣

(٣) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (طبعة دمشق)

٨٥/١ وما بعدها

(١) انظر في علاء الدين الباجي الدرر الكائنة ١٧٦/٣

وطبقات الشافعية للسبكي ٣٣٩/١٠ وفوات الوفيات

١٥٠/٢ وحسن الخاضرة ٥٥٤/١ والفتاوى ٣٤/٦

(٢) انظر في المرقى تاريخ بغداد ٣٣٤/١١ وطبقات

مجلدا . وكان يعاصره الفقيه الحنبلي عبد <sup>(١)</sup> الوهاب بن طالب النجدي نزير دمشقي وإمام مسجد الرحمان .

وخلف أبا الفرج الشيرازي على المذهب ابنه عبد الوهاب المتوفى سنة ٥٣٦ هـ ونخرج من بيته فقهاء حنابلة كثيرون ، ويعرفون في دمشق والشام ببيت ابن الحنبلي ، ولعبد الوهاب مثل أبيه تصانيف في الفقه الحنبلي والأصول ، منها المنتخب في الفقه الحنبلي في مجلدين والبرهان في أصول الدين . ولعبد الوهاب على المذهب في الشام يد سابقة ، فقد بنى له بدمشق مدرسة تعرف بالمدرسة الحنبيلة ، ويذكر ابن شداد أساتذتها من الحنابلة الفقهاء حتى أيام تأليف كتابه «الأعلاق الخطيرة» بعد سنة ٦٧٠ . ويذكر بدمشق معها تسعة مدارس أخرى للحنابلة بُنيت بعدها حتى زمن ابن شداد . ونشط بناء المدارس الحنبلية في بيت المقدس وظل بعد ابن شداد على نحو ما يصوره ذلك النجدي في كتابه «الدارس في تاريخ المدارس» . وكان مما ضاعف نشاط هذا المذهب قرار الظاهر بيبرس أن يكون للحنابلة في ديار الشام - كما في ديار مصر - قاض في كل بلد كبير يجانب قضاء الحنفية والمالكية والشافعية . ويتضح هذا النشاط ويتضح معه كثرة الفقهاء من الحنابلة منذ أيام الأيوبيين ، ومن كبارهم حينئذ مولى <sup>(٢)</sup> الدين بن قدامة الجماهي المقدسي عبد الله بن أحمد المتوفى بدمشق سنة ٦٢٠ هـ وهو من أئمة المذهب ، وله كتب كثيرة في الفقه الحنبلي وأصوله وأصول الدين ، منها المعنى شرح به مختصر الخرق المار ذكره في عشر مجلدات ، وهو مطبوع ، والكافي في أربع مجلدات ، وله في أصول الفقه كتاب روضة الناظر ، وفي أصول الدين كتاب الاعتقاد . ويلقانا بعده فقهاء كثيرون من بيته يتردد ذكرهم طوال القرنين السابع والثامن . ومانكاد نبليغ نهاية القرن السابع أيام المالكي حتى يتألق في المذهب اسم الإمام ابن <sup>(٣)</sup> تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ وقد صورنا جانباً من تحرره الفكري واجتهاده في غير هذا الموضع ، ومرّبنا حديثاً عن منهجه في التفسير القرآني ، وله عشرات الرسائل والكتب في المسائل التشريعية والعقيدية ، ويقول الذهبي في تذكرة الحفاظ إن مصنفاته التي سارت بها الركبان نحو ثلاثمائة مجلد ، ومن أهم كتبه الفقهية فتاويه وهي مطبوعة قديماً في خمسة مجلدات كبار . ومن أعلام الفقهاء الحنابلة بعده تلميذه ابن قيم الجوزية المذكور بين البلاغيين وهو حامل قهقهه وعلمه وناشرهما في الناس وأضاف

إليها كثيرا من روائع الكتب ، مع نزعة صوفية قوية فيه . وتصدى في دمشق بعد أستاذه للإقراء والإفتاء وصنّف كثيرا في الفقه والتفسير والحديث والأصول والفروع ، ومن تصانيفه إعلام الموقعين وشرح منازل السائرين ، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة ، وطرق السعادتين ، ويقول ابن حجر في الدرر : هو طويل النفس في كتاباته يحاول الإيضاح جهده فيسهب جدا ، ويقول الشوكاني في البدر الطالع : « له من حسن التصرف مع العذوبة الزائدة وحسن السياق مالا يقدر عليه غالب المصنفين بحيث تعشق الأفهام كلامه وتميل إليه الأذهان ونجبه القلوب » . ويزخر كتاب النجوم الزاهرة بأسماء فقهاء الحنابلة وقضاتهم بدمشق وغيرها حتى نهاية زمن تأليفه سنة ٨٧٢ . ويلقانا بأخوه من أيام الماليك مجير الدين العلي بن محمد قاضي بيت المقدس المتوفى سنة ٩٢٧ وله كتاب في طبقات الحنابلة سماه « للنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد » . ويظل للفقهاء الحنابلة نشاطهم أيام الثمانين مثلهم في ذلك مثل بقية أصحاب المذاهب الثلاثة الأخرى .

ومنذ ظهرت المذاهب الفقهية والكلامية والجدل يحتمل بين أصحابها ، مما أتاح مبكرا لنشأة علم الجدل وما تبعه من نشأة علم آداب البحث والمناظرة ، ويكثر التأليف فيها لهذا العصر كما يكثر التأليف في علم الأصول الذي وضعه الإمام الشافعي وفاق الأولين والآخرين فيه الآمدى الذى سنلم به في حديثنا عن علم الكلام بجزء مصر ، وكان قد نزل مصر ثم استوطن حماة حتى وفاته سنة ٦٣١ ، وكتابه « الإحكام في أصول الأحكام » ربما كان أروع كتاب في علم الأصول على مدى الأزمنة الماضية . والشام - مثل مصر - انصرفت عن الاعتزال وعن الفرق الكلامية الكثيرة التى نشأت في بغداد ، حتى إذا ظهر الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ وانضم تحت لوائه شافعية خراسان انضم مثلهم شافعية الشام ومصر بحيث تعاقب اللدبان . الشافعي والأشعرى في كل مكان . ولم يلبث أن خاصمها الحنابلة الآخفون بظاهر الكتاب والسنة ، واستمر هذا الخصام على مدار السنين في أزمنة الأيوبيين والمماليك . ومن حين إلى آخر يتوقف السبكي في طبقاته ليصور تنصب بعض الحنابلة ضد الأشاعرة وخاصة أستاذه الذهبي ، فقد كان يتعصب تنصبا شديدا ضدهم على نحو ما سنعرض ذلك في غير هذا الموضع . وفي الوقت نفسه يشيد بفقهاء الشافعية الذين يردون على خصوم الأشعرية ، على نحو ما نشأ بفخر الدين بن عساكر في رده المفتح على الحسن بن علي الأهوازي المار بين القراء في كتابه « تبين كلب المغزى فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعرى » . ويشيد السبكي

يصفى<sup>(١)</sup> الدين بن الهندي المتوفى بدمشق سنة ٧١٥ لقيامه بنصرة المذهب الأشعري ، ويقول : إنه كان من أعلم الناس بمذهبه وأدراهم بأسراره ، ويذكر من تصانيفه في نصره المذهب كتابه « زبدة الكلام » ويذكر له مجواره كتابا في الأصول هو « نهاية الوصول في دراية الأصول » .. وظلت نصره الشافعية للمذهب الأشعري على مدار السنين في أيام الماليك والعمانيين .



### التاريخ

نشطت دمشق والشام في كتابة التاريخ بجميع صوره من السيرة المفردة وتاريخ المدن وتاريخ الدول أو دولة معينة والتراجم أو كتب الطبقات . ونبدأ حديثنا بالسيرة المفردة ، وأولها سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الزكية ، وأول شامى ندب نفسه للكتابة فيها أبو<sup>(٢)</sup> زُرعة عبد الرحمن بن عمرو شيخ الشام المتوفى سنة ٢٨٢ وله بجانبها كتاب عن تاريخ الخلفاء الراشدين ، سقط مثل السيرة النبوية من يد الزمن . وعن بعض الشاميين بالكتابة فيها ولم تصلنا كتاباتهم ، مثل السيرة النبوية لابن أبي طى المتوفى سنة ٦٣٠ . وتلقى في أيام العثمانيين بشمس الدين الدمشقي محمد<sup>(٣)</sup> بن يوسف المتوفى سنة ٩٨٢ وله سيرة نبوية تسمى السيرة الشامية جمعها من نحو ٣٠٠ كتاب ، وتغنى مصر بإخراجها الآن . وصنّف نور الدين الحلبي المولود بمصر السيرة الحلبية ، ومرّ ذكرها في حديثنا عن التاريخ بقسم مصر ، وهى مطبوعة . وتلقى ثلاث سير أو تراجم شخصية صور أصحابها فيها حياتهم ، وأول ما يلقانا منها كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ وهو بصور فيها حياة الشاميين وحملة الصليب لزمه ، نشرها فيليب حتى وكان قد نشرها قبله فيرنبورج . ولأى شامة المقدسى المتوفى سنة ٦٦٥ ترجمة شخصية بقلمه أودعها كتابه « ذيل الروضتين » وبالمثل لابن طولون الصالحى المذكور بين الجغرافيين المتوفى سنة ٩٥٣ ترجمة شخصية بعنوان « الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون » وهى مطبوعة بدمشق .

١٢٨/١ وتاريخ ابن حساكر ٢٧٤/٧ وابن حجر في التذهيب

٥٥/٢ . وراجع بروكلمان ٢١/٣

(٣) انظر في شمس الدين الشنفرات ٢٤٩/٨

(١) راجع في حق الدين طبقات السبكي ١٦٢/٩

والوفاء بالوفايات ٢٣٩/٣ والدرر لابن حجر ١٣٢/٤ ومرتة

الجنان ٢٧٧/٤ والشذرات ٣٧/٦ والبدور الطالع ١٨٧/٢

(٢) انظر في أى زُرعة النجوم الزاهرة ٨٧/٣ وقارن بالجزء

وشغل صلاح الدين بسيرته المؤرخين ، وأولهم العماد الأصمباني وفيه ألف كتابه « البرق الشامي » ذكر فيه أخبار صلاح الدين وفوضاته وأحداث الشام في عهده ، وهو في سبع مجلدات . ويتصل بهذه السيرة كتابه « الفتح القسّي في الفتح القدسي » صُوّر فيه فتح صلاح الدين للقدس تصويراً أدبياً بديعاً . وصنّف بهاء<sup>(١)</sup> الدين بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ سيرة لصلاح الدين بعنوان : « النوار السلطانية والحاسن اليوسفية » اعتمد فيها على السيرة الصلاحية لأبن أبي طى . ولابن عتيم الشاعر المتوفى سنة ٦٣٠ سيرة<sup>(٢)</sup> للملك العزيز سماها التاريخ العزيزى : وكتب أحد أولاد الناصر داود بن عيسى بن الملك العادل سيرة له باسم « الفوائد<sup>(٣)</sup> الجلية في الفرائد الناصرية » . وللنوى المذكور بين الفقهاء كتاب في سيرة الإمام الشافعى ، ولابن عريشاه<sup>(٤)</sup> اللمشقى المتوفى سنة ٨٥٤ سيرة مفصلة لتيمورلنك تعجب فيها مولده ونشأته وملكه ودولته ومن خلفوه حتى سنة ٨٤٠ وسمى هذه السيرة « عجائب المقدور في نواب تيمور » مصوراً إفساده في الأرض وإهلاكه الحرث والنسل ومارتكب من الفظائع ، غير أنه كتبها بأسلوب مسجع شديد التكلف ، ونزل مصر بأخرة من عمره في عهد السلطان جُصَمق وكتب سيرته بعنوان « التأليف الطاهر في شيم الملك الظاهر » . ولبلر الدين المنيى المار ذكره كتاب السيف المهند في سيرة السلطان المؤيد ، ولبلر الدين محمد<sup>(٥)</sup> بن أبي بكر اللمشقى المتوفى سنة ٨٧٤ سيران : سيرة لنور الدين ، والسيرة الثانية للسلطان قايتباى . وله سير كثيرة في العصر . ولابن طولون الذى ذكرناه أنفا بين الجغرافيين سيرة لابن العربى المتصوف . وصنف شمس الدين اللمشقى المار ذكره سيرة لأبى حنيفة ، ومنها مخطوطة في دار الكتب المصرية . ولحمد بن يحيى الخنيلى سيرة صنفها عن عبد القادر الجيلانى المتصوف ، وهى مطبوعة ، ولمعى<sup>(٦)</sup> بن يوسف الكرمى المتوفى سنة ١٠٣٣ سيرة صنفها في مناقب ابن تيمية .

هذا بعض ما صادفنا من كتب السير المفردة ، أما كتب تاريخ المدن فقد عرضنا طائفة منها في

(١) راجع بهاء الدين في ابن خلكان ٨٤/٧ والبيروني

٣٩٠/٨ وتاريخ ابن الدردى ١٦٠/٢ وتذكرة الحفاظ

١٤٥٩/٤ وطبقات القراء ٣٩٥/٢ والبدابة والنهاية

١٤٢/١٣ والمختصر لأبى الفدا ١٥٦/٣ والتجويد الزاهرة

٢٩٢/٦ والنفوس ١٥٨/٥

(٢) انظر كشف الظنون لحاجى خليفة (الطبعة الثانية)

٢٩٨

(٣) بروكلمان (الطبعة العربية) ١٨/٦

(٤) انظر مصادر ترجمة ابن عريشاه في ص ٨٢٩

(٥) راجع ترجمته في الضوء اللامع ١٥٦/٧

(٦) انظر في مرعى الكرمى خلاصة الأثر ٣٥٨/٤

حديثنا عن علم الجغرافيا وخاصة ما اتصل منها بفصائل دمشق والشام وبيت المقدس ، ونسب الكلام في كتابين ذكرناهما هناك ، أما أولها فتاريخ مدينة دمشق للإمام الحافظ ابن عساكر على بن الحسن المتوفى سنة ٥٧١ ويقال إنه في ثمانين مجلدا بدأه بالحديث عن فضائل الشام وفروعها وخطتها ومساجدها وكنائسها ودورها ثم ترجم لكل من دخل دمشق والشام منذ الجاهلية إلى زمنه من الأنبياء والخلفاء والولاة والفقهاء والقضاة والعلماء من كل صنف والشراء والكتاب . وهنّبه بمحذف الأسانيد عبد القادر بن أحمد بن بدران ، ونشر من تهنيه سبعة « مجلدات » حتى ترجمة عبد الله بن سيار ، وقلها يذكر في المراجع باسم تهنيب تاريخ ابن عساكر ، بل يقال مباشرة تاريخ ابن عساكر . والكتاب الثاني الذي سبق أن عرضنا له ونرى الوقوف عنده كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن شداد ، وهو يذكر خطتها ثم يسهب في ذكر الجامع الأموي وذكر مساجدها حتى زمنه ، ويتحدث عن مزاراتها في باطنها وظاهرها وخوانقها ورُبطها ومدارسها الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وكنائسها ودياراتها وحماماتها ومأمُدحت به نثرا وشعرا ، وهو بذلك تاريخ اجتماعي ثقافي حضاري . وقد عُني ابن شداد بحلب كما عني بدمشق . ولعل أهم كتاب عُني بها قبله كتاب « بغية الطلب في تاريخ حلب » لابن العديم <sup>(١)</sup> عمر بن أحمد المتوفى سنة ٦٦٠ صنفه في عشر مجلدات أرّخ فيها لطائفا وأدبائها على الترتيب الأيمدّي وجعل له تاريخا لحلب على السنين في كتابه : « زبدة الحلب من تاريخ حلب » وصل به إلى نهاية أيام نور الدين محمود سنة ٥٦٩ حققه ونشره الدكتور سامي الدهان بدمشق . ولابن خطيب <sup>(٢)</sup> الناصرية على بن محمد المتوفى سنة ٨٤٣ تمة لبغية الطلب في مجلدات سماها « الدر المختب في تكملة تاريخ حلب » وأكمله محمد بن محمد بن الشحنة المتوفى سنة ٨٩٠ وصمى تكلته « نزهة النواظر » . وعنى بكل ذلك أيام العثانيين ابن <sup>(٣)</sup> الحنبلي محمد بن إبراهيم الحلبي المتوفى سنة ٩٧١ وصنف كتابه « الزيد والضرب ( عمل النحل ) في تاريخ حلب » مع تكلته إلى سنة ٩٥١ . ولجبر الدين الطلمي المتوفى سنة ٩٢٧ كتاب الأئيس الجليل في تاريخ القدس والتحليل مطبوع . ومن يرجع إلى كتاب « الإعلان بالتاريخ لمن ذم التاريخ » سيجد بلدان الشام مع من كتبوا تاريخها تتعاقب ، تُذكر أولا حلب ثم حمص فالجليل فداريا ضاحية لدمشق فدمشق فصفد فصور فطرابلس ففسقلان ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه لم تبق بلدة

(٢) راجع ابن خطيب الناصرية في الفصول اللاحقة جـ

رقم ١٠١٦ والشرحات ٢٤٧/٧

(٣) انظر ابن الحنبلي في الشرحات ٦٦٥/٨

(١) انظر في ابن العديم معجم الأدباء ٥/١٦ وفوات

الوفيات ٢٠٠/٢ والشرحات ٣٠٣/٥ وتاج التراجم ص ٤٨

ومقدمة الدكتور سامي الدهان لكتابه: زبدة الحلب

في الشام إلا نجد عالم لكتابة تاريخها ومنها ماوصلنا ومنها ما لم يصلنا وضاع مع الأيام .  
وتترك تاريخ البلدان إلى التاريخ العام ، وأول مايلقانا فيه ابن القلانسي حمزة<sup>(١)</sup> بن أسد  
المتوفى سنة ٥٥٥ وله تاريخ للحوادث على السنين سماه تاريخ دمشق ذيل به على كتاب التاريخ  
للال الصابي ابتداءً به كما يقول ياقوت من سنة ٤٤١ إلى حين وفاته سنة ٥٥٥ . وكان يعاصره  
العظيمي<sup>(٢)</sup> الحلبي المتوفى بعد سنة ٥٥٦ ، ومحمد بن عمر بن شاهنشاه كتاب عن حياة وتاريخها  
وله أيضا تاريخ على السنين . وجاء بعدهما ابن أبي الدم<sup>(٣)</sup> الحموي قاضي حاة المتوفى سنة ٦٤٢  
وله التاريخ المظفرى وهو تاريخ عام في ستة مجلدات حتى سنة ٦٢٧ ، وسبط ابن الجوزى الحنفى  
للولود ببغداد والمستوطن للمشرق منذ مطلع القرن السابع حتى وفاته سنة ٦٥٤ وله كتاب مرآة  
الزمان في تاريخ الأعيان بدأ به من أول الخليقة ورتبه منذ الهجرة النبوية على السنين حتى سنة  
وفاته ، وفيه يذكر الحوادث ثم الوفيات في كل سنة ، وكان في أربعين مجلدا ، ونُشر منه في حيدر  
آباد قسمان من الجزء الثامن على نحو ما أوضحنا ذلك في حديثنا عن المؤرخين بالعراق في الجزء  
السالف . ولموسى<sup>(٤)</sup> بن محمد اليونيسى البعلبكي المتوفى سنة ٧٢٦ مختصر للمرأة في نحو النصف مع  
ذيل في أربعة مجلدات يتناول أولها مصر وسوريا من سنة ٦٥٨ إلى سنة ٦٧٤ . ويلقانا مؤرخ كبير  
هو أبو الفدا صاحب حاة المتوفى سنة ٧٣٢ وقد ذكرناه بين الجغرافيين وله كتاب المختصر في أخبار  
البشر ، وزعه على قسمين : قسم عن الجاهلية والديانات والأنبياء وقسم عن الإسلام حتى سنة  
٧٢٩ وهو تاريخ نفيس ترجمه المستشرقون قديما إلى اللاتينية . وصنف عمر بن المظفر بن الوردى  
المتوفى سنة ٧٤٩ تكملة له حتى أيامه سماها «تمة المختصر» طبعت مثل أصلها مرارا .  
ونلتقى بالذهبي<sup>(٥)</sup> محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ وله تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير  
الأعلام في ١٢ مجلدا رتبه على السنين جامعا فيه بين الأحداث والوفيات . ونقد السبكي تلميذه في

(٤) راجع موسى في الدرر ١٥٣/٥ والفتاوى ٧٣/٦

والبهاة والنهاية ١٢٦/١٤

(٥) انظر في النسخي الدرر ٤٢٦/٣ ونكت المسيلان ٢٤١

وفوات الوفيات ٣٧٠/٢ والبهاة والنهاية ٢٢٥/١٤ وتاريخ

ابن الوردى ٣٤٩/٢ وطبقات القراء ٧١/٢ ومرآة الجنات

٣٣١/٤ والسبكي ١٠٠/٩ والوفاء بالوفيات ١٦٣/٢

والنجوم للزاهرة ١٨٢/١٠ والفتاوى ١٥٣/٦ والدرر

الطالع ١١٠/٢

(١) راجع في ابن القلانسي تاريخ دمشق لابن عساكر

٤٣٩/٤ ومعجم الأدباء ٢٧٨/١٠ والنجوم الزاهرة ٣٣٢/٥

والفتاوى ١٧٤/٤

(٢) انظر في العظيمي بروكلمان (الترجمة العربية)

١٣١/٦

(٣) راجع في ابن أبي الدم : السبكي ١١٥/٨ وتاريخ

ابن الوردى ١٧٥/٢ والفتاوى ٢١٣/٥ والمختصر لآل الفدا

١٨٢/٣

طبقاته موقفه من الأشعرية ، وأنه لم يقف على الجهاد في عرضه لهم وللصوفية أيضا . وكان الحنابلة يخاصمون الطائفتين ولذلك يصبّ عليهم جميعا جام غضبه ، إذ كان حنبليا متعصبا لأصحاب مذهبه ، حتى يقول السبكي أنه كان إذا ترجم واحدا من الحنابلة يطنب في وصفه بجميع ما قيل فيه من المحاسن ، ويتغافل عن غلطانه ويتأول له ما أمكن ، وإذا ترجم أحدا من الأشعرية كلاما الحرميين الجوفى والغزالي وأمثالها لا يبالغ في وصفه ويكثر من قول مَنْ طعن فيه ، ويبعد ذلك ويبدله<sup>(١)</sup> . وكان يبنى أن يكون منصفًا في تاريخه وتراجمه فيه بريئا من العصبية في المذهب ، ويقول السبكي : « هذا وهو الحافظ الجندري والإمام المبجل لما بالك بعوام المؤرخين » . وللذهبي تاريخ عام في مجلدين ، وهو مختصر لتاريخه الكبير ، رتبته على السنوات وذكر فيه الأحداث والوفيات ، سماه « العبر في خبر من غبر » وذكره يتردد في الهوامش .

وكان يعاصر الذهبي أبو بكر بن عبد الله بن أيك الدوادار صاحب صرخد ، وله كثر الدرر وجامع الرُّر ، ألفه للناصر بن قلاوون وهو في تسعة أجزاء أولها في بدء الخلق وثانيها في الأمم القديمة وثالثها في السيرة النبوية والخلفاء الراشدين ، والرابع في الدولة الأموية ، والخامس في الدولة العباسية ، والسادس في الدولة الفاطمية ، والسابع في الدولة الأيوبية ، والثامن في دولة المماليك البحرية ، والتاسع في دولة الناصر بن قلاوون ، منه نسخة بدار الكتب المصرية وهو كتاب نفيس جدير بالنشر . وتلقى بابن كثير الذي مر ذكره بين المفسرين المتوفى سنة ٧٧٤ وله البداية والنهاية ، وهو في التاريخ العام ، عُني فيه بالسيرة النبوية مميزا بين الوثيق واللتهم في الأخبار ، ومضى فيه يجمع بين الأحداث والوفيات على مر السنين حتى سنة ٧٦٧ للهجرة . وجاء بعده زين الدين بن الشحنة<sup>(٢)</sup> الحلبي المتوفى سنة ٨١٥ وله في التاريخ العام « روض المناظر في علم الأوائل والأواخر » انتهى فيه إلى سنة ٨٠٧ وهو مجلد واحد طبع قديما على هامش الكامل لابن الأثير . وتلقى بعده بيدر الدين العيني الذي مر ذكره بين المحدثين المتوفى سنة ٨٥٥ نشأ بحلب وتفق على أبيه وكان قاضيا حنفيًا وعلى غيره من فقهاء حلب الأحناف ، واختطف إلى شيوخ دمشق وبيت المقدس والقاهرة ، وتقلد مناصب مختلفة في القاهرة ودمشق منها الحسبة وقضاء الحنفية ، وله عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، وهو تاريخ عام من بدء الخليقة حتى سنة ٨٥٠ .

(١) انظر السبكي ١٣/٢ وما بعدها

والطراوت ١١٣/٧ والبدر الطالع ٢٦٩/١

(٢) راجع في ابن الشحنة الفصول اللاحقة ٣/١٠



ومن نلتقى بهم في أيام العتائين الجنائي مصطفى <sup>(١)</sup> بن حسن المتوفى سنة ٩٩٩ وله في أحوال الأوائل والأواخر تاريخ حافل يعرف بتاريخ الجنائي يؤرخ فيه ثلاث وعشرين دولة إسلامية في مجلدين حتى سنة ٩٩٧ قال صاحب كشف الظنون لم أركتابا جاعلا لدول العالم مثله . وكان يعاصره القرمانى <sup>(٢)</sup> أحمد بن سنان الدمشقي المتوفى سنة ١٠١٩ وله أيضا تاريخ عام للدول الإسلامية سماه : « أخبار الدول وآثار الأول » طبع قديما ببغداد في ٥٠٠ صفحة .

وبجانب هذه الكتب التاريخية الكثيرة في التاريخ العام صنف مؤرخو الشام كتباً فرعية خاصة ببعض الدول ، من ذلك : « نُصْرَةُ الْفِطْرَةِ وَغُصْرَةُ الْقَطْرِ » للعماد الأصبهاني ، وهو تاريخ للسلاجقة وأتابكتهم ووزرائهم ، اختصره الفتح البندارى سنة ٦٢٣ بكتابه « زبدة النصره ونخبة المعصرة » طبع في القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق . ونلتقى بأبي شامة <sup>(٣)</sup> الحافظ المقرئ المؤرخ للمقبسى الشافى عبد الرحمن بن إسماعيل المتوفى سنة ٦٦٥ وله كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : دولة نور الدين ودولة صلاح الدين في وصف معاركهما وانتصاراتهما الكثيرة على حمة الصليب ، وعادة يسرد المعركة ، ثم يعرض لوحاتها الشعرية البديعة التي تصور مجد العرب الحطري تصويراً رائباً ، وكيف كان هذا البطلان : نور الدين وصلاح الدين يسحطان الصليبيين سحقاً فريحا لا يكاد يبق منهم ولا يذر . وكتب للروضتين ذيلًا من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٦٥ . وكتب البرزالي <sup>(٤)</sup> القاسم بن محمد المتوفى سنة ٧٣٩ صلة لتاريخ أبي شامة باسم « المقتنى لتاريخ أبي شامة انتهى به إلى سنة ٧٣٨ وذيله تلميذه الحافظ مدرس التورية نقي الدين محمد <sup>(٥)</sup> بن رافع المتوفى سنة ٧٧٤ في كتاب سماه الوفيات حتى سنة ٧٧٤ ومنه مخطوطه بدار الكتب المصرية . ونلتقى بابن <sup>(٦)</sup> وأصل محمد بن سالم المتوفى سنة ٦٩٧ وله « مفرج الكرب في أخبار بني أيوب » نشره

(١) انظر في الجنائي دائرة المعارف الإسلامية . وفي معهد

المخطوطات بمجلة الدول العربية مصدران من كتبه

(٢) راجع في القرمطى خلاصة الأمر ٢٠٩/١

(٣) انظر في أبي شامة ترجمة شخصية بقلمه في ذيل

الروضتين ص ٣٧ والسبكي ١٦٥/٨ وتذكرة الحافظ

١٤٦٠/٤ وفوات الوفيات ٥٢٧/١ والبداءة والنهاية

٢٥٠/١٣ وفيل مرآة الزمان ٣٦٧/٢ وطبقات القراء

٣٦٧/١ والفتاوى ٣١٨/٥

(٤) راجع في البرزالي السبكي ٣٨١/١٠ وتذكرة الحافظ

٦٥٠/١ والسير ٣٢١/٣ وفوات الوفيات ٢٦٢/٢

والفتاوى ١٢٧/٦ والنجم الزاهرة ٣١٩/٩ والبر الطالع

٥١/٢

(٥) انظر في ابن رافع السير ٥٩/٤ والفتاوى ٣٣٤/٦

(٦) راجع في ابن واصل نكت المبيان للصفدي ص

٢٥٠ والفتاوى ٤٣٨/٥ ومضمة كتبه مفرج الكرب

ومخطط الشام لكرد ط ٤٨/٤ وله تجميد الألفاظ لأبي

المفرج جرده من أسقيده ، ونشر في القاهرة

الدكتور جمال الدين الشيال في ثلاثة أجزاء . وصنف ابن حبيب الحلبي بدر الدين الحسن بن عمر المتوفى سنة ٧٧٩ في تاريخ الممالك حتى أيامه كتابه «درة الأسلاك في دولة الأتراك» ابتداء به من سنة ٦٤٨ حتى سنة ٧٧٧ وأتمه ابنه طاهر إلى سنة ٨٠٢ . ولابن حبيب كتاب في تاريخ أسرة قلاوون وأبنائه سلاطين مصر . ولمرعى الكرمي السابق ذكره أيام العثمانيين نزعة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين .

ونلتقي بكثيرين من كتّاب التراجم والطبقات ، ومنهم كتاب حائون لم ينجسوا قطرا هربا بعينه ولا طائفة من الطوائف بعينا ، نذكر منهم الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء ويقع في نحو خمسة عشر مجلدا ، نشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بعض أجزائه . ومنهم ابن<sup>(١)</sup> شاعر الكهني الحلبي المتوفى سنة ٧٦٤ وله كتاب فوات الوفيات يقصد كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، وكأنه تكملة لما فات ، وبه أكثر من ثمانمائة ترجمة لطماء من كل صنف ولكتاب وشعراء وصوفية وحكّام . وكان يعاصره الصفدي خليل بن أيك المتوفى أيضا سنة ٧٦٤ وسنلم به في حديثنا عن النثر ، وهو أهم من أنجبهم الشام في كتابة التراجم ، وله فيها كتابه الفضخم الوافي بالوفيات ويدخل في نحو ثلاثين مجلدا نُشرت منها طائفة . وله بجانبه «نكت الهميان في نكت العميان» في تراجم من فقدوا بصرهم من مشاهير الأكتفاء في العالم العربي على توالي الحقب ، وأيضا «أعيان العصر وأعيان النصر» في مشاهير معاصريه في نحو نسخة مجلدات ، وهو حرى بالنشر . ويصني نجم<sup>(٢)</sup> الدين الغزي المتوفى سنة ١٠١٦ بتراجم القرن العاشر ويؤلف فيها كتابه الكواكب السائرة ، وصُنيت جامعة بيروت الأمريكية بنشره ، ويصنف المهدي<sup>(٣)</sup> محمد أمين المتوفى سنة ١١١١ للهجرة كتابه : «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» كما يصنف المرادي<sup>(٤)</sup> محمد خليل المتوفى سنة ١٢٠٦ كتابه : «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» .

ويؤلف المهاد الاصماني كتابه «خريدة القصر وخريدة العصر» وهو كتاب تراجم لشعراء العالم العربي في القرن السادس الهجري حتى نحو سنة ٥٧٠ وهم موزعون على أقطارهم من إيران إلى الأندلس ، نشرت منه أقسام مصر والشام والأندلس والمغرب ونشرت أجزاء العراق . وصُنفت بعد الصباد في الشام كتب عن الشعراء مثل طبقات الشعراء لمحمد<sup>(٥)</sup> بن عمر بن شاهنشاه

(١) انظر في ابن شاعر البداية والنهاية ٣٠٣/١٤ والدرر

(٢) انظر في المهدي سلك الدرر ٨٦/٤

(٣) راجع في المرادي تاريخ الجيوش ٢٣٣/٢

(٤) والشعراء ٢٠٣/٦

(٥) انظر مختصر المرأة لسبط ابن الجعزي : ٤٠١

(٦) راجع في الغزي خلاصة الأثر ١٣٥/١ ومقدمة الجزء

الأول من الكواكب السائرة

صاحب حياة المتوفى سنة ٦١٧ وكان في عشر مجلدات ، سقط هو وغيره مما يماثله من أيدي الزمن .  
 وما وصلنا نفحة الرحانة وورشحة طلاء الحانة للمجيب المذكور في بيان محاسن الشعراء بلدمشق  
 وحلب والعراق واليمن والحجاز ومصر والمغرب وبلاد الروم ، طبع في مجلدين كبيرين .  
 واهتم الأطباء بصنع كتب تحمل تراجمهم ، وشاركت الشام في هذا العمل عن طريق ابن  
 أبي أصيمة الذي مر ذكره بين الأطباء . فآلف كتابه « طبقات الأطباء » استقصاهم حتى زمن  
 وفاته ، وهو أوسع كتب الأطباء تفصيلا لحياتهم وأعمالهم . وتضمنت الشام بكتب الرجال من رواة  
 الحديث ، ويصنف عبد الفتي الجعاعلي - كما مر بنا - كتاب « الكمال في معرفة أسماء الرجال »  
 عن رواة الحديث النبوي في كتب الصحاح الستة . وأضاف إليه المزي المار ذكره بين المحدثين  
 تكلمات وتصحيحات بعنوان تهذيب الكمال في اثني عشر مجلدا ، وللنورى كتاب في رجال  
 صحيحى البخارى ومسلم باسم رياض الصالحين في ذكر رجال الصحيحين . وعنى الذهبي باختصار  
 هذا التهذيب وإحسان ترتيبه وإضافة زيادات إليه ، وسعى كتابه « تهذيب تهذيب الكمال » في  
 خمسة مجلدات . وللذهبي كتاب المشبه في الأسماء والأنساب خصه بتراجم الأسماء المتشابهة في  
 رواة الحديث وغيره . وللذهبي أيضا ميزان الاعتدال في نقد الرجال أى رواة الحديث النبوي رتبه  
 على حروف المعجم وهو مطبوع في ثلاثة مجلدات ، .

ولللذهبي كتابان في حفاظ الحديث النبوي وعلمائه : كبير هو تذكرة الحفاظ في أربعة مجلدات  
 ومختصر منها هو طبقات الحفاظ . واختصر السيوطي الأخير مع تكلمات وأبقى لصنيعه الاسم ،  
 والكتب الثلاثة مطبوعة . وللذهبي كتاب في طبقات القراء لم يكتب له الذبوع إنما كتب لغاية  
 النهاية في طبقات القراء لابن الجزرى المذكور بين القراء المتوفى سنة ٨٣٣ ، وكتابه يتروى في  
 الموامش باسم طبقات القراء . ووضعت للقضاة كتب مختلفة من أهمها قضاة دمشق لابن طولون  
 المذكور بين الجغرافيين المتوفى سنة ٩٥٣ وهو مطبوع . وللغفهاء كتب كثيرة في رجالهم وطبقاتهم ،  
 وقد صُنّف كثير من الكتب عنهم على اختلاف مذاهبهم ، فلأحناف كتبهم وكذلك للشافعية  
 والحنابلة ، أما المالكية فلم يصادفنى كتاب شامى عن قضاةهم ، ولعل في هذا مايدل على أنهم ظلوا  
 في الشام قليلين . وكثر التأليف في الحنفية بأخرة من العصر ، فلاين طولون السابق ذكره كتاب  
 الغرف العلية في متأخرى الحنفية .

وللحنفية كتب في طبقاتهم كانت متناولة ومشهورة مثل الجواهر المضبة في طبقات الحنفية  
 لعبد القادر بن أبي الوفاء وتاج التراجم لابن قطلوبغا . وكان التأليف كثيرا في طبقات الشافعية ،

ولابن الصلاح أثار ذكره بين المحدثين كتاب كبير فيها اختصره النوى ورتبه على حروف المعجم  
ومن أشهر كتابه في تلك الطبقات السبكي وكتاب مذكور مرارا وتكرارا في الهوامش. وكتاب  
ابن<sup>(١)</sup> قاضي شهبة المسمى المتوفى سنة ٨٥١ ترجم فيه لأعلام الشافعية حتى سنة ٨٤٠ وهو  
مطبوع. ونشط المناظرة في كتابة تراجم فقهاءهم ولابن رجب<sup>(٢)</sup> المسمى الحنبل المتوفى سنة  
٧٩٥ كتاب الذيل على طبقات المناظرة لابن أبي يعلى المتوفى سنة ٥٢٦ وهو مطبوع في مجلدين.  
ولمحمد<sup>(٣)</sup> بن عبد القادر النابلسي المتوفى سنة ٧٩٧ مختصر للطبقات مطبوع، ونظم كلامنا في هذا  
الفصل بالإشارة إلى كتاب الدارس في تاريخ المدارس للنجمي<sup>(٤)</sup> المتوفى سنة ٩٢٧ وهو يصور  
الحركة بل النهضة العلمية التي ظلت أضواؤها تنع في الشام، حتى مع ماغشها من سحب  
العثمانيين.

(٣) راجع محمد بن عبد القادر في الدرر لابن حجر

١٣٨/٤ وبيروكلمان (الدرجسة العربية) ٣٩/٦

(٤) انظر التيسير عبد القادر بن محمد في الكواكب

السائرة ٢٥٠/١ والفهرات ١٥٣/٨

(١) راجع في ابن قاضي شهبة المسمى اللاع ج ١١ رقم

٦١ والفهرات ٢٦٩/٧ والدر الطالع ١٦٤/١

(٢) انظر في ابن رجب فيل طبقات الحفاظ ص ٣٦٧

والفهرات لابن حجر ٤٢٨/٢ وفهرات الذهب ٣٣٩/٦

وطبعة الدكتور سامي الدخان لطبعة الذيل بمشق

## الفضل الثالث

### نشاط الشعر والشعراء

١

#### عرب الشام

كان بالشام قبل الفتح الإسلامي العربى لغات متعددة وعناصر جنسية مختلفة ، فقد كان بها ساميون هم سلالة الشعوب التى نزلتها قديما من أموريين وكنعانيين وفينيقيين وعبرانيين وآراميين ، وكان بها عناصر من شعوب البحر المتوسط فى مقدمتهم الإغريق نزلاؤها منذ ضمها الإسكندر المقدونى سنة ٣٣٣ قبل الميلاد وخلفته بها الدولة السلوقية الإغريقية لنحو قرنين ونصف . وكان بها سلالات رومية منذ احتل الرومان الشرط الأكبر منها فى أواسط القرن الأول قبل الميلاد ، وظلت اليونانية لمعهدهم لغة الثقافة ، ودمج ذلك انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى غربية عاصمتها روما وشرقية عاصمتها بيزنطة أو القسطنطينية وتبعها الشام ، وتألق فيها كما مر بنا غير شاعر ومفلسف اتخذوا الإغريقية لسانهم وأداتهم فى التعبير الوجدانى والفكرى .

وهياكل ذلك لأن تعدد اللغات فى الشام قبل الفتح العربى الإسلامى ، وكان من أكثرها شيوعا اللغتان اليونانية والآرامية ، ولم نذكر حتى الآن اللغة العربية . مع أن عوامل كثيرة جعلتها تتغلغل فى الشام من قديم ، لالجوارى للجزيرة العربية وموقعه شامى الحجاز وغربى البادية السجوة فحصب ، بل لقيام ثلاث دول عربية على حدوده وجفائه الشرقية والجنوبية طوال ثمانية قرون أوتريد قبل الإسلام ، وهى دول الأباط وتدمر والغساسنة . وسبق أن ألمنا بها فى فائحة الفصل الأول ، ونبسط الحديث عنها الآن بعض البسط <sup>(١)</sup> . أما دولة الأباط فقد ظهرت على صفحات

الشعوب الإسلامية لمؤكلمان ( الترجمة العربية ) ص ١٢ وما بعدها وتاريخ العرب لصالح أحمد الطي الجزء الأول وكتابتها القصير الجاهل ص ٣٣ وما بعدها .

(١) انظر فى هذه الدول تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد طي فى مواضع مختلفة من أجزائه وتاريخ العرب مطول ليليب حتى ( الترجمة العربية ) وكذلك كتابه « تاريخ سوريا ولبنان والطفين » ١٩٦١ وما بعدها ، وتاريخ

التاريخ منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، متخذة بطرا عاصمة لها جنوبية . واستطاعت في مطلع القرن الأول قبل الميلاد أن توسع حدودها شمالا حتى منطقة حوران وجبل الدروز ، متخذة بُصْرَى بالقرب من دمشق عاصمة لها شمالية . ويذكر المؤرخون أنه في سنة ٨٥ قبل الميلاد احتل الملك الحارث الثاني النبطي دمشق وغوطتها الخصبة ، وبذلك بلغت هذه الدولة ذروة مجدها السياسي ، إذ كانت تضم شمالي الجزيرة العربية وشرق الأردن وجنوبي فلسطين وسوريا الجنوبية ، ولم يلبث الرومان أن قضوا عليها في مطلع القرن الثاني للميلاد . والأنباط حرب كانوا يتكلمون العربية في حياتهم اليومية ، فهم عرب أصلاء ، ولأرب في أن أنحاء من الشام وخاصة تلك التي سيطروا عليها أخذت تتعرب وتطلق بالعربية لمهدهم . وقد أخذوا عن الآراميين أبعديتهم وكتبوا بها نقوشهم وكلامتها العربية ، ومضى خطهم يتطور في بيئتهم وشمالي الحجاز حتى بعد زوال دولتهم ، إلى أن نشأ عنه الخط العربي الذي كُتب به القرآن الكريم والذي يتداوله العرب إلى اليوم .

والدولة العربية الثانية كثُر أقامتها القبائل العربية الشمالية بعد سقوط دولة الأنباط داخل بادية السماوة شمالي الجزيرة العربية بين الشام والعراق ، متخذين منها مركزاً كبيراً للتجارة مع بلدان البحر المتوسط وبلدان فارس والهند والصين . وبلغت هذه الإمارة أوج مجدها في منتصف القرن الثالث الميلادي لمهد أذينة الذي بسط سلطانه على الشام ، مما أتاح للقبائل العربية في دولته التغلغل في ديارها ، وكان عاملاً في تعرب بعض سكانها حينئذ ، غير أن الرومان لم يلبثوا أن قضوا على تلك الدولة في عهد الزباء زوجة أذينة . وبذلك انكشف ثانية التأثير اللغوي العربي في ديار الشام .

على أنه سرعان ما استعاد هذا التأثير فاعليته في عهد الدولة العربية الثالثة : دولة الفُساسنة ، وقد أخذت في الظهور مع سقوط تدمر ، ويرجع النسابون بالفُساسنة إلى اليمن وأن قبيلتهم فارقت بعد خراب سدِّ مَآرِب ، واستقرت في شرق الأردن . وشقت - فيما بعد - طريقها شمالاً إلى حوران ، واصطدمت في تلك الأنحاء بقبيلة عربية تسمى الضُجاجهم نمت لها الغلبة عليها ، وكانت تتجول في هذه المنطقة الواسعة مع إعلان ولائها للدولة البيزنطية . ويقول النسابون إن جددا الأهل كان يسمى جُفْنَة بن عمرو مَرْتَقِيَاء ، ولذلك يسمى النسابون الفُساسنة أحياناً باسم آل جُفْنَة . وقد اعتنقوا المسيحية منذ القرن الرابع للميلاد ، مما يدل على عمق صلتهم وامتزاجهم بأهل الشام المسيحيين . وتاريخ ملوكهم غامض ، وأهمهم الحارث بن جبلة (٥٢٨ - ٥٦٩ م .) وقد منحه الدولة البيزنطية لقب فيلارك أي شيخ القبائل وأميرها ، كما منحه لقب البطريرك وهو أعظم

الألقاب في الدولة البيزنطية بعد لقب الإمبراطور . وأهم من ذلك أنه زار بيزنطة واستطاع أن يقنع إمبراطورها وحواشيه بتعيين يعقوب البرادمي أسقفا على الكنيسة المونوفيسية السورية ، وكانت تحالف العقيدة الرسمية للكنيسة البيزنطية . ويقال إن يعقوب رسم مائة ألف كاهن ونُصِب تسعة وثمانين أسقفا في البلاد . ومعنى ذلك أن الحارث بن جبلة كان يعد أقوى سيد في سوريا والشام ، ولذلك دلالة البعثة في نفوذ القبيلة بالشام وفي مدى ما حدث حيثئذ من ثمر بخص الشاميين وخاصة من رجال الكنيسة البقوية . وكان الفساسة كثرى الحركة والتنقل من بقعة إلى أخرى ، وتتردد على ألسنة ماديح ملوكهم من الشعراء ذكر جُلُوق وكانت منازل بالقرب من دمشق على نهر بردى المشتهر ببساتينه ، وأشهر من جُلُوق الجابية وكانت على مسافة يوم من دمشق إلى الجنوب الشرق .

وأما أطناً في بيان ذلك كله لنل على أن الشام كانت قد أدخلت تستعرب منذ قرون عدة قبل الإسلام ، ولأريب في أن الفتح الإسلامي العربي زاد هذا الاستعراب حدة وقوة ، وخاصة أن قبائل الفساسة وقضاة وغيرهما ممن كانوا اعتنقوا النصرانية نبغوا سريعا الدين المسيحي ودخلوا في الدين الحنيف ، ودخله معهم كثيرون من أهل الشام لما رأوا في شريعتهم السمحة من الإنصاف والمساواة بين الناس ومن العدل الذي لا يصلح حياة أمة بدونه . وكان حكامهم البيزنطيون قد أساءوا معاملتهم إلى أبعد حد وساموهم ضروريا من المناب والخسف وأرهقوهم بالضرائب الفادحة لرهاقا لا يطاق ، بينا رأوا حكامهم المسلمين الجدد يرفعون عنهم كل ظلم وكل ثقل في الضرائب مسوين بين كل من يسلم منهم وبين الجند الفاتح في جميع الحقوق ، غير مستأثرين لأفسهم بشيء ، مما يكن قليلا أوتافها . فلا عجب أن يدخلوا في الدين الحنيف أفواجا .

وقد استوطن الشام كثير من الجند الفاتحين له ، وكانوا من قبائل عطفة شالية وجنوبية ، وظلت الجزيرة العربية ترفدهم بسيل طوال الحقب الأولى للحكم الأموي ، واستقرت منها عتائر ويطنون في بلدان الشام حتى بلدانه الداخلية مثل حمص وطرابلس وبيروت وقيسارية وغيرها من مدن سوريا ولبنان وفلسطين . وبذلك حدث مزج قوى بين العرب المهاجرين وبين أهل الشام لآخذ طريق الإقامة والامتيطان فحسب بل أيضا عن طريق المصاهرة والاختلاط اليومي بين الأسر والناس ، مما دفع بقوة إلى استعراب الشام سريعا . وظل من أهم دوافعه دخول الأسر الشامية أو بعض أفرادها في الإسلام ، إذ جزء لا يتجزأ منه تلاوة القرآن ، ولن يستطيع أحد أن يتلوه تلاوة سليمة دون تعلم لغته ، أو بعبارة أخرى دون استعراجه . وربما كان مما يؤكد كثرة من

اعتنقوا الإسلام بعد الفتح مباشرة الخبر الذي مربنا في الفصل الماضي عن أبي الدرداء قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة أن عدد من كان يشرف عليهم يوميا في تلاوة القرآن بمسجد دمشق ألف وستائة ونيف ، وكان وراءهم آلاف مستعربون لايحتاجون إلى من يعلمهم تلاوة القرآن الكريم . ونظن ظنا أن الاستعراب في الشام أصبح أمنية أهلها جميعا : من أسلم منهم ومن ظل على دينه المسيحي لسببين مهمين : أولا لتفوق العربية على الآرامية التي كانت شائعة على الألسنة ، إذ لم يكن لها تراث أدبي كالعربية ، ولا كان لها جمالها في الجرس وحسن الإيقاع ، وثانيا لأن الدولة الأموية اتخذت دمشق عاصمة لها واستعانت بكثير من أهلها للمسيحيين في الإدارة وشئون الخراج والمال ، فأكب كثير من المسيحيين على العربية يحاولون أن يتعلموها وأن يتقنوا الأداء بها حديثا وكتابة . وينبغي أن لانسى ما كان قد حدث من استعراب هذه العناصر المسيحية قبل الإسلام وخاصة بين التجار ورجال الكنيسة البقوية .

وربما كان من أكبر الأدلة على ما كان قد حدث من استعراب كثيرين من أهل الشام الأصليين قبل الإسلام أننا نجد أسرة مسيحية مستعربة تعمل مع معاوية وخلفائه الأمويين في إدارة الشئون المالية ، ونقصد أسرة مرجيوس ( وفي بعض المصادر مرجون ) ويُظن أنه كان حاكما لدمشق قبل الفتح العربي الإسلامي واتخذ معاوية مستشارا له في الشئون المالية مع بقاءه معتق لدينه المسيحي ، وكان حفيده يوحنا لدمشق يشرف على الشئون المالية بدوره لمهد عبد الملك بن مروان ، ومازالت هذه الأسرة المسيحية تعاون الخلفاء في شئون المال والخراج حتى أمر الوليد بن عبد الملك بتعريب الدواوين كما هو معروف .

ومن أكبر الأدلة أيضا على استعراب العناصر المسيحية أننا نجد نفرا منهم يعنى بترجمته ترجمة مبكرة لبعض العلوم اليونانية ، على نحو ما ذكر صاحب الفهرست عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه تُرجمت له كتب الطب والنجوم والكيمياء <sup>(١)</sup> . ولا شك في أن هؤلاء المترجمين كانوا مستعربين ، بل كانوا يحفون العربية حتى استطاعوا أن يتقنوا منها لخالد بن يزيد ما نقلوه من المعارف المتصلة بتلك العلوم . ويسمى ابن خلكان في ترجمته لخالد أحد أولئك المترجمين وهو مريانوس الراهب الرومي الذي أخذ عنه خالد علم الكيمياء أو كما كانوا يسمونه علم الصنعة . ويقول ابن خلكان إن لخالد فيها ثلاث رسائل تضمنت إحداها ماجرى له مع مريانوس الراهب المذكور وصورة تعلمه منه والرموز التي أشار إليها <sup>(٢)</sup> .

(٢) انظر ترجمة خالد في ابن خلكان ٢٢٨/٢

(١) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) ص ٣٣٨



ولم تحدث عن اليونانية التي كانت معروفة في الشام قبل الإسلام ، وأكبر الظن أنها انحازت إلى الأديرة ، وقد رأينا آنفاً أن خالد بن يزيد بن معاوية استعان في علم الصنعة وما ترجم إليه منه براهب رومي ، وأكبر الظن أن الرهبان في دمشق ومدن الشام من أنطاكية إلى غزة كانوا قد أخذوا في التعرب ليستطيعوا الحديث إلى مسيحيي الشام المستعربين ، ولعل في كل ما تقدم ما يوضح العوامل الكثيرة التي دفعت إلى تعرب الكتلة الكبرى من أهل الشام مسلمين ومسيحيين .

## ٢

## كثرة الشعراء

يلاحظ أن عرب الشام قبل الإسلام لم يكن لهم نشاط يذكر في تاريخ الشعر العربي لا عند الفساسة ولا عند غيرهم من القبائل الشامية ، حتى إذا كانت الفتوح وهاجر كثيرون من القبائل القيسية مثل عامر وسليم إلى فلسطين وسوريا أخذ الشعر ينشط في الشام وأخذ الشعراء يتكاثرون ونحاسة مع الأحداث الكبرى على نحو ما يلقانا في الماركة التي نشبت بعد وفاة يزيد بن معاوية وتولى مروان بن الحكم للخلافة بين القبائل اليمنية وفي مقدمتها قبيلة كلب والقبائل القيسية منذ موقعة مرج راهط وغيرها من المواقع . ولتلق عقب هذه المواقع بشاعرين كبيرين للشام هما عدى بن الرقاع العاملي اليمني والطرماح الطائي اليمني ، أما عدى بن الرقاع فشاعر عبد الملك بن مروان والخلفاء من بعده ، وله ترجمة في كتابنا العصر الإسلامي بين شعراء بني أمية ، وأما الطرماح فنشأ في الشام ونزل الكوفة مع بعض جيوشها واستقر بها ، واعتنق فيها مذهب الصفرية من الخوارج ، وله ترجمة في كتابنا المذكور بين شعراء الخوارج .

وكانت الشام طوال عصر بني أمية تُعَصَّ بشعراء الحجاز ونجد والعراق والوافدين على الخلفاء المدبجهم وأخذ نواهم وعطائهم . ومانبغ شاعر واشتهر في هذه البيئات إلا رحل إلى دمشق بمدح هذا الخليفة أوذاك ، والخلفاء يُقدِّرون على الشعراء جوائزهم وصلاتهم على نحو ما هو معروف عن شعراء العراق : الفرزدق والأخطل وجبرير وعبد الله بن الربيروذي الرُّمَّة والعجاج وابنه رُوية . ومثلهم من شعراء الحجاز ككثير والأحوص وابن قيس الرقيات . ومدهم من شعراء نجد كثيرون في مقدمتهم الراعي الثُمَيْري . وكان الأمويون يعدُّونهم ألسنتهم ودعاتهم في بيئاتهم ، فأجزلواهم في العطاء ، وكانوا ما يزالون غادين عليهم رائحين بقصائد طنانة يرونها الرواة في كل مكان بالشام وغير الشام .

وليس ما قلناه كل ما كان بالشام من نشاط الشعر والشراء لعهدي بني أمية ، فقد شارك غير خليفة في هذا النشاط ، إذ كان بينهم شعراء بارعون هم يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، واشتهر الوليد بأنه يبعث للهو والقصف وجلب المخبئين والمغنيات من الحجاز وإقامة الحفلات لهم في قصره ، وشعره يسترق الغزل والتغنى بالخمير حتى بعد خلافته ، مما أعد بسرعة لسقوط الدولة الأموية ، وله ترجمة في كتابنا العصر الإسلامي .

وتستغل الخلافة في العصر العباسي إلى بغداد ، ويظل للشام نشاطها في الشعر ، وهو نشاط لا يقف عند مجرد نظمه على طريقة الإسلاميين والجاهليين ، إذ نرى شعراءها يصعدون في شعرهم عن الترهات التقليدية التي تُنظم الشعر العربي على أنصاتها في صدر الدولة العباسية . ومن كبار شعرائها الذين لمحت أسماؤهم في القرن الثاني الهجري عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي معاصر الرشيد ، وكان من الفلّجة « من أرض دمشق » ، وترجم له ابن المعتز في كتابه « طبقات الشعراء » وأشاد بشعره إشادة رائعة . ومن كان يعاصره من الشعراء الشاميّين البغداديين وكان يحتذى - كما يقول الجاحظ - حَنْثُوش بن برد في البديع وله ترجمة في كتابنا العصر العباسي الأول . وعلى غرارته تلميذه منصور المري الشامي ، وله أيضا ترجمة في كتابنا العصر العباسي الأول . وبالمثل في هذا الكتاب ترجمة لشاعر شامي مهم عاش في القرنين الثاني والثالث هو ديك الجن . فالشام لم تنشط في الشعر طوال العصر العباسي الأول فحسب ، بل قدمت إليه أعلام من الشعراء النابيين شاركوا في نهضة وازدهاره . بل أكثر من ذلك لقد تطورت بصور البديع الحسية التحديدية وأضافت إليها صورا جديدة من بديع وزخرف معنويين رائعين ، وبذلك استحدثت للشعر العربي مذهبا جديدا هو مذهب التصنيع أو التمينق الحسي والفكري ، على نحو ما هو معروف عن أبي تمام أستاذ هذا للمذهب الذي أعطاه صبغته النهائية ، وقد أوضحنا ذلك إضاحا تاما في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » . وتلاه تلميذه البحتري ، ولم يكن له ثقافته وتعمقه في التفوذ إلى دقائق الأفكار ، ومع ذلك تمسك بالمذهب وبخاصة جوانب البديع الحسي مع تمسك شديد بمقومات الشعر العربي وتقاليده في الصياغة ، وكان لا يراى في الضرب على قيثارة الشعر العربي واستخراج أروع النغم منها وأحلاه . وأكبت الأجيال التالية في العالم العربي على دراسة ودراسة أستاذته متخذة منه نموذجا للتمسك بعمود الشعر العربي وصياغته ، كما اتخذت من أستاذته نموذجا للبديع الحسي والمعنوي الذي يرضى للتصنيف والتعميق في المعاني . وانقسم النقاد مع الشاعرين وفنهما إلى صفين متقابلين ، وكل ذلك حاولنا تصويره في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » ولأبي تمام ترجمة

في كتابنا « العصر العباسي الأول » وللبحرّي ترجمة في كتابنا « العصر العباسي الثاني » . ونشرف بعد البحرّي على نهاية القرن الثالث ، ولاتزال للعصر العباسي الثاني بقية زمنية ، وفيها يسطع نجم شاعر الطبيعة الحلبي الصّوّري وله ترجمة في كتاب هذا العصر .

ونخفي في عصر الدول والإمارات ، وقد عُني بالحديث عن شعراء القرن الرابع الهجري ومطالع القرن الخامس الثعالي في بيتته ، متحدثا عن الشعراء النابيين في أقاليمه من أواسط آسيا إلى الأندلس . وبلاحظ في فواتح كتابه أن كَيْفَة الشعر العراقي التي كانت تجعله يرجع على جميع الأقاليم العربية شاما وغير شام قد خُفّت وخلفتها كفة الشام ، إذ يستهل بيتته بقوله : « الباب الأول من القسم الأول في فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان وذكر السبب في ذلك ثم يقول : « لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام .. والسبب في تبرز القوم قديما وحديثا على من سواهم في الشعر فربهم من خطط العرب ولاسيما أهل الحجاز ، وبغدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق لجوارتهم للفرس ونبط ( فلاحى ) العراق ومدخلتهم لإياهم .. ورزقوا ملوكا وأمرأ من آل حمدان .. وهم بقية العرب ، والمشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين أدوات السيف والقلم ، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر ويتقده ، ويثيب على الجيد منه فيجذل ويفضل » . ولستأ نريد أن نناقش الثعالي في هذا الحكم ، فإنه - على ما فيه من مبالغة - يدل على ما حدث بالشام مع مطالع عصر الدول والإمارات من نهضة شعرية حقيقية تنبئ عنها الأبواب التالية في البيتة ، فقد جعل الثعالي الباب الثاني لسيف الدولة الحمداني أمير حلب وشمال الشام وملح شعره وغزواته الحربية للظفرة على لسان شعرائه . وقصر الباب الثالث على أبي فراس الحمداني الشاعر والقارس المشهور . وخص الباب الرابع بملح أشعار آل حمدان أمرأ الشام وقضائهم وكتابهم . وأفرد الباب الخامس للنتبي شاعر سيف الدولة المبدع . وجعل الأبواب : السادس والسابع والثامن لبعض المادحين لسيف الدولة من شعراء الشام والعراق .

ومرّ بنا كيف أن حلب في زمن سيف الدولة ( ٣٣٣ - ٣٥٦ هـ ) استحوطت أكبر مركز علمي وفلسفي ولغوي ، إذ نزها كثير من العلماء والمتفلسفة واللغويين من أمثال الفارابي وأبي علي الفارسي وابن جني غير من كان بها من الأطباء وعلماء الفلك . ولايمنا الآن بيان ذلك إنما يهمننا أنها أصبحت مركز الشعر والشعراء في تلك الحقب ، إذ لم يبق شاعر كبير في الشام أو في العراق أو في إيران إلا أنمها وأسبغ عليه سيف الدولة من نواله ، حتى يقول الثعالي إنه لم يجتمع قط بباب أحد

من الملوك - بعد الخلفاء - مااجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر منهم كُشاجم - ويقال إنه كان طبّاحة - والخالديان - وكانا خازني مكتبه - والسّلامى والسّرى الرّقاء والوأياء الدمشقي والثامى المصيصي وابن نبانة السعدى والبّقاء ، وكل هؤلاء كانوا شعراء ، وترجم لهم الثعالبي ، ووراءهم كثيرون كانوا يفدون على سيف الدولة مادحين ثم يعرفون بالمعطاء إلى أوطانهم شاكرين مثين .

ومضت الشام في نهضتها الشعرية وظهر فيها أمثال عبد المحسن الصوري وأبى الرصمق والواساني وجميعهم ترجم لهم الثعالبي ، ويعنى الباخريزي في دمية القصر بذكر طائفة من شعراء الشام خاصة من مدح منهم الوزير السلجوقي نظام الملك ، وترجم لأبى الطلاء الممرى وابن سنان الحفاجي تلميذه ترجمة قصيرة . وبعض من ترجم له ألم به العماد الأصبهاني في الخريدة . ولم يُمن أحد من أصحاب التراجم الشعرية بشعراء النصف الثاني من القرن الخامس ومطلع القرن السادس ، ومن أعلام الشعراء الشاميين في تلك الحقبة ابن حيّوس وله ديوان ضخم في مجلدين . ويعرض العماد الأصبهاني في خريدة القصر تراجم مستضيضة لنحو مائة وثلاثين شاعرا جمهورهم من شعراء القرن السادس حتى زمن كتابته أو تأليفه للخريدة في أوائل العقد الثامن من القرن ، وهم يشغلون ثلاثة أجزاء ، أولها خاص بشعراء دمشق والشعراء الأمراء من بنى أيوب ، ونزاه في مطلع هذا الجزء يشيد بشعر الشاميين ويرفضه درجات على شعر أهل العراق ، بالضغط كما صنع الثعالبي ، يقول : « شعر الشاميين أصبح وزنا ، وأوسع مُزنا ، وأعمق صبغة ، وأحسن صبغة ، وأحكم صنعة ، وأسلم رقعة ، وأرفع نسجا ، وأنفع مزجا ، وأقوم معنى ، وأحكم معنى » ويشيد بطائفة من قدامتهم مثل البحتري وأبى تمام وطائفة من محدثهم بعدهما مثل عبد المحسن الصوري وابن سنان الحفاجي وابن حيّوس ، وكأني به نسي أبا العلاء عامدا لشهرته الواسعة . ويترجم في هذا الجزء لابن الحيايط الدمشقي تلميذ ابن حيّوس وديوانه مطبوع . وتلا العماد ذلك يميزه اشتمل على خمسة وأربعين شاعرا بينهم أهم من أنجبهم الشام في القرن السادس الهجري من الشعراء أمثال الغزى وابن منير الطرابلسي والقيسراني وعرقله وديوانه مطبوع وفتيان الشاذوري وديوانه مثله مطبوع وابن قُسم الحموي وأسامة بن منقذ وديوانه مطبوع . ويتبع ذلك جزء به نحو ثمانين شاعرا عرض فيه العماد يوتا وشعراءها كبيت آل الممرى وبيت بنى الدويدة وبيت بنى الحُصَيْن ، ويذكر طائفة من شعراء حلب ربما كان أهمها حماد الحُرّاط . وكان العماد لم يترك في الشام لزمته شاعرا كبيرا ولا صغيرا إلا ترجم له .

واهتمت كتب التاريخ وال تراجم بشراء الشام بعد زمن الحاد فى أيام الأيوبيين والماليك والممانيين ، وفى مقدمتها وفيات الأحيان لابن خطكان وفوات الوفيات لابن شاكى الكبى والوفاء بالوفيات للصفى ومطالع البدر للغزولى والدرر الكامنة لابن حجر والضوء اللامع للسحاوى وريحانة الألبا للخضابى ونفحة الريحانة للمحبى وسلك الدرر للمرادى . فكل هذه الكتب تحمل عشرات من شراء الشام فى حطب وأزمنة مختلفة ، وكثير من نابعهم فى تلك الأزمنة والحطب أيام الأيوبيين ومن بعدهم لهم دواوين مطبوعة مثل ديوان ابن الساعانى والصاحب شرف الدين الأنصارى وأبى المر الهبوى والشاب الظريف وأبىه حبيب الدين التلمسانى وابن الوردى وابن النقيب الممشق ، ونموج رفوف المكبات فى العالمين العربى والغربى بدواوين كثيرة لشاميين لا تزال مخطوطة .

### ٣

شعر دورى - رباعيات - موشحات - بدعيات - قصيديات

#### (١) الشعر الدورى

منذ ابتدع الشعراء فى العصر العباسى الأول الشعر المزدوج الذى يتكون من شطرين متقابلين ، وتوالى فيه الشطور المتقابلة ، والشعراء يكثر من فى جميع الأقاليم الإسلامية ، وهى ذلك لظهور أنماط مختلفة من الشعر الدورى الذى تتكون فى القصيدة من أدوار متعاقبة ، ويطلب أن يكون كل دور يعين ، وتقل الأدوار وتكثر حسب رغبة الشاعر . وتفرع عن هذا النمط من قديم عند أبى نواس وأضرابه نمط المسطحات وعادة يتكون الدور فى من أربعة شطور يليها شطر خامس تتحد قافيته فى كل الأدوار ، بينما تتنوع القوافى فى الشطور الأربعة السابقة له من دور إلى دور ، وكأن الشطر الخامس بقافيته المكررة ياقوته فى عقد تلتقى عندها أسلاكه المختلفة ، وتسمى هذه القافية المكررة عمود القصيدة . وكلما تقدمنا فى العصر كثرت هذه المسطحات ، وهى قد تكون رباعية بمعنى أن قافية الشطر الرابع هى للمكررة ، وقد تكون خماسية كما ذكرنا ، وقد تكون سباعية أو تساعية ، ومن حنى بالنظم فيها أسامة بن منقذ فى ديوانه منها أربعة مسطحات خماسية ، ومن قوله فى أحدها <sup>(١)</sup> :

كَمْ رُضْتُ نَفْسِي بِالسُّلُوفِ فَاثْمَتُكُمْ أَضَاهَا مَوَاتِيْقُ الْهَوَى وَرَضْتُ  
وَمَا نَقِمْتُ عَلَيْهِمْ غَدْرَةً فَصَفْتُ<sup>(١)</sup> وَلَا أَضْمْتُ لَهُمْ عَهْدًا وَلَا أَطْلَمْتُ  
عَلَى وَدَائِهِمْ فِي صَدْرِي الثُّمَمُ

وقافية الشطر الأخير مكررة في الشطر الخامس من كل دور ، وواضح أن للمسقط خماسي  
الشطور ، وتلقانا أمثلة للمسقطات في دواوين ابن الساعاني والصاحب شرف الدين الأضراري  
وأبيلمر المحبوي زمن الأيوبيين ، ومضى الشعراء في الحقب التالية يكررون منها وخاصة صلاح الدين  
الصفدي ، ونظال نلتقي بها في الحقب للتأخرة .

### (ب) الرماحيات

م معروف أن الرباعية أربعة شطور تؤلف بيتين ، وتتحده الشطور : الأول والثاني والرابع في  
القافية وقد يتحد مع تلك الشطور الشطر الثالث في القافية وقد يختلف . وللرباعية وزنان هما :  
« قَطْلُنْ قَطْلُنْ مَسْتَعْمَلُنْ مَسْتَعْمَلُنْ » و « قَطْلُنْ مَقَاتِلُنْ قَطْلُنْ قَطْلُنْ » وقد أدخلت تشيع على ألسنة  
الشعراء في هذا العصر وخاصة منذ القرن السادس ، نجدها عند ابن قسيم الحموي المتوفى سنة  
٥٤١ للهجرة وعند عرقلة المتوفى سنة ٥٦٧ وفي خاتمة ديوانه منها اثنا عشرة رباعية ، منها قوله :

ويلاه على المهفف الجاسر ما أحسنه ولو بقلب قاسر  
يهر كأنه قضيبُ الأمر سكران ولم يلقَ حبيبًا الكاسر

وذكر ابن خلكان أنه كان للمهاد الأصماني ديوان صغير جميعه كُويِّتات أو رباعيات ، وطاققة  
فيها كانت بلدان نور الدين في الحث على جهاد حملة الصليب وتمزيق جموعهم ، من مثل  
قوله<sup>(٢)</sup> :

لا راحة لي في العيش إلا أغزو سبي طربا إلى الطلى يهر<sup>(٣)</sup>  
في ذلٍّ ذوى الكفر يكون المرء والقدرة في خير جهاد حجز

(١) صفت : مالت

(٢) الروضين في أخبار الدولتين لأبي شامة (طبع سطحة)

وادي النيل) ٢٠٧/١ .

(٣) الطلى : جمع طلاء أو طلبة : المتق أو صفحة .

وكان لفتيان الشاغوري المتوفى سنة ٦١٥ ديوان جميع مافيه دويطات ، رآه ابن خلكان وأنشده منه في ترجمته قوله :

الوردُ بِوَجْهِكَ زاوِ زاهرُ والسُّحْرُ بِمَقْلَبِكَ وافرُ وافرُ  
والعاشقُ في هواك ساوِ ساهرُ يرجو ويخافُ فَهوَ شاكِرُ شاكرُ

ونظل نلتقي بالرباعيات في دواوين الشعراء أيام الممالك بل أيضا أيام العثمانيين عند حسن البوريني وسهاء الدين العامل وعبد الغنى النابلسي وغيرهم من الشعراء<sup>(١)</sup> وحين شاعت التورية بشأ الشعراء في رباعياتهم كقول علي بن المظفر الوداعي الحلبي المتوفى سنة ٧١٦ متغزلا<sup>(٢)</sup> :

لما حُجِبَ الكَرْنَى عن الآفاقِ وانقاد مع الحكا على العشاقِ  
ناديتُ وقد ترأيتُ أشواقِ ياغُصْنُ رُضِيتُ منك بالأوراقِ

والتورية واضحة في كلمة الأوراق ، إذ لها معنيان قريب وهو أوراق الغصن وبعيد وهو أوراق الرسائل المتبادلة بينه وبين صاحبه ، وهو المراد :

### (ج) الموشحات

الشائع المعروف أن الموشحات من اختراع الأندلسيين وأنهم سبقوا إليها المشارقة ، ومعروف أنها تتألف من شطور تسمى قفلا وشطور تليها تسمى أداورا أو أغصانا ، ومن خَرْجَةٍ يسمّى بها القفل الأخير في الموشحة . ومن ينم النظر فيها يؤمن بأنها تطورت من أشكال المسطلات ، واستقلت بهذه الصورة ، ويبالغ المستشرقون الإصبان - خاصة - قائلين إنها فن أندلسي خالص تطور عن أغان رومانية كانت معروفة في القرنين الرابع والخامس للهجرة ، ولم يقلموا أغنية واحدة تشهد لذلك ، بينما يوجد لدينا شكل من أشكال المسط نظمته ديك الجن الحمصي المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة نظن ظنا أنه الأب الحقيقي للموشحات الأندلسية إذ يمرى على هذا النمط<sup>(٣)</sup> :

قول لَطَيْفِكَ يَشْنَى عس مصجى عند التام

عند الرقاد      عند المجزؤ      عند التوسن  
فمسي أنام      فتنطق      نار تاجج      في المظام  
في الفؤاد      في الضلوع      في الكبود      في البدن

ويستمر المسقط الموشح على هذه الصورة، وواضح أنه نشأ من فكرة بسيطة هي تكرار قافية البيت بروى جديد . وكأنما وقع هذا المسقط الغريب أو قل هذا الموشح القريد لتقديم بن محاف شاعر الأمير الأندلسي عبد الله بن محمد الروافى ( ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ ) فنظم على صورته بعض منظوماته وكتب هذه الصورة عنده أن تشيع بحده في الأندلس باسم الموشحات على نحو ما أوضحنا ذلك مرارا في كتاباتنا . وحملها إلى الشرق الأندلسيون للمهاجرون إلى مصر والشام ووضع لها ابن سناء الملك قوانينها الموسيقية في كتابه « دار الطراز » وبذلك فتح أبواب تلك الموشحات على مصارعها للمشاركة كي ينظموا على غرارها منذ زمنه في أواخر القرن السادس . وأيضا فإنه كان قد نزل الشام بعض الأندلسيين من ناظميها ، فكانوا من أسباب إشاعتها مثل عبد المنعم الجليلاني الأندلسي الطبيب نزير دمشقي في زمن صلاح الدين وظل بها إلى وقاته ، وله فيه مدحة سميت التحفة الجوهريّة ، ويقول ابن أبي أصيبعة : له « ديوان غزل وتشبيب وموشحات ودويّات » أوربا عيات . ونظّل في زمن الأيوبيين والمماليك نثقي بوشاحين مختلفين . وللصلاح الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ كتاب في الموشحات سماه : توشيح <sup>(١)</sup> التوشيح ذكر فيه إحدى وستين موشحة من عيون الموشحات الأندلسية والمصرية والعراقية والشامية ، وذكر موشحا طريفا . لشمس الدين محمد بن علي الدهان المتوفى سنة ٧٢١ . ويقول ابن شاعر إنه كان يحترف صناعة الدهان وينظم الشعر الرقيق وكان على علم بالموسيقى والألحان ، فكان ينظم الشعر ويلحنه ويغنى فيه المغنون <sup>(٢)</sup> . ويسوق نفس الموشح الذي ذكره الصفدى . ويستعمله بقوله :

بأي غُصْنُ بَانَةٍ حَمَلَا      بَنَرُ دُجَى بِالْكَالِ قَدْ كَمَلَا      أَهْبَنُ  
فَرِيدُ حُصْنٍ مَامَاسٍ أَوْسَفَرَا  
إِلَّا أَغَارَ الْقَضِيْبَ وَالْقَمَرَا  
يُبْنَدِي لَنَا بِابْنَامِهِ دَرَا

(٢) راجع ترجمته في فوات الزهراء ٤٩٢/٢ والوفاء  
٢٠٩/٤ وانظر فقه الأئمة للتراجم ص ٧٧ .

(١) حقق هذا الكتاب أمير حلقى ونشره بدار الثقافة  
بمروت .



والموشح وافر الموسيقى واللحن والنغم. وذكر الصفدي بجانب هذا الموشح موشحا  
لجمال الدين يوسف الصوفي المتوفى سنة ٧٥٠، وهو يفيض بالمدح والجمال اللفظ والصور  
كقوله:

ساحرٌ بالدلائل      ساحرٌ بالصُّب      فائقٌ في الكمان      لائقٌ بالحُب  
بَشَدًا      المسك      فاح      نضرٌ      هذا      الخزان  
باسمٌ      من      أفاح      كَفَرِد      اللّان  
رُدُّ      نورِ      الصّباح      كظلام      اللّيلان

وأشاد الصفدي لنفسه في كتابه سبعا وثلاثين موشحة، وكثير منها معارضات لموشحات  
مشهورة لأندلسيين وغير أندلسيين، وقلا يخلق إلى أفق الموشحات التي يعارضها، ويطلب التكلف  
على موشحاته، وفي أحيان قليلة يمس في بعض الموشحات وبعض المقاطع كقوله في معارضة  
موشحة لابن البائنة الأندلسي:

بات بَدْرِي      وهو معتق      أحتسب      فاهُ      وأرتشف  
وبه      أمسيت      مُحمدا  
بعد      ماقد      كنت      منفردا  
وغدا      بلر      السما      كَمِدا

وقد أشاد النواجي في كتابه عقود اللآل تسع موشحات لابن حبيب الحلبي وموشحتين  
لابن حجة الحموي<sup>(١)</sup>.

ويلقانا وشايجون منتظفون في زمن الممانيين على نحو ما يذكر الهبي عن أبي بكر العمري وأبي بكر  
العصفوري<sup>(٢)</sup>. ولابن النقيب المتوفى سنة ١٠٨١ موشح استلهم فيه موشحا مشهورا للسان الدين  
ابن الخطيب استله بقوله<sup>(٣)</sup>:

يا ليلي      السَّعْج      من      عهد      الصُّبا      يأسَى      مغناك      صوبُ      الدَّيَم  
كم      تسرَّعتُ      بها      بين      الرُّسَى      خلَّنا      مرَّت      كطيفو      الحُلم

(٣) ديوان ابن النقيب نثر المجمع الطبى العربى بمسند

(١) انظر فهرس عقود اللآل للتراجي

(٢) نسخة الرحمة المحي ٢٢/١ ، ٢٥٤

وتكثر الموشحات الصوفية عند عبد الغنى النابلسي كثرة مفرطة . ونقف قليلا عند وشاحين مهينين هما أيلمر المهيوى والمخار الحلبي .

### أيلمر المهيوى<sup>(١)</sup>

لأنعرف شيئا عن نشأة هذا الشاعر ومراه ، وكل ما بأيدينا عنه أنه عتيق محي الدين محمد بن محمد بن سعيد بن ندى وزير الجزيرة لسلطينها من الأيوبيين ، وقد طبعت له دار الكتب المصرية مختارات من ديوانه ، وهو فيها يمدح الملك الكامل سلطان مصر مشبها بانتصاره على حملة الصليب في موقعة دمياط سنة ٦١٨ . وكان يسكن دمشق ويزور مصر كثيرا وله مدائح في الصالح نجم الدين أيوب حين كان يلى شئونها منذ سنة ٦٣٦ إلى سنة ٦٤٧ . ويبدو أنه لم يعيش بعد هذا التاريخ طويلا ، وله غزليات وأشعار طريفة في الطبيعة ، وله - بجانب ذلك - موشحان في المديح يستلها بغزل بديع ، وقد عارض في موشحه الأول ابن زهر في موشع له مشهور ، ومن قوله فيه على نسقه .

هَرُ عِطْفَ الْخَصْنِ مِنْ قَامَتِ  
مُطْلَمَا لِلشَّمْسِ مِنْ طَلَعَتِ  
ثُمَّ نَادَى الْبَدْرَ فِي لَيْلَتِهِ  
أَيَا الْبَدْرُ تَغَيَّبَ وَيَحْكَا مَا احتِاجُ النَّاسَ لِلْبَدْرِ مَعِي

وعلوية موسيقاه واضحة في هذا اللوح ، وكان يضيف إليه في أحيان كثيرة محسنات البديع من طباق وجناس وتورية ، ولا تفارقه هذه العلوية حتى حين يمتنع إلى التكلف على نحو مانلقاه في موشحه الثاني وفيه يقول :

بات وسُماره النجوم	ساهر	فمن تَرَى	عَلِمَكَ السُّهْدَ ياجزون
صبا إلى مذهب التصاى	صاى	لا يعدل	
فجته خافق الجناى	ناى	مُبَلِّل	
والطُرف من دائم انكباب	كاي	مُجَلِّل	

(١) ١٠٩/٤ وخطت للقرنيزي (طبعة دار التحرير) ٧/٢ وديوانه  
طبعته دار الكتب المصرية .

(١) انظر في أيلمر غوات الوليات ١٤٠/١ والانتصار  
لواسطة ضد الأمصار لابن دلفاق (طبع مطبعة بولاق)

وواضح أنه بدأ موشحه بالدور أو الفصن لا بالقفل ، وتلا القفل بالدور في ثلاثة أبيات ، وكل بيت مكون من ثلاثة أجزاء ، الجزء الثاني مستخرج من آخر الجزء الأول ، فصاى مستخرج من التصاى وبالمثل نالى مستخرج من الجناى ، وكاى مستخرج من انسكاب . وهو تكلف واضح ولكنهم كانوا يعدونه في الموشحات والأشعار آية براعة فائقة .

### للحكاك<sup>(١)</sup> الحلوى

هو سراج الدين عمر بن مسعود الحلوى الملقب بالمحار لأنه نشأ بَمَحَر الكتان أى يفسله ويبيضه ثم اشتغل بالأدب والشعر ومهر فيها ، ففارق موطنه حلب إلى حماة ورعاه صاحبها الملك المنصور (٥٨٧ - ٦١٧ هـ) إلى أن توفى بدمشق سنة ٧١١ . وربما كان أروع وشاح أنجبته الشام على مر الأزمنة والحقب ، ومن موشحاته المشهورة موشحة عارض بها أيلمر الهبوى في موشحته المذكورة آنفاً ويستلها على هذا النمط :

ماناحت الورقُ في الفصولِ إلّا هاجتُ على تغريدها لوعةُ الحزين

هل ماضى لى مع الحبايبِ	آيبُ	بعد الصدودُ
أوهل لأيامنا النواهب	واهبُ	بأنْ تعودُ
بكل مصقولة الثرائبُ	كاهبُ	هَيْفاهُ رُودُ

والموشح يمج على هذه الشاكلة بعذوبة الجرس وجمال الإيقاع والنغم رغم محاولة المحار فيه أن يستخرج الجزء الثانى في الدور من آخر كلمة في جزئه الأول ، فقد كان من القدرة على حسن التلحين لكلماته بحيث لا يقف دونه أى عائق ، بل إن العائق نفسه يصبح إكمالاً بديعاً للتلحين والتنظيم على نحو ما يتضح في كلمات « آيب - واهب - كاهب » . . ولا يقل عن هذه الموشحة عذوبة ورشاقة وحلاوة في النغم موشحة التى عارض بها موشحة أحمد بن الحسن الموصلى للمار ذكره في العراق ، افتتحها بقوله :

مَدِمْتُ سَنًا البروقِ من نعمانٍ باتت حَلَقِي

(١) انظر في المحار غزوات الرقيات ٢/٢١٩ ، ٥٠٦ ، وانظر توشيع التوشيع للصفدى إذ توارده مع صاحب القوات على أُرْسَةِ من الموشحات وانظر عقود اللآلئ رقم ٥٢ ، ٧٦ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ والجرم الزاهرة ٢٢١/٩ والرقائق ٤/٢٨٠

تُذَكِّي بِمِثْلِ دَمْعِهَا النَّارَ الْحَرَقَ<sup>(١)</sup>  
 مَا أَوْمَضَ بَارِقُ الْحَيَى أَوْ خَفَقَا  
 إِلَّا وَأَجَدْتُ لِي الْأَسَى وَالْحَرَقَا  
 هَذَا سَبَبٌ لَهْنِي قَدْ خُلِقَا

وتصويره لمسيل الدموع للتدفق بأنه يضمم نار الحرق تصوير بديع . وموشحات المحار على هذا النمط تجمع الأذن والقلب والخيال بصفاء موشيقاها وورقتها وما يُطَوَّرُ فيها من جمال التصاوير .

### (٥) البديعيات

مَرَّبْنَا أَنْ الشَّامَ - منذ أواخر القرن الثاني الهجري - تطورت بصور البديع الحسية التجديدية من جناس وطباق وتصاوير إلى إشراك صور جديدة معها من زخرف الفكر ووشيه على نحو ما هو معروف عن أبي تمام ، نافلة بذلك إلى إرساء مذهب جديد في فن الشعر سميه في كتابه الفن وملاهبه في الشعر العربي ، باسم مذهب التصنيع أي التثنيق الناشئ عن استخدام مهسنات البديع المعروفة وأيضاً عن استخدام طرائف فكرية لا تكاد تُحصى . وتبع البحترى - كما ذكرنا - أستاذه أبا تمام في المذهب ولم تكن له ثقافته الفلسفية ولا بعد غوره في الأفكار . وكان أبو تمام يكثر من الجناس فلم يتابعه البحترى في هذا الإكثار وإن ظل يستعمله كما يستعمل الطباق والتصاوير من تشبيهات واستعارات . ولجئد الجناس بعده على كل لسان فكل شاعر شامى يحاول أن ينفذ فيه إلى أبيات بديعة كقول أبي فراس الحمداني<sup>(٢)</sup> :

وما السلافُ دهني بل سَوَافُهُ ولا الشُّمولُ دهني بل شِثَالُهُ

ولعل شاعراً شامياً لم يكثر من استخدام الجناس كما أكثر أبو العلاء ، وسنراه يدخل عليه ألواناً من التعقيد سنعرض لها عما قليل ، وكان يحاصره ابن حيوس المتوفى سنة ٤٧٣ هـ وكان يتابع أبا تمام في الإكثار من المهسنات البديعية جناساً وغير جناس . ونرى العهد الأصبهاني في الخريدة يتوقف مراراً ليثبت على هذا الشاعر أو ذاك كثرة استخدامه للجناس ، وسجل ذلك مراراً على الشعراء

(١) تذكي : تضرع .

الفرنسي بدمشق ٢٠٢/٢

(٢) الديوان لمُحَمَّد . د . سلس الدعان ( طبع للمعهد

الثلاثة الذين افتتح بهم الجزء الأول من شعراء الشام وهم الغزى وابن منير والقيصراني وفيه يقول :  
« صاحب التطبيق والتجنيس ، وناظم الدر النفيس » <sup>(١)</sup> . وعلى شاكلتهم شعراء الحريدة لافي  
استخدام الجناس وحده بل في استخدام المحسنات البديعية جميعا ، وكذلك من تلاهم من  
الشعراء الشاميين .

وكانت قد تكونت بمصر منذ أواخر أيام الفاطميين مدرسة حملت لواء المحسنات البديعية  
وأشاعتها في شعرها ونثرها مضيئة إليها لونا جديدا هو لون التورية الذى يصور مزاج المصريين  
وميلهم من قديم إلى النكته ، وكان من السابقين إلى حمل هذا اللواء بأخرة من الدولة الفاطمية  
ابن قادوس وابن قلاقرس ، وحمله بعدهما القاضي الفاضل وابن سناء الملك وغيرهما . وكانت ديار  
الشام جميعها توحدت مع مصر لعهد صلاح الدين ، وسرعان ما وجدنا ذوق هذه المدرسة  
المصرية يعم بلدان الشام ، كما لاحظ ذلك الصفدى ونقله عنه ابن حجة الحموى في خزانته إذ  
ذكر السابقين في المدرسة من شعراء مصر ثم قال : « وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم  
وتأثرَ نصرهم » وعدَّ منهم سيف الدين المشد المتوفى سنة ٦٥٦ والشيخ شرف الدين عبد العزيز  
الأنصارى شيخ شيوخ حماة المتوفى سنة ٦٦٢ وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ النهي المتوفى سنة ٦٨٠  
ومجير الدين بن نعيم المتوفى سنة ٦٨٤ والشاب الظريف شمس الدين محمد بن الضيف المتوفى سنة  
٦٨٨ وعبي الدين بن قرناص الحموى المتوفى سنة ٧١٢ وتمثل ابن حجة في خزانته بأشعارهم في  
محسنات البديع المختلفة وفتح لكل منهم فصلا طريفا في باب التورية ، واستطاعوا في أحوال كثيرة  
أن يحلوا لتورياتهم نفس خفة الروح التي تلقانا في توريات المصريين مثل قول ابن لؤلؤ <sup>(٢)</sup> :

يَمُّرُ بِي كُلُّ حَبِيرٍ وَكُلُّهَا مَرٌّ يَحْلُو

وهو لا يريد « مرء » من المرور وهو المعنى المتبادر لكلمة يمر في أول البيت ، وإنما يريد مرء من  
المرارة عكس الحلاوة ، وهو المعنى البعيد ، ومثل قول مجير الدين بن نعيم <sup>(٣)</sup> :  
أَيَّاحُتُّهَا مِنْ رَوْضَةٍ ضَاعَ نَشْرُهَا فَغَادَتْ عَلَيْهِ فِي الرِّيَاضِ طَبِيرُ  
ولضاع معنيان : أولها من ضاع الزهر يَضُوع إذا فاحت رائحته ، وثانيها من ضاع الشيء

يضع إذا فُقد والأول المراد . ومثل قول الشاب الظريف وقد احتجب بعض أصحابه عنه <sup>(١)</sup> :

ولقد أتيتُ إلى جَنَابِكَ قاضياً باللُّثَمِ للعتَبَاتِ بعضُ الواجبِ  
وأُتِيتُ أقصد زورةً أخْطَى بها فُرُودَتُ - يا عني - هناك بمحاجرِ

وواضح أنه ليس المراد حاجب العين ، وإنما البُواب المشرف على الزيارة . وتظل التورية شائعة على ألسنة الشاميين ، ويشيد الحموي في خزانته باستخدام الوداعي على بن المظفر المتوفى سنة ٧١٦ لها وإكثاره منها كقوله <sup>(٢)</sup> :

قال لي العاذلُ المُنْدُ فيها يومَ وافَتْ فسلُمتُ مُخْتَالَةً  
قم بنا ندْهي النبوةَ في العشِ حق فقد سلُمتُ علينا الغزاة

وللغزاة معنيان : معنى قريب وهو الشمس ومعنى بعيد وهو صاحبه الجميلة التي تشبه الغزاة وهو المراد .

ويتبع ابن حجة مأخذه ابن نباتة من موالد التورية عند الوداعي ، وبالمثل يتبع ماأخذه الصفدي من ابن نباتة من تورياته البديعة ، وكان الصفدي يعنى عناية شديدة باصطناع المحسنات البديعية وخاصة التورية والجناس ، وله فيها كتابان .

ومضى شعراء الشام - بعد الصفدي - كشعراء مصر يعنون بترك المحسنات بقية زمن المالك ، يشترك في ذلك فتح الدين بن الشهيد المتوفى سنة ٧٩٣ وهلى بن أيك اللمشق المتوفى سنة ٨٠١ وابن الأدمي المتوفى سنة ٨١٦ وابن حجة الحموي صاحب الخزانة المتوفى سنة ٨٣٧ . ويطرد اصطناع المحسنات البديعية في أيام الصائين ، ومن أهم ألوانها الاقتباس من القرآن الكريم وتضمنين شطوَر أو أبيات في قصيدة الشاعر لشعراء سابقين ، وقد اقتبس صاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى فواصل «سورة الشمس» في قطعة غزلية له مستهلا لها بقوله <sup>(٣)</sup> .

قسماً بِشَمْسٍ جَبِينِهِ وَضَحَاها ونهارٍ مَبِينِهِ (إذا جَلَّأها)

(٣) ديوان صاحب شرف الدين الأنصارى (نشر جمع

(١) خزانة الأدب للحموي ص ٣٢٤

اللفظة العربية بدمشق - تحقيق د. حمر موسى) ص ٥١٥

(٢) الخزانة ص ٣٤٣

وتوال قوافيه : ( يَفْشَاهَا - زَكَّاهَا - تَقَوَّاهَا - أَشْقَاهَا ) ، ومن طريف الاقتباس في الغزل قول فتح الدين بن الشهيد <sup>(١)</sup> :

في صدرها رُمانٌ نَهْدُ زَانَهُ حَلْيٌ (يُوسُوسُ في صدور الناسِ)

ويريد يوسوسة الحلى صوته الخلق ، واقتبس - كما هو واضح - آية سورة الناس وما فيها من الاستعاذة من الشيطان الوسواس بما لا نفع فيه الذم (يوسوس في صدور الناس) . وأكثر الشعراء من التضمن لأبيات المتنبي وغير المتنبي من كبار الشعراء ، كقول مجير الدين بن نعيم مضمناً لبيت من أبيات المتنبي في وصفه لزهرة اللوز إذ يقول <sup>(٢)</sup> :

أزهر اللُّوزُ أنت لكلُّ زهرٍ من الأزهار بأتينا إماماً  
« لقد حستُ بك الأيام حتى كأنك في قَمَرِ الدهرِ ابتسامُ »

وعُني كثيرون باقتباس الشطور الثواني من معلقة امرئ القيس وتضمنها في قصائدهم . وسنلتقي بأمثلة كثيرة من ألوان هذه البديعيات في ترجماتنا للشعراء .

#### ( هـ ) التحقيدات

إذا كانت الشام نفذت - على لسان أبي تمام - إلى ابتكار مذهب التصنيع والتنميق في الشعر العربي ، فإنها هي أيضاً التي نفذت إلى ابتكار مذهب التصنع والتعقيد في الشعر أو قل هي التي أعطته صبغته النهائية ، فقد أخذ الشعراء - منذ أوائل هذا العصر - يتكلفون في صورهم اليبانية ومحسناتهم البديعية ألواناً شتى من التكلف عرضناها في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » ، وما نصل إلى أبي العلاء الممرى حتى يبلغ هذا التصنع أقصاه في ديوانه : « لزوم مالا يلزم ، وهو في مجلدين ضخمين . والقصائد فيه تتظم حروف المعجم حرفاً حرفاً ، وفي كل حرف يأتي بالروى ساكناً ومتحركاً بالحركات الثلاث : الضمة والفتحة والكسرة ، والتزم مع كل روى حرفاً معيناً يسبقه كالباء والتاء وغيرهما . وبذلك أصبح لقصائد هذا الديوان الضخم رويان يلزمانها في حمية شديدة . وليس هذا كل ما في الديوان من تعقيد ، فقد يكون ذلك أخف ما فيه من ألوانه ، إذ نراه يعني فيه بمرض كلمات غريبة لا تكاد نحصى ، وشغف بالجناس وعقده بدوره إذ طلبه بين القافية

وما يسبقها من كلمات البيت ، بل لعله ظن ذلك لا يزال شيئا سهلا فطلب أن يكون بين أول كلمة في البيت وبين القافية كقوله <sup>(١)</sup> :

أشراك ذنبك وللهيمن غافر ماكان من خطي سوى الإسرائك

ومعنى أشراك : أخراك وأوقطك في الإثم . ويكثر هذا الجنس للمعد في لزوم ما لا يلزم أوفى الزوميات ، ولا يكتفى أبو العلاء بتحد الجنس واللفظ الغريب والروى المتعدد بل يطلب تحكما أخرى من ألفاظ الثقافات وما يتصل بها من اصطلاحات الفلسفة والعلوم الإسلامية وعلوم الأوائل من ذلك وغير ذلك وعلوم العربية من عروض وغير عروض مثل <sup>(٢)</sup> :

بقاني الطويل وغبي البسط وأصبحت مضطربا كالرجز

والطويل والبسط والرجز من مجرّد الشعر وأوزانه كما هو معروف ، والرجز أكثرها اضطرابا لكثرة ما يجري فيه من زحافات وطل .

ولعل في ذلك ما يوضح كيف أرمى أبو العلاء في الشام مذهب التصنع والتعقيد الشديد وكيف رضى على دعائم متينة لاف قصيدة واحدة أو في قصيدتين ، بل في ديوان كبير . وتجه شعراء الشام لا ينظمون دواوين مثله يلتزمون فيها مالا يلزم من اللوازم التي التزمها جميعا ، ولكنهم يستخدمونها في الحين بعد الحين كقول ابن حيوس متغزلا <sup>(٣)</sup> :

أوصابُ جسي من جناية بُدّكم والصبرُ صبرٌ بعدكم أو صابُ

فقد جانس بين أول كلمة في البيت وبين القافية المكونة من حرف العطف « أو » وكلمة صاب مثل كلمة صبر أي مرّ . وعلى هذه الشاكلة قول ابن عتّين <sup>(٤)</sup> :

عُبروها بأنه ما عَصْدَى لسلو عنها ولو مات صلتا

والجناس واضح بين آخر الشطر الأول والقافية ، وهو فيها مكون من كلمتين . ويكثر ذلك عند شعراء العصر حتى نهايته زمن العتّانيين . ويقول الحموي في خزانته : « كان الشيخ صلاح

(١) الفن وعلامه في الشعر العربي (طبع دار المعارف)

(٢) الديوان ٨٨/١

الطبعة المأثرة ص ٤٠١

(٤) الديوان (لحقّق خليل مردم طبع دار صادر) ص



الدين الصفدى يستحسن ورمه ويظنه شحا فيشبع أفكاره منه ويملأ بطون دقاته (شرا. وترا)  
ويأتى فيه بتركيب تخفُّ عندها جلايد الصخور . ويسوق من هذه الجلايد أمثلة لعل أخفها  
قول الصفدى <sup>(١)</sup> .

وكم شئتُ لما قِئتُ مقدارُ ودُّكم بوارقَ بأسٍ في بوارٍ قياسٍ  
والجناس في الشطر الثاني ، وهو مركب من كلمتين يُخطفان معنى وبناء كما هو واضح ، وفيه  
غير قليل من التقلُّف بالنسبة لما وراءه من أمثلة ساقها الحموى للصفدى . ولا نعلم أن نجد بين  
الشعراء مَنْ يزرى على هذا التصنع الشديد لجناسات كأنها قطع الصخر كما يقول الحموى مما يجعلها  
تصك الآذان صكا حيفا ، ولعله لذلك حمل زين الدين بن الوردى معاصر الصفدى المتوفى سنة  
٧٤٩ على من يجعل الجناس له مذهبا في نظمه ، يقول ناصحا شعراء عصره <sup>(٢)</sup> :

إذا أُجِيتَ نظمَ الشعرِ فاخترْ لنظمتك كلَّ سهلٍ ذى امتناعٍ  
ولا تُفصدْ بجانسةٍ ومكُنْ قوافيه وكِلْهُ إلى الطُّباعِ

وقليلون هم الذين استمعوا إلى نصحه إذ أصبح التصنع منذ زمن أبى العلاء في القرنين الرابع  
والخامس ظاهرة عامة تشمل جمهور الشعراء إلا من ندر ، ولهم في ذلك كثير من الألفاظ .  
وينشد العباد الأصمى في غريدته صورا كثيرة من هذه الألفاظ ، وخاصة عند ابن قسيم الحموى  
المتوفى سنة ٥٤١ وهو شاعر نور الدين وأبيه عماد الدين ، وبدأ العباد بصورة مقددة من تصنعه في  
القوافي إذ نظم أبياتا على خمس قواف ، يقول فيها مادحا <sup>(٣)</sup> :

قل للأمر أخى التدى والتائل	المطاليل	للشعراء	والقصائد
لازلت تنهك الجدا بالذابل	المسال	في الاحشاء	والأكباد
ووقيت من صرف الردى والتازل	المقال	للأعداء	والخسائد

وواضح أنه يمكن أن تُفصل الشطور الأولى من كل بيت وحدها وأن يضاف لكل منها الكلمة  
التالية أو الكلمتان أو الأربعة ، ومع كل صورة يتكون بيت مستقل ، وهى مهارة تصور قدرته على

التصنع والتعقيد . وينشد الهادلا بن قُسيم مقطوعة طويلة تتوالى الكلمات فيها بحيث لا تخلو أولها من صاد وثانيها من سين أو العكس <sup>(١)</sup> . وما أنشده الهاد في خريدته من هذه الصور المتكلفة قصيدة لشاعر من شعراء المرة التزم في كل كلمة من كلماتها أن لا تخلو من حرف النون <sup>(٢)</sup> ، وأنشد لشاعر آخر من شعراء المرة قطعة نُقرأ على سبعة أوزان <sup>(٣)</sup> . ولابن حنين حين ألم في رحلته الكبيرة إلى المشرق بالفخر الرازي في « هراة » قصيدتان <sup>(٤)</sup> في مدحيه تشتمل كل كلمة في أولهما على حرف السين كقوله فيها .

حَسَنُ سَرِيرُهُ وَقُدُسُ سِيحُهُ      وَمَا بِأَسْلَافِهِ سِرَافُ شُوسِ <sup>(٥)</sup>

يينا تشتمل كل كلمة في ثانيها على حرف الحاء . وتعلق كثير من الشعراء في العصر بصنع الألفاظ والإجابة عنها ، وأفرد كثيرون لها أبوابا في دواوينهم على نحو ما يلقانا في ديوان ابن حنين وأيضاً في ديوان مامية الرومي الدمشقي في زمن العثانيين . وظل غير شاعر يصنع للملا يلزم في بعض مقطوعاته وقصائده وكان للصاحب عبد العزيز الأنصاري مجلد كبير فيه <sup>(٦)</sup> .

## ٤

### شعراء المديح

يكثر شعراء المديح في الإسلام منذ القرن الثاني الهجري ، وذكرنا أسماء نفر منهم في غير هذا الموضع . وقد أصبحت لديهم في القرن الثالث إلى الشعر العربي أكبر شاعرين مداحين فيه ، وهما أبو تمام والبحتري . ويكثر شعراء المديح كثرة مفرطة في أول هذا العصر : عصر الدول والإمارات بحلب زمن بطلها سيف الدولة الحمداني الذي تحول بها إلى أكبر مركز علمي ولساني وأدبي ، على نحو ما أثر بنا ، وغدت مقصد الأديباء وحلبة الشعراء ، وجامعها من كل بلد في العراق وإيران فضلا عن الشام ، وفي مقدمتهم المتنبي . وظل سيف الدولة نحو عشرين عاما يمزج جموع البيزنطيين ويستولى على كثير من الحصون والبلدان ، والشعراء من حوله يثرون عليه قصائدهم

(٥) السنج : الأصل ، شوس جمع شوس : الشجاع

القدام

(٦) غرات الولايات ١/٩٨

(١) الحريدة (قسم الشام) ١/٤١٧

(٢) الحريدة ٢/٤٥

(٣) الحريدة ٢/١٠٨

(٤) الديوان ص ٩٦ . ٩٨

ومدائحهم بالعشرات - إن لم يكن بالمئات - مسجلين للطل العري مجده الحربي العظيم ، وقد صودنا في قسم العراق من هذا التاريخ للأدب العري مدائح المنتهى فيه ، ولن نستطيع أن نمرض هنا مدائح غيره من شعراء العراق مثل ابن نباتة وأبي الفرج البغدادى ، فكتاب البنية للشاهي يحمل من مدائحها ومدائح غيرها لسيف الدولة روائع بدعية . ويكنى أن نشير إلى من حقوا به من شعراء الشام أمثال كشاجم والأواء التمشقي وأبي العباس أحمد بن محمد البصيصي المشهور باسم النامي ، وكان عند سيف الدولة بطرأبا الطبيب في الفترة والرقة ، وكان شاعرا بارعا ، ومن قوله فيه بإحدى مدائحه (١) :

أَمِيرُ الْعَمَلِ إِنْ الْعَوَالِي كَوَاسِبُ حَلَامِكَ فِي الدُّنْيَا وَفِي جَنَّةِ الْخُلْدِ  
يَمُرُّ عَلَيْكَ الْحَوْلُ ، سِفْكُ فِي الطَّلَا وَطَرَفُكَ مَا بَيْنَ الشُّكْبَةِ وَاللَّبْدِ (٢)  
وَيَعْصِي عَلَيْكَ الدَّمْرُ ، ضَلُوكَ لِلْعَمَلِ وَقَوْلُكَ لِلتَّقْوَى وَكَمُوكَ لِلرَّفْدِ

فسيف الدولة دائما محارب يلقى أحقاد البيزنطيين بسيفه المسلول ، ودائما ساهر شاكي السلاح ويصره مصوب إلى فرسه الذي يملك باستمرار شكيبته استعدادا للترال . وما الإنسان إلا فضل وقول وفضل سيف الدولة دائما للعلا ومنازله الرقيقة وقوله للتقوى ومحافة الله ، أما كنهه فللمعطاء والنوال السابغ .

وكان سيف الدولة - ومثله الحمدانيون عامة - من الشيعة الإمامية ، مما جعل كثيرين من أهل حلب يعتقدون هذه النحلة ، ومرتبا أن تضرعت لها فرقة الشكيبية الشيعية كالفريق وعده - كما مرتبا - من ألوية علي بن أبي طالب . ويمكن لأحفظ النسخ في القاموس استيعاب النحلة الخليفة الفاطمي في دمشق وكثير من بلدان سوريا منذ سنة ٣٥٩ وقرى نفرا من شعراء القاموس يترلون القاهرة معتقدين - على ما يبدو - تلك النحلة ويعتقون بمسح الخليفة الفاطمي العزيز ( ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ ) ووزيره يعقوب بن كلثوم وفي مقدمتهم أبو الرضيم أحمد بن محمد الأظفكي ، وله في الخليفة ووزيره غير قصيدة ، ومن قوله في ابن كلثوم بإحدى قصائده (٣) :

لَمْ يَدْعُ لِلْعَزِيزِ فِي سَائِرِ الْأَرْضِ عَدُوًّا إِلَّا وَأَخَذَ نَارَ

الكتاب

(٢) الهبة ٣١٠/١

(١) الهبة ٢٢٥/١

(٢) الطلا : جمع طلة أو طلاة كما مر . وهي الحق أو صفحة . الشكيبية : الحديدة الموضوعة في فم القوس من

كل يوم له على نوب الذم ر وكثر الخطوب بالبذل حارة  
ولأهل العلاء المرى ديوان معروف يسمى «سقط الزند» أكثر مدائح نظمها على سيل  
البرين لا قصدا لمديح شخص بعينه إلا ماندر، فهو لم ينظم كثرتها طلبا للكسب وبيل العطاء،  
وإنما على سيل التشريب اتباعا لشعراء المديح المشتريين بزمنه في كل مكان، ومن قوله على  
طريقتهم في المديح بأولى قصائد سقط الزند:

مكلف خيله قصص الأحادي وجاعل غايه الأسل الطوالا  
نكاد فيه من غير رام لمكن من قلوبهم الثبالا

لالحيل لكثرة ما جعلها الممدوح تمارس القتال تقتصر بنفسها الرجال. وإنه لأسد حقا غير أن  
هزينة ليس غايها بل رماحا طوالا تحطف الأرواح خطفا، وإن فيه لتصيب أصداءه في الصميم  
دون رام يترقع هنا النبل والسهام، وهي مبالغة مألوقة عند أصحاب المديح لأيامه.  
ومررت أن بنى مرداس خلفوا الحمدانيين في حلب، وهنئ منهم خاصة محمود بن نصر يجمع  
الشعراء حوله فاجتمع في حاشيته كهمون منهم عبد الواحد الحلبي الرمي وابن حيوس الدمشقي  
وابن النحاس الحلبي وابن ستان الحفاجي. وحدث أن قطبان أنطاكية أوبطريقها استولى في  
شعبان سنة ٤٦١ على حصن وأسفونا، ونكل تنكيلا شديدا بأهله، فحاصره محمود بن نصر  
وفتك بجميع رجاله، وكانوا نحو ألفين، ورد محمود الحصن على أهله، وهناه ابن ستان الحفاجي  
بهذا النصر للبين قائلا في إحدى قصائده (١).

إن أظهرت لملك أنطاكية حزنا فقد ضحكنا على قطبانها  
لا أطل له لوائك خافقا حرفت وجوه اللؤلؤ في صلبانها

وحين زار حلب نظام الملك وزير آلب أرسلان السلجوقي قلّم له كهمون من شعرائها  
مدائحهم، وكان وافر العقل بصيرا بتدبير الملك شيوعا بعيد النظر، فأسس الدولة السلجوقية خيرة  
سياسة، وهو مؤسس المدارس أو الجامعات النظامية في العراق وإيران، وله يقول محمد بن أحمد  
الشاطبي الحلبي من مدحة طويلة على أبواب حلب (٢)

(١) زبدة الخلب من تاريخ حلب لابن الدبج ١٤/٢ و ١٩٩ (٢) صبة القصر ١٩٩/١

بأخبر من خفت عليه راية وأجل مقود عليه لواء  
لك كل يوم مئة سبابة في الحافقين وغارة شعراء

وذكرنا - فيما أسلفنا - أن بني عمار استطاعوا أن يكونوا لهم في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري إمارة بطرابلس ، وكانوا يُقرّون منهم الشعراء ويمزّلون لهم في العطاء ، وذكر الهاد الأصماني في الخريدة نقرا من شعرائهم في مقدمتهم ابن العلاف الممرى ، وله من مدحة في عمار بن محمد بن عمار : آخر أمرائهم <sup>(١)</sup> :

بمخاطك التوفيق لا يألوك في تسهيل لك كل صعب أوعر  
دامت لك النماء موصول بها توفيق منصور اللواء مظفر

وسقطت من يده طرابلس في حجر الصليبيين ، وكانت لذلك مناحة كبيرة بين المسلمين . وكان ابن العلاف - فيما يبدو - شيعيا ، ولعله لذلك رحل إلى القاهرة وقدم مدائحه إلى الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ، وله يقول في إحدى مدائحه <sup>(٢)</sup> :

ليزدد علوا ملك مصر فإنها به حرم الله العزيز المحرم  
لكة مصر ، والحجيج وفود وبنائه ركن البيت ، والليل زمر

ومن كبار الشعراء الذين نشأوا في حجر بني عمار واستظلوا بما أحدثوا في طرابلس من حركة أدبية الشاعر المثنق ابن الحباط وسنخصه بترجمة مستقلة .

وأمرأ حصن شهيد : بنو مقلد بن منقلد على شاكلة بني عمار في طرابلس يتردد مدحهم على ألسنة الشعراء منذ استخلص على بن مقلد بن منقلد شهيد من أيدي الروم سنة ٤٧٤ وظلت أسرته تحكمها حتى أتى عليها زلزال شديد سنة ٥٥٢ هدمها من قواعد وأهلك سكانها . وتغنى الشعراء طويلا باسم محررها في القرن الخامس على بن منقلد وعظفائه في حكمها ، كما نجد عند ابن منير والقبسرافي .

ويلقانا في أواخر القرن الخامس والربع الأول من القرن السادس شاعر فلسطيني هو النزي إبراهيم بن يحيى المتوفى سنة ٥٢٤ وقد ترك غزاة مسقط رأسه مبكرا إلى دمشق يختلف إلى شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وظل بالمدرسة النظامية فترة طويلة مدح فيها ورثى كثيرين من علمائها ، ثم تركها

إلى كزمان وشيراز في فارس وهرات في أفغانستان وكلما ألم بيلد مدح أمراءها ووزراءها حتى وفاته فهو شاعر جوال ، وله أشعار كثيرة رائعة في المديح وغير المديح ، وله في ابن مكرم وزير كزمان مدائح بدیعة من مثل قوله <sup>(١)</sup> :

مادهونه من بنى الشعر إلا أَهْلَ الذَّمِّ نفسه للشهاني  
جُمیع الأئمة والكواكب والأب حَرَّ والتأمر منه في إنسان  
واستجاب له مناقب شکی لم تجل في خواطر الإمكان

ويتبه البطل المغوار أتابك الموصل حماد الدين زنكي منذ أوائل العقد الثالث من القرن السادس الهجري إلى أن تحاذل المسلمين أمام حملة الصليب مرجعة إلى تخويف البلدان الإسلامية المجاورة لهم وأنه لا بد من جمع كلمتها تحت لواء واحد . ويستولى على حلب وبعض بلدان سوريا الشمالية ، وماتوا سنة ٥٣٤ للهجرة حتى يسوق إلى الصليبيين جيشا جرارا بقيادته ، وينازلهم بالقرب من حماة ويعصف بمجموعهم ، ويستولى على حصن بارين بين حماة وحلب . وكأنما استيقظ الشعر حيث من سبائه الطويل . ويتبارى الشعراء في مدحه والإشادة بانتصاره ، وفي مقتلهم ابن منير والقيصراني . ولم يلبث في سنة ٥٣٩ أن فتح مدينة الرها مزيلا منها جوسلين ودولته الصليبية إلى غير رجعة ، وهال الشعراء في كل مكان لهذا الفتح للمين ، وفيه يقول ابن منير <sup>(٢)</sup> :

فتح أعاد على الإسلام بهجته فافتر تبسبه واهتر عطفاه  
أين الخلاف عن فتح أتيح له مظلل ألقى الدنيا جناحه

ومضى ابن منير في القصد يعل - بنى - هذا الفتح على فتح المعتم لمعيرة أكبر مدن آسيا الصغرى في زمنه ، فقد قضى زنكي على الملكة الرابعة لحملة الصليب ، وكانوا قد أسسوها شمالي العراق . وبدا حيث - في الألف - أمل كبير في أن ممالكهم التي أسسوها في أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس لا بد أن تسقط في أيدي المسلمين مها طال الزمن .

وامتدت إلى حماد الدين سنة ٥٤١ يد آتمة في الظلام فتكت بالبطل الباسل ، وحمل الربة بعده ابنه نور الدين ومضى يحاهد الصليبيين ، وغرت الأمانى جوسلين فساد إلى الرها ، واستردوا

سريعا نور الدين وفرجوسلين ، وهاتاه الشراء بهذا الفتح المبين ، وفي مقدمتهم ابن قسيم الحموي بمثل قوله <sup>(١)</sup> :

بدو الشجاعة من طلاق وجهه كالرمح دل على الفصاحة ليته  
والدين بشهد انه لمرء والشرك يعلم انه لمهنة  
فتح الزها بالامس فانفتحت له ابواب ملكو لا يملك مصونه <sup>(٢)</sup>

وولى نور الدين وجهه نحو سوريا فاستولى من حملة الصليب على حصن أرتاح سنة ٥٤٤ .  
وتنازل صاحب أنطاكية وجموعه ، وغر صريعا يد أسد الدين شيركوه وفرت جموع الصليبيين  
مهزومة مغيرة . وعاد نور الدين إلى حلب ، والشراء يطلون بمثل قول ابن منير في مطلع قصيدة  
له <sup>(٣)</sup> .

أقوى الضلال وأقهر عرصاته وعلا الهدى وتبلى قسائه

وظلت أيام نور الدين محمود أعياد نصر على حملة الصليب ، وظل الشراء يديجون في مدائح  
رائعة ، وقد استولى من الصليبيين على ألامية سنة ٥٤٥ واستولى من بيت طفتكين على مدينة  
دمشق سنة ٥٤٩ وبهت عالمها وحافظها ابن صاكر قاتلا <sup>(٤)</sup> .

لقد بلغت بحمد الله منزلة عالية فاقصد العالي من القرب  
وطهر المسجد الأقصى وحوزته من التجاسات والإفراك والصلب

وفي نفس السنة يزم الصليبين بدوك من تغر حلب ، ويتنازل له حملة الصليب في أنطاكية  
من نصف أحوال حارم . واستولى على شيرك ويطلب وصرخد ، وشغل بإرسال نور الدين شيركوه  
وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر سنة ٥٥٨ وتطورت الظروف وتملك صلاح الدين مصر . ونور  
الدين محمود يتكهن منى الدولة الأيوبية . ولم يلبث في سنة ٥٥٩ أن استولى على مدينة حارم ،  
وأخلت حصون كثيرة تساقط في يده ، ويتغنى بانتصاراته الرائعة الهاد الأصيلي قاتلا في مطالع  
إحدى قصائده <sup>(٥)</sup>

أقهر عرصاته : ساحته . تبلى : أهدت .

(١) الخريدة (قم الشام) ٧٧٧/١

(٢) الخريدة (بنية قم الشام) ص ٥٤

(١) الخريدة (قم الشام) ٧٧٤/١ وما بعدها

(٢) بلال : بيان .

(٣) الروضتين ٥٨/١ وشرح الكوكب ١٢٦/١ أخرى :

بأواحد في النصر غير مشارك  
كم وقعة لك في الفرنج حديقها  
و جعلت في أعتاقهم أظلامهم  
و سحتهم هوناً على الأذقان

و يحمل الراية بعد نور الدين في منازلة حملة الصليب البطل المظفر صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية، و فتوحه العظيمة مصورة في الجزء الخاص بمصر، وما وافق سنة ٥٨٢ حتى تمت له هذه الفتوح بعد وقعة حطين المباركة التي استولى بعدها على بيت المقدس أهم مملكة كانت لحملة الصليب كما استولى على كثير من الحصون على الساحل الشامي، ولم يبق في الشام ولا في الموصل والعراق شاعر إلا وقف بفنوح هذا البطل الهاسل، فغنى بها سبط بن التعاويذى البغدادي وموفق الدين الإربلي والشاتالي الموصل وابن الساعاتي الدمشقي وله مدائح كثيرة متاثرة في كتاب الخريدة، وللصالح في هذه الفتوح قصيدة رائعة أنشدنا منها قطعة في الجزء الخاص بمصر، ولابن الشحنة الموصل فيه مدحة طارت شهرتها لقوله فيها هذين البيتين الساترين<sup>(١)</sup>:

وإني امرؤ أحبيكم لمكارم سمعت بها والأذن كالعين تمشق  
وقالت لي الآمال إن كنت لاحقاً بأبناء أيوب فأنت الموفق

ودار الزمن ودانت مصر والشام - بعد صلاح الدين - لأخيه العادل ، ولابن عتيم الدمشقي فيه وفي ولدبه العظيم عيسى والأشرف موسى مدائح مختلفة . وبينها رائعة بديعة في العادل يستطفه بها في العودة إلى دمشق وكان صلاح الدين نفاه منها لكثرة أهاجيه في أهلها ، وأذن له العادل في العودة ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

العادل الملك الذي أسماؤه في كل ناحية تشرف ينبرا  
نسخت خلائقه الكرمه ماني في الكتب من كسرى الملوك وقبصرا  
ملك إذا خفت حلوم ذوى الثهي في الزوع زاد رزانه ونوراً

ومعروف أن آل أيوب توزعوا فيما بينهم بلدان الشام ، وكان لكل منهم شاعره الذي يغنى بمناقبه وأعماله ، ونذكر من بينهم نور الدين مودود شحنة دمشق ابن أخي صلاح الدين لأمه ،



وهو ممدوح فتبان الشاهورى ذُيِّع فيه مدائح كثيرة . وحرى بنا أن نذكر ملوك حاة الأيوبيين ، وكانوا ملحقين . ومن أسبق عليهم مدائحه صاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى ، وله في صاحبها المظفر محمود ( ٦٢٦ - ٦٤٢ هـ ) وابنه المنصور سيف الدين محمد ( ٦٤٢ - ٦٨٣ هـ ) مدائح كثيرة ، وكان للثاني موقف محمود حين أحس بأن التار سيفزون الشام إذ التجأ بأسرته إلى مصر حتى إذا التحم القتال بين المصريين والتار في عين جالوت كان في مقدمة المحاربين البلاء ، وثبوته صاحب الأنصارى بهذا الموقف الشجاع طويلاً بمثل قوله <sup>(١)</sup> :

بَعَيْنِ جَالُوتَ خُضَّتْ بَحْرُ وَغَى يُخَالُ فَلَكَا بِالْأَسَدِ مَشْحُونَا  
وَكُنْتُ لِلْجَيْشِ غُرَّةً شَدَحْتُ أَنْوَقَهُمْ فَاثْنَوْنَا مُؤَلِّينَا

وطوال أيام الممالك كان يرتفع صوت الشر للتويه بأعالمهم . وكان لاتصاراتهم على التار أو المغول بعد موقعة عين جالوت حظ كبير من الشر ، ومرَّبنا في قسم مصر أن الظاهر يبرس كان دائماً يتعقبهم في الموصل وعلى شواطئ الفرات وسمع بحشود لهم على شاطئ الشرق فخاصى إليهما لُجَجَةٌ وخاضها جيشه معه ومزقههم شر مُزَقٍّ ، وفي هذه الغزوة يقول الموفق عبد الله الأنصارى اللمشقى <sup>(٢)</sup> .

الْمَلِكُ الظَّاهِرُ سُلْطَانُنَا نَفْدِيهِ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَهْلِ  
اِقْتَحَمَ الْمَاءَ لِيُطْفِئَ بِهِ حَرَارَةَ الْقَلْبِ مِنْ الْمُثَلِّ

ولم يستول الظاهر يبرس ولا قلاوون ولا الأشرف خليل على حصن أو بلد من حملة الصليب إلا وجلجل الشر ، حتى إذا أنهى الأشرف خليل الحروب الصليبية باستيلائه على عكا آخر حصونهم أخذ شر المديح في الشام يتحوَّل إلى شر مناسبات لمديح الحكام حين يستولون على أزمدة الأمور أو حين تمر بهم بعض الأعياد أو بعض الأحداث .

ويظل الشعراء أيام العثمانيين يقدمون مدائحهم للحكام ، وكان شعراء الشام حيثل قريين من إستامبول وكانوا لايزالون غادين عليها رانحين ، مما جعلهم يكثر من مديح سلاطينهم ، على نحو

(١) الديوان (بخطق عمر موسى - نشر مجمع اللغة (٢) النجوم الزاهرة ١٦٠/٧

مابلقانا في ديوان مامية الرومي المتوفى سنة ٩٨٧ ومديحه فيه للسلاطين سليمان وسليم الثاني ومراد الثاني . ويكثر حيث مدح العلماء وأعيان البلدان فضلا عن حكامها ، وأخذ الشعراء يكثر من المصريين من التاريخ بالشعر يؤرخون قدوم حاكم أو مناسبة من المناسبات يحيطون ذلك في آخر شطر بالمقدمة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحساب الجمل ، فيكون المجموع سنة الولاية للحاكم أو سنة المناسبة . وجدير بنا أن نعرض نقرأ من شعراء المديح التابئين .

### ابن الحياط<sup>(١)</sup>

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التظلي نسبة إلى قبيلة تغلب المولود بدمشق سنة ٤٥٠ لحياط اشتهر بنسبه إليه ، فهو من أبناء عامة الشعب بدمشق . ودأبما يلقانا في كل البلدان العربية شعراء من أولاد العامة ، لأن الثقافة العربية الإسلامية كانت مناهلها مفتوحة الأبواب دائما ، إذ كان الشيوخ في المساجد يعرضونها على الناس جميعا شبانا وشيئا ، وكانت للمساجد أو الجوامع الكبرى تشتمل على مكتبات خاصة بالكاتب في كل علم وكل فن وكذلك بدواوين الشعراء ، مما أتاح للشباب في كل بلد عربي أن يتزود بما شاء من الثقافة العلمية وأدبية وأن ينبغ بينهم علماء وأدباء وشعراء لا يحصر لهم .

وشهد ابن الحياط في صباه دمشق نازرة على حكم بدر الجمالي ، حتى لقد أشعل أهلها النار في قصره سنة ٤٦٠ وسرت النار إلى الجامع فسقطت سقوفه وتناثرت فصوصه الملحبة ، ونُهبت الدور والدكاكين ، وظل هذا الاضطراب سائما في دمشق وأخذ السلاجقة يحاصرونها ابتغاء الاستيلاء عليها حتى تم لهم ذلك سنة ٤٦٨ وتملكها تثنى آخر السلطان آلب أرسلان .

ومعنى ذلك أن الحياة كانت سيئة سواء شديدا بدمشق منذ سنة ٤٦٠ حتى نزحها تثنى مما جعل كثير من أهلها يهاجرون منها إلى بلدان الشام الأخرى . وكان ممن هاجر منها في هذه الأثناء ابن الحياط وكان لا يزال في بواكير شبابه ، وولّى وجهه نحو حماة ، ووفد على أميرها يسي محمد بن مالك فقربه منه واتخذة كاتباً له ، فُرف باسم ابن الحياط الكاتب ، وفيه يقول :

حَبَانِي جَوْدُهُ عَيْشًا كَأَنِّي ظَفَرْتُ بِهِ مِنَ الدَّهْرِ اسْتِرَاقًا

خلكان ١٤٥/١ والثلاث ٥٤/٤ ومقدمة ديوانه بتحقيق خليل مردم ( طبع المجمع العلمي العربي بدمشق )

(١) انظر في ترجمة ابن الحياط وشعره تهذيب تاريخ ابن حساكر ٦٧/٢ وذيل تاريخ دمشق لابن القلاسي ٢٣٤ والمقدمة (مقدمة قسم الشام) ص ١٤٢ والعبر ٣٩/٤ وابن

وكان شاعرُ بلدته ابنُ حُبوس حين اضطربت الأحوال في دمشق سنة ٤٦٤ تركها إلى حلب وحاش بها في كنف بني مرداس ، فرأى أن يتبعه هناك ، ولقيه ابن حُبوس لقاء حسنا ومنحه ثيابا ودنانير مع توبه بشره . وأوصاه أن يقد على بني عمار أصحاب طرابلس لرعايتهم الشعر والشعراء ، إذ سيجد عندهم مبتغاه . غير أنه عاد إلى حماة ، وكان كلما ألم بها أمير من أمراء بلدان الشام مدحه على نحو ما يلاحظ من مدحه للأمير الحلبي وثاب بن محمود بن صالح وله بقول :

لقد لبستُ بك الدنيا جالاً ظلو كانت يدا كنت السَّورا

ويبدو أنه مرَّ بحماة على بن مقلد بن منقلد بعد استيلائه على حصن شيزر ، فانصل به الشاعر ومدحه ومدح معه أسرته وما اشتهروا به من بسالة وما أتاحوا لخصمهم الأشم من مناعة ، وفي ذلك يقول :

هُمُ غادروا بالعزَّ حَضَاءَ أرضهم أعزُّ مثالا من نجوم البَهابِ

ونرى ابن الخياط في سنة ٤٧٦ يأخذ بنصيحة مواطنه الشاعر الكبير ابن حُبوس ، فيترك طرابلس قاصداً بني عمار ويستقبلونه استقبالا حافلا ، وكان يحكمها حينئذ منهم جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن عمار ( ٤٦٤ - ٤٩٤ هـ ) وله فيه مدائح رائعة ، وربما كانت أولها داليتة ، وفيها لحسن فرحته ببقائه من مثل قوله :

كني بِتَدَى جلال الملك عَيْنا إذا نزلتْ قَرَارَةُ كلِّ وادٍ  
فن ذا مَبْلَغِ الأملِكِ عنا وسُواسِ الحواضرِ والسبَوا  
بأننا قد سَكنا ظِلَّ مَلِكٍ مَخُوفِ البأسِ مرجو الأبا  
لنا نَحْشَى محاربة الليالي ولا لَسْرجو مسألة الأَصا

ومنى بمقامه في ظل بني عمار بطرابلس ، وصحب فيها طائفة من الأقباء كانوا يخرجون للمتزهات وينعمون بمشاهدتها الطيبة البديعة . ومن حين إلى آخر كان يمدح جلال الملك في المناسبات كمرور الأعياد . وله في أعني فخر الملك قصائد لا تقل روعة عن قصائده فيه ، ومن قوله في إحداها :

أأرجي غيرَ عمارٍ لنا بـ إذنُ فلا تَمشَى كَهْهُ الثَوبا

المانعُ الجارَ لو شاء الزمانُ له متاعاً لضاق به ذرعاً وإن رَجَا  
البازلُ المالَ مسئولاً ومبتدئاً والصائِنُ الهِندَ مودوداً ومكسباً

وظل في طرابلس حتى سنة ٤٨٦ وفيها احترقت داره واحرق كل ما كان بها من أثاث ، فعزن حزناً شديداً.

وعُثب بابين الحياط الحنينُ إلى دمشق مسقط رأسه وموطن خلاته بها أيام الشباب ، فساد إليها وكان ملكها حينئذ تتش السلجوقي وقربه منه وزيره هبة الله بن بديع الأصبهاني ، واصطحبه معه إلى « الرى » بفارس وهناك أنشده ملحمة فيه ، ورحل إلى خراسان ، ولم يلبث أن عاد إلى دمشق سنة ٤٨٧ وامتدح أمير قبيلة بني كلب حسان بن مسمار بقصيدتين ، وفتح له أمير الجيش غضب الدولة آبن أبوابه فهدمه بقصيدة بالية ربما كانت أروع قصائده ، وتوالت مدائحه فيه حتى توفي سنة ٥٠٢ ومن قوله في البائية :

وما أبقيَ إلا حَباً مُتَهَلِّلاً إذا جَادَ لم تُقْلَعِ مواطرُ سُحْبِهِ  
أَهْرُ غِيَاثُ لِلْأَنَامِ وَعَصْمَةٌ يُعَاشُ بِنُجَاهِ وَيُحَمَى بِذِيهِ  
ولم يَرِ يوماً راجياً غيرَ سَفِيهِ ولم يَرِ يوماً خائفاً غيرَ رَبِّهِ  
حَيْثُ حَيَاةٌ فِي سَاحِرٍ كَأَنَّهُ رِيحٌ يَزِينُ التُّودَ نَاصِرَ عُسْبِهِ

والقصيدة رالمة حقاً ، نوه بها القلماء طويلاً كما نوهوا بغزلها واستشد منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس سنة ٤٩٢ وأخلوا بعد ذلك عدة بلدان على الساحل الشامي في السنوات التالية وكثرت الشكايات منهم ، وواقعهم طُجُكَيْن صاحب دمشق على سواد طبرية سنة ٤٩٩ وفي السنة التالية حاصر بلدوين صاحب القدس صَيْدَاء ، وفي ديوان ابن الحياط قصيدة يحض فيها غضب الدولة أمير الجيش في دمشق على منازلة الصليبيين ، وفيها يقول مستفزاً الممشقين للجهاد :

لقد جاشَ من أرضِ إِرَنْجِيٍّ جِيوشُ كمثلِ جبالِ تَرْدِيٍّ  
أَنُومًا على مثلِ هَذِهِ الصَّفَاوِ وهزلاً وقد أصبحَ الأمرُ جِلْجِلًا  
وكم من قَافٍ بهم أصبحتْ تَلُكُّ من الخوفِ نَحْرًا وَخَنَكًا

فحاموا على دينكم والحريم حمامة من لا يرى الموت قددا  
قد أبتعت أروسُ المشركين فلا تُغفلوها قطافاً وحَصداً

وله وراء هذه القصيدة مرثية لبطل استشهد في حرب حملة الصليب ستنشد منها قطعة في الحديث عن شعراء الرثاء والشكوى أنشدها كالقصيدة السالفة غضب الدولة المتوفى - كما مر بنا - سنة ٥٠٢ . ولا نجد له وراء هاتين القصيدتين شعراً حاسياً ضد حملة الصليب مع أنه عاش حتى سنة ٥١٧ مما يجعلنا نظن ظناً أن شعراء الشام في الربع الأول من القرن السادس على الأقل قصّروا في استثارة الأمة ضد حملة الصليب حيثئذ . وله في هذه الفترة التي عاشها بعد غضب الدولة مدائح في بعض الرؤساء والوزراء ورجال الشرطة الدمشقيين وغيرهم من الأعيان والقواد ، وآخر قصيدة له نظمها في مرضه الأخير يسترقد ابن الفلانسى المؤرخ ، وفيها يثنى على أدبه وكتابته بمثل قوله .

له فِقرٌ لو تَجَسَّدَنَ لم يُفَضِّلَنَ إلا بَيْنَ العُقُودِ  
فَيُظَلَمَنَّ إن قِيلَ نَوْدٌ نَصِيرٌ وَيُحَسِّنَ إن قِيلَ دُرٌّ نَفِيدٌ

ويبدو من شعره أنه كانت له مجالس مع بعض الأدباء يتنادمون فيها على الشراب ويسترسلون في اللهو والطرب بسماع بعض المغنين ، كما كانت له نُزْهٌ مُكثِرةٌ في الخوطة وبساتينها ، ويبدو أنه كان يولع بلعب الثرد مع بعض رفاقه ، وله فيه قصيدة بديعة بديوانه ، رواها الهاد الأصهباني في خريدته . وواضح أن شاعرية ابن الخياط كانت شاعرية خصبة كما يتضح من طول قصائده ومن لغتها الجزلة الناصعة دون تكلف للغراب أو ما يشبه الغراب ، ومع جمال للموسيقى والجرس الصوتي وأنغامه ، ومع تصاويره المبتكرة القلقة .

### ابن القيسراني<sup>(١)</sup>

هو أبو عبد الله محمد بن نصر ، من سلالة خالد بن الوليد البطل العظيم ، ولد بمكة سنة ٤٧٨

الدين زنكى وابنه نور الدين محمود والشهوات ١٥٠/٤  
وصدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني للدكتور محمود  
إبراهيم وتوجد مخطوطة من ديوانه - وهي مختارات منه -  
بمركز الكتب المصرية .

(١) انظر في ترجمة ابن القيسراني وشعره الحريدة ( قسم  
الشام ) ٩٦/١ وابن الفلانسى : ٣٢٢ و امرأة الزمان لسبط  
إبر الجوزى ( طبع جيل آباد ) ٢١٣/٨ ومجمع الأدباء  
٤٥٨/١٩ وغير اللهي ١٣٣/٥ وابن خلكان ٤٥٨/٤  
ونجوم الزاهرة ٢١٣/٥ والروضتين ٥١/١ في حروب حماد

وانتقل به أبوه وهو في صباه إلى قيسارية<sup>(١)</sup> ، فَنسب إليها وقيل ابن القيسراني إذ نشأ بها ، ويبدو أنه هاجر منها مبكرا بعد استيلاء حملة الصليب عليها سنة ٤٩٤ وأبعد في هجرته إلى الشمال إذ نزل حلب ، وأقام فيها طويلا ربما نحو عقدين من الزمن ، ثم نزل دمشق . والقلماء مختلفون منهم من يقول إنه نزل حلب أولا ثم نزل دمشق ، ومنهم من يقول بل نزل دمشق ثم نزل حلب ، ودفعنا إلى ترجيح الرأي الأول أننا سنجده عما قليل أهم شاعر شامي عُني بتصوير البطولة العربية في القتال بحملة الصليب منذ سنة ٥٢٣ للهجرة وقد تجاوز الأربعين من عمره . وكانت دمشق كثيرا ما تشبكت مع الصليبيين في حروب وتردهم على أعقابهم خاسرين كما حدث في عهد حاكمها طغتكين سنة ٥٠٢ ويعود طُغتكين مع مودود صاحب الموصل إلى كسرهم على طبرية سنة ٥٠٧ واستطاع أن يهزمهم في البقاع سنة ٥١٠ وهزم صاحب أنطاكية سنة ٥١٣ .

وكل هذه الأحداث والانتصارات العظيمة لطغتكين لا نجد لها أي ذكر أو صدى في شعر ابن القيسراني مما يدل على أنه كان غائبا عن دمشق طوال هذه المدة . على كل حال يدل غياب هذه الأحداث السالفة على أنه لم يكن بدمشق في أثنائها وأنه نزل حلب أولا وأقام بها حتى نهاية العقد الثاني من القرن السادس ثم نزل دمشق بعد ذلك . ويدل دلالة قاطعة على أنه كان بها في عهد بوري بن طغتكين (٥٢٢ - ٥٢٦ هـ) أننا نجده ينشد أولى قصائده في الحروب الصليبية حين هزم حملة الصليب على أبواب مدينته في أواخر سنة ٥٢٣ وفيها يقول :

وافوا دمشقَ فظنوا أنها جنةٌ ففارقوها وفي أيديهم المدمُ  
وغادروا أكثر القرى والمجفلوا وخلفوا أكبر الصُّلْبَانِ وانهمزوا<sup>(٢)</sup>

وكان - كما قال مترجوه - يتولى في أثناء مقامه بدمشق إدارة الساعات بها إلى أن تولى شمس الملوك بن بوري (٥٢٦ - ٥٢٩ هـ) حُكْمها ، فاصطدم به ابن القيسراني ، مما جعله يهجو ، وعلم بهجائه فضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وفر منه بعيدا إلى العراق . وترك العراق سريعا إلى حلب حين سمع بانتصارات عماد الدين زنكي على حملة الصليب واستيلائه منهم على المرة وبيزن ، وتأكيد صلته به منذ سنة ٥٣٤ إذ نجده يشيد بانتصاره على جموع الصليبيين واستيلائه منهم على حصن بارين غربي حلب في الطريق إلى حماة ، ويشعر في عمق ببطولة العرب وعماد الدين قائلا :

(٢) المجفلوا : تشدروا

(١) كانت نغرا كبيرا من نغرا فلسطين .

حَلَارِ مَا وَأَتَى بِنُفْعِ الْحَلَّةِ وَفِي الصَّوَارِمِ لَاتْنِي وَلَا تَلْزِ  
وَأَيْنَ يَنْجُو مُلُوكُ الشُّرْكِ مِنْ مَلِكُو مِنْ خَيْلِهِ النَّصْرُ بَلْ مِنْ جُنْدِهِ الْقَتْرُ

ثم يكون نصر حماد الدين العظيم باستيلائه على الرها من يدجوسلين وهو حار هذه المملكة أو الدولة التي أقامها الصليبيون شمالي العراق آمليين في الانحصار منها إلى الجنوب ، وإذا حماد الدين يستولى عليها بيموشه ويطولته الحارقة سنة ٥٣٩ وتكون لذلك رنة فرح عظيم في نفس ابن القيسراني ونفوس المسلمين وينشد :

صَمْتُ قَيْلَةِ الْإِسْلَامِ فَخَرَا بِطَوْلِهِ وَلَمْ يَكُ بِسَمِ الدِّينِ لَوْلَا حِلَّةُهُ<sup>(١)</sup>  
مَصِيبُ سِهَامِ الرَّأْيِ لَوْ أَنَّ عَزَمَهُ رَمَى سُدَّ ذِي الْقَرْنَيْنِ أَصْمَى سِيَادَتُهُ<sup>(٢)</sup>  
قَتْلُ الْمُلُوكِ الْكَفَرِ تُسْلِمُ بَعْدَهَا مَالِكُهَا إِنْ السَّيْلَةُ بِلَادُهُ

ونرى ابن القيسراني - بعد هذا الفتح المبين - بنحو عام يزور أنطاكية ، ويقول الحماد إنه زارها لحاجة عرضت له ، ولالندرى هل كانت حاجة سياسية لأمر أو كانت حاجة شخصية ، ويطلب هل ظنت أنها كانت حاجة سياسية ، وللمهم أنه شُبَّ بِالْفَرَنْجِيَّاتِ وَبِرَاهِبَاتِ وَغَادَى فِي هَذَا التَّشْيِيبِ ، وَتَذَكَّرَ طَرَفًا مِنْهُ فِي حَدِيثِنَا عَنْ شَرَاءِ الْقَوْلِ . وعاد من رحلته إلى حماد الدين ووزيره جمال الدين بن أبي منصور ، وله فيه مدائح بديعة .

وتطورت الأمور سريعاً فقتل حماد الدين بيد آتمة ، كما أسلفنا وحمل لواء الجهاد بعده الملك العادل نور الدين ، وتفرجوسلين الأمانى ووقوف الأوفى معه ، فيعود إلى الرها ، ويخرجها منه نور الدين منكلاً بالأوفى ، ويهني ابن القيسراني الوزير ابن أبي منصور بهذا الانتصار قائلا :

لَيْهَنَكَ مَا فَرَجَ النَّصْرُ عَنْهُ وَمَانَالَهُ الْمَلِكُ الْحَادِلُ  
وَإِنْ يَكُ كَفَّحُ الرُّهَا لَجَّةً فَسَاحِلُهَا الْقُدْسُ وَالسَّاحِلُ

وحقا عظم الأمل في نور الدين أن يسرد للمسلمين القدس والمسجد الأقصى بل الساحل الشامي جميعه . ويحدث حملة الصليب في سنة ٥٤٣ جيشا كثيفا لهم في بقعة تسمى « بَيْتْرِي » ويسحق نور الدين محمود الجيش سحقا ذريعا ، وينشد ابن القيسراني :

مظفر في دمه ضميم طيه تاج الملك معقود  
وصارم الإسلام لايتنى إلا وشلو الكفر مقدود<sup>(١)</sup>

ويبدو العام ويحشد صاحب أنطاكية وحملة الصليب حشودهم عند حصن « أنب » ولقيهم نور الدين فحقهم محقا . وقُتل في المعركة صاحب أنطاكية البرنس العاني ، ولم يفلت من القتل إلا من خبر أهل أنطاكية من قومه بالاندحار والدمار . وجلجل ابن القيسراني بصوته منشدا نور الدين على جسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية قصيدة رائعة استهلها بقوله :  
هذي العزائم لا ما تدمي القصبُ وذي الكارمُ لامالأت الكتب<sup>(٢)</sup>  
أغرث سيوفك بالافرنج راجفة فؤاد رومية الكبرى لما يجب<sup>(٣)</sup>  
غضبت للدين حتى لم يفتك رضا وكان دين الهدى مرضاته القصبُ  
من كان يغزو بلاد الشرك مكسبا من الملوك فنور الدين مُحْتَبِ<sup>(٤)</sup>  
فأنهض إلى المسجد الأقصى بلدى لجبى يوليكَ أقصى المني فالقدس مرتقب<sup>(٥)</sup>

ولابن القيسراني مدائح أخرى لنور الدين يردد فيها مجده وانتصاره الحريين ضد حملة الصليب وما يأمله على يديه من رد بيت المقدس والساحل الشامي على أصحابها المسلمين . ودائما يحوط بهالة إسلامية هو جدير بها ، فقد كان يحارب في سيل الله لايتنى مفتا ، إنما يتنى ماعتد الله من الأجر والثواب ، حتى ليقول له ابن القيسراني في نفس هذه القصيدة السالفة .  
إلا تكن أحد الأبطال في فلك الـ تحوى فلا تتارى أنك القطبُ

وكانه يعده قطب تقوى وإنقاذ للشام وأهل الشام . ولم يرض ابن القيسراني حتى يمجّد بقية انتصاراته المجدية على الصليبيين ، إذ توفي قبله بنحو عشرين عاما سنة ٥٤٨ . وله مدائح في بني منقل وفي مجير الدين آبن إصاحب دمشق . ويقول المجاد إنه كان له معرفة بالمنطق وعلوم الأوائل وإنه كان يصنع للجناس أحيانا غير أن ذلك قليل في شعره ، فقد كان يطلب فيه النصاعة والسلاسة على غرار أستاذه ابن الخطاط فهو تلميذه وخرجه وراوى ديوانه .

(٤) محب : يحب أجره على الله

(٥) فوجب : الجيش . الجب : الصباح والجلبة .

(١) الشلو : الضربة القوية . مقدود : مشقوق

(٢) القصب جمع قصب : السيف القاطع

(٣) راجفة : تفتت بموت : يجب : يخشى



ابن<sup>(١)</sup> الساعاتي

هو بهاء الدين علي بن محمد بن رسم الدمشقي خراساني الأصل ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٥٥٣ هـ وكان ماهرا في صنع الساعات الفلكية ، وأنتم عليه نور الدين محمود إنعاما وافرًا حين صنع الساعات التي وُضعت على باب الجامع الأموي ، وأتاح له ذلك ثراء ، نعم به ابنه على إذ شُغف بالفروسية ويعرض ضروب اللهو مثل الزرد والشطرنج . ومثل لداته حفظ القرآن صبيًا واختلف إلى دروس العلماء والمؤدبين في الجامع الأموي ، ويبدو أن ابن سعيد خلط بينه وبين أخيه فخر الدين إذ قال إنه حين شبَّ أرسل به أبوه إلى البديع الأسطُرلاني بآمد ليتقن صناعة الآلات الفلكية ، وكأنه لم يلاحظ أن البديع توفي قبل ميلاده بنحو عشرين عاما . وربما أرسله إلى أحد أولاده . ونراه بعد فتح صلاح الدين لآمد يمثل بين يديه مادحا له بقصيدة لامية سنة ٥٧٩ يقول له فيها :

لولا مساعي صلاح الدين ماصلحتْ شُمُ الممالك بعد الزنبرج والميل  
فليعلم القدسُ أن الفتحَ منتظرٌ حلوله وعلى الآفاق قَلْبُلُ<sup>(٢)</sup>

وتحققت سريعا نبوءته بفتح القدس ، ونراه بين من حَفُّوا بصلاح الدين في موقعته الماحقة :  
موقعة حطين على خافة طبرية ، وله يهنئه بهذا النصر العظيم وما أنزل بحملة الصليب من ضربة قاصمة لم يفيقوا بعدها أبداً ، إذ كُتبت الكثرة منهم على وجوهها ، ووقع ملوكهم وصناديدهم في أسر البطل العربي ، وله يقول :

جَلَتْ عِزَمَاتُكَ الْفَتْحَ الْمِيثَا	وقد قَرَّتْ عِيُونَ الْمُؤْمِنِينَ
قَضَيْتَ فَرِيضَةَ الْإِسْلَامِ مِنْهُ	وَصَدَّقْتَ الْأُمَانِ وَالظَّنُونَا
فَأَلَمْتُ بِالسَّوَاهِلِ فَهِيَ صَوْرُ	إِلَيْكَ وَأَلْحَقِ الْهَامَ الْمُتُونَا <sup>(٣)</sup>
وَقَلْبُ الْقُدْسِ مَسْرُورٌ وَلَوْلَا	سُطَّاكَ لَكَانَ مَكْتَبًا حَزِينَا
أَدْرَتْ عَلَى الْفَرْنَجِ وَقَدْ تَلَاقَتْ	جُمُوعُهُمْ عَلَيْكَ رَحَى طَحُونَا

أنيس المقدسي ( طبع المطبعة الأميركاتبية - بيروت )

( ٢ ) بطول : يخرجه نيبا

( ٣ ) صور : ماقلة وناظرة . الهام : الزروس

( ١ ) انظر في ابن الساعاتي وشعره وفيات الأعيان لابن

خلكان ٣٩٥/٣ وعمر الذهبي ١١/٥ ودرآة الزمان : ٣٧٥

والنصرون البانعة لابن سعيد ص ١١٨ وشذرات الذهب

١٣/٥ وابن أبي أصيبعة ص ٦٦١ ومقدمة ديوانه بتحقيق

وذكر انتصارات صلاح الدين المجتاحة على حملة الصليب في يسان وغير يسان ، وتزاد له مدن الساحل الشامى ، وهى تنتظر عخلصها ومنقلها من الظلمة الأشرار ، وإن القدس ليكاد يطير فرحا فقد أصبح وشيك الخلاص ، وفلا لم تغض شهور حتى فُتحت أبوابه لصلاح الدين وصاد ، وعاد معه المسجد الأقصى إلى الإسلام والمسلمين ، وإنه ليصبح مبنجا فرحا :

لقد ساغ قُحُ القدس فى كلِّ منظرٍ وشاع إلى أن أسمع الأسْلُ الصُّما<sup>(١)</sup>  
ظلت فى الخطاب شاهدة قُحها فبشهاد أن السهم من يوسف أوصى  
حبا مكة الحُتى وكفى يثرب وأطرب ذباك الضريع وماضيا  
وأصبح نُفَر الدين جلدانَ باسما وألسنة الأغاد تُوسعه لُفما

لقد فُتح القدس عترة ، وإن قطعة السلاح لتكاد تسمع الصُّم ، وقد عاد المسجد وعادت فيه الصلاة وتكبيرات المسلمين وأذان المؤذنين . ويقرن فتح صلاح الدين للقدس فتحا حريا بفتح عمر بن الخطاب لها من قبل سلا . ويصور ابتهاج مواطن الوحى فى مكة ويثرب وابتهاج الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الفتح المبين ، وكيف عمت البهجة والفرحة القدس ثمر الدين ، وكأنما ألسنة الأغاد تعانقه وتقبله : تقبل كل ركن فيه . وله وراء هذه القصائد فى صلاح الدين ست عشرة قصيدة . ونراه بعد وفاته يلزم ابنه نور الدين صاحب دمشق فيمدحه بقصائد مختلفة ، غير أنه أخذ يشتم بالشام وعن حول نور الدين كما يتضح من قوله فى مدحة له :

أبكى الأيام مذ ضحكت لي عن نيوب نوابٍ عَصَل<sup>(٢)</sup>  
أفسدن خلقي لئالى فى الد سراه والضراء من خِلْ

وكان هذا الشعور بأنه لم يعد له صديق وفى فى موطنه سببا فى أن يشد رحاله إلى القاهرة فينزل بها ويتخذها دار مقام له حتى وفاته سنة ٦٠٤ وشعر فيها بأنه حياته أصبحت رغبة ناعسة وذكر ذلك مرارا فى شعره ، وكان قد وطلد علاقته بكثيرين من كبار رجال الدولة ، وفى مقدمتهم القاضي الفاضل وله فيه اثنتا عشرة قصيدة . وبمجرد أن وضع قدمه فى القاهرة أصبح من ندما العزيز عثمان بن صلاح الدين حتى وفاته سنة ٥٩٥ وله فيه أكثر من ثلاثين مدحة . وربما كانت أيام العزيز أسعد أيامه بمصر . وهو يصور فى مديحه منادته له ومجالس أنه . وله مدائح فى السلطان

العادل أخى صلاح الدين ، ولكن تنقصها الحرارة . وقد عاش بمصر يمتلئ بمشاهد الطبيعة وصَوَّر ذلك في كثير من شعره ، وفي دار الكعب للصرية ديوان له خاص بمقطعات النبل يبدو أنه اختيارات من ديوانه ، وسند ذكر بعضا من قصائده في طيعة دمشق وطيعة مصر وأبضا بعضا من خمراته .

### الشهاب <sup>(١)</sup> محمود

هو محمود بن سليمان بن فهد الدمشقي الحنبلي ، ولد بدمشق سنة ٦٤٤ هـ وعنى بترسيه أبوه وكان فقيها حنبليا ، حفظ القرآن صيا . وأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء الحنابلة والطماء المختفين مثل ابن مالك في النحو وابن الظهير الإربلي في الأدب وعليه تدرب فيه ، وكان يحلّه ويوده مودة عظيمة ، حتى إذا توفى سنة ٦٧٧ بكاه بقصيدة يقول فيها :

بكنه محالٍ ولم يرَ قبله كريمٌ مضى والمكرّماتُ نوابه

وربع محمود في الأدب حتى فاق أقرانه مما جعل القائلين على ديوان الإنشاء في دمشق يعينونه فيه وهو في نحو الثلاثين من عمره ، وظل فيه حتى سنة ٦٩٢ إذ نقل إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة بعد وفاة محيى الدين بن عبد الظاهر ، ورأس هذا الديوان في عهد السلطان بيبرس البندقدارى سنة ٧٠٨ حتى إذا توفى عبد الوهاب بن فضل الله العمري صاحب ديوان الإنشاء بدمشق نُقل إلى وظيفته هناك وظل قائما عليها حتى توفى سنة ٧٢٥ . ومعنى ذلك أنه كان أديبا كاتباً محسنا وظل يعمل بديوان الإنشاء في دمشق والقاهرة نحو خمسين عاما . وله في الكتابة الديوانية كتاب جيد يسمى « حسن التوسل » غير أننا رأينا أن نسلكه بين الشعراء لأنه كان شاعرا متوقفا كما كان كاتباً بارعا ، بل أهم من ذلك أنه الشاعر الشامي الوحيد الذى صور حروب الظاهر مع التتار وحروبه وحروب قلاوون وابنه السلطان الأشرف خليل مع حملة الصليب تصويرا بديعا مما جعل ابن تقي بردى يقتصر في أغلب الأمر على وصفه لمبارك هؤلاء السلاطين .

وأول سلطان أشاد الشهاب محمود بانتصاراته الظاهر بيبرس وكان قد علم بمشود للتتار شرق

والتابع من النجوم الزاهرة . انظر فهرس تلك الأجزاء  
والبدية والنهاية لابن كثير ١٢٠/١٤ والدرر الكامنة لابن  
حجر ٩٢/٥ والدارس في تاريخ المدارس لشمس ٢٣٦/٢

(١) انظر في الشهاب محمود وشعره فوات الوفيات لابن  
شاکر في ترجمته ٥٦٤/٢ وترجمة الظاهر بيبرس ١٦٤/١  
وترجمة الأشرف خليل ٣٠٥/١ والجزء السابع والثامن

الفرات فرحاً إليهم من الشام يجيش جرار وخاض إليهم الفرات وفك مجموعهم وكاد أن لا يبق  
 باقية منهم . وعاد الملك الظاهر إلى دمشق سؤزراً منصوراً ، وأنشده الشهاب قصيدة طنانة يقول  
 فيها :

سِرَّ حَيْثُ شَتَّ لَكَ الْمُهَيَّمُ جَارُ      وَاحْكُمْ فَطَوَّعَ مَرَايِكَ الْأَعْدَارُ  
 خُضَّتِ الْفُرَاتُ بِسَابِغِ أَقْصَى مَتَى      هَوَّجَ الصَّبَا مِنْ نَمْلِهِ آثَارُ  
 حَمَلْتُكَ أَمْوَاجَ الْفُرَاتِ وَمَنْ رَأَى      بَحْرًا سِوَاكَ تُحْمَلُهُ الْأَنْهَارُ (١)  
 رَشَّتْ دُمَاؤُهُمُ الصَّعِيدَ ظَمَّ يَبْرِ      مِنْهُمْ عَلَى الْجَيْشِ السَّجْدَ غِبَارُ

ولم يلبث التار أن حشدوا جميعاً لهم سنة ٦٧٥ وأبلىتهم جموع من عسكر الروم ، وتعاقبوا  
 على منازلة يبرس ، وحلم بذلك المجموع فباغتها محيطاً بها من كل جانب ، وقاتلت قتال الموت ولم  
 يبق ذلك منها شيئاً ، إذ كان يقتحم مع جنوده البوادل كالأهد الضارية إلى أن انكسر  
 التار والروم وفروا متحصنين بجبال وراهم ، وأحاطت بهم الصاكر المصرية وقتلت منهم مظنة  
 عظيمة وفي ذلك يقول الشهاب محمود :

كَلَّا فَتَكُنْ فِي أَفْئِ غَضَى الْعَزَائِمُ      وَلَا فَلَا تَجْنُوَ الْجَفُونَ الصَّوَارِمُ (٢)  
 يَجِيشُ تَظَلُّ الْأَرْضُ مِنْهُ كَأَنَّا      عَلَى سَمَةِ الْأَرْجَاءِ فِي الضِّيقِ خَاتِمُ  
 يَحِيطُ بِمَنْصُورِ الدَّوَاءِ مَظْفَرُ      لَهُ النَّصْرُ وَالْأَيْدِ جِدُّ وَخَادِمُ  
 مَلِكُ بِهِ لِلدِّينِ فِي كُلِّ سَاحَةِ      بِشَائِرِ لِلْكَفَارِ مِنْهَا مَاتِمُ  
 مَلِكُ الْأَبْكَارِ الْأَهَالِمِ لَحْوِ      حَنِينُ كَلَّا تَهْوَى الْكَرَامَ الْمَكَارِمُ

وسنذكر في جزء مصر أن الظاهر يبرس استولى على كثير من بلدان حلة الصليب وحصونهم  
 مثل قيسارية وصفد والرملة وياقا وأنطاكية مزبلاً منها مملكتهم ، ولم يلبث ابن تفرى بردى شيئاً  
 من شمر الشهاب محمود في هذه الفتوح الضخمة . وسير السلطان قلاوون سيرة الظاهر في منازلة  
 الصليبيين ، ويستولى على طرابلس مملكتهم الثالثة التي أسسوها بعد مملكة بيت المقدس ، وبذلك  
 تكون جميع ممالكهم التي شادوها سقطت من قواعدها ولم يبق في أيديهم إلا عكا وصور وصيداء

وبيروت وبعض حصون قليلة ، ولم يلبث قلاوون أن استولى منهم على حصن المرقب ، ومجد فوجه الشهاب محمود قاتلا .

الله أكبر هذا الثَّصْرُ والظَّفَرُ هذا هو الفتح لاماتزم السير  
هذا الذي كانت الآمال إن طمحت إلى الكواكب ترجوه وتنتظر  
فأنهضُ ويرِزْ واملِك الدنيا فقد نَحَلْتُ شوقا متابرها وارتاحت السرر<sup>(١)</sup>  
إن لم يَوْفِ الْوَرَى بالشكر ماضحت بذاك فالله والأملاك قد شكروا

وخلف قلاوون ابنه « السلطان الأشرف خليل » ، وكان بطلا شجاعا مقداما وكان مخوف السلطنة قوى البطش ، وعمجد أن استقلت سنة ٦٩٠ بعد جلوسه على عرش السلطنة بقليل تأهب لحصار عكا ، فجمع الصناع لعمل آلات الحصار وخرج بمساكره من الديار المصرية حتى أحاط بعكا في شهر ربيع الآخر ، وكان المتطوعون أكثر من الجند ونصب عليها المجانيق ، ولم يلبث أن زحف عليها يمشيه الجرار ودخلها بعد قتال عنيف . وطلب حملة الصليب البحر المتوسط فجمعهم الجنود الإسلامية تقتل وتأسر فلم ينج منهم إلا القليل . وعصى الداوئية والإسبتارية في أول الأمر معتمدين بأبراج عالية ، غير أنهم اضطروا إلى التسليم ، ومن غريب الصدف أن فتحها تم في السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ بالساعة الثالثة من النهار في نفس الموعد الذي كانت قد سقطت فيه بيد حملة الصليب سنة ٥٨٩ . وفي هذا الفتح المبين ينشد الشهاب محمود قصيدة بديعة مهتة « الأشرف خليل » مفتحتها لما بقوله :

الحمد لله ذلَّتْ دولةُ الصُّلْبِ وعَزَّ بالترك دينُ المصطفى العربي  
هذا الذي كانت الآمال لو طلبتْ رؤياه في النوم لاستحيَتْ من الطلب  
ما بعد عكا وقد هُذَّتْ قواعدها في البحر للشرك عند البر من أرب<sup>(٢)</sup>  
لم يَتَّقْ من بعدها للكفر مذ خَرَّتْ في البحر والبر ما ينجي سوى الحرب  
يا يومَ عكا لقد أنسيتْ ماسِقتْ به الفتوح وما قد خُطَّ في الكتب  
بُشْرَاك يا ملكَ الدنيا لقد شرفتْ بك الممالكُ واستعلتْ على الرُتب

وتفتح أبوابها مدينة صور لجند السلطان وسلمها إليهم حملة للصليب وتليا مدينة صيدا

وقلعة جليل وحليل وأنطربوس وبيروت . ويدور العام ويسرى الأشرف على بقية حصونهم وعد  
فروحه إلى الشرق ويستول على قلعة الروم غربى الفرات ، ويسته الشهاب محمود بهذا النصر المتوالى  
قائلا من مدحة طويلة .

وَفُتِحَ بَدَا فِي إِثْرِ فَتَحِ كَأَنَّمَا سَمَاءُ بَدَتْ تَرَى كَوَاكِبَهَا الزُّهْرُ

وعلى هذا النحو سجل الشهاب محمود فتوحات السلاطين الثلاثة : الظاهر بيبرس وقلاوون  
وخطيل تسجيلا رائعا . وله وراء هذه المدائح الحماسية مدائح نبوية جمعها في ديوان سماه : « أهتا  
المنايح في أسنى المدائح » وهو مفقود ، وستشد له قطعا في حديثنا عن شعراء التصوف والمذبح  
النبوى .

### منجك<sup>(١)</sup> بن محمد بن منجك

شركسى دمشقى نشأ في بيت نعمة ، فكان أميرا ابن أمير . ولد سنة سبع بعد الألف للهجرة  
وتوفى سنة ١٠٨٠ ونشأ مثل لداته الدمشقيين يعنى بالعلم والتعليم ، حفظ صغيرا القرآن الكريم ،  
حتى إذا شب عن الطوق أخذ يخطف إلى طمء دمشق ، أخذ القراءات على الشيخ عبد الرحمن  
العادى والحديث النبوى عن الشيخ الشهاب أحمد الوطلى ، وأبى العباس المقرئ . أما الأدب  
الذى شغف به منذ نشأته فقد أخذ عن أحمد بن شاهين . وكان كريما مسرفا مبالغا في إسراره ،  
فأنفق ماخطفه له أبوه ، حتى إذا تَرَبَّتْ يداه وضاعت به دنياه ولّى وجهه نحوإستانبول ، ولكنه لم  
يحقق فيها ماكان يأمله فعاد إلى دمشق ، ولم يلبث أن خالط أصدقاءه القدماء . وله ديوان شعر  
جمعه فضل الله الهبى والد صاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر بأمر من مفتى الدولة  
العثمانية : حسام زاده ، وله فيه مدائح كثيرة . وديوانه يحمل كثيرا من المدائح والغزليات  
والحزريات ، وأكثر مدائحه في الفقهاء والعلماء من شيوخه وغير شيوخه ، وفي مقدمة من مدحهم  
شيخه في القراءات عبد الرحمن مفتى دمشق وفيه يقول :

تَدَى أَنَامُلُهُ وَيُسْرَقُ وَجْهُهُ      فَبَجُودُ بِالْأَلَاءِ وَالْأَلَاءِ  
يَقْظُ لَأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا      جَلِيَتْ عَلَيْهِ حَقَائِقُ الْأَشْيَاءِ

طبعت المطبعة الحنفية بدمشق عتبارات من ديوانه باسم  
ديوان منجك .

(١) انظر في منجك ربحانة الألبا طبعة موسى الحلبي  
٢٣٢/١ وخلاصة الأثر ٤٠٩/٤ وضحة الربحانة ، وقد

ومهابة سادَ الولاة ولاؤها محضوةً بجلالته وبهاء  
وشائله رقت كما خطرت على زهر الربيع بواكر الأنداء

والصباغة رصينة جزلة ، والألفاظ عتارة متخبة . وللعاني مكررة في المديح التقلیدی ، غم  
أن الشاعر يحاول أن يخرجها إخراجاً طريفاً على نحو ما يتضح في البيت الأول الذي جمع فيه بين  
الكرم والبشر المزرق في وجه المملوح ، وبملك جله يحود بالأكلاء والنم كما يحود بلألاء الوجه  
وإشراقه وما يمرى فيه من بشر بهيج . والجناس بين الأكلاء والألاء جناس بديع . وواضح كيف  
لأم في البيت الثاني بين معناه وبين المملوح وكان مفتياً للمعنى ، فوصفه بالفتنة ودقة الحلس ،  
وبمثل البيت الثالث وما جمع فيه بين المهابة والجلالة والبهاء مع حسن الصباغة . وقل ذلك نفسه  
في البيت الرابع فشائل. المعنى رقيقة عطرة كزهر الربيع بأكرته النسيم والأنداء .

وولى القضاء في دمشق والشام حسام زاده قبل توليه منصب الإفتاء في الدولة العثمانية وهم  
فضله وبره أدباءها ، وله ألف البديعي كتابه : « هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام » ، و« الصبح النبوي  
في الكشف عن حبيبة المتنبي » ويقول منجك في تهته له بالمد :

آلى الزمانُ عليه أن يُوليَكا يثنى عليك ولا يأنى بثنابكا  
إذا سَطَا فبأحكام تنفَلُها وإن سَخَا فبِفَضْلٍ من مساهبكا  
من ذا يُضاهيك فيما حُزَّتْ من شرفٍ ومن يُدَانِك في جَلَمٍ وبَحْكِيكا  
أعيادنا كلها يوم نراك به ولبلة القَدْرِ وَقْتُ من لياليكا

والملازمة بين معاني الأبيات ومنصب المعنى - وكان حيثل قاضياً بدمشق - واضحة ، والمبالغة  
واضحة في البيت الأول ، ولكن الشاعر خففها بالجناس بين « يثنى وثنابكا » وعاد إليها بقوة في  
البيت الأخير ، وكان يكفيه أن تكون أيام لقائه للقاضي أعياداً ، ولكنه أتى إلا المبالغة المرسقة إذ  
جعل ليلة القدر وقبول الدعاء بها ممن يحظون برؤيتها وقت من ليالي الشيخ . ولأريب في أن  
صباغته ناصعة ، وأنه يظلب على شعره السلاسة ، مع ما يورثه به من جناس وطباق كما في البيت  
الثاني . ودانما عسنت البديع عنده مقبولة ، ولما يمازجها الثقل والتكلف . وله مدحة في أستاذه  
المفتي - وهو صاحب نفع الطيب - ويذكر أنه قرأ عليه كتاب « الشفاء » وهو في مدح المصطفى  
سيد المرسلين ، وتعمج المدحة بإجلاله لعلمه وتقواه ، يقول :

يقضى النهارَ بآراه مسددةً ويقطع الليلَ نسيحاً وقرآنا

وتلقانا وراء مدائحه في الديوان وعند من ترجعوا له ألتاز ، ومعروف أن الشعراء كانوا قد أخطوا يتلاعبون بها منذ القرن الخامس الهجري ، وكثرت زمن المالك والمثاني . وله غزليات وعصريات بديعة ، سندكر منها بعض أبيات في غير هذا الموضع .



### شعراء الفلسفة والحكمة

نشيع الحكمة في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي على نحو ما نجد عند زهير ، فقد ضمن مطلقته طائفة كبيرة من الحكم ، وكأنهم أرادوا أن يصوروا المعاصرين عبرتهم بالحياة وإدراكهم لتجاربها حتى يتغنوا بذلك أكبر نفع في فهم شئون الدنيا وشئون الناس وأحوالهم في سلوكهم . ومضى الشعراء بعد العصر الجاهلي بما يكون الجاهليين في تغطية أشتارهم بظك الحكم ، حتى إذا كان العصر العباسي أخذ الشعراء يضيفون إلى تراثهم من الحكم حثا جديدا من حكمة الفرس والهنود واليونان ، وأخذ التابعون منهم يمتثلون على حقولهم الخصبة في استخلاص الحكم من خبراتهم بأحوال الدنيا والناس ، حتى ليبلغ بعضهم من ذلك أن تُخصى حكمه بالمشترات ، بل أحيانا بالثبات على نحو ما عرف عن أبي تمام الشاعر اللامع ، فقد أحصى بعض لبلاغيين حكمه فوجدوا ثلاثمائة وأربعة وعشرين بيتا سوى تسعين شطرا . وعاش للتبتي أكثر سنوات عمره في الشام وبواديها وقد بلغ الذروة في تضمين مدائحه حكما رائجة ، وأحصاها البلاغيون ، فوجدوها أربعائة ، سوى مائة وثلاثة وسبعين شطرا . ولكثرة ما يتناثر في شعره من حكم أفردتها بعض الأصناف بالتأليف ، وحاول بعض النقاد الوصل بينها وبين حكم أرسطو ، وهي مبالغة مفرطة في التصور إذ أكثر حكمه من غمار خبراته بالحياة عبرة فلة . وظل شعراء الشام يستظهرون - بعد التبتي وأبي تمام - الحكم في جوانب من أشتارهم ، ولم تلبث الشام أن أهلت إلى الشعر العربي حكما وفيلسوفيا كبيرا ، هو أبو العلاء التوفي سنة ٤٤٩ هـ وسترجع له حيا قليل .

وكان الطُّغرائي قد لعل اسمه بنظمه لامية المعجم ، وقد صاغها جميعا حكما وأمثالا على طريقة مزدوجة أي المتاهية التي سماها ذات الأمثال ، والتي ضمنها أربعة آلاف مثل . ولامية الطُّغرائي لا تبلغ مبلغها في حشد آلاف من الأمثال ، وليست من بحر الرجز وإنما هي من البسيط على شاكلة نونية البُنى المشهورة . وقد أصبح تقليدا عند كثير من شعراء الشام وغيرهم أن ينحسوا بعض



قصائدهم برصف طائفة من الأمثال والحكم ، ولابن منير الطرابلسي قصيدة من ههنا الطراز يقول فيها <sup>(١)</sup> :

وإذا الكريم رأى الخمول نزلةً في منزله فالخزم أن يرحل  
كالبر لا أن تضاعف جد في طلب الكمال فحازه متقلًا  
سمها لحلمك أن رضىت بمشرب رنق ورزق الله قد ملأ الملا  
فارق ثرق كالسيف سل فبان في متبته ماغنى القرب وأخمل  
للقفر لا للفقر ههنا إنما متناك ماغناك أن تتولا

وهي أمثال وحكم يراد بها النصح لسلوك الشخص الكريم على نفسه في الحياة . فلا يرضى بمزلة هون ، بل يرحل ويتقل ، فكالم البدر وهز الشخص في تنقله . ويحذر من يرضى المشرب الكدر ورزق الله قد طبق الملا أو الأرض وملأها بالطيات ، وهل يقطع السيف إلا بعد أن يسلم من قرابه أو غمده ، وعار ما بعده طار أن يخضرع الشخص ويتذل للإنسان مثله ، ولأن يركب القفر المطلب الخراب خير من أن يقف بباب .

ودأما تلقانا هذه الحكم في تضاعيف قصائد الشعراء ومقطوعاتهم ، وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة منها طائفة جرت على ألسنة أطباء الشام ، ويلقانا منها أيضا مشثورات في كتب التاريخ كقول الشيخ شمس الدين الحمصي <sup>(٢)</sup> :

الدهر كالطيف بؤساء وأنعمه عن غير قصد فلا تحمد ولا تلم  
لاتسأل الدهر في البأساء يكشفها فلو سألت دوام البؤس لم يدم

فكل شيء حائل وزائل ولا دوام لضر أو نفع ولا لبؤس أو نعيم ، ولا تدخل الدهر في شيء من ذلك ، ولا بأس مع رحمة الله فلا بؤس يدم ولا ضر يدم . وربما كانت أروع قصيدة من قصائد هذه الأمثال والحكم في العصر المملوكي قصيدة عمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة وهي في أكثر من سبعين بيتا . وفيها يقول <sup>(٣)</sup> :

(٣) الكشكول لباء الدين النمل (طبعة مصرى البان  
الجلد) ٣٠٦/١

(١) ابن خلكان ١٥٦/١  
(٢) النجوم الزاهرة ٣٤٥/٧

اعتزل ذكر الأغاني والغزل. وقيل الفضل وجانب من هزل  
 وأنتي الله قصوى الله ما مازجت قلب امرئ إلا وصل  
 قاطع الدنيا فمن عاداتها تخفض العالی وتعل من سفل  
 لا تقل أصل وفضل أبدا إنما أصل الفنى ما قد حصل  
 مل من النمام واهجرة فا بلغ المكروه إلا من نقل

والقصيدة جميعها على هذه الشاكلة حكم وأمثال ونصائح غالبية وكأنها أعلام تهدي الإنسان في سلوكه الطريق القويم . ويظل الشعراء بعد ابن الوردي ينظمون مثل هذه الحكم أيام الممالك وأيضاً أيام العثمانيين ، إذ نقرأ لبعض الشعراء حكماً وأمثالاً متشعبة في أشعارهم وتراجمهم ، كقول حسين بن أحمد الجزري الحلبي المتوفى سنة ١٠٣٤ للهجرة (١) :

حافظ عندك الأقربين من الودي فاضرها القرباء والقرباء  
 وتوفى من كيد الخدود ولين ما يئدى فقد يصدى الحسام الماء

ويذكر ابن معصوم لشاعر يسمى نجيب الدين علي بن محمد العامل رحلة أودعها أشعاراً على طريقة ديوان الصادح والباغم لابن المبارية ومافيه من حكم ومعان خلفية تهذيبية ، ويسوق ابن معصوم طائفة من حكمه كقوله (٢) :

المرة لا يسلم من حاسد أو شامت في البئر والوشر

وتكرر الحكم أيضاً في كتاب نفحة الريحانة للمحبي ، وهي من قديم كثيرة في الشعر العربي كما أسلفنا . وحرى بنا أن نقف قليلاً عند أبي العلاء أكبر شعراء الحكمة والفلسفة لافي الشام وحدها بل في العالم العربي جميعه . ونتلوه بكلمة عن منصور بن مسلم .

## أبو العلاء<sup>(١)</sup> للمعري

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان الثنوي ، ولد في ربيع الأول سنة ٣٦٣ للهجرة في بلدة نسي «مَعْرَة النعمان» من أعمال حمص بين حلب وحماة ، وإليها ينسب ، واشتهر بكنته «أبي العلاء» وفي ذلك يقول :

دُهِبْتُ أبا العلاء وذلك مَيَّنْ ولكنَّ الصحيحَ أبو الثَّوْلُو

وأسرته تنحدر من قبيلة كُتُوخ إحدى القبائل العربية الجنوبية ، وما إن بلغ الرابعة من عمره حتى اعتلَّ علة الجدري وذهب فيها بصره ، وكان يقول : « لا أعرف من الألوان إلا اللون الأحمر لأنَّ أَلْبَسْتُ في الجدري ثوبا مصبوغا بالمُصْفَر ، لأعقل غير ذلك » . وكان يته قضاء وعلم وشعر ، إذ ظل قضاء المعرة طويلا فيهم ، ولم يهم ياقوت في ترجمته له بمجمع الأدباء وذكر لهم طرائف من أشعارهم . وطبيعي أن يقتدى بهم فَيُكَيِّبُ بعد حفظه القرآن على كتب الدين الحنيف واللغة . وأيضاً فإنَّ قفده لبصره مبكرا جعله يُقَتِّي بطلب العلم . وتلمذ على أبيه أولا ومَنْ في بلدته من تلامذة ابن خالويه ، ولم يلبث حين أخذ ماعندهم جميعا أن رحل إلى حلب وحضر على علمائها وعاد منها وهو في نحو العشرين من عمره سنة ٣٨٤ . وحين بلغ الثلاثين من عمره سأل ربه إنعاما ، ورزقه صوم الدهر ، فلم يفطر في السنة والشهر إلا في الميدين .

ورحل إلى بغداد في أواخر سنة ٣٩٨ وبق بها نحو سنة وسبعة أشهر ، وكان من أسباب هودته منها سريعا نشوب خصومة بينه وبين المرتضى العلوي أخى الشريف الرضي بسبب تعصبه للمنتهى ، وأيضاً كان قد وصله خبر بمرض أمه ، فعاد عجلا ، ووجدها قد كُتبت نداء ربه . وأخذ نفسه منذ

والفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٦٥ وفتول في الشعر ونقده ص ١٠٧ وترجمته في دائرة المعارف الإسلامية ومطالعات لباس محمود القادس ٧٠ وأبو العلاء للمعري للذكورة عائشة عبدالرحمن ومقدمتها بتحقيقها رسالة الغفران . وطبع له سقط الزند بشرح مطهفة والأزويجات ورسالة الغفران والصاهل والناجح ورسائله بتحقيق الدكتور عبد الكرم خليفة وكذلك بتحقيق الدكتور إحسان عباس . وانظر الحضارة الإسلامية لمير ١١٠/٢ .

(١) انظر في ترجمة أبي العلاء وشعره مجمع الادباء ١٠٨/٣ وتعريف القدماء بأبي العلاء (طبع دار الكتب المصرية) وفيه كل ما كتب عنه تقريباً في المراجع القديمة ومن أهم رسالة الإنصاف والتمجيد في دفع الظلم والتجدي من أبي العلاء للمعري لابن القديم الحلبي وهي دفاع قوي عن وفق لما قيل من إلحاده . وانظر فيه كتاب تجديد ذكرى أبي العلاء لطف حسين (طبع دار المعارف) وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف ٣٥/٥ وكتب : كتب الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة العاشرة) ص ٣٧٦

هذا التاريخ في سنة ٤٠٠ هـ بجاية زاهدة خشة ملازما داره وبلدته لا يبرحها ، وإلى ذلك يشير بقوله :

أراني في الثلاثة من سجونى فلا تسأل عن الخير النيث<sup>(١)</sup>  
لفقدى ناظرى ولزومى نيتى وكونى النفسى فى الجسم الخيث

ثلاثة سجون أحاطت قضبانها به : سجن روحه فى جسده وسجن داره وسجن فقهه لبصره ، وظل يفرغ نحو خمسين عاما لنظم زومياته ولتأليف كتبه الكبرى ، ومر بنا أن حلب تبعت مصر منذ سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٥ وكان أول ولايتها للحاكم بأمر الله القاطمى عزيز الدولة فاتك الوحيدى وله ألف أبو العلاء كتاب الصاهل والشاحج متحدئا فيه على لسان فرس وبغل ، وقد حققته الدكتورة عائشة عبد الرحمن ونشرته دار المعارف ، ويقول ابن المديم إنه ألفه لفاتك بسبب حتى على بعض أقرباه . وله أيضا صنع كتابه « القائف » وهو أمثال على طريقة كلية ودمنة ، ولم يكبد يتم الجزء الرابع منه حتى توفى فاتك سنة ٤١٣ فعدل عن إتمامه . وولى حلب بعد فاتك سدد الدولة الكئامى سنة ٤١٤ وقدم له أبو العلاء الرسالة السندية فى مجلد واحد .

واحتفل صالح بن مرداس أمير حلب فى سنة ٤١٨ سبعين رجلا من المعرة هم مشايخها وأمائلها ، واجتاز صالح بالمعرة ، فخرج إليه أبو العلاء شافعا فيهم فقال له صالح : « قد وهبهم لك أيها الشيخ » . وحاد إلى داره وهو ينشد :

بُعثُ شفيعا إلى صالح وذاك من القوم رأى قد  
فيسمع منى . سجع الحمام وأسمع منه زير الأسد

ومنذ حبس نفسه فى داره أصبح ملاقا لطلاب العلم فى العالم العربى ، فهم يظنون عليه ويروحون يأخذون عنه كتبه وشروحه ، وبالمثل دواوينه وشروحها ، وكثيرا من كتب اللغة وفى مقدمتها كتاب غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام غير كتب لغوية أخرى كثيرة . ويقول ابن فضل الله العمري : « أخذ من أبى العلاء خلق لا يطمعون إلا الله عز وجل ، كلهم قضاة وأئمة وخطباء وأهل بحر ودبانات .. وكان له أربعة من الكتاب المبرزين يكتبون عنه ما يكتبه إلى الناس وما يملئهم من النظم والنثر والتصانيف والإجازات والسماح لمن يسمع منه ويستجيزه » . وعقد ابن المديم فى كتابه عنه المسمى « الإنصاف والتحرى » فصلا ذكر فيه مشاهير تلاميذه .

وكان أبو العلاء آية خارقة في الذكاء وقوة الحافظة حتى قالوا إنه كان يلعب النرد والشطرنج ، وإذا سمع حديثا بلغة غير العربية حفظه بحذافيره ، وقد تحول يعباً وبهلاً من ثقافات عصره حتى استوعبها جميعاً سواء المترجم عن اليونانية من فلسفة وغير فلسفة ، أو المترجم عن الفارسية والهندية فكل ذلك مضافاً إلى الثقافتين : الإسلامية والعربية تمثلهُ أبو العلاء تمثلاً حياً خصباً ، يرفعه إلى أعلى منزلة ، يتمثل صاحبها التراث الإنساني جميعه .

ومنذ سنّ الثلاثين اختار لنفسه صوم الدهر ماعدا أيام الأعياد كما أسلفنا ، واختار لنفسه معه حياة زاهدة ، وذكر ذلك في شعره إذ قال إن طعامه العدس والتين أو كما يسميها البلسن والبلس رافضاً ماوراءهما من طيبات الطعام ولذائذه ، إذ يقول :

يَقْنَعْنِي بُلْسُنُ يُمَارَسُ لِي      فَإِنْ أَتْنِي حَلَاوَةُ قَبْلَسُ

ويقول ناصر خسرو في رحلته المسماة « سفرنامه » إنه زاره سنة ٤٣٨ هـ فوجده في سعة من العيش مما جعل بروكلمان يشك في أنه عاش معيشة زاهدة . وهو قول مدفوع بإجماع من ترجموا له من القدماء : أنه كان يعيش معيشة زهد وتقشف ، حتى لتري القفطى - وهو أحد من تعاملوا عليه ورموه بالإلحاد - يقول : لم يكن أبو العلاء من ذوى الأموال ، وإنما خُلف له وقف يشاركه فيه غيره من قومه ، وكانت له نفس تشرف عن تحمل الحزن ، فبشي حاله على قدر الموجود ، فاقضى ذاك خشين الملبوس والمأكّل والزهد في ملاذ الدنيا ، وكان الذى يحصل له في السنة مقدار ثلاثين ديناراً قُدِّرَ منها لمن يخدمه النُصف ، وأبقى النصف الآخر لمثوته ، فكان أكله العدس - إذا أكل - مطبوخاً وحلاوته التين ، ولبسه خشن الثياب من القطن وفرشه من لباد ( صوف ) في الشتاء وحصيرة من البردى في الصيف ، وترك ما سوى ذلك . وربما كان هذا الدخل القليل من أسباب تركه لأكل اللحم ومستخرجاته من البيض واللبن ، لا اعتدلاً بمذاهب الحكماء ولا اتباعاً لمذهب البراهمة الهندى ، كما قيل ، بل لصيق ذات يده وإشفاقاً على الحيوان ، ولعله صنع ذلك مبالغة في الزهد ورفض طيبات الحياة .

وكان أبو العلاء يحسّ بعمق آلام الإنسان في دُنْيَاهُ ، ولعل ذلك ماجطه يحزف عن الزواج حتى لا يريزق بولد يكابد من دنياه ماكابهده وصريح بذلك قال :

هَذَا جَنَاهُ أَيْ عِلْمِي وَمَا جَنَيْتُ عَلَى أَحَدٍ

ويقال إنه أوصى بكتابة هذا البيت على قبره حين أوشك على مفارقة الدنيا في سنة ٤٤٩ هـ . وله

رسائل كثيرة جمع منها أخيراً الدكتور عبد الكريم خطيفة رئيس مجمع اللغة العربية الأورفي نحو أربعين رسالة ، ونشرها في ثلاث مجموعات ، بدأها بالرسالة المنجية التي أرسل بها إلى الوزير البغدادى أبى القاسم اللغوى وتلاها بالرسالة الإغرضية المرسلة إلى الوزير نفسه . ويبدو أنه أرسل بالرسالتين إليه بعد فراره لعهد الحاكم بأمر الله من مصر ، وسنعرض لهذه الرسائل في غير هذا الموضع . ولأبى العلاء أيضاً رسالة للملاحة وهي في مسائل التصريف ، طبعت قديماً بالقاهرة . ورسالة الغفران له مشهورة ، وسنلم بها ويكتابه الفصول والثبات في حديثنا عن النثر . وله « ملق السيل » في الوعظ والزهد ، وهو فيه يصوغ المعنى نثراً ثم يصوغه شعراً . وله ديوان صغير سماه الدُرَّحِيَّات وهو أشعار في وصف الدروع ، وقد طُبِعَ ملحقاً بديوانه الكبير سَقَطَ الرُّنْد .

ونقف قليلاً لتحدث عن السقط ثم عن ديوانه الكبير الثانى اللزوميات ، والسقط أول ما يبرز من نار الزند وشعره ، سُمى أبو العلاء ديوانه الأول بهذا الاسم إشارة إلى أنه أول ما نظم وصمم به خاطره فشبّه بالسقط . وهو يجمع شعر الصبا ومنه قصيدة نظمها في رثاء أبيه وهو في الرابعة عشرة من عمره وشعر الشباب وبعض شعره في الكهولة ومنه قصيدة نظمها في رثاء أمه وأخرى أرسل بها شاكراً مثنياً إلى خازن دار العلم يخذاد . وشرح أبو العلاء هذا الديوان وسمى شرحه « ضو السقط » وقد طُبِعَ في مصر قديماً . وطُبِعَت دار الكتب المصرية الديوان ومعه ثلاثة شروح : شرح لتلميذه التبريزى وشرح لأبى محمد البطليوسى الأندلسى وشرح لأبى الفضل قاسم الخوارزمى ، وهو في خمس مجلدات كبيرة . والديوان يكتظ بالمديح والرثاء والفخر والنسيب والوصف وأكثره في المديح ، وجمهورية في مديح أشخاص خياليين ، وذكر ذلك في مقدمته قائلا « لم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولا مدحت طلباً للثواب . وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السُّوس ( الطبع ) فالحمد لله الذى ستر بَخْفَةً ( بَلْفَغَةً ) من قوام العيش » . ونفس ممدوحه القليلين لم يوجّه إليهم مديحه - كما قال - طلباً للثواب أو النوال وإنما هم بعض أصدقائه كتبوا إليه فرأى أن يمجِّمهم شعراً ، وربما مدحهم شاكراً صنيحاً لهم على نحو ما ذكرنا من ثنائه على خازن دار العلم يخذاد واصفاً حونه الحميد له في أثناء تردده على تلك الدار ومكتبها الكبرى المشهورة . وطبيعى أن يخلو هذا الديوان من الهجاء والحقريات ووصف الصيد . وهو في الديوان - بعامه - يماكس المتنبي ، وكان يرفعه فوق جميع الشعراء ، وشرح ديوانه وسماه معجز أحمد بينا سَمَّى شرحه للديوان أبى تمام : « ذكرى حبيب » وشرحه لديوان البحرى « حبث الوليد » ويفجؤنا في الديوان فخر عفيف على نحو ما نقرأ في قصيدته :

ألا في سبيل المجد ماأنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل  
وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتي بما لم تستطع الأوائل

وهذا الصوت القوي المفاخر المباهي بالجد والعفوية يكاد يخفى بعد ذلك من الديوان ، إذ يعود أبو العلاء إلى صوته الحقيقي : صوت اليأس من الناس والحياة والمعركة بالدهر وتصاريق أيامه ولياليه . وهو يذكر الليل وظلمته كثيرا ، ولعل ذلك بسبب فقدته لبصره ، وأيضاً بسبب تشاؤمه وماحمل من أفعال الدنيا دون أن يجد معينا . وقد شكّا كثيرا من أنه لا يجد في الدنيا صديقا ولا أخا يُصفيه الوداد ، مع كثرة بغضه للانفراد ، حتى يقول :

ولو أنني حُيْتُ الحُلْدَ فَرَدًا لما أَحْبَبْتُ بِالْحُلْدِ انفرادا  
فلا هطلتْ عَلَيَّ ولا بَارَضِي سحائبُ ليس تنتظمُ البلادا

ويبالغ أبو العلاء في سوء ظنه بالناس في نفس هذه القصيدة الدالية ، فيقول إن الجزاء منزل عطارذ المنسوب إليه السُّلَم لو خبرت الناس خبرته وبلاده وجربت من كيدهم ما جرب وعرفت من خبث سرائرهم ما عرف لما طلعت عليهم ليلا ولا تراوت لهم مخافة أن يصل إليها كيد من كيدهم ، يقول :

فَطُنْ بِسَائِرِ الإِخْوَانِ شَرًّا ولا تَأْمَنْ عَلَى سِرِّ فُؤَادِ  
ظَلَمَ خَيْرُهُمُ الْجَوَازِ خَيْرِي لما طلعتْ مخافةً أن تُكَادَا

ومضى يخفف حدة التشاؤم الأسود المعتم ببروق كثيرة من الفخر ، فكانه في السؤدد فوق السموات السبع رضة وعلاء ، وإنه ليفلُ نوابغ الأيام وكوارثها وحده بقوته ومُضائِهِ . وفي رأينا أن أروع قصائد أبي العلاء في سقط الزند مرثية لأنها تفصل من ذات نفسه ومن أهمها مرثية لصديقه الفقيه .

غير مُجَدِّدٍ في مِلْقَى واعتقادي نوحُ بالكِ ولا تَرْنُمُ شادي  
وشيءُ صوتُ النُحْيِ إذا قِيَسَ بصوت البَشِيرِ في كل نادى

وواضح أنه يقول في مطلعها إن البكاء الحزين كالفناء الفرح دلالتها واحدة ، إذ سرعان ماتتحول البشارة بالمولود - مها طالت حباته - صراخا عليه ، حتى لكان الصوتين متشابهان أو محتططان اختلاط شجر الحمامة فلا يدرى السامع أنبكي محزونة أم تغنى مبتهجة . ويمضى

أبو العلاء في مثل هذه الأفكار العميقة طالبا من قارئه أن يخفف من وطء أقدامه على الأرض . لأن ترابها من أديم آباءه وأجداده ، وكأن الأرض مقبرة كبرى ، وكم من لحد فيها يضحك من تراحم الأضداد فيه بين صالح وطالح . ولا يلبث أن يقول إن الحياة كلها تعب وعناء وشقاء لأصناف له ، وإن الحزن على الميت والفجعة فيه لأضعاف السرور ساعة ميلاده . ولأبى العلاء مرثية ثانية يرى بها صديقا من أبناء عصمته ، وهي تكتظ بالحكم من مثل قوله :

لو عرفَ الإنسانُ مقداره . لم يَفْخَرْ المولى على عَبدِهِ  
أَضْحَى الذى أَجَلَ في سِتِّهِ مثل الذى حُوجِلَ في مَهْدِهِ  
ولا يبالى المَيِّتُ في قَبْرِهِ بِسِتِّهِ شَيْعَ أم حَصَدِهِ  
والواحدُ المَفْرَدُ في حَقِّهِ كالحاشدِ الكثيرِ في حَشَدِهِ  
وَرُبُّ ظِلْمَانَ إلى مَوْرِدِ الموتِ لو يعلمُ في وَرِيدِهِ

وديواته الثانية اللزوميات أو لزوم مالا يلزم هو الأهم لأنه يحمل فلسفته أو تفكيره الفلسفى بجميع أسسه وشعبه ، وقد تكلف فيه - كما يقول في مقدمته - ثلاث كلف : الأول أنه يتنظم حروف المعجم جميعها ، والثانية أن رويته يجرى بالحركات الثلاث ثم بالسكون ، والثالثة أنه التزم مع كل روى فيه شيئا لا يلزم من باه أوتاه أو غير ذلك من حروف . وقد أوضحنا في كتابنا الفن ومذاهبه في الشعر العربى أنه أضاف إلى هذه الكلف الثلاث كلفا كان يشغل بها الفراغ الطويل الذى نظم فيه اللزوميات إذ امتد الى نحو خمسين عاما . ومن هذه الكلف الدائمة ومنها العارضة أما الدائمة فاستخدامه للفظ الغريب وللجناس وقد التمس فيه ضروريا من التحقيد ، كما مررنا في غير هذا الموضع ، إذ يجانس تارة بين القافية وكلمة في البيت وتارة ثانية بينها وبين أول كلمة فيه وقد يضيف إليها حرفا أو أكثر من الكلمة التالية ليستم نسق الجناس . ويجانب هاتين الكلفتين الدائميتين في اللزوميات نجد كلفا عارضة من تصنعه الواسع لألفاظ التقافات المختلفة ، بحيث يبعد أول من وسع استعارة الشعراء لاصطلاحات العلوم والفنون في أشعارهم .

ومع كل هذه الكلف والصعوبات التى ضيق بها للمرءات إلى قوافى الديوان استطاع أن ينظم مجلدين ضخمين من الشعر ، ضمنها فلسفته أو تفكيره الفلسفى للتشائم وهو تفكير شغل فيه بإنسان عصره والإنسان عامة وبالقبضية التى طالما شغلت كبار للفكرين قضيبة الشر الذى يُصَب على الإنسان والحياة الإنسانية صبا دون أن يعرف أسبابه ودون أن يستطيع له دفعا أو ردًا . ويتسع به



التفكير في شرور الحياة الإنسانية وآلامها يستول عليه تشاؤم لا أول له ولا آخر ، كما يستول عليه بأس ينقل عليه نقلا طويلا ويملاً نفسه شقاء وعناء . وإذا كانت الحياة على هذا النحو من الشر فقيم إذن تلقى الأبناء لها من آباءهم وفيهم الزواج وهي شر متصل ، شر يؤذن دائما بالكوارث والخطوب وتلاحق الفواجع والنكبات ، ولا منقذ ولا مخلص :

وهل يَأْبَى الإنسانُ من مُلْكِ رَبِّهِ ويَجْرُجُ من أرضِهِ له وسماه

إنه أسير شرور الحياة وهو لا يستطيع منها فككا ولا خلاصا ، وحري به أن لا يتخذ ولدا حتى لا يرمى به في أتون هذه الشرور المهلكة . ولا تنشط أبا العلاء في لزومياته الشرور الكبرى التي تنفع دائما على عاتق الإنسان بل تشغله أيضا الشرور الصغرى التي تحيط بإنسان عصره ، وأى شرور ؟ شرور الحكم الفاسد لمصر والشام : حكم الفاطميين الذين أحاطهم دعائهم بهالة قلمية ، حتى زعموا أن قدرة الله انتقلت إليهم ، كثرت كلمة تخرج من أفواههم ، ولججوا في نعمهم بصفات الله حتى آمنت طائفة في زمن أبي العلاء بتجسد الألوهية في الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي . وهذا البهتان في العقيدة كان يروج له دعائهم وخطبائهم في المساجد ، وفي رأينا أنهم المقصودون بمجمل أبي العلاء على علماء الدين في أيامه بمثل قوله :

نادتْ على الدين في الآفاق طائفةٌ ياقومُ من يشتري دينًا بدينارٍ  
جئتوا كبارًا آثامٍ وقد زعموا أن الصغائر نجى الخُلْدُ في النار

وهو يتهمهم بأنهم باعوا باتباعهم المذهب الفاطمي دينهم بثمان نحس دراهم معدودة . وكما حمل على علماء الدين المروجين للعقيدة الفاطمية حمل على الصوفية لقولهم بالحلول ، وسخر كثيرا من ذكرهم وتواجدهم فيه ، وسماه رقصا ومن قوله فيه :

ترَبَّوْا بالتصوف عن خلدٍ فهل رَزَتْ الرجالُ أو احتسبتْ<sup>(١)</sup>  
وقاموا في تواجدهم فداروا كأنهم ثَمَالٌ من كُتِبَتْ<sup>(٢)</sup>

وهاجم اخفكام عامة الذين يرمقون الشعب بضرائب قاذحة ، دون أن يؤدوا بها أى نفع له أو أى مصلحة ، وفي ذلك يقول :

وأرى ملوكاً لا يحوط رعيّة فعلام تؤخذ جزية ومكوس

ويقول فيهم :

ظلموا الرعيّة واستجازوا كيدها فعلموا مصالحها وهم أجزلوها

فهم أجزاء عند الشعب بأخلاق رواتهم من كنهه ويصغرونها من هرقه ، ومع ذلك يظلمونه ويفنون عليه ويكبدون له ويأثمرون به . وينسج بمحله ، فيشمل بها الناس من حوله فلا أخ كما مر بنا ولا صديق ، وقد شاع الطمع والحقد والكر والحديبة والحلق الزرى للشين . ولم ينس المرأة في إعلان هذا السخط ، فقد وصفها بأنها لا تنصف في الود ولا في للمهد ، ولم ينصح بتعلمها ، فحسبنا في رأيه - الغزل والنسيج والرذن أو الحياكة :

علموهن النسيج والغزل والرذن ونخلوا كتابه وقراءه

ولما دفعه إلى ذلك في رأينا - فساد المجتمع في بعض جوانبه . وقد دفعه شعوره بالرحمة على الفقراء لزمته والرأفة بهم أن دعا إلى المساواة بين الناس في السراء والضراء ، يقول :

كيف لا يشرك المضيقين في النعمة قوم عليهم النعماء

وكل هذه جوانب تمس إنسان عصره وما كان يريد له من حياة كريمة ، وليس هذا هو الشرط الأكبر في اللزوميات ، فقد أودعها كما مر بنا أنفا كل ما شعر به من آلام الإنسان وأصابه وأوجاعه في دنياه إزاء ما يصب عليه من شرورها وهمومها وألهاها التي تلدغه صباح مساء .

ويشيع أبو العلاء في أشعاره حيرة تراءى ظلالم في اللزوميات مما جعل بعض القلماء والمطاعرين يقولون إنه كان يشك في كل شيء ويتخذ الشك عقيدة له - كما اتخذ السوفسطائيون - وسلطه على ماحوله حتى على الديانات ، واستدلوا على ذلك بمثل قوله :

هفت الحنيئة والنصارى ما هتنت ويهود حارت والمجوس مصللة

اثنا أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

والبيان في هجاء أصحاب هذه الديانات لزمته لا الديانات نفسها ، إذ توزعوا أيامه فرقا كثيرة ، وكل فرقة تكفر أختها في داخل الدين الواحد ، وكان المذهب الإسماعيلي الفاطمي قائما في مصر ويدهو له الحكام وطماء الدين في الشام . وطبيعى أن يعجب ممن يدعوا لهذا المذهب المسرف

في الغلو غلواً شديداً ، بل المسرف في الانحراف عن الإسلام انحرافاً مفرطاً . وقد استعرضنا في مقالنا عن التفكير الفلسفي في شعر أبي العلاء بكتابتنا « فصول في الشعر ونقده » الأشعار التي قالوا إنه هاجم بها الديانات ووصموه من أجلها بالإلحاد وأثبتنا أن بينها منحولاً كثيراً انتحل عليه خصومه . ويبدو أن أيادي شريرة امتدت إلى اللزوميات قديماً وأدخلت عليها فساداً غير قليل ، يدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نقرأ فيها :

قد ترامتُ إلى الفساد البرايا واستوتُ في الضلالة الأديانُ

واليت على هذا النحو يُلصق نهمة الإلحاد بأبي العلاء ، إذ ينسب الضلالة إلى جميع الأديان ، غير أننا إذا رجعنا إلى كتاب شرح المختار من لزوميات أبي العلاء لابن السيد البطليوسي المتوفى سنة ٥٢١ بعد أبي العلاء بسبعين عاماً وجدناه ينشده على هذا الخط .

قد ترامتُ إلى الفساد البرايا ونهتُنا - لو نهتُها - الأديانُ

ورواية البطليوسي للبيت أوثق من رواية اللزوميات المطبوعة لأنها أقدم من مخطوطاتها التي اعتُمدت عليها وأيضاً من النسخ الخطية المحفوظة في دار الكتب المصرية ، مما يدل بوضوح على أن تحريفات <sup>(١)</sup> مقصودة لبعض ذوى الأهواء الملحميين أدخلت على اللزوميات من قديم . ومن المؤكد أنه أُضيف إليه بعض أشعار الزنادقة <sup>(٢)</sup> مثل ابن الراوندي . وقرأ بعض المعاصرين عنده أياتاً ظنوا منها أنه يؤمن بقدوم المادة والزمان والكواكب وخلودها عمالفاً بذلك رأى المتكلمين المسلمين في حلولها جميعاً وأنها ليست قديمة فلا قديم سوى الله ، وهي في واقع الأمر أيات شُبهت عليهم من مثل قوله :

أرى زمتاً تقادم غيرَ فانٍ فسبحانُ المهيمنِ ذى الكمالِ

وقوله :

يا شهبُ إنك في السماء قديمةً وأشرتَ للحكام كلِّ مُشارٍ

(٢) انظر « أهر العلاء للمرى » للذكورة عائنة عبد الرحمن ص ٢٣٤ وراجع مساعد التصحيح ( طبعة بولاق ) ص ٧١ وقارن إيتابه الرواة للنفطى ٧٥/١ .

(١) أشار د . حمد عبد الجيد محقق شرح البطليوسي في مقدمته إلى أن الخطاري من اللزوميات يصحح بعض ما حُرف من شعر أبي العلاء ووضعه عليه واستشهد على ذلك بالبيت المذكور .

وهو في البيت الأول جعل الله مسيطرا على الزمان مشيراً بذلك إلى أنه محدث من صنعه ، وكل ما هناك أنه قال إن الزمان تقادم أى تمتع في القدم ، وجعل الشهب في البيت الثاني قديمة وهو لا يقصد بالقديم في اليبين ما يتأخر الحدوث إنما يقصد ما يتأخر الحدأة بشهادة قوله :

وليس اعتقادى خلود النجوم ولا ملهى يندم العالم

فهو لا يقول بخلود الألاك والكواكب والمادة ولا بديمها كما كان يقول فلاسفة اليونان . وإنما دخل الخطأ على بعض الباحثين من فهمهم القدم في مثل اليبين السالفين - كما قلنا - بأنه يعنى نقبض الحدوث وهو إنما يعنى نقبض الحدأة ، وقد بسطنا ذلك في مقالنا عن أى الملاء بكتابنا المذكور آنفا ، وأوضحنا أنه في أشعاره مؤمن بإمانا حقيقا بالديانات السماوية والدين الحنيف ورسائله السامية ، كما أوضحنا أن هذا الايمان أصل أساسى من أصول تفكيره الفلسفى العلانى ، وأنشدنا له طائفة من الأشعار التى تصور بوضوح إيمانه بالتكاليف الشرعية وبالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكل ما يتصل به من بحث ونشور من مثل قوله :

أقيم خمسى وصوم الدهر آله وأدمن الذكر أبكارا بأصالو

فهو صائم الدهر ، فَرَضَ على نفسه الصوم حين بلغ الثلاثين من عمره كما مر بنا ، وهو دائما يتجه إلى ربه مصليا الصلوات الخمس دون أى انقطاع واصلا صلاته بالصيام والدعاء والذكر والتبتل والاستغفار . ويعترف مرارا بالبحث والحساب وأن ملكين يكتبان عن يمينه وشماله حسابه وسبائته ، يقول :

قد راعى للحساب ذكرى وخرئى أنه بعميد  
وعن يمينى وعن شامى بصحفى حافظ قعيد

وهو يستلهم في اليبين قوله تعالى : ( إذ تلقى المتكلمين عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ) . ويعترف بحساب القبر وسؤال الملكين منكر ونكير فيه للناس ، يقول مخاطباً اللبال :

خَلَّصْنِي مِنْ ضَلَّتْكَ مَا أَنَا فِيهِ وَأَطْرَحْنِي لِمُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ  
ويشعر في حق بأنه مقصّر مما قدم لربه من عبادة ، ويأمل دائما في عذوه ومغفرته يوم النشور ، يقول ضارعا :

ومنفرةً الله مرجوةً إذا أصبحت أعظمى في الرَّمَمِ  
وباليتنى هامدٌ لا أقومُ إذا نهضوا يتفَضُّون اللَّمَمِ  
ونادى المتأدى على غفلةٍ فلم يبق في أذنٍ من صَمَمِ  
وجاءت صحائفٌ قد ضُمنت كِبائرَ آثامهم واللَّمَمِ<sup>(١)</sup>  
وليت العقوبة تحريقاً فصاروا رمادا بها أو حُمَمِ<sup>(٢)</sup>

فهو آمل في غفران الله . ومع حياته الزاهدة الناسكة يخاف لقاء ربه حتى لينمى أن لا يبعث ليوم القيامة ( يوم يُنادي المُناد من مكان قريب ) كما جاء في سورة ق ، فيبئ الناس من رقادهم . ويقول أبو العلاء إنهم يسمعون النداء أو الصيحة بأذانهم ، ويستلهم مثل قوله تعالى : ( وكلُّ إنسانٍ أَلَمَنا طائرهُ في عَنقهِ ونُخِرج لهُ يومَ القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ) . وما يلبث أن يقول ليت العقاب يوم القيامة كان تحريقاً يصبح العصاة به رماداً أو حمماً فيستريحون ، ولكنه عذاب خالد ، وقد تكرر ذلك في القرآن كثيراً مثل : ( أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ) . ولعل في ذلك ما يسقط كل ما قاله عنه بروكلمان في ترجمته له من أنه كان لا يعترف برسالة الإسلام وأيضاً ما قاله بعض المعاصرين عنه من أنه كان منكراً للنبوات جاحداً بالرسالة المحمدية ، وكيف يقال عنه إنه كان يصحدها ، وله قصيدة رائعة في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ختمها بقوله بعد إشادة رائعة به ورسالته النبوية :

فصلّى عليه الله ما ذرُّ شارقٍ وماتت مسكاً ذِكْرُهُ في المَناظرِ

واقترن ذلك عنده - كما مر بنا - بالزهّد والتشوّف وهو فيها يصدر عن الإسلام وروحه ، وحقا كان متشامخاً تشامخاً عميقاً بلاءً حانياً نفسه ، ولكن كان لا يزال يومض له بريق الأمل في رحمة ربه وحضوه ، يقول :

وما أنا بالنس من عَفْوِ رَبِّي على ما كان من عَمَلٍ وسَهْوِ

وذهب بعض المعاصرين إلى أنه اتخذ العقل إماماً له ، لا يثق ولا يستسلم ولا يلقى مقابلته إلا إليه ، لمثل قوله :

كَلَبَ الظَّنُّ لَإِمَامَ سِوَى العَقْلِ لي مشيراً في صُبحهِ والمساء

وظنوا أن في ذلك ما يتصل من بعض الوجوه لإنكاره - في رأيهم للنبوت ، وفاتهم أنه متابع في تمجيده للعقل واعتزازه به للمعتزلة وقد مرت بنا في كتاب العصر العباسي الأول آيات بشرين المعتزلة المعتزلي الرائعة في تمجيد العقل ، وما زال المعتزلة يشيدون به حتى نفذ الجبائي وابنه أبو هاشم إلى إثبات شريعة عقلية بجانب شريعة الوحي النفاوى وهى لا تخالفها بل تشهد لها ونسندها . وأبو العلاء يتابع الجبائي وابنه ، وكان يخالفها الأشعرى ، ولذلك حمل عليه أبو العلاء في رسالة الغفران . وكان - مثل المعتزلة - يفسح للظن ، إذ الظن أساس المعرفة وأساس ما يصل إليه الإنسان من اليقين وفى ذلك يقول :

أما اليقينُ فلا يقينَ وإنما أقصى اجتهدى أن أظنُّ وأحسبَا

فبلغ علمه الوصول إلى الظن ، وهو بذلك يتفق مع المعتزلة القائلين بأن كثيرا من التكاليف العقلية والشرعية مرجعه في الاجتهاد إلى الظن .

ويذهب بعض دارسى أبى العلاء إلى أنه كان يؤمن بالجبر مكرراً أن الإنسان يدخل الدنيا كارها ويخرج منها كارها ، يقول :

خرجتُ إلى ذى الدار كرهاً ورحلتى إلى غيرها بالرَّغْمِ واللهُ شاهدُ

وأبو العلاء إنما كان يؤمن بالجبر في حياته وموته ووجوده فكل ذلك يحدث بإرادة الله ولا دخل لإرادة الإنسان فيه ، إذ لا نخرج إلى الدنيا اختياراً ولا نرحل عنها اختياراً ، وهو ما لا ينكره عليه أحد من القائلين بحرية الإرادة للإنسان إذ يريد بها المعتزلة - وهو معتزلى مثلهم - إرادة الأعمال والأفعال ، ويقدم على ذلك دليلاً قاطعاً حاسماً قائلاً :

إن كان مَنْ فعل الكبائر مُجْبِرًا فعقابه ظلمٌ على ما يفعلُ

وهو بذلك ينكر الجبر صراحة لما يقترف الإنسان من كبائر ، ويرتب أبو العلاء عليه - عند القائلين به - نسبة الظلم إلى الله ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً . وهو بذلك يصدر عن فكرة المعتزلة القائلة بوجوب العدل على الله كما يصدر عن فكرتهم أن الإنسان حر تام الحرية في أفعاله وتصرفاته أما ما وراء ذلك من الأعمال الكونية فخاص بالله وإرادته العليا ولذلك يقول :

لا عِشْرَ مُجْبِرًا ولا قَدَرِيًّا واجتهدْ في تَوْسِيطِ يَمِينِ يَبْنَا

لذهبه في حرية الإرادة مذهب المعتزلة ومذهبه فيها يخرج عن إرادة الإنسان من نظام الكون والوجود مذهب الجبر ولا يخالفه معتزلي في ذلك ، لأن أحدا لا يستطيع أن يقول إنه يولد باختياره أو يموت باختياره ، وإنما الجدل بين الجبرية والقدرية في إرادة الإنسان إزاء تصرفاته وهل هو حر مختار يتصرف في أفعاله وأعماله بمشيئته أو هو كرهشة في مهب رياح القضاء والقدر تسيره كما تريد . واختار القدرية والمعتزلة الرأي الأول ، وهو ما اختاره أبو العلاء بين ما اختاره من الأفكار الاعتزالية وقد صرح مرارا بما قاله المعتزلة من تنزيه الله عن التجسيد والشبه بالمخلوقات :

ولعل ما أسلفنا من الحديث يوضح في إجمال كيف كان أبو العلاء فيلسوفا إسلاميا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وكيف أن فلسفته كانت تقوم على تشاؤم حاد يردُّ إلى فقدده لبصره صيبا وإلى ما أطبق على المجتمع لزمته من شرور ومن حكم فاسد ، كما تُردُّ إلى إحساسه العميق بآلام الإنسانية التي ملأت قلبه لوعة ، مما جعله مفكرا إنسانيا عظيما . هذا جانب في فلسفته ، وجانب ثان استمده من الدين الحنيف ومافيه من دعوة إلى الزهد والتبشُّف والإيمان الصادق بالقوملائكته وكتبه وتكاليفه الشرعية واليوم الآخر ومافيه من ثواب وعقاب ، مع الاعتقاد بحدوث الكون وكلُّ مافيه من مادة وزمان وأفلاك وكواكب ، فالله خالق الكون ومبدعه قال له : كن فكان . وجانب ثالث في فلسفته استمده من الاعتزال ومافيه من تمجيد العقل وتقديسه ، ومن وجوب العدل على الله وتنزيهه عن التجسيد ، ومن الإيمان بحرية الإرادة للإنسان وأنه حر كامل الحرية في أفعاله الشريرة والآثمة والخيرة الطيبة .

### متنصور<sup>(١)</sup> بن المسلم

هو متنصور بن المسلم العجمي الحلبي المعروف بالثُمَيْك وبابن أبي الخُرَّجَيْن ، ولد بحلب سنة ٤٥٧ هـ وبها نشأ وحفظ القرآن كمادة لادته ، اختلف إلى شيوخها ، وشُغف خاصة بالعربية وأساتذتها ، فتزود منها خير زاد ، وأنس من نفسه رغبة في تعليمها وانتقل عن حلب وسكن دمشق ، وتحول بها مؤدبا يعلم الصبيان في مسجد الرماحين وغيره ، وظل في هذا العمل يشغل به حياته حتى توفي سنة نيف وعشرين وخمسمائة . وكان يتقن العربية ، مما جعله يصنف كتابا في الرد على ابن جني في كتابه « إعراب الحماسة » ويقول مترجموه إنه دلَّ فيه على تعمق في العربية وجودة

غوص . ويقول يا قوت كان له ديوان شعر وقفت عليه بخطه الراق فوجدته مشحونا بالفوائد النحوية ، وقد شرح ألفاظه اللغوية واعنى بإعرابه فدل على تبحره في علم العربية . وروى الهاد الأصماني في الخريدة طائفة من شعره ، بينها غزل كثير يدل على رفاقة حس ودقة شعوره من مثل قوله :

آحبابنا إن خَلَفَ البَيْنُ بعدكم      قلوبًا ففيها للتفرُّق نيرانُ  
رحلتكم على أن القلوب ديارُكم      وأنكم فيها على الثَّأِي سَكَّانُ

ونغضى معه في هذا الغزل المتنازع وإذا هو يذكر غرته في دمشق ، ويتنزل من الغزل إلى سرد بعض خبرات له في الحياة ، مما تعمق نفسه في غرته الطويلة عن ملاعب صباه وشبابه وعن مجالس إخوانه وخلاته ، يقول :

وما باختيارِ المراء تَشَعَّبُ نِيَّةُ      فَتَبْرَحُ أوطارُ وتترج أوطانُ (١)  
عسى موردٌ من ماء جَوْشَنَ نَاقِعُ      ظنى إلى تلك الموارد ظمآنُ  
وما كلُّ إنسان ينال مرَّاده      ويُسَمِّدُهُ فيما يحاول إمكانُ  
وعيشُ الفقى طعمان حُلُوٌّ وَعَلَقَمُ      كما حاله قِسْبانُ : رزقٌ وجِرْمَانُ

وهو يألم لغيرته ونزوحه عن وطنه ، ويتعنى جرعة من ماء الآبار في جبل جوشن المشرف على حلب ينقع بها لبيب ظمته إلى موطنه ودياره . ويسوق ذلك في عبارات عامة تحيل اليقين الأول والثاني حكمتين بديعتين ، وكأنه يريد أن يعزى نفسه فينظم الحكمتين التاليتين ، فليس كل إنسان تتحقق مناه ويعيش سعيدا ، بل كان إنسان يذوق الحلو والمر في حياته كما يذوق الرضا والحمران . ويستهل قصيدة أخرى بالغزل أيضا وما يلبث أن يقضى إلى الحكم قائلا :

رأيتُ الفقى يأنه ما لا يناله      يسقى ولو أنفى الركائب والركبا (٢)  
ومن رام إدراك المنى بفضيلة      فقد رام أمرٌ ليس يدركه صبا  
وينهب بالود البراء ويمتري      حفاظ لا تبق على صاحب صبحا (٣)  
توق قليل الشر خوف كثيره      ولا تحقرن التزر ريتما أرتى  
فإن صغير الشيء يكبر أمره      وكم لفظه جرئت إلى أهلها حربا

(٢) يسقى : يشير : حفاظ جمع خبطة وهي الغضب

والحبة .

(١) تشعب : تبدد

(٢) أنفى : أتمب . الركائب : الابل



وهو يتكلم في أول الآيات عن الحظ وما يقدفه على الإنسان ، دون سمي ، من منى لو أفضى فيها الركائب والركب مانالها أبدا ، ومها نذرع لها من فضيلة وخصال طيبة مادنت قطوفها منه بحال ، وينصح الأصدقاء أن لا ينشب بينهم مراء ولا جدال مقبت لأنه يثير حفاظهم ومكانم الغيظ منهم وبقطع ما بينهم من صلات . ويوصي الإنسان أن يتجنب قليل الشر حتى لا يقع في وهاده الكثيرة السيئة ، وأن لا يظنه - مها صفر وتضائل - شيئا لا يؤبه به ، فقد ينمو كما تنمو النار من بعض الشرر ، وكم من شر قليل حقير نما واستحل واستعصى علاجه ، وكم من لفظة حمقاء أوقدت نار حرب مستطيرة . وينثر في قصيدة ثالثة طائفة من الحكم كقوله :

وقد يُحِبُّ الإنسانُ ما فيه نَقْصُهُ      وَيُبْغِضُ ما يَنْجِي به وَيَزِيدُ  
نريد من الأيام تَصْفُو من الأذى      وَتَضْفُو ولا يَقْضِي بذاك وجودُ<sup>(١)</sup>  
وكيف نروم العيش خِلْوا من القذى      وللماء من بعد الصِّفاء ركود  
إذا كان يُعْطَى المرء ما يستحقُّه      تساوى شقَى في القَصَا وسعيد  
ومن جَرَّب الدنيا على سوء فِعْلِها      يعيبُ ذمِيمَ العيش وهو حميد

وقد ألهمه البيت الأول قوله تعالى : ( وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ) ويقول إننا نريد من الأيام صفاء من الشوائب وأن تكون ضافية سابعة رغبة ولا تنقضي بذلك سنة الوجود ، حتى في الطبيعة ، فالماء يركد بعد صفاء وحركة دائبة . ولو أن كل شخص نال ما تمنى لخالف ذلك سنة الحياة وأن الناس منهم شقي وسعيد ، وجد يربى من خبر الدنيا أن يرضى بميسور عيشه وأن يصبح في رأيه حميدا لا كرها مذموما . ومن طريف شعره .

الناسُ كالأرضِ ومنها هُمُ من خَشِنَ اللَّسَنُ ومن لَيَّنَ  
مَرَّوْ تَوَقَّى الرَّجُلُ منه الأذى      وَائْتَمَدَّ يُجْعَلُ في العين<sup>(٢)</sup>

وهو تقسيم بديع للناس فهم كأهمهم الأرض معادن مختلفة ، منهم الصُّلد الذي لا يأتي بخير بل قد يؤذى ، ومنهم الكحل النافع الذي يبرئ العين ويزيدها حسنا وهاء وجالاً . ولنصور وراء ذلك أشعار يدعو فيها إلى الزهد في الدنيا والتقوى والعمل الصالح .

### حسين<sup>(١)</sup> الجزري

هو حسين بن أحمد الجزري الحلبي ، ولد بحلب وبها نشأ لزمن العثمانيين فحفظ القرآن الكريم ثم اختلف إلى حلقات الشيوخ والأدباء وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقصد به الرؤساء والحكام في دمشق والعراق ودخل القسطنطينية واصطفاه بنو سيفاً أمراء طرابلس لأنفسهم ، فنظم فيهم كثيراً من مدائمه ، وفيه يقول ابن محصوم : « أحد صاغة القريض . . العالم بشعار الأشعار والمقتنى لأبكار الأفكار .. راقى بدائع آدابه ودرقت ، وملكت روائحه حرّ الكلام واسترقت » ويقول الشهاب الحفاجي : « أديب له أوصاف حسنى ، ومناقب من الوشى بهجة وحسنا » توفي سنة ١٠٣٤ للهجرة . وله ديوان شعر نشر في بيروت أولاً ثم نشره الطباخ مع ديوان مصطفى الباني والفتح بن النحاس في مجموعته : العقود الدرية . وأشعاره موزعة بين المديح والغزل والفخر والشكوى ، وكان يشغف بالحكمة ينثرها في الشعر قاللاً :

الشعرُ ما شاتكتَ منه حكمةً لا ما يشوقك الكتيبُ الأوسعاً<sup>(٢)</sup>

فليس الشعر في رأيه ما يصور نزعة الحب الإنسانية وإنما الشعر ما يفيد تجربة ونبرة وبصراً بالحياة . وهو لذلك لا يمد الشعر المشوق لذياب الحبيبة ومعاهدتها من كتابان وعشاء وغير وعشاء شعراً رفيع المنزلته فأرفع منه ما يزيدك إدراكاً بالحياة من حوكم ، ويعرفك كتبها وحقيقتها ، يقول في تضاعيف غزل له :

إنَّ المِحنةَ محنةٌ لا منحةٌ ومن الغرام بَرى المِحبُّ المِفرما  
وإذا مُنِيتَ الماءَ أولَ مرَّةٍ ووردتهُ أخرى تذكُرتَ الظَّما  
في كلِّ يومٍ روعةٌ أولوعةٌ والقدَّ تُقَعِّده الحوادثُ تروأما  
ولقد ملكتُ نَحارياً ونَجارياً لن تلقى إلاَّ إناءَ مُفْعَما

وهي أفكار يعطيها صفة التعميم مما يجعلها حكماً وأمثالاً ، فالحب محنة لا منحة بضنى صاحبه ، ومن نصته صاحبه أول مرة كمن يصدّ عن الماء وهو شديد الظما إذ لا يزال يذكر ذلك حتى لو

(٢) الكتيب : تل الرمل . الأوسع : الذي تنجب فيه الأرجل لله

(١) انظر في ابن الجزري وشعره سلافة العصر ص ٣٩٣  
ورعاية الألبا ١١٣/١ وخلاصة الأثر ٨١/٢ وانظر ديوانه في  
مجموعة العقود الدرية

أتيج له الورود ، فظموه ولفته القديمان لايرحان ذاكرته ، وهل في الحب إلا صدّ وامتناع  
وعذاب ، والمحب يصلى الروعة بعد الروعة واللوعة بعد اللوعة ، ويقول إنه مُفْعَمٌ بالتجارب كما  
يُفْعَمُ الإناء بالماء ، وينشد :

أرى اليأسَ عِزًّا والرجاءَ ذُلًّا الفنى وطولَ المني عجزاً وحبُّ الفنى قفراً  
فلا تَضَجْرَن من حالةٍ مستحيلةٍ كما يَلْتَمِها عُسراً مستركها يُسرّاً  
وإن الفنى كالفُضن مادام نابتاً قَاوَنَةً يُكْسَى وآوَنَةً يَغْرِى

وهو يرى اليأس من الناس وتحقيق الآمال لاإحدى الراحتمن فحسب ، بل عِزًّا مابعد عِز ،  
كما يرى الرجاء وخاصة في الناس ذلاً مابعد ذل ، واتساع الأمانى عجزاً لايشبه عجز ، والتطلع  
إلى الفنى قفراً لا بمثاله فقر . فخير للإنسان أن يقنع وأن يرضى من دنياه بالكفاف . ويوصيه أن  
لا يضجر من شدة تنزل به لانها لا بد أن تستحيل وتحول ، فكل عسر معه يسر ، ومأشبه الإنسان  
بنفس شجرة يَغْرِى من الأوراق ويكسى بها كل عام . ويقول :

إن خَصَنِي بالبؤس دهرى دائماً دون الورى فأنا بذلك أفضلُ  
هذى عقاقيرُ العطارَةِ كلها لم يحترقَ منهم إلا المتندلُ

فهو يتقبل البؤس راضياً ويتعلل لبؤسه بأنه أشبه مايكون بالتندل أو العود الطيب الرائحة فإنه  
يحترق وحده دون ما عند العطار من صنوف عطارة كثيرة . ويتردد في أشعاره ذكر الحرمان وأن  
الكرم لا تنصره قلة المال بينما اللئيم لا يُجْذِيه ولا ينفعه الثراء ، ويحاول أن يجد له ولأمثاله من الأدباء  
والفضلاء تطلمات للتضييق على نفر منهم في الرزق بمثل قوله :

لأنحسب الأرزاق تُقَسَّمُ باطلاً كلا لقد ساوى المهيمنُ بيننا  
فإذا رُزِقْتَ الجَهْلُ أدركتَ المَتى وإذا حُرِمْتَ الجَدُّ أُعْظِيتَ التَّهَى

وكان أهل الأرض في رأيه اثنان : جاهل ثرى له كل ما يأمل ويتمنى وكان الدنيا طوع أمره ،  
وعاقل ( أديب أو عالم ) فقير حُرِمَ الجدُّ أو الحظ وحرم معه إكسار الحياة من المال والثراء والنعم .  
ويقول :

غَيْرُ يَذْعِرُ إِذَا ظَلَمْتَ بِدَمْرٍ رُزِقَ القَمَرُ فِي حَظٍّ عَظِيمٍ  
فَالهَوَاءُ الصَّحِيحُ يَذْعَى حَبْلًا وَاللَّيْغُ المَصَابُ يَذْعَى سَلْبًا

وهو يواسى من يحسبون بأنهم مظلومون في دنياهم لم ينالوا حظهم الطبيعي من الرزق والعيش الكريم ، بينما المغمورون يعيشون في مجبوحة من الثراء والنعم . ويقول إن النسيم المنعش الصحيح يدعى عيلا واللدغ يدعى سلبا من تسمية الأصدقاء ، ولعل في ذلك بعض المواساة للمظلومين المحرومين . ويقول :

رَوَيْتَكَ إِنْ بَعْدَ الضِّيقِ مَخْرَجٌ وَصَبْرُكَ عِنْدَهُ أُنْبَى وَأُبْهَجُ  
وَكَمْ مِنْ كُرْبَةٍ عَظُمَتْ وَجَلَّتْ وَعِنْدَ حُلُولِهَا الرَّحْمَنُ قَرْجُ

وهو يدعو إلى الصبر عند الشدة والضيق إذ لا بد من رباطة الجأش دون أى نهرم ودون أى خور وضعف ودون أى يأس ، مع الاعتصام بالله والأمل الدائم في رحمته ، وأنه لا بد كاشف الكرب والأهوال مما اشتدت وإن فرجه لقريب ، وإنه لداثما مع الصابرين الذين لا يئأسون أبدا من هونه . ولابن الجزرى وراء هذه الحكم وما يماثلها في أشعاره - كما قدما - مدائح كثيرة ، وله فيها أبيات بديعة من مثل قوله :

يُليِّكُ مِنْ قَبْلِ السَّوَالِ تَوَالُهُ وَيَأْتِيكَ دُونَ الْإِنْتَظَارِ نُضَارُهُ

وله أبيات مختلفة في الشكوى من الناس والأصدقاء ، وفي غزله أبيات كثيرة جيدة ، وقد كان شاعرا محسنا مجودا .

## ٩

## شعراء التشيع

مر بنا في حديثنا عن التشيع أنه عُرف في سَلَمِيَّة بالشام مع حركة عبد الله بن ميمون القُدَّاح حوالي منتصف القرن الثالث الهجرى الداعى للمذهب الإسماعيلية المعروف ، وهذا إنما يصدق على تلك الحركة الشيعية . ويبدو أن أفرادا من الشام كانوا يتشيعون قبل هذا التاريخ ، لا التشيع العالى للفرط ولكن التشيع المعتدل المقتصد ، ويسلك فيهم بعض الباحثين أبا تمام لمثل قوله عن قصيدة له مخاطبا المأمون (١) :

ووسلنى منها إليك طريفة شام يدين بحب آل محمد

وقد ذهبنا في كتابنا العصر العباسي الأول إلى أن أبا تمام لم يكن يصدر في مثل ذلك للمأمون عن تشيع إنما كان يريد أن يتقرب للخليفة بذكره لآل البيت . ومعروف أن المأمون كتب إلى الأفاق بغضيل على أبي بكر وعمر ، مما جعل الشاعر يشيد بطل ومواقفه في عهد الرسالة . وبلغنا بعده ذلك الجن الحمصي المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة وتشبهه أوضح من تشيع أبي تمام إذ نجد عنده أشعارا في أهل البيت ومرآتي تندب الحسين وتبكي مصرعه من مثل قوله في افتتاح إحدى مرثياته <sup>(١)</sup> :

يا حنينُ لالغَصَا ولا الكُثْبِ بُكا الرُّزَايا سوى بُكا الطُّربِ <sup>(٢)</sup>  
 يا عينُ في كربلا مقابرُ قد نرُكنَ قلبي مقابرَ الكُربِ  
 من البهاليلِ آلو فاطمةِ أهلِ المعالي والسادةِ الثُّجُبِ  
 كم شَرِقتْ منهم السيوفُ وكم رُويتِ الأرضُ من دمِ سَرِبِ <sup>(٣)</sup>

ويقول أبو الفرج عن هذه المرثية إنها مشهورة عند الخاص والعام ويناح بها ، كما يقول إنه كان يتشيع تشيعا حسنا <sup>(٤)</sup> ، فخصمه كان تشيعا معتدلا .

ولم تعرف الشام التشيع المفرط العالي إلا منذ القدّاح ودعوته الإسماعيلية التي اتخذ لها سَلَكِيَة بالقرب من حمص وحماة مركزا ، وأخذ القرامطة يشيرون هذه الدعوة بين بدو الشام ، غير أن دمشق ظلت بعيدة عن التشيع على الأقل حتى أوائل القرن الرابع إذ نجد النسائي صاحب كتاب السنن يلم بها سنة ٣٠٣ وكان يتشيع ، فسأله عن معاوية وما رُوي من فضائله فأبى أن يفصله ، فمازالوا يدفعونه من المسجد ، ويقال : داسوه بالأقدام . وخرج من دمشق خائفا يترقب إلى الرملة فمات بها . ويبدو أن الدعوة الشيعة - لقيت لها آذانا صاغية بحلب منذ مطلع القرن الرابع ، وبلغنا هناك الصنوبري المتوفى سنة ٣٣٤ وكان يتشيع - فيها يبدو - تشيعا معتدلا . ونراه يذكر - ما يؤمن به الشيعة من وصية الرسول عليه السلام لعلي بالإمامة بعده ، وله مرث في الحسين تبكيه بكاء حارا من مثل قوله <sup>(٥)</sup> :

- 
- (١) النيران (في طبعته المخطئة) وأدب الطف أو شعراء الحسين لجواد ص ٢٨٤/١  
 (٢) أطلح (طبع دار الكتب) ٥١/١٤  
 (٣) شرقت : غصت . سرب : سائل .  
 (٤) أشجان الشيعة ٣٥٦/٩ وانظر أدب الطف أو شعراء الحسين ١٩/٢  
 (٥) شجر النفا . من أشجار البادية . يقصد بذكره وذكر الكتبان شمر السب

يَوْمَ الْحَسَنِ هَرَقَتْ تَدَحَّى الْأَرْضَ بِلِ دَمْعِ السَّمَاءِ  
مَنْ ذَا الْمَقْصُورِ الْجَوَا دِ مَالِ أَعْوَادِ الْخَبَاءِ  
مَنْ لِلطَّرِيحِ الشَّلْوِ عَرَّ يَانَا مَعْلَى بِالْمَرَاءِ  
مَنْ لِلْمَحْطِ بِالْأَرَا بِ وَلِلْمَفْطَلِ بِالْمَمَاءِ

ومن أهم شعراء الشيعة الإماميين بعده أبو فراس الحمداني المتوفى سنة ٣٥٧ ، ومعروف أن الحمدانيين كانوا شيعة إلمعية ، ويشتهر أبو فراس بقصيدة ميمية تصور عقيدته الشيعة وفيها هاجم العباسيين هجوما عنيفا ودافع عن الطويعين دفاعا حارا ، وتسمى الشافية افتتاحها بقوله <sup>(١)</sup> :

الدينُ مُحْتَرَمٌ والحقُّ مُهْتَضَمٌ وفِي آلِ رَسُولِ اللَّهِ مُقْتَسَمٌ

والفيسى : غيمة الحرب ، وهو يشير إلى قبلك وكانت فينا لرسول الله في غزوته لخير والقرى حولها . وكانت السيدة فاطمة الزهراء فكرت في إرثها عن أبيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فذكرها أبو بكر الصديق بقوله : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » فاستجابت ثوبا الرأيه وكان ينبغي أن يستجيب له أيضا أبو فراس . والقصيدة في واحد وستين بيتا . ويعلم في ديوانه مرارا أنه شيعي إمامي ، ويذكر أئمتهم الاثني عشر في مثل قوله <sup>(٢)</sup> :

شَافِي أَحْمَدُ النَّبِيُّ وَمَوْلَايَ عَلِيٌّ وَابْنَتُ وَالسُّبَّانِ  
وَعَلِيٌّ وَبَاقِرُ الْعِلْمِ وَالصَّادِقُ ثُمَّ الْأَمِينُ ذُو الْقِيَانِ  
وَعَلِيٌّ وَالتَّقِيُّ ابْنُ عَلِيٍّ وَعَلِيٌّ وَالْمُسْكِرِيُّ الدَّانِي  
وَالْإِمَامُ الْمَهْدِيُّ فِي يَوْمٍ لَا يَتَّحِقُ إِلَّا غُفْرَانُ ذِي الْغُفْرَانِ

والأئمة الاثنا عشر في الآيات مرتبون ، وهم علي بن أبي طالب وابناه سبطا الرسول ، الحسن والحسين وعلي زين العابدين بن الحسين وابنه محمد الباقر وابن الباقر جعفر الصادق وابنه الأمين موسى الكاظم ونجل الكاظم علي الرضا وابنه محمد الملقب بالتقي والجواد ثم ابنه علي الهادي ونجله حسن العسكري ثم ابنه محمد المهدي ويسميه القائم في مقطوعة ثانية ذكر فيها الأئمة الاثني عشر حتى انتهى إلى العسكري بن الهادي قائلا <sup>(٣)</sup> :

(٢) الديوان ٣/٣٩٧

(١) ديوان أبي فراس الحمداني (نشر وتحقيق د. سامي

(٣) راجع ٣/٤٢٩ وما بعدها .

وابنه العسكري والقائم المظهر حَيَّ محمد بن علي

ويحتضد الإمامية وخاصة الغلاة أن محمدا المهدي لم يمت وأنه غاب وسيعود ويسمونه قائم الزمان . وسنعرض هذه الفكرة عرضا أكثر تفصيلا في حديثنا عن بهاء الدين العامل . ويلقانا في القرن الخامس الهجري ابن سنان الحقاقي المتوفى سنة ٤٦٦ وهو شيعي إمامي ، ومن آثار نشيجه في شعره قوله <sup>(١)</sup> :

وقالوا قد تغيّرت الليالي وضُيِّعت المنازلُ والحقوقُ  
وأفسُم ما استجدُّ الدهرُ خلُقًا ولاعدوانه إلا عَنِيقُ  
أليس يَرُدُّ عن فلكِ عليٍّ ويملك أكثر الدنيا حَتِيقُ

وهو يأسى لعل وزوجه فاطمة الزهراء أنها رُدَّتْ عن ميراث فلك وقد كانت فكرت كما ذكرنا ذلك آنفا في أن ترثها ، وذكرها أبو بكر بمحدث أيها ~~عليه~~ واستجابت له راضية . وكبرت كلمة تخرج من فم ابن سنان أن يقول عن الصليبي الزاهد الذائِقُ أمواله في دعوة الإسلام : إنه ملك أكثر الدنيا ، وهو لم يملك شيئا ، إن يقول إلا بهتاناً وزورا .

وكان يعاصره كشافهم وكان أصغر منه سنا ، وكان يتشيع لمذهب الإمامية ، وسنخضه بترجمة عما قليل . وربما كان أهم شعراء الشيعة بالشام في القرن الخامس الهجري . ابن حيوس الشاعر الدمشقي ، وسنفرد له الآخر ترجمة . ويلقانا بعده عند المهاد الأصماني في كتابه الخريدة شعراء شاميون شيعيون متحدون عاشوا في القرن السادس الهجري ، غير أنه لا يعنى بشعرهم الشيعي إلا بعض مقطوعات قلما توضح لهم مذهبها أو نحلة ، منهم ابن قُسَيم الحموي المتوفى سنة ٥٤١ وقد أنشد له المهاد في حب آل البيت قوله <sup>(٢)</sup> :

ويَدِّ بِأَلِ مُحَمَّدٍ خَلِقتُ مَنى فليستُ بغيرهم أَرْضِي  
جعل الإلهُ عليَّ حَبِيبَهُ وعلى جميع عبادِهِ قَرَضَا  
فأَنَارَ ذلك من زنادقِهِ حَدًّا فسُوا حَبِيبَهُم رَفَضَا  
وعجبتُ هل يرجو الشفاعةَ مَنْ يَنْوِي لآلِ محمدٍ بُخْضَا

(٢) الخريدة (نسخ الشام) ٤٥٣/١

(١) ديوان ابن سنان (طبع المطبعة الأنسية ببيروت) ص

وهو يطن حبه لآل البيت حبا لا يماثله حب ، وهو حب يراه فرضا مكتوبا على كل مسلم مخلص لدينه . ويبدو أنه كان يغلو في هذا الحب غلو الراضية ، إذ يسى أعداءهم زنادقة ، ويعجب أن يفكر في شفاعتهم يوم القيامة مبغض لهم تأكل نار بغضهم قلبه . وكان بعاصره ابن نمير المتوفى سنة ٥٤٨ هـ ويقول عنه الهادي : كان غالبا متشيعا<sup>(١)</sup> ولم يرو شيئا من شعره الشيعة الغالي . وكان طلائع بن رزديك وزير الخليفة الفاطمي : الفائز والعاقد شيعة إماميا ، وكان من مقريه ثقة الملك الحسن من بني أبي جراحة الخليليين المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، وله فيه مدائح بها إشارات لبعض عقائد الشيعة<sup>(٢)</sup> ، ويبدو أن أسرته كانت تعتق مذهب الشيعة الإمامية مثلها في ذلك مثل أهل حلب موطنها . ومن شعراء الشام الشيعة في الحفيدة عرقلة النمشقي حسان بن نمير المتوفى سنة ٥٦٧ هـ وينشد الهادي مقطوعة طويلة يذكر فيها تشيعه قائلا<sup>(٣)</sup> :

أنا من شيعة الإمام الحسيني لست من سيرة الإمام يزيد  
وهو يزيد بن معاوية الذي قتل الحسين أيام خلافته ، وصاحبه الإمام تهكما وسخرية . ونظف في زمن الأيوبيين والمماليك نستمع إلى أشعار تبكي الحسين أو تمدح آل البيت على نحو ما نجد عند فتيان الشاغوري النمشقي المتوفى سنة ٦١٥ للهجرة ، ويلقانا في مطالع ديوانه باكيا الحسين ذارفا عليه اللمع مدرارا منشدا<sup>(٤)</sup> :

لَمْ لَا أَسُحْ بِيَوْمِ عَاشُورَاءَ مِنْ مَقْلَى دَمًا . بِمَازَجِ مَاءِ  
يَوْمًا بِوَقْتِ قَتْلِ الْحُسَيْنِ بِكَرْبَلَا قَتَلَا حَوَى كَرْبَا بِهِ وَبَلَاءُ  
ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر المحرم ، وفيه استشهد الحسين على نحو ما هو معروف . ولفتيان قصيدة طويلة في حب آل البيت يقول إنه نظمها مؤملا عفو الله ورضاه ، وفيها يشيد بالرسول ورسائله الحميدة الكبرى ، ويسترسل في التنويه بعلي بن أبي طالب وانتصاراته الجيدة على أعداء الإسلام وينوه بعلمه وزهده وتشفه ، ثم يفيض في الحديث عن مصرع الحسين المذموم بمثل قوله<sup>(٥)</sup> :

أَلْهَمِي لِلْحُسَيْنِ خِدَاءَ أَضْحَى هُنَاكَ بِكَرْبَلَا ، شِلُوا قَتِيلَا

بشمق) ص ٦

(١) الحفيدة ١/٧٦

(٥) الديوان ص ٥٨٠ والشرح : المصنوع من الإنسان

(٢) الحفيدة ٢/١٩٩

والجس لأفلاء ، كتابة عن الموت

(٣) الحفيدة ١/٢٠١

(٤) ديوان فتيان الشاغوري (طبع بمجمع اللغة العربية



بِزُقٍ جِسْمُهُ دَوَسُ الْمَدَاكِي وَقَدْ أَطْلَتْ وَلَايَاهُ الْعَرِيلَا<sup>(١)</sup>  
 شَكَا ظَنًّا لَهَا عَظُفُوا عَلَيْهِ وَلَا آلَوَا وَلَا أَرَوَا غَلِيلَا  
 رَسُولُ اللَّهِ سَاءَ حُبِّي ، وَقَبِلْ نَفْرَهُ زَمَا طَوِيلَا

ويقسم فتيان مرارا وتكرارا بطل والحسين وأصحاب النبأ أو الكساء إشارة إلى حديث ترويه الشيعة عن أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : « دخل على وفاطمة ومعها الحسن والحسين فوضعها الرسول في حجره فقبلها واعتنق عليا بإحدى يديه وفاطمة بالأخرى ، وجعل عليهم جميعا كساء أسود وقال : اللهم إليك لا إلى النار . ولم يكن فتيان غائبا في تشييعه بل كان معتدلا ، يشهد لذلك قوله في علي والحسين وآلهما<sup>(٢)</sup> :

لَمْ أَهْوَهُمْ أَبَدًا يُبْخِضُ غَيْرَهُمْ كَلًّا وَمَنْ كَرَضَ الصَّلَاةَ رَوْقًا

فهو يقسم بربه فاض الصلاة أنه لم يحب آل البيت مبخضا لأبي بكر وعمر مثل خلاة الشيعة ، بل هو يحب الجميع وإن كان حبه لهم أزيد وأكثر ، كما تشهد بذلك قصيدته السالفة .

ونلتقي في زمن المماليك بالدواهي المتوفى سنة ٧١٦ ويقول صاحب الفتوات : كان شيعيا ، ومما يدل على ذلك قوله<sup>(٣)</sup> :

سَمِعْتُ بَانَ الْكَحْلَ لِلْعَيْنِ قُوَّةً فَكَحَّطْتُ فِي عَاشُورَ مُقَلَّةً نَاطِرِي  
 لَتَقْوَى عَلَى سَحِّ الدَّمْعِ عَلَى الَّذِي أَذَاقُوهُ دُونََ الْمَاءِ حَرُّ الْبَوَائِرِ

فهو قد تكحل في يوم عاشوراء يوم ذكرى مصرع الحسين ليسح الدموع ويغسلها على الحسين الذي قطره دون جرعة ماء يحتسبها بالسيف القواطع ، وكان بعض معاصريه ينتهه بالرفض والظلو في التشيع فكان ينكر ذلك منجبا على من ينتهه بالسب واللعن ، وفي ذلك يقول<sup>(٤)</sup> :

قُلْ لِلَّذِي بِالرَّفْضِ أُرْ هَمْنِي أَضَلَّ اللَّهُ قَصْدَهُ  
 أَنَا رَافِضِيُ أَلَمَنْ أَلْ شُبَّانِ أَبَاءُ وَجَدَهُ<sup>(٥)</sup>

وواضح أنه يقول إنه رافضى تهكما على خصومه . ونظلم نلتقي بشعر شيعي على هذه الشاكلة

(١) للمدائي : الخليل ، ولا ياء : نداء أسره .

(٢) الفتيان ص ٦٨

(٣) فتوات القربيات لابن خاكر ١٧٦/٢

(٤) الفتوات ١٧٥/٢

(٥) أهله مشددة الباء لصحة الوزن

لا في أيام المالك فحسب ، بل أيضا في أيام العثانيين ، ومن يُظنُّ تشيعة حيثُ درويش<sup>(١)</sup> الطالوي للتوف سنة ١٠١٤ وحين<sup>(٢)</sup> بن عبد الصمد الطامل وهو أبو بهاء الدين الطامل أكبر شعراء الإمامية حيثُ ، وسترجم له عما قليل .

### كشاف<sup>(٣)</sup>

هو أبو الفتح محمود بن محمد بن الحسين بن السدي بن شاهر اشهر بلقبه كشاجم ، وضبطه صاحب القاموس بضم الكاف ، وفي تاج العروس شرح القاموس وشرح درة القواص للشهاب الحفاجي أنه بفتحها ، وقيل إن هذا اللقب مركب من أوائل كلمات تدل على صناعاته ، فالكاف من كاتب والشين من شاعر والألف من أديب والجيم من جميل والميم من منجم أو من مغن ، وفي ذيل زهر الآداب : « أنه كان مغنيا وله في الفناء كتاب مليح » .

وكان جده السدي من حرس الرشيد ويقول ابن خلكان في ترجمته لموسى الكاظم الإمام عند الشيعة الإمامية : « وكان الموكل به في مدة حبسه السدي بن شاهر » وربما تلقى عنه حيثُ عقيدة الإمامية ، وبقيت العقيدة منذ هذا التاريخ في بيته . وأصبح السدي بعد وفاة الرشيد من كبار حاشية الأمن ، ويقال إنه ولاء الشام ، وربما توفي بها ، وبقيت أسرته بعده فيها إذ يُسلك حفيده كشاجم في شعراء الشام ، وكان يسكن في شبيبة بلدة الرملة بفلسطين . ونظن ظنا أنه ولد لأبيه حوالي سنة ٢٩٠ للهجرة . ويأرجح الرملة والشام جميعا في سن مبكرة إلى الموصل حيث التحق بجمعة أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، وكان قد ولي الموصل مرارا بين عامي ٢٩٣ و ٣١٧ وبها انقطعت بين الشاعر وبين الشعراء هناك صلات مودة وخاصة بينه وبين الخالدين . ويتزل عند سيف الدولة الحمداني أمير حلب ، ويقال إنه كان يُشرف على إعداد طعامه أو على مكتبته . ويبدو أنه لم يمكث عنده طويلا . ونزل مصر وأقام بها فترة ، وأرسل حيثُ إلى جعفر بن حل أمير الزاب قصيدة في مدحيه أثابه عليها بألف دينار كما يقول ابن شرف

(١) روضة الألبا ٦٣/١ وما بعدها

(٢) أحيان الشيعة ٢٢٦/٢٦ وروضات الجنات ٢٥/٢

(٣) انظر في كشاجم وشعره شلوات الذهب لابن الهيثم

٣٧/٣ وحسن المغامرة للسيوطي ٥٦٠/١ وللنخل للقبلي

ص ٣٥٢ وأعلام الكلام لابن شرف القهروزي وذيل زهر

الآداب ص ١٠٧ وذكر له القهروزي في شرحه قصائد

المحررى طائفة كبيرة من شعره ، وديوانه مطبع بيروت ،

وراجع في السدي جده ترجمة موسى الكاظم في ابن

خلكان والحيدون للنجاحي ٣٩٣/٥ والنتية والإعراف

للمسعودي ( طبعة الصلوى ) ص ٣٠٢ وطبعة أنور ص

القيرواني ، وترك مصر إلى الشام ثم عاد إليها وهو بنشد .

قد كان شوق إلى مصر يؤرقه فالآن عدتْ وعادتْ مضراً لى دارا  
وتروى روايات مختلفة عن تاريخ وفاته ، قبل توفى سنة ٣٥٠ وقيل بل سنة ٣٦٠ ولعل  
التاريخ الأخير هو الصحيح .

وهو يتناول في شعره الأغراض المختلفة المعروفة من مديح وثناء وشكوى وهجاء وخمريات  
ووصف للطبيعة والأطعمة وأدوات الحضارة . وله أشعار مختلفة في الصيد والطرده وله كتاب فيها  
سماء المصايد والمطارد ، وأيضاً له كتاب في أدب التديب وهما منشوران . وكان شيعياً إمامياً إما - كما  
قلنا - مثل أهل بيته وإما استقلالاً منه ودراسة للنحلة دفعت إلى اعتناقها ، ويشهد لذلك ما رواه  
ابن شهر آشوب . إن صح ما رواه - من قوله :

نَبِيٌّ شَفِيعِي وَابْتُولُ وَحَيْدَرُ وَسَيِّطَاءُ وَالسَّجَادُ وَالبَاقِرُ الْمَهْدِي  
يُحْفَظُ بِمُوسَى بِالرُّضَا بِمُحَمَّدٍ بِنَجَلِ الرُّضَا وَالْمُسْكِرِينَ وَالْمَهْدِي  
والبَتُولُ : السيدة فاطمة الزهراء ، وحيدر : الإمام علي ، ويتوالى بعده أئمة الإمامية أو الاثني  
عشرية وهم اثنا عشر إماماً : علي ، والحسن والحسين ابناه سبطا رسول الله ، والسجاد : علي  
زين العابدين بن الحسين والباقر ابنه محمد ، ورثم جعفر في قسمه ، والترنيم في غير المنادى  
شاذ ، وموسى هو موسى الكاظم الإمام السابع ، والرضا هو علي الرضا ابنه ، وعهد هو محمد  
الجواد نجل الرضا ، ويلى علي الحادي فالحسن العسكري ، وقد سماهما المسكرين والمهدي هو  
محمد المهدي المنتظر الذي مات صبياً حوالي سنة ٢٦٠ للهجرة . وسماههما جميعاً كشاحم - كما  
رأينا - في بيته واتخذهم شفعا له عند ربه ، مما يقطع - إن صح أنه ناظم البيت - بشيعة  
وإماميته أو اعتناقه نخلة الإمامية .

وفي ديوان كشاحم ثلاث قصائد طويلة ، يكي في أولها الحسين ومن قُتلوا معه من آلِه في  
كربلاء قائلا في مطالعها :

لَوْ أَنَّ اللَّهَ تَجَنَّبَهُمْ جَوَائِزُهُ	يَا بُوْسُ لِلدَّهْرِ حِينَ آلَ رَسُولُ
ثُمَّ تَجَلَّى وَهُمْ ذِبَالُهُ	أَظْلَمَ فِي كَرْبَلَاءَ يَوْمُهُمْ
تَهَيَّيْ غَوَادِيهِ أَوْ رَوَانِحُهُ <sup>(١)</sup>	لَا يَبْرَحُ الْغَيْثُ كُلُّ شَارِقَةٍ

ونيل .

(١) الشارقة هنا اليوم وأمله الشمس . والغوازي  
والروانح : السحب المطيرة صباحا ومساء . تهى : نصب

على ثَرَى حُلَّة ابن بنت رسول الله مجروحة جوارحه .  
وسبق يسوانه ثلاثيح أحد زانٍ نهادى بهم ثلاثحه

والقصيدة نفيض - على هذا النحو - أسى ولوعة لمقتل الحسين وبعض آله معه ، ويسمى ذلك ذبحا ، فيبلغ كل ما يريد من التأثير لسبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدعوه له فيث أن يظل يهسى كل شارقة أو كل يوم على الثرى الذى ضم هذا الجسد الطاهر الجريح . ويصور بشاعة العدوان الأثيم حين ساق مرتكبه نساء آل البيت منهكات مُقييات ، حتى لقد أصاب الإبل التى حملتن ما أصابهن من الإعياء والإجهاد والكلال . ونمضى فى القصيدة فيتحدث عن على بن أبى طالب وشجاعته وبأسه وخطماته للإسلام ورسائله ، كما يتحدث عن علومه الزاخرة . ويستهل كشاجم القصيدة الثانية ، وهى همزية بإعلان حبه لأهل الكساء الخمسة الذين تحدثنا عنهم : الرسول والسيدة فاطمة وعلى بن أبى طالب وابناه : الحسن والحسين . ويذكر ما يعتقده الشيعة من أن الرسول أوصى بالإمامة لعلى فى غدیر خم ، ويذكر أن له معجزات جمة وأنه بحر علوم سماوية ، ثم يأخذ فى بكاء الحسين وأن الأمويين ثأروا فيه لقتلهم فى غزوة بدر يقول :

لئن وُثِرَ القومُ فى بَنَرهم لقد تآرَ القومُ فى كَرْيلاه  
بها هُتِكْت حُرْمُ المصطفى وحلَّ بينَ عظيمُ البلاء  
وساقوا رجلاهم كالصبيد وحازوا نساءهم كالإماء  
ولو كان جَدُّهم شاهداً لشبَّع أظْعام بالبكاء

والآيات بالغة التأثير فى وصفها هول يوم كربلاء وما كان فيه من هتك لحرمه نساء آل البيت ورجلهم ، أما الرجال فساقوهم سوق العبيد ، وساقوا النساء سوق الإماء ، فيا للفظاعة ، ولو شاهد الرسول هذه المأساة ما اكتفى بالدموع كما يقول كشاجم ، بل لأعاد غزوة بدر ثانية ، دقاها عن سبطه وآله .

ويُلم كشاجم فى القصيدة الثالثة بالحسين وآل البيت وما أصابهم فى كربلاء إلاما سريعا ، وكأنما أراد أن يفردهما لعل سيد الأوصياء كما يقول ، الجواد البطل ، ويسترسل فى فضائله قائلاً :

وكم شجرةً بهُداة جلا وكم خطّةً يبيجاء فصّل  
وكم أطفأ الله نارَ الضلالو به وفى ترمى الهدى بالشُّلّ

وكم ردُّ خالقنا شمسَهُ عليه وقد جَنَحَتْ للطفَلِ  
وكم ضربَ الناسَ بالمرَّهفاتِ على الدِّينِ ضَرْبَ غِرَابِ الإبلِ

وحقا كان على ملها في معرفة الحكم الفاصل في أى مشكلة تعرض له أولغيره ، حتى قال فيه  
عمر : قضية ولا أبا حسن لها ، وكم أعز الله به الإسلام ، وكم ضرب بالسيوف المرفقة أعداء  
الإسلام ضرب العرب لغرائب الإبل . أما أن الشمس كانت تَرْدُ عليه حين تنجح للغروب فذلك  
مبالغة ، على في غنى عنها ، بل هي بيتان ، ومثلها بهتانا مازعمه في القصيدة من تفصيل على  
درجات فوق أبي بكر الصديق وأنه كان أجدر بالخلافة منه لأن الرسول أوصى أن يكون خليفة  
بعده . وتماذى في بهتانه على الصديق ، فقال إن الرسول نَحَاهُ عن الصلاة بالناس حين اشتد به  
المرض ، وقد صلى بالناس سبع عشرة صلاة ، وصلى به الرسول مؤثما ركعة ثانية من صلاة الصبح  
ثم صلى الركعة الباقية وقال : « لم يُقْبَضْ نَبِيٌّ حَتَّى يُوْثَمَ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ » . وكلُّ ذلك متواتر  
معروف غير أن خلافة الشيعة ينكرونه . ولا يثبت أن ينحى باللائمة ، بل أن يهجو - غير حجل  
ولامستح - أبا بكر وعمر ، لأنها من السيدة فاطمة حقها في ميراث الرسول ومآل إليه في غزوة  
خيبر ، وهما إنما صدعا في ذلك عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء  
لأنورث ومانرثناه صدقه » ولعل في ذلك كله مايدل على تشيع كشاجم وغلوه في تشيعه .

### ابن حيوس<sup>(١)</sup>

هو محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الدمشقي ، كان جده حيوس على شيء غير قليل من  
الثراء مما جعله يشيد بدمشق داراً فخمة توارثها بنوه من بعده إلى زمن الشاعر . وكانت أمه بنت  
قاضي خوطة دمشق ، فهو قد ورث الثراء عن آبائه ، والعلم عن جده لأمه وأخواله . ولد لأبيه  
بدمشق سنة ٣٩٤ وحفظ مثل لداته القرآن وأخذ يخطف إلى الطعام وفي مقلتهم خاله ابن  
الجندي الفسافي ، وكانت دمشق حينئذ تابعة لمصر ، ويدعو أن أباه كان موظفا في دواوينهم هناك  
إذ نجد أحد قواد الحاكم بأمر الله الفاطمي للسمى أنوشكين التزيري يتزل ضيفا على أبيه لسنة  
٤٠٦ . ويعود فيها بعد حاكما للدمشق سنة ٤٢٠ حتى سنة ٤٣٣ . وكانت موهبة الشاعر تفتحت ،

ومقلته ديوانه لخليل خردم ولد حقه ونشره في مجلدين  
(طبع المجمع العلمي العربي بدمشق)

(١) انظر في ابن حيوس وشعره ابن خلكان ٤٣٨/٤  
وزبدة الطلب (نشر د. ساسي الدخان) ٤٠/٢ والطرائف  
١١٨/٣ وعبر النهر ٢٧٩/٣ وطلعات الذهب ٣٤٣/٣

فانقضت صلة وثيقة بينها وأخذ كل منها يهدى صاحبه هدايا عظيمة ، الشاعر يهديه روائع من مديحه بلغت أربعين قصيدة ، والدُّ زيرى يهديه أموالا جزية . ويتولى دمشق بعده ناصر الدولة الحسن بن الحسين الحمداني حتى سنة ٤٤٠ وله فيه عشر مدائح ويخلفه على دمشق حيدر بن الحسين بن مفلح ، ويتولى مرارا متقطعة حتى سنة ٤٥٥ وله فيه قصيدة واحدة . ويبدو أنه انجبه في ولايته على مدينته إلى القاهرة ، فزعم الحسن بن علي البازوري وزير الخليفة الفاطمي المستنصر من سنة ٤٤٢ إلى سنة ٤٥٠ وقدم إليه إحدى عشرة قصيدة ، بعضها قلحها إليه في القاهرة وبعضها أرسلها إليه من دمشق . وولى الوزارة بعده أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي فدحه بقصيدتين وعُزل سريعا فدح الوزير بعده بمحنة واحدة .

وفي هذه السنوات التي تبلغ أكثر من ستين عددا كان ابن حيوس شاعر ولاية الدولة الفاطمية الإسماعيلية ووزرائها وكان يصدر عن عقيدتها في مدائحهم ، وتضطرب الأمور في القاهرة ودمشق ، ويصمت الشاعر إزاءها حتى إذا ازداد الاضطراب في دمشق وخشى الشاعر على نفسه من استيلاء السلاجقة السنيين أعداء الفاطميين الإسماعيليين عليها رأيتاه يهاجر منها لسنة ٤٦٤ إلى طرابلس وبني عمار ولاتها ، ويتصادف لقاؤه فيها بعلي بن منقذ صاحب حصن شَيزَر فينصحه أن يصحبه إلى محمود بن نصر المرداسي صاحب حلب فإنه سيجد عنده الظل الظليل ، وكان يطلب على الناس هناك مذهب الشيعة الإمامية . فلم يجد الشاعر بأساً من تليته النصيحة ، وقدم على الأمير محمود بن نصر ، فدحه بقصيدة بديعة وأعطاه ألف دينار ، وما زال الشاعر يوالى مدائحه فيه إلى وفاته لسنة ٤٦٧ حتى بلغت عشرا وهو يوالى عطاياه عليه . وخلفه ابنه نصر ، قضى يحزله للشاعر في العطاء حتى بلغت مدائحه فيه مدة إمارته ، وكانت عاما ، عشر قصائد ، وولى بعده أخوه سابق وظل يوالى عطاه له حتى قضى مسلم بن قريش العقيلي لسنة ٤٧٣ على آل مرداس مستوليا منهم على حلب ، ومدحه ابن حيوس بقصيدة طنانة يقول له فيها :

أنت الذي نفَقَ الثَّاءُ بِسُوقِهِ وَجَرَى الثَّدْيُ بِمَرْوَقِهِ قَبْلَ الدَّمِ  
وأجازه بألبي دينار ، وفي نفس السنة توفي ابن حيوس عن نحو ثمانين عاما . ولاريب في أن ابن حيوس انصرف عن عقيدته الإسماعيلية حين وكى وجهه نحو بني مرداس ، ونراه يهاجر بذلك قائلا :

وكلُّ نَحْهٍ بِمَصْرِ جَانَقَ زَمَنًا فِدَاءَ نَحْهٍ سَقَانِي الرُّيُّ فِي حَلَبِ

وشاء له القدر أن يهدر مسلولته لآل مرداس في الأيام الأخيرة من حياته بعد أن أنزوه - كما يقول ابن خلكان - وأسبغوا عليه نهما ضخمة ، مما جعله يبنى دارا ضخمة له بجلب ، وكان قد كتب على بابها :

دَارٌ بَنَيْنَاهَا وَحِشْنَا بِهَا فِي نَعْمَةٍ مِنْ آلِ مِرْدَاسٍ  
قُلْ لِيَنِ الدُّنْيَا أَلَا هَكَذَا فَلْيَصْنَعْ النَّاسُ مَعَ النَّاسِ

ولم ينفعهم ما صنعوه لمجرد أن أزال مسلم بن قريش العُقْلَ دولتهم استأذنه في إنشاد مديحه . ومن المؤكد أنه ظل إلى من السنين يستلهم العقيدة الإسماعيلية الفاطمية في مديحه لولاة الفاطميين بلعشق ووزرائهم بالقاهرة إما عن اقتناع بها وإما رياء للنوى السلطان وقد تحدثنا عن هذه النحلة في كتابنا « العصر العباسي الثاني » ، و« عصر الدول والامارات » وأوضحنا مبادئها وكيف أن داعيتها القداح اتخذت سلمية بالقرب من حماة مركزا لها ، وكانوا يزعمون أن تاريخ العالم ينقسم إلى حلقات وكل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة وسابعهم الإمام الناطق الذي ينسخ بشريته الشرائع . وقالوا إن جسم الإمام ليس جسما ماديا ، بل هو شبح يكن فيه اللاهوت النوراني ويبلغ بعض شعرائهم فيزعم أن الإمام صفو شفاف لا تشوبه الأكدار ، فهو نوراني خالص . وأضافوا أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم على أئمتهم وجعلوهم حلة الوجود ومديرى الكون إلى غير ذلك من مبادئ تصور غلوهم المفرط . ومن هذه المبادئ قيس ابن حُبُوس في مدحه للدزيرى سنة ٢٧٧ هـ قوله في مديح المستنصر حين ول الحلافة بعد أبيه الظاهر لدين الله :

أُمْتُ خَلَاقِهِ رِيحُ الثَّدْيِ بَسْرًا      وَظِلُّ نَشْرِ الدُّنَا مِنْ نَشْرِهَا عَطِيرًا <sup>(١)</sup>  
وَنَحْصُ الشَّرَفِ الْمُخْفِي الَّذِي ارْتَضَعَتْ      لَهُ النَّوَاطِرُ وَالنَّوِيرُ الَّذِي بَهَّرَا  
هُمُّ الْأَلَى أَخَذَ اللَّهُ الْمُهَوَّدَ لَهُمْ      وَالنَّاسُ قَرُّ عَلَى مَنْ بَرَّ أَوْفَجَرًا <sup>(٢)</sup>  
لَأَجْلِهِمْ خَلَقَ الدُّنْيَا وَأَسْكَنَهَا      وَذَنَّبَ آدَمَ لَوْلَاهُمْ لَا خَيْرًا  
وَأَنَّ آلَاءَهُ مَا لَا يَحِيطُ بِهَا      وَصَفُّ عَلَى أَنَّهَا تَسْتَنْقِ الْحَجَرَا  
مَنَاقِبُ عَدَدِ الْأَنْفَاسِ مَا زَكَّتْ      لَفَاحِرٍ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ مَفْتَحَرَا

(٢) الدرر : ما يرى في شطع الشمس الداخل من الطلقة .

(١) أمت : قصدت ، بسرا : سهلا ، النثر : الريح الطيبة والطيب ، الدنيا : جمع دنيا .

وواضح أنه في البيت الثاني يشير إلى اللاهوت النوري المتقل في الأئمة - بزعم الإسماعيليين - حتى انتهى إلى المستنصر. ويزعم أن الله اتخذ على الناس عهدا بظاهتهم قبل خلق العالم وأنهم علة الوجود، ولولاهم لم يضر ذنب أبيهم آدم. ويقول إن آلاء المستنصر ونعمه لا يحيط بها وصف وكأنها آلاء الله العلي. ويكثر ابن حُبوس من ذكر إمام العصر وغياب المسلمين وتنقل النور في الأئمة وأن طاعتهم فرض، يقول للزيري في إحدى قصائده :

بَسَيْفَ مَنْ عِصْيَانُهُ وَوَلَاؤُهُ جَلًّا شَقًّا فِي الرِّوَى وَسَعِيدًا

فالسعيد من أطاع الإمام الفاطمي والشق حطبُ النار مَنْ عصاه. ونراه في مديح الوزير البازيري يخرجه مرارا على العراق وقد جعل موضوعا لقصيدة دالية له تنسب للبازيري المعروف لفترة الباسمى في سنى ٤٤٧ و ٤٤٨ واستيلائه على بغداد والموصل ودعوته فيها للخليفة الفاطمي، وفيها يقول للخليفة العباسي القائم بأمر الله :

عَجِبْتُ لِلْمُحْيِ الْآتِيَّ مُلْكًا وَضَائِقَةً بِبَغْدَادَ الرُّكُودُ  
وَمِنْ مُسْتَحْفَظٍ بِالْهَوْنِ رَاضٍ يُلَادُ عَنْ الْخِيَاضِ وَلَا يَلُودُ

وهو يريد أن ملكه لا يتجاوز بغداد، وأنه يرضى بالخرى والذل والصغار إذ ليس في يده من الحكم والسلطان شيء مع الملك السلجوقي طُغْرُك. وما يزال يدور في الفلك الإسماعيلي الفاطمي حتى من السنين إذ يتزل حلب عند محمود بن نصر المرداسي وكان قطع الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر وخطب للقائم بأمر الله فأنشده مدحة يقول فيها :

وَلَكِ الْأَوَّلَةُ أَوْصِيَتْ حَتَّى رَأَى إِنْهَاتَ فَضْلِكَ مَنْ رَأَى التَّحْطِيلَ  
عُرُوا بِأَنْ شَرِقَتْ عَنْهُمْ مَلْجَأٌ فِي الرِّأْيِ مَا عُرُوا لَهُ تَأْوِيلًا

وهو في البيتين يعرض بالفاطميين وأنهم يدهون إلى تعطيل إرادة الله وإنفاذ إرادة الأئمة، كما يدهون دعوة واسعة إلى التأويل في القرآن الكريم حسب عقيدتهم وأهوائهم، وكأنه يريد أن يعن تبرؤه منهم وأنهم ضالون مضلون. وأشعار ابن حُبوس تمتاز بالقوة والصلابة والجزالة والنصاحة، ويستخلص فيها أحيانا المهنات البديعة دون إسراف أو إفراط.



## بهاء الدين <sup>(١)</sup> الحامل

هو محمد بن حسين بن عبد الصمد الحامل ، كان أبوه من فقهاء المذهب الإمامي الشيعي ينتقل في بلدان الشام ولبنان ، ثم رحل إلى إيران فتنقل بين بلدانها وأدخل فيها حتى هراة في أفغانستان . واستقر به المقام في « البحرين » حيث توفي بها سنة ٩٨٤ وقد ولد له ابنه بهاء الدين في بابل سنة ٩٥٣ وصحبه معه إلى إيران ، وحببت إليه الرحلة مثل أبيه ، فجاب البلاد الإيرانية والعربية . وزار مصر وبها ألف كتابه « الكشكول » المنشور في مجلدين كبيرين ، وهو موسوعة أدبية عرض فيها بهاء الدين معارفه أو قل بعض معارفه في الحديث النبوي والدراسات الدينية واللغوية والصوفية والاحتشائية والفلسفية والمنطقية والفلكية سوى ما فيه من أشعار كثيرة تدل على ذوق جيد . وحل غراره كتابه « الخلعة » . وبعد ثلاثين سنة من رحلاته في البلاد الإيرانية والعربية ألقى عصا تسياره في أصفهان ، وقرّبه سلطانها شاه عباس وأكثر من إغداقه عليه ، وولاه مشيخة العلماء الإمامية في أصفهان حتى وفاته سنة ١٠٣١ للهجرة . وفي أثناء إقامته بمصر انعقدت صداقة بينه وبين محمد بن الحسن البكري وبالمثل انعقدت صداقة بينه وبين الحسن البوريني في دمشق . وقد هيأته إمامية أبيه ونشأته في إيران مركز المذهب الإمامي إلى أن يصبح قريبا إماميا كبيرا ، وإلى أن يؤلف كتابا في الحجاج للمذهب بالعربية والفارسية ، وله مؤلفات كثيرة في التفسير وفي الأصول وفي الفقه وفي العربية وفي الفلك ، وكان شاعرا مبدا .

ويقول الشهاب الحقاقي : « شعره باللسانين العربي والفارسي مهذب محرم ، وبالفارسية أحسن وأكثر » وأنشد له الحقاقي في الرحانة وابن معصوم في سلافة العصر والمهي في نضحة الرحانة وخلاصة الأثر أشعارا كثيرة تناول أغراضا مختلفة : غزلا وخمرا ومديحا ودينا ، وأنشد له مترجموه رباعيات متعددة . وهو في شعره ليس إماميا فحسب ، بل هو إمامي خال . وكان الإمامية يعتقدون أن إمامهم الثاني عشر محمدا المهدي المنتظر لم يمض حوالى سنة ٢٦٨ وإنما اخفى وسيجود ، ويسمونه إمام <sup>(٢)</sup> الوقت وقائم الزمان ، ويؤمنون أن بعض الصفوة من علمائهم على

دوريات الجاهات ٥٣٢ والبرية ٢/٢٩ ، ٢٤٠/٦

(٢) راجع في إمام الوقت عند الإمامية الاتي مشرقة الطبعة والفريعة في الإسلام لجولد سير (طبع القاهرة) ص ١٩٧ ، ٣٤٤ وما بعدها

(١) انظر في بهاء الدين الحامل وشعره سلافة الصرلابين

معصوم ص ٢٨٩ ودرجاة لأبنا للخواج ١/٢٠٧ ونتيجة الرحامة ٢/٢٩١ وكتاب الكشكول (طبعة الحلبي) ١٧٦/١ ، ١٩٢ وفي مواضع متفرقة وخلاصة الأثر ٣/٤٤٠

اتصال شخصي به وأنهم يستوضحونه بعض المسائل الشرعية ، ويوضح لهم من رغباته وأوامره ، بل إنهم يجعلونه خليفة الله للمصرف لشئون الكون والعباد ، ولبناء الدين قصيدة عن هذا الإمام صاحب الزمان أو قائمه يخلو فيها هذا الغلو المفرط أنشدها في كتابه الكشكول وفيها يقول :

خليفة رب العالمين وظله على ساكن القبراء من كل ديار<sup>(١)</sup>  
هو العروة الوثقى الذي من بنبيله تمسك لا ينشئ عظامم أوزار  
علوم الزوى في جنب أبهر علمه كفرقة كف أو كفسمة منقار  
به العالم السفلى يسو ويمتل على العالم العلوى من غير إنكار  
هامم لو السج الطبايق تطابقت على نقض ما يقضيه من حكمه الجارى  
لنكسر من أبراجها كل شامخ وسكن من أفلاكها كل دوار  
أيا حجة الله الذي ليس جاريا بغير الذي يرضاه سابق أقدار  
ويامن مقاليد الزمان بكفه وناهيك من مجده به خصه البارى

وبناء الدين يجعل محمدا المهدي الغالب في رأى الإمامية خليفة الله في تنفيذ أحكامه على الناس وظله الذى يستظل به كل مظلوم ، ويجعله العروة الوثقى أخذا من الآية الكريمة : ( وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ) ويجعل من يتمسك به تغفر له ذنوبه ، ويبلغ في سعة علمه اللدنى بالقياص إلى علم الناس الذى لا يقد شينا مذكورا بجانب بحار علومه . ويزعم أن العالم السفلى وهو الأرض شرف به وفضل على العالم الساوى ، ويزعم أن السموات السبع لو اتفقت على نقض ما يبرمه لانتقلت أبراجها وخرجت من قواعدها وسكن منها كل دائر متحرك من أبراجها . ويصفه بأنه حجة الله على الخلق وأن الأقدار الإلهية طوع أمره لا تعصاه أبدان أو مفاتيح الزمان وخزائنه بيده . والقصيدة تحتل بهذا الغلو المفرط الذى يجعل هذا الإمام لا يزال حيا يصرف أمور الكون ، ويدبر شئون العباد ، ويعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ، ومقاليد الدنيا بكفه ، وكل شيء يجرى فيها بإرادته ، وكأن قائم الزمان فوق جميع الأنبياء والمرسلين . وهو غلو ما يماثله غلو .

وطبيعى وقد بلغ بهاء الدين من الغلو في عقيدته كل هذا المبلغ أن يدعو إلى سب من وقفوا -

(١) ديار : ساكن دار . القبراء : الأرض .

في رأى الشيعة - ضد على وحده في الخلافة وفي مقدمتهم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق على نحو مانلقاه في مثل قوله :

يَا أَيُّهَا الْمُدْمَى حَبُّ الْوَصِيِّ وَلَمْ  
كُذِّبَتْ وَاللَّهِ فِي دَعْوَى حُجَّتِهِ ثَبَّتْ بِدَاكِ سَتَقُصِلُ فِي غَدٍ سَقَرًا  
لَإِنْ تَكُنْ صَادِقًا بِهَا نَطَقْتَ بِهِ فَأَيُّهَا إِلَى اللَّهِ مِنْ خَانَ أَوْغَدَا  
وَأَنْكَرَ النَّصْرُ فِي غَمٍّ وَيَمْتَنِعُ وَقَالَ إِنْ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ هَجَرَ  
أَتَيْتَ تَبْغِي قِيَامَ الْعِلْرِ فِي فَكِّكَ أَنْتَحِبُ الْأَمْرَ بِالتَّحْمِيهِ مَسْتَرًا

وبهاء الدين يجعل سب أبي بكر وعمر فريضة مَنْ لم يؤدها صَلَّى نار الجحيم وعذابها الأليم ،  
ويدهو صاحبه أن يبرأ من الشيخين الجليلين - كبرت كلمات خبيثة تخرج من فم - ويطل لما قاله  
بأنها أنكروا نصرٌ غدير خم ووصية الرسول صلى الله عليه وسلم فيه لعل بالإمامة والخلافة ، وهو  
نص لم يثبت ، بل الثابت أن الرسول استخلف أبا بكر عنه في الحج حتى إذا مرض استخلفه في  
الصلاة كما هو معروف . وكل ذلك يؤذن بأن الرسول استخلف أبا بكر الصديق بعده واستخلف  
أبو بكر عمر ، وبها انتشر الإسلام وفتح العالم القديم له أبوابه . ويتعلل بهاء الدين بأنها منما  
السيدة فاطمة الزهراء رضوان الله عليها من إرث فُكِّى رسول الله ، وإنما منعاها بوصية  
الرسول - كما ذكرنا مرارا - إذ قال : « نحن معاشر الأنبياء لانبوت ما تركناه صدقة » . ومان  
ريب في أن للشيخين الجليلين قدسية عظيمة في نفوس المسلمين . ولعل في كل ما قدمنا ما يصور  
كيف أن بهاء الدين العامل كان رافضيا غالبا في الرفض ، سواء في مهاجمته أبا بكر وعمر أو في  
خلعه على الإمام القائم صفات الله وكأنه يشركه في تدبير الكون وتسخير المقادير ، تعالى الله علوا  
كبيرا عن كل ما لج فيه من رفع إمامه الحق عن المستوى البشرى حتى للأنبياء المصطفين الأخيار .

## الفصل الرابع

### طوائف من الشعراء

١

#### شعراء الغزل

يكثر شعر الحب في الأدب العربي منذ الجاهلية إلى اليوم كثرة مفرطة ، وحتى في إغراض الشعر الأخرى مديحا وغير مديح يقدم الشعراء قصائدهم فيها أبيات من الغزل أو النسيب جلبا للأسماع ، ولذلك لا تغلو إذا قلنا إن النسيب والغزل والحب يكاد يكون الغرض الأساسي للشعر العربي ، وهو أمر طبيعي لأنه يتناول عاطفة الحب الإنساني الخالدة بجميع أحاسيسها ومشاعرها وانفعالاتها وانعكاساتها على حياة الشاعر المعب أو العاشق منذ تسويه امرأة ، فيقع فريسة لحبها ، وغلا قلبه وجدا وشوقا إلى رؤيتها ، وقد تعرف منه هذا الحب فظفاه أو تنظر إليه نظرة أو تومئ إليه إيماء فيزداد ولعابها وغراما ، وقد تتدل عليه وتمتص وقد تتأى عنه ونهجره فتضطرم بين جوانحه نار شوق لا تحمد ، وجبا يتدل لها ويستطف ويضرع ، ومع ذلك لا يلوى الأمل في نفسه بلقاها أبدا ، فهو دائما مؤمل في اللقاء بعد المجران وعلى الأمل في الرؤية بعد الحرمان . وبلغ الحب ببعض الشعراء قدما حد الجنون ، واسم قيس مجنون ليلي يشيع على كل لسان ، فقد ظل يفتي باسمها وحياته مصوبتا إلى خيالها ، فهو لا يرى في ليله ولا في نهاره سواها ، إذ تشغل من حوله كل وقت وكل مكان وهو يسبح في البوادي معاشرآ آرامها ، إذ هجر حبيها ، بل هجر عالم الإنسان ، إنه لا يعرف سوى عالمها ، فهو العالم الفسيح الذي لا يزال بصره فيه شاخسا إليها . أما عالم قومه أو بمباراة أخرى عالم الإنسان فإضيق ساحاته ، وإنه ليفر منه متطويا على نفسه حللا بللى وعالمها الساحر خالما الوهم على الحقيقة ذاهلا عن كل ما حوله ذمول الهاتين ، ولذلك سماه القدماء مجنون ليلي . وقلة فقط هم اللذين بلغ بهم الحب هذا المبلغ المفرق في الخيال ، ومع ذلك فكل محب يشمر كأن صاحبه فوق مستوى كل من حولها من الفتيات والنساء ، وكأنما تحيط بها

هالة سحرية ، وبذلك تستجلب في خيال الشاعر الحب لما أو العاشق إلى كائن شعري ساحر . وقد يفتق الحب من حبه وسحره ، وقد يظل رهينا به لا ينفك عنه أبدا ولا يفتق بتاتا .

ونستطيع أن نلاحظ ذلك على شاعر شامى من شعراء العصر العباسى الأول هو ديك الجن الحمصى ، فقد ظل يتخنى بمحبوته « ورد » طوال حياته حتى بعد أن وسوس له شيطان الغيرة الحمقاء أن يحرقها ظلما وبهتاناً ، فقد ظل يبكيها بكاء قلب مزقه الندم والألم . وظل البحترى مثله يتنزل بصاحبه « علوة الحلبيّة » حتى شيخوخته على نحو ما صورنا ذلك في كتابنا « العصر العباسى الثانى » . ومن المؤكد أن شعراء الغزل العربى - على مر الأزمنة - أتاحوا بحبهم وأشعارهم لغبر امرأة أن تنال حظا من الشهرة قليلا أو كثيرا . ولولا ديك الجن ما اشتهرت « ورد » ولا عرفها أحد ولولا البحترى ما اشتهرت علوة ولا حفل بها أحد ، وقد ظلت دارها قائمة معروفة مجلب حتى زمن ياقوت صاحب معجم البلدان في القرن السابع الهجرى . على أن بين الشعراء من لم يقتصر فى غزله على واحدة بعينها فتغزل بكثيرات وقليل منهم من نشر عنده بلوعة حقيقية . ومنذ الجاهلية يتنوع الغزل ، ففيه العفيف النقى الذى أضاف إليه الإسلام بمثلثه عفة على عفة وطهرا على طهر ، والشاعر المحب يصور فيه وجهه وهيامه . وكلفه بصاحبه كلفا شديدا وعذابه فى هذا الكلف عذابا متصلا . وفى الغزل بجانب ذلك الغزل الحسى الذى يصور جمال المرأة ومفاتنها تصويرا ماديا تطنى فيه الفرائز وتجمع العواطف . وظل هذان النوعان : للاتكى الطاهر والمادى الصريح يتقابلان فى الغزل العربى طوال الحقب الماضية . والحديث عن الغزل وشعر الحب عند شعرائنا يطول فليدع ذلك إلى أمثلة مختلفة من غزل هذا العصر بديار الشام ، وأول ما نسوق من ذلك قول كشاجم فى صاحبة له (١) :

السَّحَرُ فى أَلحَاطِهَا الْفَاتِكَةَ وَالرُّوحُ من إِمْرَاضِهَا هَالِكَةَ  
وَالْقَهْوَةُ الصُّبْهَاءَ من رِبْقِهَا وَالسُّكُّ من أَصْدَاغِهَا الْخَالِكَةَ  
مَنْ لَمْ يَرِ الدَّرَّ وَتَأْلِيفَهُ فى سَيْلِكَ ظَلِمَها ضَاكِهِ  
قَدْ كَتَبَ الْحَسَنُ على خَدِّهَا طُلُّ دَمٍ أَنْتِ لَه سَافِكِهِ

والآيات تخلو من العاطفة المشبوبة ، إذ ليس فيها حرارة ، إنما فيها تشبيهات واستعارات

(١) ديوان كشاجم (طبع للطبعة الأنسية ببيروت)

محفوظة ، فريق صاحبه خمر والشعر على أصدافها ملك وأسنانها در ، وربما كانت الصورة في البيت الأخير بدعية ، إذ تخيل كأن حمرة خديها الساطعة دم سفكه ، وهي مبالغة في الخيال والتصور . ولأبي فراس الحمداني أبيات فيها غير قليل من نشوة الحب وحرارته ، إذ يقول (١) :

سكرتُ من لَحْظِهِ لا من مُدَامَتِهِ      ومال بالثوم عن عيني غمايلة  
وما السلافُ دهقني بل سواقه      ولا الشُّمولُ ازدهقني بل شائلة  
ألوى بِلَيْسَى أصداعُ لَوِين لَه      وغال قلبى ما نحوى غلاله

وهو يقول إنه انتشى من لحظ صاحبه وهيها الفاتنين لا من الحمر الحقيقية ، ويقول ليست السلافة أو الحمر هي التي دهت بل صفحتا جيدها البديع ، وكذلك ليست الخمر أو الشُّمول هي التي استخفت بل خصالها الحلوة وما أروع أصداع شعرها للنسدة على خديها فقد ألوت وذهبت بلبه ، وما أجمل كل ما تشتمل عليه غلالها وثيابها مما سرق منه قلبه . وله مقطوعة وصف فيها ليلة من ليالى حبه على طريقة عمر بن أبي ربيعة (٢) ، إذ يقول إنها ظلا يقتطفان زهرات الحب إلى أن بدا ضوء الصباح فضرقا . ولابن زمرك موشحات وأشعار على هذا الفرار ، يحاكي فيها أبا فراس وابن أبي ربيعة ، وظن بعض المستشرقين أنها من تجديداته ، وهي قديمة في الشعر العربي . ولابن سنان الخفاجي (٣) :

أَتَرَى طِبْفِكُمْ لَمَّا سَرَى      أَخَذَ النَّوْمَ وَأَعْطَى السَّهْرَا  
أَمْ ذُهِلْنَا وَتَمَادَى لُبْنَا      فَتَوَهَّنَا الْإِمْشَاءَ السَّحْرَا  
يَا عِبْرَانَا بِالْحَمَى رَاقِدَةً      حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُنَّ الْكَرَى  
سَلْ فِرْوَجَ الْبَابِ عَنْ قَلْبِي فَقَدْ      وَهَمَّ الْبَارِقُ فِيهَا ذَكَرَا

وليس في الأبيات لطف ولا لوعة ، ودعاؤه على صاحبه أو صواجه - في البيت الثالث - أن لا يلفن النوم دعاء ناب على ذوق المهين . ولم يكن من أصحاب الحب . وإنما هي أبيات في الغزل أو النسب كان يقدم بها لقصائده حكاية واتقاء بالشعراء قبله . ولابن الخياط أشعار غزلية

(٣) ديوان ابن سنان الخفاجي (طبع المطبعة الأنسية)

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ٣٠٢/٢

(٢) ديوان أبي فراس ٣٩/٢ .

كثيرة يقدم بها لمدامحه نفس فيها لوحة الحب وحرقة قواده من مثل قوله (١) :

خُذًا من صَبَا نَجِدُ أَمَانًا لِقَلْبِهِ      فَقَدْ كَادَ رِيَاها بِطَيْرٍ بَلْبِهِ  
تَذَكُّرُ والذَكَرَى تَشَوُّقُ وذو الهوى      يَتَوَقُّ وَمَنْ يَطْلُقْ به الحبُّ يُصْبِهِ  
غَرَامُ على بَأْسِ الهوى ورجائه      وشوقُ على بُعْدِ المزارِ وَقُرْبِهِ  
إذا خَطَرْتُ من جانب الرُّمْلِ نَفْحَةُ      تَضْمُنُ منها دَاءَهُ دونَ صَحْبِهِ  
أَخَارُ إذا آتَتْ في الحَيِّ أَثْنَةُ      حُلْدَارًا وَغَوْقًا أَنْ تَكُونَ لِحَبِّهِ

فحب صاحبه النجدية استأثر بقلبه حتى يطلب له الأمان من صبا نجد عاقبة عليه أن يطير شطاطا ، وإنه ليدكرها ليل نهار وتُصْبِيه ، ويأس لمجرانها ولأسته أهلها وسيوفهم كما يقول في القصيدة . ويظل يرجو لقاءها وإنه ليتشم في الصبا المقبلة من ديارها نفحة من عطرها تحمل له نفس الداء ، داء الحب وعذابه . ويبالغ في وصف غيمته عليها ، حتى ليخشى أن تكون كل أنة يسمعها في الحى من حب لها معموم بجها ودائه الضال . ولما صرته القزى للتوفى سنة ٥٢٤ للهجرة (٢) :

إِشَارَةُ مِنْكَ تَغْنِي وَأَحْسَنُ مَا      رُدُّ السَّلامِ عَنَّا التَّيْنُ بِالْعَمِّ (٣)  
حَتَّى إِذَا طَاحَ عَنْهَا الرِّبْطُ مِنْ دَعَشٍ      وَالْحُلُّ بِالْقَسْمِ سَلَكُ الْعَقْدِ فِي الظُّلَمِ (٤)  
تَبَسُّمُ فَأَضَاءَ اللَّيْلُ فَالتَّقَطُّ      حَبَاتِ مُكَيَّرٍ فِي ضَوْءِ مُنْتَظِمِ

وهو تكفيه الإمامة من بعيد والإشارة بالبتان الجميل الأحمر حمرة زهر العنم ، ويقول إنه سقط عنها الربط أو الإزار والحل سلك العقد للثفن حول جديدها ، وتبسمت فأضاء ظلام الليل وأعلنت لتتقط حبات العقد للتأثرة في ضوء اللؤلؤ المنتظم في ثغرها البراق الفاتن . ودخل القيسراني مدينة أنطاكية في أثناء حكم الصليبيين لها سنة ٥٤٠ هـ حاجة عرضت له ، وكان في الثانية والسعين من عمره ، فنظم مقطعات يشب فيها بإفرنجيات ، أشهرهن مغنية تسمى ماريا ، خطبت له ، وله فيها غزليات كثيرة ، ومن بديع غزله قوله (٥) :

(٤) الربط : كساء من حرير أو صوف تلتف به المرأة

(٥) الخريدة (قسم الشام) ١٢٤/١

(١) ديوان ابن الخطاط ص ١٧٠

(٢) ابن خلكان ٥٩/١

(٣) العنم : نبات أزهاره قرمزية

عَفَافُ إِلَّا عَن مَّعَارِفِ الْهَوَى ضَعَائِفُ إِلَّا فِي مَغَالِبِ الصُّبِّ  
وَلَا دَنَا التَّوَدِيعُ قَلْتُ لِصَاحِبِي حَنَانِكَ سِرٌّ بِي عَن مَلَاظِمَةِ السَّرِّبِ  
تَقْضَى زَمَانِي بَيْنَ بَيْنٍ وَهَجْرَةٍ فَحَتَامَ لَا يَبْصُرُو قَوَادِيَّ مِنْ حُبِّ  
وَأَهْوَى الَّذِي يَهْوِي لَهُ الْبَدْرُ سَاجِدًا أَلَسْتُ نَرَى فِي وَجْهِهِ أَثَرَ التُّرْبِ

والصورة في البيت الأخير رائحة فقد جعل كلفة البدر من أثر التراب العائى يجمته لتوالى  
سجوده لصاحبه ولجلالها الساحر . ويقول إن زمانه تقضى في حرمان متلاحق من البعاد والهجرة  
للتصلة . ولحماد الخراط للتوفى سنة ٥٦٥ قوله <sup>(١)</sup> :

أَلَا هَلْ لِمَاضِي الْعِشْرِ عِنْدَكَ مَرْجِعُ وَهَلْ فِيهِ بَعْدَ الْيَأْسِ لِلصُّبِّ مَطْمَعُ  
لَقَدْ أَوَلَمْتُ بِالْصَّدِّ عَنِّي وَإِنِّي لَفَرَّقْتُهَا ، مَا عَشْتُ ، بِالْوَجْدِ مَوْلَعُ  
أَهْوَاحُ حُسَادِي فَيَغْلِبُنِي الْبُكَاءُ وَأَكْتُمُ عَوَادِي وَإِنِّي لَمَوْجِعُ  
إِذَا خَطَرْتُ مِنْ ذِكْرِهَا لِي خَطَرُ نَكَادَ لَهَا أَنْبَاطُ قَلْبِي تَقْطَعُ

وهو يائس من اللقاء ومع ذلك لا يزال حبل الرجاء ممدودا ، مع ولوها بالصدد عنه  
والإعراض ومع تعلقه بها ووجدته وجدا ملتحا . ويضاحك حساده نمونيا ويظله البكاء ويكاثم  
زواره وهو موجع القلب والحشا ، حتى إذا ذكر اسمها عضا أحس كأن نياط قواده وعلائقه تنقطع  
نحسرا ولوعة . وقد أنشد له العباد غزلا كثيرا . ويشكو ابن النجار كاتب الإنشاء الدمشق للتوفى سنة  
٥٩٢ شكوى مرة من صاحبه قائلا <sup>(٢)</sup> :

مَنْ مَنَصْنٍ مِنْ ظَالِمٍ مَتَعْتِ بِزَادِ ظِلْمَا كَلِمَا حَكْمَتُهُ  
مُلْكُهُ رَوْحِي لِيَحْفَظَ مُلْكَهُ فَأَضَاعَنِي وَأَضَاعَ مَا مَلِكُهُ

وهي نظلمه ولا ترحمه ولا تعطف عليه أى ضعف ، وويل له لقد ملكها روحه لتحفظها  
وتصونها وتقوم بحقوقها فإذا هي تضييعها وتضيع صاحبها إذ أصبح خواء بلا روح ، فاشقاء .  
ويقول فتيان الشاغوري متزلا <sup>(٣)</sup> :

وَمَهْفَهْوٍ بَلَغَ الْمَنَى بِصِفَاتِهِ حَرَكَاتُ غُضَنِ الْبَانِ مِنْ حَرَكَاتِهِ



والشمسُ تَجْبَلُ من ضياءِ جَبِينِ والجلتارُ يَظَارُ من وَجَنَاتِهِ  
أضحى الجبالُ بأسره في أسره فكان يوسف حاز بعضَ صفاته  
لا تَقْلَمَنَّ يا عاذلُ في سَلَوِي عنه لما أسلوه ، لا وحياته  
وهو بصور صاحبه مهفهفه أو بعبارة أخرى ضامرة دقيقة الحصر بلغت كل ما تمتناه للمرأة من  
حسن وجمال ، ويقول إن غصن البان الذي يمد ملاحه حركته مشتقة من حركاتها ، ويحمل  
الشمس تصفراً خجلاً من ضياء جبينها ، بينما يظار الجلتار أو بعبارة أخرى ورد الرمان وزهره الأحمر  
من وجناتها المشربة بالحمرة القانية ، ويحطها تحوز الجبال بأسره ، حتى لكأن يوسف عليه السلام  
إنما حاز منه أطرافاً ! ويتوجه إلى عاذله باللوم ، فلن يكفَ عن حبه ولن يسلو صاحبه أبداً .

ويقول بدر الدين يوسف بن توتوك اللهم المتوفى سنة ٦٨٠ للهجرة (١) :

وتَبَّهْتُ ذاتُ الجَنَاحِ بِسَحْرةٍ بالوَادِئِينَ فَنَسَبْتُ أَشْواقِ  
وَرَقَاءَ قد أَخْلَطْتُ فَنونَ الحَزْنِ عن بِحُوبِ والأَلْحَانِ عن إِسْحَاقِ (٢)  
أَنْتَ تُبَارِئُنِي جَوِيَّ وَصَابَةَ وَكَأَبَةَ وَأَنْتَ وَفِيضَ مَا نَى  
وَأَنَا الَّذِي أَمْلَى الجَوَى من خَاطِرِي وهى التى تُحْمِلُ من الأَوْدَاقِ

وهو يقارن بين جواه وحبه وأساه ودموعه وبين جوى الحاماة الورقاء وصبايتها لأليفها وحزنها  
اللفظي ، ويقول إنه يمل من خاطره حُرْفُهُ وَلَوْحُهُ ، بينما هى تحمل من أوراق الشجر وتروى عنه  
ذلك الوجد . ويقول للحار الخليلي المتوفى سنة ٧١١ للهجرة (٣)

مَا بَتْ شِكْوَاهُ لَوْلَا مَعَهُ الأَلَمُ وَلَا تَأَوُّهُ لَوْلَا شَفُهُ السَّقَمُ  
وَلَا تَوَهُمُ أَنْ التَّمَعَّ مُهْجَتُهُ أَذَابَهَا الشَّقْوُ حَتَّى سَالَ وَهُوَ دَمٌ  
يَبْدَى التَّجَلُّدَ والأَجْفَانُ تَفْضَحُهُ كَالْبَرْقِ تَبْكِي الفَوَادِي وَهُوَ يَتَسَمَّ  
بِمَسَى وَبَصِيحٍ لَا صَبِيرَ وَلَا جَبْدَ وَلَا قَرَارَ وَلَا طَبِيفَ وَلَا حُلْمَ

والحار يقول إنه لم يشك إلا بعد أن برح به الألم ولا أن إلا بعد أن شفه السقم وما كان ليتوهم

(١) الخزانة ص ٣٢٦

(٢) يحبوب هو الذي يحبوب وبكائه على ابنة يوسف  
حتى ابضت عنها من الحزن معروف .. وإسحاق هو

إسحاق للواصل أشهر للفظين للمعتز في العصر العباسي

(٣) نوات الوفيات ٢٢١/٢

أن نار الهوى أذبت مهجته حتى سال الدمع دماً قانياً . وعسى ويصبح وقد عزه الصبر والتجملد  
وتملكه قلق لا حد له ، وضاع منه كل شيء حتى الطيف في المنام ، وحتى الأحلام إذ لا يزال  
مسهداً لا ينام .

وغصى إلى زمن العثانين ونجد القزل وشمر الحب على كل لسان من مثل قول  
فتح الله بن النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ للهجرة (١) :

طرقن طروقَ الطيفِ وهما مبالأة الأصطاف حُنا  
مضغُولَةُ الحُذَيْنِ مث ل السيف الحاظاً ومثنا  
في حُلَّةٍ من جنسٍ ما يكسو الريحُ القُصْنَ دُكْنَا  
الذلُّ يَنْتَبِ من مسا حب ذيلها والحُصْنُ يُجْنَى  
لو غصابتُ وَتَنَأُ الح من مع الجمود لها وأنا

وليس في القطعة لوعة ، بل هو يصف جمال صاحبه ودلها وحسها ، ويقول : لو خاطبت  
وثنا من الأحجار لحن لها وأن أنيتا لا ينقطع . ولم يكن فتح الله بن النحاس من شعراء الحب  
والوجد مثل محمد الحصري المتوفى سنة ١٠٩٢ للهجرة القاتل (٢) :

مَنْ عَلَيَّ في حبٍّ طفلي لوبٍ حُودوه سَفَكَ الدِّمَا فَحَلَا لَه  
كلما صَدَّ عن سوائٍ دَلَالاً صَدَّ عني تَبَرُّماً ومَلَاكَه  
لست أنسى يوم الفراق وقد أذ رك من شملنا الترى آمالَه  
غَصَبَ البَيْنِ من يدي كلُّ قَدْ سَرَقَ القُصْنَ لِيَه واعتدالَه  
مُرَّ نَشْوَانٍ من جرى بشئ نُقِلَ الوردُ عُصْنَه فامالَه

والقطعة ترخر بتصاوير بديعة ، تصور خصب الخيال عند الحصري ، فقد حُودوا صاحبه  
الطفلة الناعمة الرقيقة سفك الدماء فحلها أن تديم هذا السفك . ويزعم أن القصن سرق ليه  
واعتهاله من قد صاحبه وقوامها اللين المشوق وينقل إلى صورة طريفة ، فصاحبه تنقن لتقل  
الورد المترويح على خلودها الفاتنة . وحرى بنا أن نترجم في إجمال لبعض شعراء العصر الفزليين .

عبد<sup>(١)</sup> المحسن الصوري

هو عبد المحسن بن محمد الصوري ، أحد الشعراء المهيدين للبدعين ، وفيه يقول الثعالبي :  
 « أحد المحسنين الفضلاء المهيدين الأدباء ، وشعره بديع الألفاظ حسن المعاني رائق الكلام ، مليح  
 النظام ، من محاسن أهل الشام » ويقول ابن خلكان : « له ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان .  
 توفي سنة ٤١٩ وعمره ثمانون سنة أو أكثر » ، وكان ابن حيوس الذي ترجمنا له بين شعراء الشيعة  
 كثرى بشعره ، وكان يفضل على أبي تمام والبحرئى والمثنئى . ويروى أنه مرقى طريقه إلى حلب  
 بشاعر للمرأة بل الشام بل العالم العربى لزمته : أبى العلاء ، وجرى بينها حديث فى الشعر والشعراء  
 وعاب أبو العلاء عبد المحسن الصورى بقصر أشعاره وأنه لا ينظم فى الغالب إلا مقطعات فقال له  
 ابن حيوس : هو أشعر من طويلك يقصد المثنئى ، لقد إليه أبو العلاء يده وقبض على أهل نويه  
 قائلا : الأمراء لا يتناظرون ، يعنى أنه لا يقارن بالمثنئى . وكان أبو العلاء معجبا بالمثنئى إعجاباً  
 شديداً حتى سمى شرحه لديوانه باسم معجز أحمد . على أن قصر أشعار عبد المحسن الصورى  
 لا يدفع أنه مجيد فى قصاره إجادة رائعة . وهو فيها يقترب فى فنه من أبى تمام فى دقائق تصاويره  
 وأخيلته .

ولعل ذلك ما جعل ابن خضاعة الأندلسى يحجب بأشعاره حتى ليقرنه فى مقدمة ديوانه  
 بالشريف الرضى ومهيار قائلا : إنه تملكته فى شبابه محاسن أشعارهم الرائعة الرائقة ، وألفاظهم  
 الشفافة الشائقة . ويتوقف مرارا فى ديوانه ليدلنا على أن عبد المحسن الصورى ألهمة هذه المقطوعة  
 أو القصيدة أو تلك ، وهو فيها جميعا ينزل غزلا رفيقا متمرجا بالطبيعة وجالها الحاجج فى الكون ،  
 وكأنه يضع أبدينا على خصائص عبد المحسن فى غزله ، فهو فيه يمزج بين المهيوب وعناصر الطبيعة  
 مزجا فيه كثير من الطرافة فى التصوير كقوله :

بألذى	ألم	تَحْدِيد	سحى	ثناياك	العذابا
والذى	ألبس	خَدِيد	لكن	من الورد	يقابا
والذى	صبر	حظي	منك	هَجَرَا	واجتبا
يا غزالا	صاد	باللح	حظ	قزادى	فأصابا
ما الذى	قاله	هنا	لِ	لقلبي	فأجابا

لهو يصل بين رُضاب الثنايا في ثمر صاحبه وبين المياه العذبة الحلوة ، ويجمل الحمرة على وجتها وردا تتقب به . وهو بعد في التصوير . ويجملها غزالا من نوع غريب ، فهي غزال لا يُصاد ، بل يصيد بشباك لحظه ، وإنه ليخبل القلوب فقلبه طائفة مستجبة .  
وقد استلهم ابن خضاعة هذا الجانب في غزل عبد المحسن الصوري واستضاء به ، كما استضاء واستلهم في أشعار أخرى له جانبا ثانيا في غزل عبد المحسن ، ونقصد جانب الرقة والدماثة والنخوة على نحو ما نجد في قوله :

أترى بثأر أم يديني	علقت محاسنها بعنى
في لحظها وقوامها	ما في المهند والرديني
وبوجهها ماء الشبا	بـ خبط نار الوجتي
بكرت على وقالت اخذ	تر خصلة من خصلتي
إما الصدود أو الفرا	ق فليس عندي غير قيني
فأجبتُها ومدامعي	منهلة كالمرزميني <sup>(١)</sup>
لا تغفل إن حان صـ	سلك أفرأك حان جني
وكأنما قلت اذهبي	لفضت مسارعة ليني

والآيات تسيل رقة وعلوبة ، مما يجعلها تطير من الفم بخفة طيرانا لرشاقها ونعومتها ، والألفاظ مختارة اختارا دقيقا ، وبالمثل موسيقاها الخفيفة للقتلقة من وزن الكامل الموزون . وكان يعرف كيف يختار موسيقاه ولحنها وأنغامها ، وكيف يختار لها الألفاظ التي تمكن لها بجلاوتها وعلويتها في الأذان ، بل في القلوب والأفئدة . ويقول في صُذغ شعر مرسل بين أذن صاحبه ووجتها وقد توقف مائلا منحيا :

جتي ما جتي وانصرف	وانكسر ثم احترف
سلوا صُذغه لِم جرى	ولم جرى لِم وقف
وكان على أنه	يجوز المدى فانطف

وهو تصوير بديع لهذا الصُذغ وانعطافه ذات الجمين أو ذات اليسار دون استرساله ، وكأنه لجاله وحسه كان يتظر أن لا ينحطف ، وقد بث فيه حركة طريفة فهو يجري ثم يقف ، وهو يرسل ثم

ينعطف . وكان الشعراء يثأرون على صواحبيهم ، ويذكرون ذلك في أشعارهم ، أما عبد الحسن فيقول :

نعلقتُ سكرانَ من خمرة الصُّبا به غفلةً عن لوحى ولهى  
وشاركنى في حبه كلُّ أعيدٍ بشاركنى في مهجتي بنصب  
فلا تُلزمونى غيرَ ما عرفتها لأن حبيبي من أحب حبي

وهو في ذلك رقيق منتهى الرقة ، فهو لا يثأر من يحب حبيبه ولا يكرمه أو يمجته ، بل أعجب المصنوع أنه يحبه ، وهى مبالغة مفرطة فى الرقة ورهافة الشعور .

### ابن منير<sup>(١)</sup>

هو أحمد بن منير الطرابلسي ، ولد فى طرابلس سنة ٤٧٣ لأب كان ينشد الأشعار ويغنى فى أسواقها ، وأخذ ابنه فى نشأته بالتعليم فحفظ مثل لداته القرآن الكريم ، وتعلم اللغة والأدب وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقدم دمشق وسكنها . ويقول العماد الأصبهاني كان شجاعا غاليا ، ويقول ابن خلكان : « كان رافضيا » . وكان هجاء خبيث اللسان ، وكثر هجاؤه فسجنه بوري بن طمّككين صاحب دمشق ( ٥٢٢ - ٥٢٥ هـ ) . وعزم على قطع لسانه ، وشفع فيه الحاجب يوسف بن فيروز ، فأطلقه بوري على أن يثأر دمشق ، ورجع إليها بعد وفاته . غير أن حكامها بعد بوري ظلوا ينفونه مرارا ، مما جعله يتزل فى بلدان شامية متعددة وخاصة حماة وشيخير ومدح كثيرين من حكام البلدان الشامية وخاصة أمراء شيخير ، وكان فى أثناء مقامه بتلك المدينة يتردد على حلب . وتغنى طويلا بانتصارات عماد الدين زنكى على الصليبيين فى بادين وغيرها من ساحات الحرب فى الشام . وجلجل بصوته حين فتح مدينة الرها وأزال منها إلى خير رجعة لإحدى الممالك التى أنشأها حملة الصليب . وأقام ابن منير حيثلد بحلب ، ونشأت بينه وبين ابن القيسراني - بسبب المنافسة - معركة هجاء حامية الوطيس . وتوثقت العلاقة بينه وبين نور الدين بعد وفاة أبيه زنكى ، وأشاد ببطولته وانتصاراته على حملة الصليب ، وكان يصحبه فى غزواته ، واتخذ نور الدين سفيرا إلى حاكم دمشق فى بعض المهام ، ولم يلبث أن توفى بحلب سنة ٥٤٨ .

والنجم الزاهرة ٢٩٩/٥ وشرحات اللعاب ١٤٦/٤ .

(١) انظر فى ابن منير وشعره الخريدة ( قسم الشام )

٧٦/١ وابن خلكان ١٥٦/١ وابن الفلانسى ٣٢٢

وتناول ابن منبر في شعره أغراضا مختلفة في مقدمتها المديح ، ومُرَبَّنًا - في غير هذا الموضع حديث عن مديحه لعاد الدين زنكى وابنه نور الدين في انتصارانها الرائعة على حملة الصليب ، ويُشيد العاد الأصماني بشعره وروعه . وكان يكنى أبا الحسن ويلقب المهذب وقال في وصف شعره أحد معاصريه : شعره ككثيبه حسن ونظمه كلقبه مهذب ، أرق من الماء الزلال ، وأدق من السحر الحلال ، وأطيب من تيل الأمتية ، وأعذب من الأمان من النية . وله هجاء كثير . وكان يحيد الغزل وشعر الحب إلى أبعد حد ، وفي رأينا أن مرجع ذلك إلى حزن تنطوى عليه نفوس الشيعة جميعا منذ مقتل الحسين ، وهو حزن صفى مشاعره ورقى أحاسيسه وملأه بوجود معتقد لا تخمد ناره ، ومن رائع غزله قوله :

مَنْ رَكِبَ الْبَدْرَ فِي صَدْرِ الرَّدْنِيِّ وَمَوْهُ السَّحَرُ فِي حَدِّ الْجَمَانِي  
وَأَنْزَلَ الثَّيْرَ الْأَحْلَى إِلَى فَلَكٍ مَدَارُهُ فِي الْكِسَاءِ الْخُسْرَانِي  
طَرَفُ رَنَّا أَمْ قِرَابُ سُلٍّ صَارُمُهُ وَأَغِيدُ مَاسٍ أَمْ أَعْطَافُ خَطَمِي  
أَذْنِي بَعْدَ عَزٍّ وَالْهَوَى أَبَدًا بِسَعْدِ اللَّيْلِ لِلطَّبِيِّ الْكِتَاسِي<sup>(١)</sup>  
أَمَا ذَوَائِبُ مَسْكٍ مِنْ ذَوَائِبِ عَلَى أَعَالَى الْقَضِيبِ الْخَيْرَانِي  
وَمَا يُجِنُّ حَقِيقُ الشَّفَاةِ مِنَ الْهَوَى رَيْقُ الرَّحِيقِ وَالْثَغْرِ الْجَمَانِي  
أَرَبَى عَلَى بَشَى مِنْ مَحَاسِنِ تَأَلَّفَتْ بَيْنَ مَسْمُوعٍ وَمَرْئِي

والصور في الأبيات طريفة غاية الطرافة ، فهو يتمتع من بدر يراه في صدر رمح رديني مهيب لإصابة الحب في الصميم ، وإنه ليعجب أن يكون سحر العينين مموها في حد السيف الجماني وأن يرى القمر أمام عينيه يدور على الأرض في كساء فارسي حريري . ويعجب هل العين طرف يديم النظر أو غمد سل سيفه القاطع ، وهل هو يلازم قد شائق ناعم بشى أو يلازم أعطاف رمح خطي قاتل ، ويقول إن الهوى يستعد الليث الفاتك للظي الوادع الذى يعيش في كتاسه أو مأواه الآمن ، ويرى ذوائب الشعر على أعالي هذا الغصن الخيزراني الأملس الناعم تقطر ذوب المسك ، أما الشفاء فوراها الثغر الفضى من الأسنان والريق الرقيق السانغ . وهى صور تدل على خصب الخيال عند ابن منبر وقدرته على عرض الصور الشعرية عرضا طريفا . ويقول :

أَكْرَى بَيْتِهِ عَنْ قَسْوَةِ خَلِّهِ الدَّلَابِ مِنْ رِقَّتِهِ

(١) الكِيس : مأوى للظي في الشعر به

أفاستجده وهو الذى      ثون الدمع على حبيته  
ولهذا قومه مؤثرة      تستمد الثبل من مقلته  
قر لا فخر للبدر سوى      أنه صيغ على صورته  
صدغه كرمه خمر قست      بين خطبه إلى نكته  
أنخال الحال بطلو خده      نقط مسك ذاب من طرته  
ذاك قلبى سليت حبه      واستوت خلا على وجته

والقطعة نموج بالصور ، فخذ صاحبه يلوب رقة ، وقد لون دموعه بلونه الأحمر القاني ، وإن قوس حاجبها لمشدود والنبل فى مقلتها يستمد . وقد بلغت من الجبال وسحره مبلغا عظيما حتى ليفخر البدر بأنه صيغ على صورتها ، وكأن صدغها أو خصلتى الشعر المرتكبين على خديها كرمه خمر قست بينها واستحالت رضاها فى ثغرها يرشفه الحب . ويقول : لا تظن الحال على خدّها نقطة مسك سقطت من طرة شعرها ، بل هو حبة قواده سلبتها من قلبه وأتاحها لوجنتها الفاتنة . وتكثر مثل هذه الصور البديعة فى شعره وغزله ، من ذلك قوله :

وَوَقَلَّتْ فى الرّوضى من وجّاتِهِ      نارُ الحياء يشبها ماء الصّبا<sup>(١)</sup>  
وقوله :

وكم له فى كبدى لَسَمَةٌ      يرودها اللّرياق من فيه<sup>(٢)</sup>  
وقوله :

سَلَمْتُ قازِودَ يَزْوى قوسَ حاجِبِهِ      كأننى كَأْسُ خمرٍ وهو عَصودُ  
وقوله :

لَرُّ ما طَلَعَتْ طَلَعَتُهُ      قَطُّ إلا سَجَدَ البدرُ لها

وغزلياته تزدد بين الجزالة والنصاعة فى الألفاظ وبين الرشاقة والعلوية ، وله قصيدة رائية من جزوه الكامل فى مملوكه تتر : أنشدنا الحموى فى خزانته تلى على خفة روحه وميله إلى الدخابة ، ويمحق كان شاعرا بارعا من شعراء زمنه .

(٢) يرودها : شرابها. اللّرياق : الترياق الشاف

(١) يلبها : يولدها .

الشاب<sup>(١)</sup> الظريف

هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التلمساني ، نشأ أبوه في دمشق ، وخدم الدولة في عدة جهات ، وعمل كاتباً وشيخاً للصوفية وانتظم في سلوكهم ، ووفد على القاهرة ونزل بها في خانقاه الصوفية الكبيرة المعروفة باسم «سعيد السعداء» ، ووُلد له حيثُ ابنه شمس الدين سنة ٦٦١ . وعنى بزيته وبدأ بحفظ القرآن الكريم ، حتى إذا أمّه أخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ ، وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ ينظم مدائح وغير مدائح ، غير أن أباه رأى أن يعود إلى دمشق وعاد معه وظل يذكر صباه بمصر في مثل قوله :

يا ساكني مصرَ شَمْلُ الشوقِ مجتمعٌ بعد الفراق وشملُ الشكر أجزاء

والتحق أبوه بالدواوين في دمشق ، وولى هو حالة الخزانة بها ، وعاش مكفوف الرزق ، وأفضى مع أُنْداده من شباب دمشق إلى حياة فيها غير قليل من اللهو يمتعون في دورهم أوفى للمتزهات ، غير أنه لم يمض طويلاً ، إذ حاجته للنية في الثامنة والعشرين من عمره سنة ٦٨٨ . وقد تناول الشاب الظريف في شعره أغراضاً مختلفة من المديح وغير المديح ، وأهم غرض أبدع فيه واشتهر به بين معاصريه ومن جاءوا بعدهم الغزل ، لسبب طبيعي وهو أنه طالما تردد على سمعه شعر أبيه الصوفي وغيره من أشعار ابن الفارض وابن عرى ، وكأنا نتمل ما في أشعارهم جميعاً من وجد قوى حار ، وبث منه الكثير في غزله ، مصوراً ما يثير الحب في القلوب من المشاعر والعواطف والأهواء ، عارضاً ذلك في لغة عذبة سهلة تلي الألسنة والآذان والأفئدة . وفيه وفي شعره ورقته يتقل ابن شاكر عن ابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار قوله عنه وعن شعره : « نسيم سَرى ، ونسيم جرى ، وطيف لابل أخف موقعا منه في الكرى ، لم يأت إلا بما خف على القلوب ، وبرئ من العيوب ، رقى شعره فكاد أن يُشرب ، ودقّ فلا غرو للقبُص (الأغصان) أن ترقص والحمام أن يطرب ، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان ، وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان .. وأكثر شعره بل كله رقيق الألفاظ ، سهل على الحفظ ، ل ينل من الألفاظ العذبة ، وما تمحوله المذاهب الكلامية ، فلهذا علق بكل خاطر ، وولج به كل ذاكر » .

ابن الفرات ٨٥/٨ والحقه لابن حجة الحموي ص ٢٥١ وما بعدها وديوانه مطبوع بالمطبعة الأهلية ببيروت .

(١) انظر في الشاب الظريف وأشعاره لغات الوهبات لابن شاكر ٤٢٢/٢ والنجم الزاهرة ٣٨١/٧ وتاريخ



وهي شهادة قيمة لابن فضل الله في الشاب الطريف وشعره غزلا وغير غزل ، إذ يمجج شعره بالركة وحسن الجرس وجمال التناسق ، مع خفة الروح ، وكأنما حمل في صباه منها غير قليل من أهل القاهرة الذين عاشهم في نشأته ومطالع حياته ، ومن طريف غزله قوله :

لا تُخَفِّرْ ما هَلَّتْ بِكَ الْأَشْوَاقُ      وَاشْرُحْ هَوَاكَ فَكَلَّمْنَا حُشَاقُ  
فَمَنْ يُبْعِدُكَ مِنْ شَكْوَى لَه الْهَوَى      فِي حَمَلِهِ فَالْعَاشِقُونَ رِثَاقُ  
لَا يَجْزِعُنَّ فَلَسَتْ أَوَّلَ مُقَرَّمٍ      فَكَلَّمْنَا بِهِ الْوَجَنَاتُ وَالْأَحْدَاقُ  
وَاصْبِرْ عَلَى هَجْرِ الْحَبِيبِ فَرِمَا      عَادَ الْوَصَالُ وَلِلْهَوَى أَخْلَاقُ  
يَا رَبِّ قَدْ بَعُدَ الَّذِينَ أَحْبَبُهُمْ      حَتَّى وَقَدْ أَلْفَ الْفَرَاقَ الْفَرَاقُ

والآيات تبيل رقة وعلوية ، وهي تلتصق بالنفس لما قاله ابن فضل الله العمري من أن الشاب الطريف كان يستخدم الكلمات العامية ، فليس فيها من العامية شيء ، وربما كان أدق من ذلك أن نقول إنه كان يستخدم أساليب وألفاظا أشبه بألفاظ وأساليب اللغة اليومية للتداول على ألسنة العامة مع أنها حرية فصيحة ، مما يشيع الاستواء في عباراته وانسجامها انسجام الماء الطيب في تحدره ورقته وانطلاقه دون أى عائق لفظي ، بل مع العلوية والحلاوة والرشاقة ، على شاكلة قوله :

أَعْرُ الله أَنْصَارَ الْعَيُونِ      وَخَلَّدَ مَلَكَ هَاتِكِ الْجُودِ  
وَضَاعَفَ بِالْفَتْرِ مَا اقْتَدَارَا      وَإِنْ تَكِ أَضْعَفُ عَظْلٍ وَدِينِ  
وَأَبْقَى دَوْلَةَ الْأَعْطَافِ فِينَا      وَإِنْ جَارَتْ عَلَى قَلْبِي الطَّمِينِ  
وَأَسْبَغَ ظِلُّ ذَلِكَ الشَّعْرِ مِنْهُ      عَلَى قَدِّ بِهِ هَيْفُ الْفُصُونِ

وهو دعاء لصاحبه ملء بالظرف والرقة والنعامة ، فهو يدعو لأمثاله من العشاق للفتوتين بسحر العيون أن يعزهم الله وأن يخلد للعيون أو الجفون هذا الملك المريض من عالم الجبال والسحر ، ويدعو للعيون أن ترددا فتورا حتى يزداد سحرها وشعره تأثيرا في القلوب . ويدعو لمثل قوامها وأعطافه أو جراته البديعة بالحياة السعيدة وإن أصابته في الصميم : في قلبه . ويستمر في دعائه : أن يسبح الله ظل ذلك الشعر على قدامها الأهيف الضامر ضمور الفصون اللدنة المليئة بالنضرة ، ويقول :

لى من هواك بَعِيدُهُ وقرينُهُ  
يا من أعيدُ جِلاله بِجِلالِهِ  
إن لم تكن صغى ظنك نورُها  
أولم تكن قلبى فانت حَبِيبُهُ  
هل حرمةٌ أَوْرحمةٌ لِحُبِّهِ  
قد قَلَّ منك نصيرُهُ ونصِيهُ  
لم يبق لى سرُّ أقول تلجُهُ  
عنى ولا قلبٌ أقول تُلْنِيهِ  
والنجمُ أَقْرَبُ من لِقاك مَنالُهُ  
عندى وأبعدُ من رضاك مَفْيَهُ

والآيات نسيْل رقة ونعومة وهو فيها يحوط صاحبه بكل ما يستطيع من شباك التضرع والاستعطاف ، فهو عاشق واله ، وهى ليست جميلة فحسب بل هى أيضا جليلة ، وهو بعيد جهالها يجلاها حذرا من حيون الجاسدين . وهى نور عينه وَجْه قلبه ، وهو يسأها متوسلا بالرحمة أَوْحرمة الحب لعلها تليه شيئا من الود ، ويعترف بأن آلامه فى حبها ذاعت وشاعت ، وقلبه يصلى نار حيا حتى ذاب الثياح لطول يأسه من لقاءها حتى ليظن أن النجم أقرب من لقاءها مثلا وأبعد من رضاها مغيبا . وهو فى غزله دائما ينصب شباك هذا التضرع الطريف كقوله :

بَتَكُنْسى قوامك المشوقِ وبأنوار وجهك المشوقِ  
جُدْ بوصلٍ أَوْزودِ أَوْبوعِدِ أَوْكلامٍ أَوْوقفِ فى الطريقِ  
أَوْإرسالك السلامَ مع الرُّيحِ وإلا فبالحيالِ الطُروقِ

وتدل غمياته فى وضوح على خفة ظله ، وأنه رقيق رقة مفرطة مع اللعانة والظرف والتدله فى الحب واتقاد جلوته فى قراده . ولكل ذلك سماه معاصروه بحق « الشاب الطريف » . وله وراء ما ذكرنا من شعره موشحات ورباعيات بنفس الروح ونفس اللغة .

### حسن<sup>(١)</sup> البودينى

هو حسن بن محمد البودينى ، ولد بالأردن فى قرية صَفُورِيَّة لِسنة ٩٦٣ للهجرة ، ونزل مع أبيه دمشق وهو غلام ، واختلف فيها إلى حلقات العلماء ، ولم يلبث أبوه أن بارحها إلى بيت

(١) انتظر فى حسن البودينى وشعره رِعاية الألبا ١٢/١

المقدس ، وفيه أم تعلمه . وعاد إلى دمشق فاشتغل فيها بالتدريس في مدارسها والوعظ في مساجدها . وتولى منصب القضاء في الحج للشامي سنة ١٠٢٠ . وكان عالماً ثباتاً حُظفة فصيح العبارة . وله شرح على ديوان ابن الفارض الصوفي بحسب المعنى الظاهر ، دون أى محاولة لإقحامه بين المتصوفة المتألفين أصحاب أفكار الحلول ووحدة الوجود . وكان سنياً شافعيًا . وله كتاب في تراجم الأعيان لا يزال مخطوطاً بدار الكتب المصرية ، وأفاد منه المهدي في كتابه خلاصة الأثر .

وكان البوريني شاعراً مجيداً ، وجمع ديوان شعره ، ومنه مخطوطة في مكتبة كوبرلي بالآستانة ، ويقول فيه الشهاب الخفاجي : « ديباجة الدنيا ومكرمة الدهر ، ونكتة عطارده التي يفتخر بها الفخره وروى له طائفة من غزله ، وهو فيه يستقى من نفس المعين الذي استقى منه الشاب الظريف ، ونقصد معين الشعر الصوفي وما فيه من وجد ملتاع ، ويكنى أنه قرأ ديوان ابن الفارض بل لقد شرحه ووقف عند كل معنى من معانيه وكل لفظ من ألفاظه ، فطبيعى أن يتأثر بحبه الإلهي الظامئ أبداً وما فيه من خوالج ونواطر لا تكاد تحصى ، تصور الحب الملتاع الذي يصحبه دائماً الفراق والحمران ، لما يكاد يبتأ بالحب لحظة حتى يتيقن له غراب البين ، ويظل في نعيقه وهو يظلف أشد التلطف على رؤية صاحبه بمثل قوله :

يقولون في الصبح الدماء مؤثّر      قلت نعم لو كان ليل له صُبِحُ  
ويا عجباً متى أروم لقاءه      وفي جفنه سيفٌ ومن قدّه رُمُحُ  
وإنسانٌ عني كيف ينجو وقد غدا      بطول له في لُجٍّ منمعه سُبُحُ  
وليس عجباً أنْ دمي أحمرُّ      وفي مهجتي كَرَحٌ وفي مقلتي رَشَحُ

فهو يعيش بدون صاحبه في ليل لا آخر له ، ويعجب كيف يريد لقامها وهي مسلحة بجفنها الساحر وقوامها المشوق ، إنه لم يعد له منها سوى الدموع التي يفرق فيها إنسان عنيّه ، وما زالت عيناه تلمع حتى استحال دمعها دماً ، ويشمر كأن في مهجته جرحاً لا يبرأ وفي مقلته رشحاً لا يرفأ . ويقول :

وكنا كقُصْنَى بَانٍ قد تألّفا      على دَوَحَةٍ حتى استظالا وأبتما  
يتنبها صدحُ الحمامِ مَرَجَّماً      ويسقيها كأسُ السحابِ مَرْتَماً  
سليمين من خطْبِ الزمان إذا سَطَا      خَلَّيْنِ من قول الحسود إذا سَمَى

فأرقني من غير ذنب جيتي وأبني بقلبي حرقة وتوجعا  
عفا الله عنه ما جاءه فإني حفظت له المهد القديم وصيما

وهي قطعة طريفة ، إذ يتصور البوريني أنه هو وصاحبه كانا مثل حصنين لشجرة ضخمة من شجر البان ولدا معا وعاشا معا صيفا وشتاء وتغلبا معا وتناولوا الحياة تناولاً واحداً ، بنمان بشمو الحمام وينلان من كثوس السحاب متشبن هائنين ، لا حلول ولا حدود . ولجأة تهجره صاحبه من غير ذنب جناه . ويصطل قلبه بنار الحب المهرقة وأوجاع الهجران المؤلمة ، ومع ذلك يدهو الله أن يخسر لصاحبه جنابها ، إذ ضيبت المهد والميثاق القديم ، أما هو فلا يزال ذاكرة له بل حافظاً أميناً . ويقول :

منازلُ هذا القلبِ كنْ أو اهلاً وما هي من بعد الفراق طُلُولُ  
ويا ظبيُّ هل بعد الثَّغَارِ تأثُّرُ ويا بدرُ هل بعد الأفول قفُولُ  
ويا متزلَّ الأحابِ أين ترحلُوا وهم في قَوَادِي - ما حيثُ - نزولُ  
يميلون عني للوشاة وإنني إليهم وإن طال الصدود أميلُ  
على لم حفظُ الوداد وإن جتوا وليس إلى نقض المهود سبيلُ

وقد فارقته صاحبه وأصبحت منازل قلبه طولاً دارسة ، وإنه ليشاعل متحسراً هل بعد التفور تألف وهل بعد أفول البدر قفول ورجوع ، ويسأل متزل الجبية وقومها أين ترحلوا ، ويقول إنهم نزول في قلبه لا يفارقونه أبداً ، وحتى إن هم سمحوا للوشاة وأطالوا له الصدود والهجران فيظل متعلقاً بهم حافظاً لودادهم لا ينقض المهود ولا ينكثها ، بل سيزداد تعلقه وحبه واستمساكه . وما يلبث أن يخاطب في نفس القصيدة قريبا أو كما يسميه ابن وراق أي حمامة رمادية اللون قائلا :

وما حاجني إلا ابنُ ورقاء سحره له فوق أفنان الرياضي هديلُ  
يردُّ في صُحف الرياض . قصائدنا من الشوق يُملئها لنا وبميلُ  
يجيلُ أن التين آذى قواده وكيف ولا يتأ عنه خليلُ  
ولم تحكّم فيه الليالي ولم يين صلبه لبسن رقة ونحولُ  
أما والهوى لو دقت ما دقت في الهوى لما ازدان بالأطواق منك تليلُ

ألا إنه مافارقَ الإلفَ دَهْرُهُ ومالى إلى وَصلِ الحبيبِ وصولُ

وهو يوازن بينه وبين فرى يتغنى سحرا بأشواق ماينى يرددها في صحف الرياض وعلينا محيلا  
كأنه يشكو من آلام بين مبرح ولا بين ولا فراق ، فحييته بجانبه لم تفارقه ليلة ، ولا أصابه لفراقها  
ضئى ونحو . ويقسم له بالهوى لو ذاق أو جاعه وتبارحه ما ازدان تليله أو عتقه بطوق ، ويقول له  
إنه لم يفارق ألفتة يوما بينا هو يتلظى بنار الفراق والمهجران . وكان يعرف الفارسية وقد ترجم عنها  
قوله :

ورقُ القصونِ دلائرُ مشحونةٌ مملوءةٌ بأدلةِ التوحيدِ

ولعل فيما قلنا ما يدل على روعة غزلياته ، وهو فيها دائما مشوق يتغنى الوصل وأن تلوب  
حُجب المهجران . وما زال يردد هذا المعنى وما يتصل به ، حتى لبي نداء ربه بدمشق لسنة ١٠٢٤  
للهجرة .

## ٢

### شعراء الفخر والمهجاء

موضوعا الفخر والمهجاء من موضوعات الشعر القديمة منذ الجاهلية ، ومعروف أن شعر الفخر  
والحماسة الحربية غلب عليها قديما ، حتى سمي أبو تمام بخناراته الشعرية الكبرى باسم الحماسة تغليا  
لهذا الموضوع على موضوعات الشعر الأخرى عند العرب في جاهليتهم وإسلامهم ، وكان يزحمه من  
قديم شعر المهجاء ، إذ كانوا يفخرون بانتصاراتهم الحربية ويهجون خصومهم بهزائمهم ، يستثمرون  
بذلك قبائلهم لتخوض معارك جديدة أشد فتكا في الأعداء . وكانت معارك العرب - على مر  
السنين - بينهم وبين الأمم وقودا مستمرا للفخر والمهجاء ، فلم تخمد لها نار ، بل لقد اشتد أوارها  
كلما تقلنا مع الزمن ، وكان شعراء الشام يشاركون في تلك للمعارك بسهام شعرهم النارية . ونكتفي  
بذكر شاهرين كبيرين قريين من هذا العصر هما أبو تمام والبحرئى ، وكانا أشبه بمكاتبين حريين ،  
فهما يحضران للمعارك مع ثوار إيران ومع الروم في آسيا الصغرى ، ويصوران كيف احتلمت الحرب  
وبلاء الجيوش العباسية وقوادها فيها وما أنزلوا بالأعداء من حَق لا يكاد يبق منهم باقية . وبجانب  
هذا الفخر والمهجاء الحربي كان هناك الفخر والمهجاء السلميان اللذان ينظمهما الشعراء لبيان  
ما يشتملون عليه هم وأقربائهم ، أو هم أنفسهم ، من مثالية خلقية رفيعة وما يتصف به أهل أوطانهم

أو بعض خصومهم من أخلاق شائنة يزدريها المجتمع . وهذا الفخر والهجاء الجاهليان والفرديان نجدهما عند أبي تمام والبحرئى وغيرهما من الشعراء ، وكثيرا ما كان يحدث ذلك بين الشعراء أنفسهم ، فتجد - بعامل اللانسة - شاعرا يفاخر زميلا له وبهاجه .

وكل ذلك نراه شائعا في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وكانت الحرب محتمة في أوائله بين سيف الدولة الحمداني أمير حلب وبين الروم ، وكان يَكِيل لهم ضربات قاصمة ، مما جعل كثيرين من الشعراء يمدحون بطولته وبطولة جيوشه العربية مفاخرين الروم وهاجين منلرين جموعهم بمبارك تدق أعاتقهم دقا ولا تبق ولا تذر . وبجانب ذلك نجد الفخر والهجاء الفرديين محتتمين بين بعض شعراء حاشيته على نحو ما حدث بين الحلالدين والسري الرقاء . وشاعر الفخر الشامي الذي لا يبارى في القرن الرابع الهجري أبو فراس الحمداني ، ومنخصه بترجمة مفردة . وربما كانت أروع قصيدة فخر نظمها شعراء الشام في القرن الخامس الهجري قصيدة أبي العلاء المعري التي أشرنا إليها في ترجمته وفيها يقول <sup>(١)</sup> :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلُ	عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
ثمَّ ذنوبى عند قومٍ كثيرةٌ	ولا ذنب لى إلا المُلأ والفضائلُ
وقد سار ذكرى في البلاد فن لم	بإخفاء شمسٍ ضوءها متكاملُ
وإني وإن كنت الأخير زمانه	لأتى بما لم تسقطه الأوائلُ
ول منطلق لم يرض لى كفة مترل	على أنفى بين السَّاكِين نازلُ
ولما رأيتُ الجهل في الناس قاشيا	تجاهلتُ حتى ظنُّ أنى جاهلُ
وواعجبا كم يدعى الفضل ناقصُ	ووالسفا كم يظهر النقص فاضلُ
ينافسُ يومى فى أسى تشرفا	ونحسد أسحارى على الأصائلُ

والقصيدة تناقض شخصية أبي العلاء للمشائمة الزاهدة في الحياة وكل ما فيها من مجد ، وإما نظمها تقليدا ومحاكاة لسابقه في فن الفخر ، وإما نظمها في ساعة غضب ردا على بعض شائبه وخصومه . ومع ذلك فهي تصور مكانته في الأدب المعري ، وأنه فيه - بحق - السابق المجلى ، وهو يقول : من أين يلحقى النم وأنا أنهض بكل ما يكسبني المجد والشرف من العفاف الطاهر

(١) ديوان سقط الزند (طبع دار الكتب للمرية)

والإكدام الجريء والحزم النافذ والتائل أو الجرد السابغ ، ويقول إنه ليس فيه ذنوب ولا حبوب إلا إذا عُلَّتِ العلا والفضائل ذنوباً وعبوباً ، ولن تعد الحسن كللك أبداً . وإن ذكره ليم البلاد كما يعمها ضوء الشمس الغامر الذى لا يستطيع أحد إخفاها ، وإن كان زمانه قد تأخر فإنه أنى بما لم يستطع الأوائل ، ومع أنه بين السالكين فى السموات العلا لا يزال منطقته أو عقله يطلب منزلة أهل شأنه . ولما رأى الجهل لاشياً مجاهل حتى ظن الأغبياء أنه جاهل ، وتصجب من ادعاء الناقص الفضل وتحسر على تظاهر الفاضل بالنقص . ويقول إن كل وقت يتمنى أن يكون فيه دون غيره من الأوقات ، فأمسه بحسد عليه يومه وأصيل اليوم يحسد عليه سحره . ومعنى أبو العلاء فى القصيدة بهذا الصوت الضخم المجلجل كالرعد القاصف .

وكان يعاصر أبا العلاء ابن سنان الحفاجى المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة ، وله يفخر بقومه وبلاتهم فى حرب الثغور ضد الروم <sup>(١)</sup> :

أهلُ الثغور إذا تلمَّ مُلْكُهُ      بَسَطُوا رِمَاحاً دونها وسواعدا  
وأولو الثغرى فلأنا مررت عليهم      لم تلق إلا مكروماً ومجاهدا  
إن حاربوا ملئوا البلاد مصارعاً      أو سلموا عَمَّروا الديار مساجدا  
ييت له النسبُ الجلى وغيره      دعوى تريد أدلة وشواهدا

وهو يفخر بياس قومه وتقواهم وأنهم فى الحرب يملكون ساحات المعارك بينهم وبين الروم صريحى مقتولين . وإذا أفضوا إلى السلم ملئوا الديار مساجد ، ويقول إن بينهم هريق فى العرب لا يطاوله أى بيت . ومن شعراء الفخر فى زمن الفاطميين والأيوبيين أسامة بن منقذ وسنجد له ترجمة - ولابن الساعاتى المار ذكره <sup>(٢)</sup> :

وإنى لأبى الضَّيْمِ من كل صاحب      وأكره قلبى أن يكون له خدنا  
وإن بلدٌ لم أهد فيه مكروماً      نهضت فأصعلتُ الجديلةَ البُذْناً <sup>(٣)</sup>  
وما شان فضلى بين أهلِ حمولة      وقد بلغتْ غاياته الإنسانَ والجنَّ  
فلانى كعود الهند هينَ يتوجّه      وقد عبقت أنفاسه السهلَ والحزناً

(٣) الجديلة البذن : النوق الضخمة

(١) ديوان ابن سنان الحفاجى ص ٢٣

(٢) ديوان ابن الساعاتى ٢١٤/٢

فهو يأبى الضيم شاعرا بالكرامة شعورا عميقا ، حتى لو أحس أن بلدا ينبو به رحل عنه إلى غير إياب ، ويبالغ في بيان فضله قائلا إنه شاع بين الإنس والجن ، وإن اعتراه خمول بين أهله فقله مثل هود الهند لا يُعرف فضله في قوتته ، بينها راعته العطرة تملأ السهل والخرن من الأرض . ونظل نستمع إلى هذا الصوت الأجش للمتر بنفسه وكرامته طوال أيام المالك وبالمثل أيام العثانيين كقول ابن الجزرى للمار ذكره <sup>(١)</sup> :

يَقْلَعْنِي حَرْمِي وَحَطَى مُؤَخَّرِي وَيُوصِلُنِي حَرْمِي وَدَهَرِي يَقْطَعُ  
وَهْمِي مِنَ الدُّنْيَا لِلْعَالِي وَيَكْلَهَا وَمَا هُمْ قَلْبِي الرُّفَّتَانِ وَلَعَلَّ <sup>(٢)</sup>  
وَلَا رَشَاءَ أَحْوَى وَلَا صَوْتُ قَبِيَّةٍ وَلَا قَدَحٌ فِيهِ الرُّحِيقُ الْمُشْتَعِ <sup>(٣)</sup>  
وَلَكِنَّا لَذُنُّ وَأَجْرُدُ سَابِغٌ وَمَسْرُودَةٌ زَغْفَا وَأَيْضُ يَسْطَعُ <sup>(٤)</sup>

وهو صاحب عزم وحزم ونفاذ في الأمور وإن لم يسفه الحظ والدهر . وهمه طلب للعالي والظفر بها لا بمن يسكن روضتي الرقتين وجبل لعل من سمر الشفاه ، ولا بمن يتغنى غناء جميلا ، ولا بالأقداح من رحيق الخمر وشرابه . إنما هم رمح لين قاتل وفرس مسرع ودرع واسعة محكمة وسيف ساطع يضيء في غبار الحرب حين يسله على رقاب الأعداء . إنه من أهل العزم والحزم والمعالى لا يشغف بحب ولا بغناء ولا بنجم ، إنما يشغف بالبأس في الحرب وتقتيل الرجال وسفك دماهم .

وبجانب هذا الفخر كان يدور هجاء كثير ، وخاصة لمن لا يميزون الشعراء الجزاء الوفر وكثيرا ما كانت تحتدم بينهم المنازعات ، فيفزعون إلى سهام الهجاء يصوبها الخصم منهم إلى خصمه صباح مساء . وقد يصبح الهجاء سهاما سامة قاتلة ، وقد يصبح سخرية جارحة ، وقد يصبح دعابة وإن لم تحل من مرارة ، كقول عبد المحسن الصوري وقد نزل ضيفا على أخ له <sup>(٥)</sup> :

وَأَخْرَجْتُهُ مِنْهُ نَزُولِي بِقَرْحٍ مِثْلَ مَا مَسْنَى مِنَ الْجُوعِ قَرْحُ  
بَيْتُ ضَيْفًا لَهُ كَمَا حَكَمَ الدَّهْرُ وَفِي حَكْمِهِ عَلَى الْحَرْ قُبْحُ

طرفة في الشفة ، الرحيق المشتع : العسل للمزوج

(١) الرقتان : قريتان في شرق نجد أو روضتان

(٢) اللدن : الرمح . أجرد . فرس . مسرودة :

درع . زغفا : ساهلة . أبيض : سيف

(٣) البيضة ٣٠٠/١

(٤) ربحانة الآلبا ١١٨/١

(٥) الرشا : ولد الظبية وتشبه به الفتيات ، والحوه :



قَالَ لِي إِذْ نَزَلْتُ وَهُوَ مِنَ السُّكْرِ وَالْهَمِّ طَافِعٌ لَيْسَ بِصَحْوٍ  
لَمْ تَعْرِفْتَنِي قُلْتُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْقَوْلُ مِنْهُ نَضِجٌ وَنُجْجٌ  
سَافَرُوا تَعْتَمُوا فَقَالَ وَقَدْ قَالَ لِي تَمَامُ الْحَبِيثِ صَوْمُوا تَصِحُّوا

وهي دعابة تلصق لَسَخَ الإبر ، فقد صور نزوله على مضيقه بقرح وهو ما يصيب الإنسان من  
عَضُّ السلاح ونحوه ، كأنما نزوله عليه كان كارثة ، وقال إنه منه من الجوع قَرَحٌ لا يزال يَنْزُرُ أَلَمًا ،  
وكأنما يستلهم آية سورة آل عمران : ( إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ) أى إِنْ نَالُوا  
منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر . ويقول إِنْ الدَّهْرُ هُوَ الَّذِي حَكَمَ عَلَيْهِ هَذَا الْحَكْمُ الْقَبِيحُ ،  
ولقد أصابته سكرة من الشَّعْ وَالْهَمِّ ، فسأله سؤالاً مزيهاً : لَمْ تَعْرِفْتَ وَنَزَلْتَ عِنْدِي ، فَأُجَابَهُ لَقَوْلِ  
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : سَافَرُوا تَعْتَمُوا ، فبَادِرْ إِلَيْهِ يَقُولُ : تَمَامُ الْحَبِيثِ : صَوْمُوا تَصِحُّوا ، وكأنه  
يطلب إليه أَنْ يَظَلَّ جَانِبًا بَلْ أَنْ يَصُومَ وَيَظَلَّ صَائِمًا مَا ظَلَّ عِنْدَهُ . ويقول الغزالي المتوفى سنة ٥٢٤  
فِي هِجَاءِ حَاكِمٍ مِنْ حُكَّامِ إِيْرَانٍ يَسْمَى شِرْوَانِشَاهُ <sup>(١)</sup> :

رَأَيْتُ لَوْ مَا مَصُورًا جَسَدًا شَيْبَتُهُ الْاِحْتِيَالُ وَالْكَذِبُ  
عَلَى سِرِيرٍ كَالْتَمَشِ لَا رَهْبٌ يَطْلُوهُ مِنْ هَيْبَةٍ وَلَا رَغَبٌ  
يَجِبُهُ بِالْهَجْرِ مَنْ يَخَاطَبُهُ بَيْنَ السَّعَالِي وَبَيْنَهُ نَسَبٌ <sup>(٢)</sup>  
يَقْرُؤُهُ النَّاسُ لِلْسَّعَاةِ وَالْخَرَبِ يُخَشِي وَخَدَهُ تَرَبُّ  
لِلْجَمْعِ وَالْمَنْعِ قَائِمٌ أَدَا كَالْفِيلِ لَا تَتَنَّى لَهُ رُكْبٌ

وهو هجاء لأذع كوي به جلد هذا الحاكم ، بل لقد تحولت الأبيات في يد الغزالي إلى ما يشبه  
سياطا بل شواظا من نار يصبه فوق رأسه صبا ، فهو تمثال للزُّوم والكذب ، يجلس لاعلى سرير بل  
على نمش لا يظله رهب منه ولا رغب في ماله ، لما حُرِفَ عنه من شعْبٍ بغيبِ ، وأنه يسلْكُ مخاطبة  
بكلام قبيح ، وكأنما هو ليس من البشر ، بل إِنْ يَنَهِ وَبَيْنَ الْفِيلَانِ نَسَبًا فَمَيَّا . والثاس ينجشونه  
لسفاهته كما ينجشون القرب ويخلعها ملطخ بالتراب ، وكأنما خلق كالْفِيلِ قائما أبدا إذ لا ينَامُ فَيَنَاهُ  
مشلودتان. دائما لجمع المال ومنعه عن مستحقه شُحًّا بغيبِ لا يدانيه شعْبُ . وكان العرقلة الكلبي  
المتوفى سنة ٥٦٧ كثير الهجاء حتى هجا نفسه ، وله من أبيات وقد أعطاه بعض من مدحهم  
لا مالا ، بل شعرا فقال <sup>(٣)</sup> :

(٣) الخريدة (قسم الشام) ١٨٢/١

(١) الخريدة (قسم الشام) ١٩/١

(٢) السعال : البيلان

يقولون لم أرخصتَ شِعْرَكَ في الرِّى قُلتَ لهم إذ ماتَ أهلُ المكارمِ  
أُجَازَى على الشمرِ الشَمِيرِ وإنَّه كثيرٌ إذا استخلصتُهُ من بهائمِ

ومنذ زمن القزى يشكو الشعراء كثيرا من أنهم لا يتألون ما يستحقونه على أشعارهم من مدوحهم ، بل إن منهم من يعطيهم رُقْعًا مسطرة دون أن يفي بما فيها ، وكأنها كلام كاذب بكلام . ومن كبار المجانين في أيام الأيوبيين بدر الدين عيـد الرحمن بن المسجف التوفى سنة ٦٣٥ للهجرة ، وله يهجو جماعة من إخوانه أو عصابته كما يقول (١) :

يا ربُّ كيف بلوتني بعصايةٍ ما فيهم فضلٌ ولا إفضالٌ  
متأفري الأوصافِ بصدقٍ فيهم الدِّهاجى وتكذبُ فيهم الآمالُ  
جبتا إذا استنجدتهم للملّةِ لؤمًا إذا استرفدتهم بُخَالُ  
هم في الرِّخاء إذا ظفرتَ بنعمةٍ آلٌ وهم عند الشدائدِ آلٌ

وهو يخيل عصابته من كل فضل ويرأها جديرة بكل ملّة في مهجو إذ تكلم فيها دائما الآمال . ويصف أفرادها بأنهم جبناء عند الشدائد ، لؤماء بخلاء ، وهم في الرخاء أهل أو آل كما يقول ، وفي الضراء سراب أو آل يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئا . وولى السلطان الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤ قضاة أربعة يمثلون للمذاهب الفقهية : للمذهب المالكي والحنفي والشافعي والحنبل ولقب على هذه المذاهب ما علما المذهب المالكي بلقب شمس الدين ، فالتخذ الشعراء ذلك موضوعا للهجاء الفكاهة الساخرة من مثل قول بعضهم (٢) :

أهلُ الشّام استأبوا من كثرة الحُكّامِ  
إذ هم جميعًا شمسٌ وحائلهم في ظلامِ

وكان شرب الخشيش المُنْدَرَّ حُرْف بين أراذل الناس يدخنونه ويمضغونه وقد يلعبونه ، وشدد الظاهر بيبرس النكير على من يتعاطونه ، ونظم كثير من الشعراء في ذمه كقول الشاب الظريف (٣) :

(١) شامة (الطبعة الأولى) ص ٢٣٦ .

(٢) لغزات الوليّات ٥٣٩/١

(٣) النجوم الزاهرة ٣٨١/٧

(٤) النجوم الزاهرة ١٣٧/٧ وانظر ذيل الروضتين لأبي

ما للحشيشة فضلٌ عند آكلها لكنه غيرُ مصروفٍ إلى رَشْدَةٍ  
صفراء في وجهه خضراء في فيه حمراء في عينه سوداء في كَبَدَةٍ

وهو يقبضها غابة التصحيح بآثارها في ماضئها من صفرة تغزى وجهه وحمرة تشوب عينه وسواد  
لا يزول في كبده . ويقول مجير الدين بن نعيم المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة في هجاء كحل<sup>(١)</sup> :

دَعُوا الشَّيْخَ مِنْ كَحْلِ الْعَيُونِ فَكُفُّهُ يَسُوقُ إِلَى الطَّرْفِ الصَّحِيحِ الدَّوَاهِيَا  
فَكَمْ ذَهَبَتْ مِنْ نَازِلٍ بِسَوَادِهِ وَأَلْقَتْ يَاسًا خَلْفَهَا وَمَاقِيَا

فكحله يعنى الأبصار ويقضى قضاء مبرما على سوادها ونظرها ولا يبق بها بصيصا  
ولا غير بصيص . ولهبض شعراء دمشق في هجاء القاضي شهاب الدين أحمد الباهوني الشافعي  
المتوفى سنة ٨١٦ للهجرة<sup>(٢)</sup> :

قضاء الشام أنشدني بديني لا تبسموني  
صُفِيتُ بكلِّ مضمضةٍ وبعده الكلُّ باصوني

وكأنه أدخله فيما نزل بهذا القضاء من صفعات متوالية . وفي كلمة « باعوني » تورية واضحة  
فهو لا يقصد « باعوني » من البيع وإنما يقصد القاضي الباهوني .

ويظل الهجاء على ألسنة الشعراء يرمون بهامه من لا يروقه من الحكام ومن لا يسبح عليهم  
نواله حتى أيام العثمانيين ، على شاكلة قول يوسف بن عمران الحلبي المتوفى سنة ١٠٧٤ للهجرة في  
نجيل<sup>(٣)</sup> :

نجيلٌ لو يومٍ منه جادت أناملُهُ لخالَتْهُ التَّدَامَةُ  
ولو في النارِ أَلْقَى أَلْفَ عامٍ لَمْ تُخْرِتْ لَهُ يَوْمًا سَلَامَةً  
ولو صارتْ بِسُفْرَتِهِ رَغِيْفًا دُكَّاهٌ لَمْ يَدُنْ حَتَّى الْقِيَامَةِ

فهو شحيح لو فاته شحُّه يوما لظل ناذما أبدا . وما تُرَجَّى له سلامة من النار بل سيظل خالا<sup>١</sup>  
فيها ، وإن مائتته لتخلو دائما من كل طعام حتى من الخبز ورغفان العيش للمستميرة كالشمس :

(٣) رجاء الألبا ١٠٨/١

(١) لغات الولايات ٥٤٠/١

(٢) النجوم الزاهرة ١٢٤/١٤

ولأنه ألقى رغيها عليها ناسيا لا ستترت الشمس حتى القيامة كسوبا وخجلا أن يرى شيئا على سفرته أو مائدته . وحرى بنا أن نترجم لغز من شعراء الفخر والمجاء .

### أبوفراس<sup>(١)</sup> الحمداني

هو الحارث بن سعيد بن حمدان الحمداني التغلبي ، كان أبوه واليا على الموصل للخليفة الراضي ، وكان مشهورا مثل إخوته وأبناء أسرته بالفروسية والشجاعة ، واقرن برومية أنجب منها ابنه الحارث سنة ٣٢٠ ولقبه أبا فراس وهي كنية الأسد رمزا لفروسيته المستقبلة وهو رمز حقيقته الأيام . ولم يلبث سعيد أن قُتل غلرا وابنه يخطو في ستة الثالثة ، وعينت به أمه ، وأحضرت له الملعين في صباه . ولم يلبث ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة الحمداني أن اشترك مع الأم في العناية والرعاية ، حتى إذا اقتطع لنفسه حلب وبعض ثغور الشام انتقل إليها ومعه أسرته سنة ٣٣٣ ومعه أبوفراس الذي كفله وقام على تربيته فارسا وأديبا خير قيام ، إذ أعطاه لبعض المبرين يدربونه على الفروسية ، ول بعض الملعين ولؤذين من مثل ابن خالويه . وسرعان ما ظهرت فروسيته ولجأته ، ففتح ضيعة بمنج بلدة بقرب حلب ، ولم يلبث أن ولده عليها وهو شاب في السادسة عشرة من عمره ، وكان يلزم ابن عمه في حروبه للروم وقد يسوق إليهم فيلقا يقودها بنفسه ويعود إلى منج ، مفضيا أحيانا إلى الصيد وبعض اللهو ، وفي ديوانه مزدوجة طردية . غير أن من الحق أنه لم يكن مشغولا بصيد الحيوان إنما كان مشغولا بصيد أعداء العروبة والإسلام من الروم . ومر بنا في حديثنا عن شعراء التشيع أنه كان شيعي الهوى ، وقد عرضنا لمحبته للمقبة بالشافعية التي دافع فيها عن العلويين ضد المباسين دفاعا حاراً ، وتشيع الحمدانيين عامة مشهور وكانوا شيعية إمامية .

وظل يركب في مقلعة الصفوف مع ابن عمه وصهره للثق أعتاق الروم ، وحاول أن يستخلفه عنه بحلب في إحدى غزواته ، فاستعطفه راجيا أن يصحبه في حربه . وكان دائما يبل بلاء حسنا في قتيلهم وتمزيقهم شرمق ، وفي يوم من أيام شوال سنة ٣٥١ كان عائدا إلى منج من الصيد مع

لتحقيقه لديوانه وقد قابله على ٤٠ مخطوطة محفوظة في مكتبات الطلبة العربي والغربي ووضع حواشيه ورتب فهارسه .

(١) انظر في أبي فراس وشعره البيهية ٣٥/١ وما بعدها ونهليب ابن عساكر ٤٣٩/٣ وزبدة الحب ١٥٧/١ وابن خلكان ٥٨/٢ والفتاوى ٢٤/٣ وتاريخ الأدب العربي لبيوكهان ٩٢/٢ ومقدمة د. سامي الدخان

غلانه وإذا بكية من الروم بقيادة تيودور ، تباعه فبدافع إلى أن تخنه الجراح ويصيه سهم في فخذيه ويبقى نصله فيه ، ويؤسر البطل للغوار ، ويقدم به تيودور إلى خزانة ويظل بها فترة . ثم ينقل إلى القسطنطينية ، ويلتوق ذل الإسماء وألم الجراح ، غير أن نفسه تظل صلبة عاتية لا تنكسر أبدا ، بل تتراد مع الأيام عتوا وصلابة . ويكبر الروم في أبي فراس فروسيته ويطولته فيترولونه في قصر على البحر ويخصصون له خادما يقوم بأمره ، وبأن أن يخرج دروعه وسلاحه ، فيظل بها في أسرهم .

ويطول الأسر أربع سنوات ، فتكثر أشعار أبي فراس إلى أهله وسيف الدولة وإخوانه مؤملا في الإسماع بفدائه ، وكان مما أخره أن سيف الدولة يريد فداء عاما له ولكل من معه من المسلمين ممن وقعوا قهرا في شراك الروم . وفي سنة ٣٥٥ يتفق الروم وسيف الدولة على اللقاء لفداء أسرى الطرفين ، وفي شهر رجب يتزل أبو فراس مع ثلاثة آلاف أسير عربي يخرشنة ، ويقدم سيف الدولة بأسرى الروم يفتدى بهم أبا فراس ومن معه من أسرى العرب . ويتم الفداء ويعود أبو فراس إلى حلب . وتأثر تأثرا شديدا لمرض سيف الدولة وما أصاب جنوده من انكسارات وانهازات متلاحقة . ويتوفى سيف الدولة في السنة التالية ، ويدور العام ، ويحاول أبو فراس الاستيلاء على حمص من يد ابن سيف الدولة أبي المعالي ويلقاه مولاه قرعونه في جادى الأولى سنة ٣٥٧ ويكون في ذلك حظه ، ويقال إنه سقط جرحا في ساحة الحرب وشعر بدنو أجله فأنشد أبياتا يخاطب بها ابنته معزتا قاتلا في ختام أبياته بلسان حالها :

زَيْنُ الشَّابِ أَبُو فِرَا سٍ لَمْ يَمُجَّعْ بِالشَّابِ

وطبعي أن لا يكون للديح الموضوع الذى يستفد شعر هذا الأمير الفارس ، إذ لم يكن في حاجة إلى التكسب بشعره ، وأن يكون الفخر هو الموضوع الذى يستغرق شعره : فخره بقيلته تغلب وأجنادها منذ الجاهلية ، وبأسرته الحمدانية ومناقبها وما قدمت للعباسيين من انتصارات على الخوارج والقرامطة ، وعلى الروم البيزنطيين ، وفخر بمناقبه الخلقية الكريمة ويطولته . ويُعدُّ روميته أو أشعاره في أسر الروم القطع الأرجواني في ديوانه ، وفيها غزل ورناء واستعطاف كثير لابن عمه سيف الدولة كى يرد إليه حريته ليعود معه لتأزلة الروم وقراهم قراعا لا يبق منهم ولا ينر ، وبين قصائدها بابتة يرد بها ردا حنيئا على الدمستق حين طعن في العرب وبسالهم الحرية ، وفيها أخذ يذكره باندحارهم أمام سيف الدولة ومقتل أخيه في مَرَّعْش وجرح أبيه بها في

وجهه وأسر ابن أخيه في اللقمان وما كان من فراره على وجهه لا يلوى . وهو في روميته يحن إلى ملاعب صباه وشبابه ويشفق إلى زوجه وأبنائه ويرى لأمه العليقة وهي تسأل عنه الركبان حين أسر قائلا على لسانها :

يَا مَنْ رَأَى لِي بِحَصْنِ خَرْشَنَةِ أُنْدَ شَرِي فِي الْقِيُودِ أَرْجَاهُ

ويرد عليها مسرعا

يَا أُمَّتَا هَذِهِ مَوَارِدُنَا نَمُكُّهَا تَارَةً وَنَنْهَلُهَا<sup>(١)</sup>

فواردهم الحرب ، يقتلون الأعداء وتقتلهم ويأسرون الأعداء وتأسرهم ولا تال القيود التحيلة من أقدامهم . ويقول في قصيدة ثانية : لولا أُمِّي المَجُوزُ مَا خَفْتُ أَسْبَابَ الْمُنِيَّةِ وَلَا طَلَبْتُ الْفِدَاءَ مِنْ ابْنِ عَمِي أَبَدًا . ويقول لها :

يَا أُمَّتَا لَا تَبْأَسِي اللَّهُ الْبَطَافُ خَفِيفَةٌ  
أَوْصِيكَ بِالصَّبْرِ الْجَمِيدِ نَلْ ظَنَّهُ خَيْرٌ الْوَصِيَّةِ

فهو واثق في الله ثقة تامة ، وهو لا يئأس أبدا من فضله ورعايته ، مع حزة نفس لا تماثلها حزة بل مع صلابة روح لا تشبهها صلابة ، وتبدو هذه الصلابة منذ أيامه الأولى في الأسر ونزولهم به في خَرْشَنَةِ ، إذ سرعان ما أنشد :

إِنْ زَرْتُ خَرْشَنَةَ أَسِرَا ظَلَقْتُ حَلَّتْ بِهَا مُخِيرَا  
وَلَنْ لَقِيتُ الْحَزْنَ فِي لَحْوٍ قَدْ لَقِيتُ بِكَ السُّرُورَا

ويقول إنهم طالما فتكوا بأهلها وسبوا نساءهم المحررات ، وكم أشعلوا بها نيرانا التهمت المنازل والقصور وأنت عليها كأن لم تكن شيئا مذكورا . ونشعر كأنما تجسدت في روح أبي فراس كل معاني القوة العاتية التي تميز بها العرب وفتحو بها العالم القديم من أواسط آسيا إلى شمالي إسبانيا ، على الرغم من أسره وما كان يعانيه من ألم وحزن ، وكأنما يحمل بين جنبيه روحا لا يمكن أن تهرم معها نزل بها من كولوث وخطوب .

ورعما كان أروع قصائد أبي فراس حيث قصيدته الرائية التي نظمها حين قال الروم إن

(١) نَهَلُهَا : نشربها تارة . نَمُكُّهَا : ننهلها . نشربها ابتداء

أبا فراس وحده من بين الأسرى هو الذى لم نسلب منه سلاحه ، وقد بدأها بحوارينه وبين إحدى صواحيه .

أراك عَصِيَّ الدَّمْعِ شَيْمَتِكَ الصَّبْرُ      أما للهوى نَهَىٰ عَيْكِ وَلَا أَمْرُ  
بلى أنا مُشْتَقٌّ وَعِنْدَىٰ لَوْعَةٌ      ولكنْ مِثْلِي لَا بُدَّاعَ لَهُ سِرُّ  
مُطْلَقِي بِالْوَصْلِ وَالْمَوْتِ دُونَهُ      إذا مَتُّ ظِمَانًا فَلَا تَزُلُ الْقَطَرُ  
تَسْأَلُنِي مَنْ أَنْتَ ؟ وَهِيَ حَلِيمَةٌ      وهل بَقِيَتْ مِثْلِي حَالِي نَكْرُ  
قُلْتُ كَمَا شِئْتَ وَشَاءَ لَهَا الْهَوَىٰ      تَحِيلُكَ قَالَتْ أَهْبَهُمْ فَهَمْ كَثُرُ  
وَقَالَتْ لَقَدْ أَزْرَىٰ بِكَ الدَّمْرُ بَعْدَنَا      قُلْتُ مَعَاذَ اللَّهِ بَلْ أَنْتِ وَالْدَمْرُ

وهو حوار وغزل فيها فتوة وقوة ، فهو لا ييأس ، بل هو صابر صبر الرجال الأشداء ، مع ما يستمر في قلبه من لوعة لزامه مطلقته بوصل لا يتاله ، وكأنما تغير كل ما فيه فلم تعرفه وتساءله من أنت ؟ تجاهل العارف ، فيقول لها قتيك ، فتسأله أيهم فهم كثيرون . وتقول له : لقد نال منك الدمر ، يكفى بذلك عن أسره ، فيقول لها معاذ الله : بل أنت والدمر . وبعضى في حوارها قاتلا لها : لا تنكرينى يا ابنة المم ظننى غير منكرفى معصان المارك وقيادة الكتاب الموعودة النصر واجتحام المخاوف والمخاطر للمهلكة إلى الروم أسفك دماءهم وأسهى نساءهم دون أن أهتك لهم سزا أو أكشف لهم ثوبا ، وما يلبث أن يصبح بكل فتوته :

أُيِّرْتُ وَمَا صَحْبِي بِعَزْلٍ لَدَى الْوَفَىٰ      ولا فرسى مُهْرٌ وَلَا رِيَّةَ غَمْرُ<sup>(١)</sup>  
ولكنْ إذا حُمَّ الْقَضَاءُ عَلَى أَمْرِي      فليس لَهُ بَرٌّ بَقِيَّةٍ وَلَا بَحْرُ  
يَمُونُ أَنْ خَطُّوا ثِيَابِي وَإِذَا      عَلَى ثِيَابٍ مِنْ دِمَائِهِمْ حُمْرُ  
سَبَدَكُنِي قَوْمِي إِذَا جَدُّ جَدُّهُمْ      وَفِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءُ يُقْتَدُ الْبَدْرُ  
وَنَحْنُ أَنْاسُ لَا تَوْسَطُ بَيْنَنَا      لَنَا الصُّنْدُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ  
تَهْنُ حَلِينَا فِي الْمَعَالِي نَفُوسُنَا      وَمَنْ خَطَبَ الْحَسَاءَ لَمْ يُقِلَّ الْمَهْرُ  
أَهْرُ بَنِي الدُّنْيَا وَأَعْلَى ذَوَى الْعَلَا      وَأَكْرَمُ مَنْ فَوْقَ التَّرَابِ وَلَا فَرْحُ

يقول : أُيِّرْتُ وعرثى صحبى يشهرون السيوف فى الحرب ولا يغمدونها أبدا ، إنهم فرسان

أبطال ، وما أسرتُ جينا ولا كان فرسى مهرا صغيرا بل كان مدربا على القتال ، وكان صاحبه فارسا شجاعا يحسن التزال والفتك بالأعداء ، وإنما هو القضاء الذى لا مَعْدَى عنه ولا مفر منه فى بر أو بحر . ويتجه إلى الروم غاضبا لقولهم إنهم مَتُّوا عليه بتركه لأبنا لأُمته وعدته الحرية ، وهو استعمار للفتوة والقوة ما بعده استعمار . ويقول إن دروعه ملطخة بدمائهم ، إذ طالما دق نصال سيوفه فى أعناقهم وصدورهم . ويلتفت إلى قومه فيقول إنهم سيذكرونه حين تدق أجراس الحرب ، سيدكرون فروسيته وبطولته وبلاءه فى الأعداء . وكأنما يضع قواتين الشباب العربى والأمة العربية ، إنها ترمى بنفسها فى أتون الحرب فإما الصدر دون العالمين أو القبر ، وإن رجالها وأبطالها ليلذون أرواحهم فى نيل المعالى ، ومن خطب الحسناء لم يفلح المهر ولم يعده باهظا ، بل إنه يقدمه راضيا حتى لو كان روحه وقلبه . ويقول مَنْ مثلنا : نحن أحر الناس وأعلامهم وأكرمهم بدلا . والقصيدة تعريضة رائعة لفتوة العرب وصلابتهم ، وهى جديرة بأن يضمها كل شاب عربى إلى صدره وذاكرته يحفظها ويرثم بأبياتها البديعة . وحانت منه التفاته - وهو فى سجنه - إلى شجرة عالية فرأى على أحد غصونها حمامة وصمها تنوح ، فأنشد :

أقولُ وقد ناحتُ بقرى حمامةً      أيا جارتا هل تشعرين بحالى  
معاذَ الهوى ما ذُقتِ طارقةَ التوى      ولا خَطَرْتُ منك الموممُ بيالو<sup>(١)</sup>  
أنحملُ محزونَ القوادِ قوادمُ      على غُصْنٍ نالى المساقاةِ عالى<sup>(٢)</sup>  
أيا جارتا ما أنصفَ الدهرُ يئنا      تعالَى أقاسمُك الموممُ تعالى  
أيضحكُ مأسودٌ وتبكي طليقةً      ويسكتُ محزونٌ ويندبُ سالى  
لقد كنتُ أولى منك بالدمعِ مُقلَّةً      ولكنْ دعى فى الحوادثِ غالى

وقد أثار نواح هذه الحمامة بمرأى منه وسمع الشجون فى نفسه ، ويُعبد لها من نوى وفراق كفراقه وغربة كفرته وهوم كهمومه . ويتساءل هل تحمل قوادم هذه الحمامة قوادا محزونا ؟ ويقول إن الدهر لم ينصف بينها ويتساءل كيف يضحك أسير فقد حرته وتبكى حرة طليقة ؟ بل كيف يسكت محزون ويغرم لسانه وتندب سالية ندبا متصلا ؟ ولا يلبث أن يقول لها : لقد كنت أولى منك بالبكاء بكاء لا تنقطع دموعه بل تظل منهمة ، غير أن دعى فى الحوادث والنكبات غالى لا يسيل أبدا ، وإنه لينجشم أنقاها ويتحملها فى قوة . وشعر أى فراس وراء رومياته يكشط بالفخر



والحماسة ، وله قصيدة رائية في ٢٢٥ بيتا فخر فيها فخرا مضطربا بمناب أسلافه الحمدانيين وأيامهم في الإسلام وما شادوه من إماراتهم في الموصل وحلب . وشعره - بحق - يُضرم الحمية في النفس العربية .

### عزلة<sup>(١)</sup>

هو حسان بن نعيم الكلابي الدمشقي ، ولد سنة ٤٨٦ وحفظ القرآن صغيرا ثم اختلف إلى حلقات العلماء ، ولم تلبث ملكته الشعرية أن تفتحت ، ففدا بشعره على أبواب حكام دمشق يملحهم وينال جوائزهم . وكان لأسرة طُنُتِكَيْن نصب كبير من مدبجه ، وخاصة أبى آخر حكاهم للدمشق قبل استيلاء نور الدين أمير حلب عليها . ويبدو أن الرحلة كانت محبة إليه ، إذ نراه يرحل إلى حلب ويفقد إحدى عينيه في تلك الرحلة ، ولذلك لقبه معاصروه بعزلة الأعمى ، ورحل إلى الموصل وبغداد ونزل في قلعة جبر ومدينتي آمد وماردين . وزار مصر وبقى بها مدة وتوثقت الصلة فيها بينه وبين الوزير طلائع بن رزيك وكان شيعيا أماميا ، وله فيه طائفة من اللدائع ، ويذكر له في إحدى مدائحه أنه شيعي قاتلا :

أنا من شِيعَةِ الإمام حُسَيْنٍ لستُ من سُنَّةِ الإمام يَزِيدٍ  
فهو ليس سِنِيًّا ممن ارتضوا يزيد بن معاوية قاتل الحسين إماما لهم ، بل هو شيعي من أنصار الحسين . وعاد إلى دمشق وكانت تابعة لنور الدين ، وكان أيوب بن شاذي وأخوه أسد الدين شبركوه وابنه صلاح الدين في مقلة حاشية نور الدين ورجاله ، وتولى بعضهم شئون دمشق وكان صلاح الدين على شرطتها فاتصل بهم يملحهم وأسبغوا عليه عطاياهم ، وكان خفيف الروح فقربوه منهم واتخلوه نديما لهم في مجالس لهمم وسهرهم . وكان صلاح الدين من بينهم يوده ويصادقه ويخضره مجالس أنسه . ووصفه الهادي الأصماني حيث قال : « لقيه بدمشق شيخا خليما رُبْعَةً مائلا إلى القصر أعور مطبوعا حلوا للنادمة لطيف النادرة معاشرًا للأمرء ، شاعرا مستعزف المجهاء ، لم يزل خَصِيصًا بالأمراء السادة بنى أيوب ينادهم ويداعبهم ويطايهم قبل أن يملكوا مصر ، والملك الناصر صلاح الدين يوسف أشغفهم بنكته ، وأكلفهم بسماح نفسه ، وله فيه

والشعرات ٢٢٠/٤ وقد طبع بجمع اللغة العربية بدمشق ديوانه .

(١) انظر في عزلة الدمشقي وشعره الحميدة (قسم الشام ١٧٨/١٤ وفوات الوفيات والنجوم الزاهرة ٦٤/٦

مدائح ، ولديه منه منائح . وكان صلاح الدين وعده أنه متى ملك مصر يعطيه ألف دينار ، ووفى له بوعده غير أنه لم يلبث أن وافته القدر سنة ٥٦٧ .  
ويبدو أن عرقلة كان في أوائل حياته يقصد أوساط الناس ، ومدح شخصا مرة فأعطاه شعيرا . فغضب ، وأنشد ما مر ذكره من قوله :

يقولون : لم أرخصتَ شعرك في الوردى      قلتُ لهم إذ ماتَ أهلُ المكارمِ  
أجازى على الشُّرِّ الشُّعْبَرُ وإنَّهُ      كثيرٌ إذا استخلصتَ من بهائمِ  
واشتهر في زمنه بأنه هجاء كبير ويقول العاد - كما أسلفنا - إنه كان مستطرف الهجاء ، إذ كان يحاول فيه التندير لإضحاك السامع وجلبا لسروره ، كقوله في مثنى ضارب على العود لم يعبه صوته ولا ضربه وتلحينه :

علىَّ	صَوْتُهُ	سَوَّطُ	علينا	لا على	الفرسِ
وجملتهُ	ضربه	ضربُ	للشَّعْرِ	وُسْطُ	الفرسِ
يقول	السامعون	له	رماه	الله	بالخُرسِ
وغدُ	ياربُّ	مهجتهُ	إذا غنى :	( غلَى نَفْسِي )	

فهو لا يحفل صوته يصلك الأسماع فحسب ، بل يحمله يكوها كي السياط للخيال ، أما ضربه فكأنه ضرب حقيق يضرب به دروها وتروسا لألحانا تُشجى السامعين وتطربهم ، مما يحفلهم يدعون عليه بالخُرس بل بالموت حين يغنى ، وكان بالصدفة يغنى مقطوعة أولها : « غلَى نَفْسِي » . ويقول لبعض مهجويه :

لك	وجهٌ	كانهُ	الـ	جَدْرٌ	لكنْ	إذا كُفِّنْ
وقوامُ	كانهُ	الـ	خُصْنٌ	لكنْ	إذا انْقَصَفْ	
وبنانٌ	كانهُ	الـ	جبر	لكنْ	إذا تَشَفَّ	
وأبُ	أكلبُ	الأناسِ	م	ولكنْ	إذا حَفَّنْ	

وهو في الأبيات الثلاثة الأول يبدأ بالمدح لكن لا يلبث أن يحوره بل أن يرده عليه هجاء وإقذاها شديدا ، فهو صاحب وجه كاسف وقوام قصير منقصف وبنان شحيح لا يقطر بأي خير ،

لما أبوه فكناب أشر . وكان بدمشق في زمنه طيب يسمى أبا الحكم تصادف أن وقع لىلا فانشد  
جفنٌ إحدى عينيه ، وكان هذا الطيب كثيرا ما يرى من يموت فقال عرقلة متذكرا عليه :

لنا طيبٌ شاعرٌ أَشْتَرُّ أراحنا من شخصه الله  
ما عادَ في صُبحَةٍ يومَ فَتَى إلا وفي باقبيه رثاء

فهو يدعو عليه بالموت حتى يريح العباد منه ، إذ لا يعود ولا يزور أحدا صباحا حتى يكسب له  
قصيدة رثاء مساء . فهل وراء ذلك شؤم يتنمى للناس المحتلص منه . وكان يُقْلَع أحيانا في  
هجائه ، حتى في الموت . ويقول في رثاء بعض خصومه :

لقد حَسَنَتْ به اليومَ المرائى كما حَسَنَتْ به أمس الأهاجى  
ولكنْ لَجَّ في شَتَمِ البرايا وكان القتلُ عاقبةَ اللُجاجِ

وهى شائعة تدل على أنه كان علوانى المزاج ، وله رثاء لاذع لبعض الهجان ، يقول فيه إن دنان  
الخمر وكثوسها وقيانها المغنيات يبيكنه بكاء مرا .

### أسامة <sup>(١)</sup> بن منقذ

هو أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ بن نصر بن منقذ الكلبي ، من أعلام بني منقذ أصحاب  
قلعة شيزر إلى الشمال من حماة ومن علمائهم وفرسانهم . ولد لأبيه سنة ٤٨٨ وقد عني بتعليمه  
وتدريته على القروسية وأتقنها سريعا ، ولقى - وهو شاب - في صيده أسدا فصرعه . ويقال إن  
أباه كان رجلا صالحا فترك إمارة القلعة لأخيه سلطان ولم يكن له ولد ، فتبنى أسامة وأخذ يعمده  
للإمارة بعده . وكان اسم عاد الدين زنكي قد أخذ في التألق منذ استيلائه على حلب سنة ٥٢٤  
فالتحق به أسامة وأبلى بلاء حسنا في حروبه ضد حملة الصليب ، حتى إذا أغاروا على شيزر سنة  
٥٣٢ عاد إليها مسرعا ودافع عنها دفاعا مستميتا حتى ارتكوا على أعقابهم خاسرين . وعقددار فرحه

والنصر في أواخر البشر لأى القضاء ( الطبعة الأولى  
القاهرة ) ٢٧/٣ و امرأة الجنان ٤٢٨/٦ وشرارات الذهب  
٢٧٩/٤ وديوانه طبع بالقاهرة . وراجع كتابه للاحتجاز (نشر  
جامعة برنستون) وله معلومات كثيرة عن سيرته وحياته .  
وطبع له في القاهرة لباب الآداب وكتاب المنازل والديار .

(١) انظر في أسامة وشعره تهذيب تاريخ دمشق لابن  
صاكر ٤٠٠/٢ ومعجم الأدباء ١٨٨/٥ والحريدة (قسم  
للشام) ٤٩٩/١ والنجوم الزاهرة : الجزئين الخامس  
والسادس في مواضع مفرقة (انظر فهرس) والهداية  
والنهاية لابن كثير ٣٣١/١٢ والسلوك للمفريزى ١٢٥/١

بالنصر كان حزنه على أبيه إذ علم أنه توفى في العام السابق لتلك المعركة . وصمم على المكث في مسقط رأسه لحمايته غير أن عمه لم يتركه طويلا ، فقد أمره هو وإخوته بالرحيل عن القلعة ، فغرفوا في البلاد . ومضى أسامة إلى دمشق وبقية حاكمها معين الدين أنر مدير دولة أولاد طُغتكين لقاء حسنا ، وظل الجوينيها صائبا حتى سنة ٥٣٩ هـ إذ اكشهر الجو ولم يجد أسامة بُدًا من مفارقة دمشق . فرحل إلى القاهرة ومعه أمه وزوجه وأبناؤه وأخوه محمد ، وكان الخليفة الفاطمي حينئذ الحافظ ( ٥٣٤ - ٥٤٤ هـ ) فأكرمهم وأمر له بإقطاع سنٍّ عاش به حياة رَغْدَة .

وخلف الحافظ ابنه الظاهر ( ٥٤٤ - ٥٤٩ هـ ) واتصل إكرامه وإكرام وزيره العادل بن سلار لأسامة ، ويقول المؤرخون إنه لم يف للعادل ، فقد أوغر صدر عباس الصنهاجي ابن زوجته عليه قتله وخلفه على الوزارة . ولم يلبث أن أوغر صدر عباس وابنه نصر على الخليفة الجديد الظاهر فقتلاه . وتطورت الأمور فتولَّى الفائزين الظاهر الخليفة وهو صبي يجبو في الخامسة من عمره ، وكاتب أهل القصر طلائع بن رزيك الوالي بالصعيد ، فقدم في جيش إلى القاهرة ، وهرب عباس وابنه نصر وأسامة ، وولوا وجوههم إلى الشام . وأسرت أخت الظاهر ، فكتب إلى حملة الصليب بمسقلان - وكانوا قد استولوا عليها حديثا - تعلمم بأموال طائلة إن هم ردوا إلى القاهرة الوزير وابنه نصرا ، والتقوا بهم وواقعوهم ، فقتل عباس ، وُرد نصر إلى القاهرة ، وقرأ أسامة في نفر معه إلى دمشق . وحاول أسامة أن يوثق صلته بحاكمها الجديد نور الدين الذي استولى عليها في سنة قدومه سنة ٥٤٩ هـ ، ويدو أنه كسب حينئذ رضاه ، وكاتب طلائع بن رزيك الوزير بمصر ليرسل إليه أسرته ، فأرسلها بجرا غير أن سفيتها أصابها عطب في مياه عكا وكانت مع الصليبيين ، فنهبا كل ما كان مع الأسرة من مال ومتاع ، ونجشمت الأسرة كثيرا من الصعاب حتى وصلت دمشق وكان لذلك أثر أليم في نفس أسامة .

ونزلت بأسامة في سنة ٥٥٢ هـ فاجحة أشد هولا ، إذ دمرت الزلازل قلعة شَيزَر وأتت عليها ونزع عنها أهله وتشتوا في البلاد ، وتعلكها نور الدين خشية عليها من حملة الصليب ، ويدو أن أسامة كان يأمل أن يرد نور الدين الحصن عليه وعلى أسرته ، ولعل ذلك ما جعله يقول فيه :

سلطاننا زاهدٌ والناس قد زهدوا له فكلُّ على الخيرات منكشُرُ  
أيامه مثلُ شهر الصوم طاهرةً من المعاصي وفيها الجوعُ والعطشُ

لما أن أيام نور الدين البطل المغوار مدَّوَّج الصليبيين طاهرة فهذا صحيح إلى أقصى حد ، ولما

أن فيها الجوع والعطش فغير صحيح إذ فيها غنائم لا تحصى أخذت قهراً من حملة الصليب ، وفيها غير بلد عرى رُدُّ منهم إلى أهله . وقد شارك هو نفسه نور الدين في بعض انتصاراته عليهم ، وحضر معه حصاره الحصن حارم سنة ٥٥٩ للهجرة . وأدّته موجودته - في رأينا - من نور الدين إلى أن يبرح دمشق إلى حصن كَيْفَاً بالموصل ويتخذها دار مقام له ، وفيها يمكث على جمع ديوانه وتأليف كتبه ، حتى إذا استولى صلاح الدين على دمشق سنة ٥٧٠ استدعاه . ولَّياه مَبتهِجا ، فأعطاه داراً بدمشق وإقطاعاً لمعايشه وفسح له في مجالسه ، حتى إذا كانت سنة ٥٨٤ للهجرة لَبَّى نداء ربه عن سنة وتسعين عاماً .

ورب أسامة ديوانه على الموضوعات ، فباب للفرز وباب للمديح وباب للشكوى وباب للفخر وباب للوصف إلى غير ذلك من أبواب ، ولم يفرّد للجهاد باباً وكأنه ترفع عنه إباء واحتشاما وحياء . وأهم أبواب شعره باب الفخر ، إذ كان فارساً شجاعاً ، وشارك في حرب حملة الصليب منذ شبابه دفاعاً عن مسقط رأسه ، وجُلِّي في معارك عماد الدين زنكي ضدهم ، وكأنه ظل طوال حياته شاهراً سيفه في وجوههم حتى بلغ السبعين ، يقول :

لَحْمَسَ عَشْرَةَ نَازَلْتُ الكَآءَ إِلَى أَنْ شَيْتُ فِيهَا وَخَيْرُ الْخَيْلِ مَا قَرَحَا<sup>(١)</sup>  
أَحْوَضَهَا كَشَاهِبِ الْقَنْفِ مَبْتَسِمَا طَلَّقَ الْهَيَا وَوَجَّهَ الْمَوْتَ قَدْ كَلَحَا<sup>(٢)</sup>  
بَصَارِمٍ مِنْ رَأَاهُ فِي قَتَامٍ وَغَى أَفْرَى بِهِ الْهَامَ ظَنَّ الْبَرْقَ قَدْ لَهَا<sup>(٣)</sup>  
فَلَّ كَآءَ الْوَفَى عَنِ لَعَلِّمْ كَمْ كَرْبٍ كَشَفْتُ وَكَمْ ضَيْقٍ يَسَى أَنْفَسَحَا

فهو قد نازل كآء الحرب أو شجعانها منذ ستة الخيامية عشرة ، وظل يتازلم حتى اشتعل رأسه شياً لا يبين ولا يضعف بل تشتد قواه كما تشتد قوى الخيل حين يعلو سنّها وتصبح قارحة مستتمة سنوات فحولتها . وإنه ليخوض أهوال الحرب كشهاب ساطع باسم الثغر متهلل الوجه وقد كثر الموت عن أنيابه . وإن سَيْفَهُ لِيَلْمَحُ في غبار الحرب - وهو يحطم به الرووس خطاً - كبرق يسطع ، وما من شجاع إلا وهو يعلم كآء ما كشف من كرب وهموم في الحرب وكآء ما انتفح له فيها من مضايق ومآزق . ومن قوله في تنكيله بحملة الصليب في غير موقعة :

(١) الكآء : الشجعان . قرح الفرس : بلغ الخامسة من عمره  
(٢) طلق الهيا : سبخر الوجه . كَلَح : كَلَح : حبس  
(٣) قَتَامٍ وَغَى : غار حرب . أفرى الهام : أفتق الرووس

كم قد أبدتُ بسنى كلِّ مفتخرٍ حمى الحقيقة يومَ الجُفَل اللَّجِبِ<sup>(١)</sup>  
وكم تركتُ بنى الإفرنج في رُعبٍ فُصرتُ أذى لديهم جالبُ الرُعبِ  
وكم جررت إليهم جَحْظَلاً لَجِباً بالسَّابِرِيَّةِ وللأذى والبَلْبِ<sup>(٢)</sup>

وهو يقول إنه كثيراً ما قضى قضاء مبرماً على كل شجاع يفخر بشجاعته حامياً حمى أهله يوم  
النزال الطاحن . ويقول إنه كثيراً ما أنزل الرعب في قلوب حملة الصليب حتى سموه - جزاً -  
جالب الرُعب ، وكم قاد إليهم جيوشاً غفيرة شاكبة السلاح تظلمهم وتسفك دماهم . ويقول :

سَلَّ بى كَاةَ الوَفَى في كلِّ معرَكٍ يضيقُ بالنفس فيه صَدْرُ ذى الباسِ  
يُنْبَشوك بَأَى في مضايقتها ثَبْتُ إذا الخوفُ مَرُّ الشاقِّ الراسِ

فهو يحلّى في المعارك حامية الوطيس التي تبلغ فيها الروح الحُلُوم ويرى الكآبة فيها الموت  
نصب أعيُنهم ، فإنه حينئذ يشق المهاجم ويثق الأعداء رابط الجأش ثابت الجنان حتى حين يبرز  
الخوف والفرع الجبال الرواسى من الكآبة الثَّاة .

ولأسامة قصيده نظمها على لسان نور الدين مفادها معددا لانتصارات البطل على حملة  
الصليب وتمزيقه لصفوفهم وقد بلغت أكثر من تسعين بيتاً وفيها يقول :

أَيَّ اللهَ إلا أن يكونَ لنا الأمرُ لتحميا بنا الدنيا ويفتخرَ العَصْرُ  
جُفَلنا الجهادَ هَمَّنا واشتغالنا ولم يُلْهِنا عنه الساعُ ولا الحُمُرُ  
بنا أَيْدِ الإسلامِ وازدادَ عَزَّةً وذلكَ لنا من بعدَ عَزَّتِهِ الكُفْرُ  
بنا استرجع اللهَ البلادَ وأَمِنَ إل حِبادَ فلا خوفٌ عليهم ولا قَهْرُ

وحقا كان نور الدين مفخرة للحصن في ذلك قلاع الصليبيين وحصونهم ، وبه استرجع كثير من  
بلاد الشام وأمين فيها الناس ، ووضِع للمكس أو الضرائب عن التجار واتممت الحياة وازداد  
الإسلام عزة . ونور الدين - بنون ريب - هو الذي هيا لصلاح الدين حكم مصر وانتصاراته  
للمعوية على الصليبيين واسترجاعه القدس الطاهر وتقليعه لأظفارهم . ويقول لأسامة حين أقصته  
سنواته السبعون عن الاشتراك في نزال الصليبيين ووهنت منه رجلاه وقواه ، فلم يعد يستطيع

(١) حمى الحقيقة . حمى الحسى . الجحفل  
اللجب : الجهر الكفيف كثير الضجيج  
(٢) السابرية : الدرع المحكمة النسيج . للأذى :  
السلاح . اللب . القوس .

ركوب الخيل ليكون له شرف النضال عن حمى وطنه :

رجلايَ والسيون قد أوهنتُ قُوًى عن سعى إلى الحربِ  
وكنْتُ إنْ ثوبَ دامي الرِّغَى لَبِيئُهُ بِالطُّغْنِ والضُّربِ<sup>(١)</sup>  
أشقُّ بالسيفِ دُجَى نَفْعِهَا شقُّ الدِّبَاجِ مَرَّسَلُ الشُّهْبِ<sup>(٢)</sup>  
أنازلُ الأقرانِ بُرْيِيهِمْ من قبلِ ضَرَى هَامِهِم رُغْبِي<sup>(٣)</sup>

فقد وهن عظمه وضعت مته ، ولكن لاتزال روحه قوية ، وإنه لذكر ماضى فروسيته  
للشرف وكيف أنه كان حين يدهو الداهى للحرب يبادر إليها بطمن ويضرب يمينا وشمالا يشق  
الروس في مثار النقع وغبار الحرب شق الشهب لحجب الظلام فاتكا بالأقران ، بل إن رعيهم منه  
ليفتك بهم قبل سيفه فتكا ذريعا .

ابن<sup>(١)</sup> هُتَيْن

هو محمد بن نصر بن الحسين المشهور باسم ابن هُتَيْن ، يرجع بنسبه إلى الأنصار ، نزل  
أجداده الأولون الكوفة ، وتركها أسرته إلى زَرْع في حوران بالشام . وهاجر منها أحد أجداده  
الأقرين واستقر في دمشق ، وفيها ولد لأبيه سنة ٥٤٩ للهجرة ، وكان حنثله جنوى الجامع  
الأمرى ، فبعد أن حفظ القرآن أخذ يختلف إلى شيوخه وفي مقلتهم الحفاظ  
أبو القاسم بن عساكر . وكان فطنا ذكيا وسرعان ما جرى الشعر على لسانه وهو في السادسة عشرة  
من عمره . ولا نعرف الأسباب التي جعلته يتجه بشعره في بواكير حياته إلى المهجاء ، ربما كان  
صنوانيا بطبعه ، وربما رجح ذلك إلى أنه نشأ في أسرة متواضعة ، وأن أباه لم يشته على حب الخمر  
والشعر بالمرودة والكرامة والرغبة في التماسي وطلب المصالي ، وقد صرح بذلك في بعض شعره  
قالا فيه :

وجئني أن أفضلَ الحَيْرَ والدَّ ضَيْلُ إذا ما عُدَّ أهلُ للتاسِبِ

(١) ثوب : دما

(٢) النقع : غبار الحرب

(٣) رعيهم : يهلكهم

(٤) انظر في ابن هُتَيْن وشعره ابن علكان ١٤/٥ ومعه

الأبداء ٨١/١٩ والهداية والتهابة لابن كثير ١٣/١٣٨

والنجم الزاهرة ٢٩٣/٦ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي

٢٦٤/٨ ، ٣٩٨ ، ٤٦١ وطرخ الحروب لابن واصل

٢٨٦/٢ والقلرات ١٤/٥ ومقدمة ديوانه لمحققة خليل

مردم (نشر دار صادر بيروت) .

بعيدٌ عن الحسنى قريبٌ من الحنّا وضيقُ مسامى الخير جَمُّ المعاييرِ  
إذا رمتُ أن أسمو صعوذاً إلى العلا غدا عِرْقُهُ نحو الدُّنْيَةِ جاذبي

ويبدو أنه أراد بهجته للناس الانتقامَ لفضة أسرته وأبيه ، ومن العجب أن صلاح الدين الأيوبي البطل المغوار الذى أذلَّ حملة الصليب ودفع جموعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه واستولى على بيت المقدس للعظم منهم وغيره . هذا البطل الذى احتل السويداء من أفئدة المسلمين حين استولى على دمشق وابن عتيم فى العشرين من عمره لم يبادر إلى ملحه ، بل على العكس عمد إلى هجائه هجاء مقزها هو ووزيره القاضى الفاضل وكتابه عباد الدين الأصمى وغيرهما من كبار حاشيته ورجاله وفيه يقول :

سلطاننا أصرجُ وكتائبُه ذو عَمَشٍ والوزير مُتَحَيِّبُ

وكان القاضى الفاضل أحلب وكان من خيرة الرجال وصفوة الكتاب الشراء كما كان سيوسا حاذقا بتدبير الدول . وذاعت لابن عتيم فى دمشق قصيدة طويلة يقال إنها بلغت خمسمائة بيت سماها مقراض الأعراس ، وضعَّ الناس من لسانه وهجته ، ورفضوا شكواهم منه إلى صلاح الدين ، فأمر بنفيه عن دمشق ، لفى على وجهه يحوب البلاد من الشام إلى العراق والجزيرة وأذربيجان وخوارزم وخراسان وما وراء النهر وغزنة ودخل الهند . ثم رحل إلى اليمن وحاكمها من قبل صلاح الدين أخوه طُغْتِكِين ( ٥٧٧ - ٥٩٣ هـ ) . فوجد عليه ، وقدم إليه مدائح فلقبه لقاء كريماً ونحفَّ على قلبه فالتحفه ندماً ، وأخذ بكث من مدحه وطفكتين بكث من عطائه ، حتى أثرى ، وكثرت يده للمال ، فرأى أن يستثمره ، وتحول تاجراً يتردد بعروضه بين اليمن ومصر فى العقد التاسع من القرن السادس .

وكان العزيز عثمان بن صلاح الدين ينوب عن أبيه بمصر حتى إذا توفى صلاح الدين سنة ٥٨٩ أصبح العزيز عثمان سلطانها ، ونرى ابن عتيم يشكو منه لمطالبته بدفع ضريبة عن عروض التجارة التى يحملها إلى مصر ، ولا نعرف هل هذه الشكوى كانت فى أيام نيابته عن أبيه أو فى أيام سلطته ، وهو فيها يهجو بالضحِّ بينا يمدح صه العزيز طختكين بالكرم ، يقول :

ما كلُّ مَنْ يسمَّى بالعزيز له فَضْلٌ ولا كلُّ بَرِّقٍ سَحْبَةٌ غَدَقَةٌ (١)  
بين العزيزين بَوْنٌ فى فعالها هناك يُعطى وهذا يأخذ الصدقة



وهو هجاء لاذع للعزيز عثمان إذ يجعله - لشدة شحه - شحاذا يأخذ الصدقة . ويبدو أنه ظل بمصر بعد وفاة العزيز طفنتين سنة ٥٩٣ ومكث بها مدة انقضت فيها صداقة بينه وبين شمراتها ، يقول ابن خلكان : « اتفق في عصره بمصر جماعة من الشراء الجيدين وكان لهم مجالس يجرى بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها ، ودخل في ذلك الوقت شرف الدين بن عتير فاحتضلوا به وعملوا له دعوات . وكانوا يجتمعون على أرغد عيش » . وتوفي العزيز عثمان سنة ٥٩٥ وتولى بعده أخوه الأفضل وتطورت الظروف وتحول ملك صلاح الدين في مصر والشام إلى أخيه الملك العادل ، فولى على مصر ابنه الكامل وعلى دمشق ابنه للعظم عيسى . وحن ابن عتير إلى العودة إلى دمشق فأخذ يستطف العادل أن يعود إليها وأذن له في العودة ولزم ابنه للعظم عيسى ( ٥٩٧ - ٦٢٤ هـ ) بملحه ، وقربه منه واتخذته بأخرة من أيامه وزيراً له ، حتى إذا توفى رثاه رثاء حاراً . وأبقى له منزله ابنه داود ( ٦٢٤ - ٦٢٦ ) ونحله الأشرف موسى فزرم يده واصطلحت عليه الأمراض ، وتوفي سنة ٦٣٠ عن ٨١ عاماً .

والديوان موزع على أبواب المديح والرثاء والحنين إلى دمشق والوقائع والمحاضرات مما يتصل بظروفه والأحداث اليومية ، ثم الدعابة والتهكم والسخرية والألغاز والهجاء . وألحق بحقق الديوان بتلك الأبواب مستتركا بما عثر عليه من شعر ابن عتير في كتب التاريخ والأدب . وهو في مقلمة شعراء دمشق بزمنه إن لم يكن سابقهم المجلى ، إذ كانت ملكته الشعرية خصبة ، غير أنه استغلها أكبر استغلال في الهجاء مما جعل صلاح الدين ينفه - كما مر بنا - عن دمشق ، وحتى من أكرموه كان يهجوهم غير مراع فيهم إلا ولاذمة ، إذ كان ما يلبث أن يعض أيديهم التي امتدت لإكرامه ، من ذلك هجاءه للسلطان العادل الذي فتح له أبواب دمشق ، إذ ما لبث أن قال فيه بعد دخولها :

إن سُلطاننا الذي نرجمه واسعُ المال ضيقُ الإنفاقِ  
هو سيفٌ كما يقالُ ولكن قاطعُ للرسم والأرزاقِ

وكان العادل يلقب سيف الدين ، وأُنقله من نشته وضباعه في البلاد وردّه إلى دمشق حينية قلبه ومهوى قواده التي طالما تنفى بالحنين إليها ، ومع ذلك جزاء بالهجاء . وحققاً له فيه مدائح رائحة ، ولكن كان ينبغي أن يرد شيطان هجائه عن الإلام بساحته . وأكرمته المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق إكراماً إلى أقصى حد حقه . جعله نديمه ومؤنسه ووزيره ومستشاره ، ومع

ذلك لم ينج من هجائه إذ يقول حين ولاء مع البها بن أبي اليسر التنوخي أمر الرعية :

أرى ابن عتيبٍ **والبها** مذ نوكيا على الناس وكى الخيم من كل مُسلم  
فوالله يا عيسى بمن شئت منها لُئيت ولو كنت للشيخ بن جرهم  
وحقاً هجا نفسه معه ، ولكن هذا لا يخفيه من قسه له بأنه لعن لتوليته هو وصاحبه . وهجا  
نفسه في ديوانه غير مرة ، وكأنه يعيد لنا الخطبة شاعر المهجاء القديم وهجاءه لنفسه ، وأيضاً لقائه  
استطاع منه - كما مر بنا - هجاءه لأبيه . وأهلناه طيب حيون - أو كما كانوا يقولون كحال - خروفاً  
مزيفاً جداً فكعب إليه أمجية طويلة يقول فيها :

أتاني خروفٌ ما شككتُ بأنه حليفٌ هوى قد شفه الهجر والظلمُ  
إذا قام في شمس الظهيرة خفته خيالاً سرى في ظلمة ماله ظلُ  
فناشدته ما تشهى قال كفتُ وقاسمته ما شفه قال لي الأكلُ  
وظلٌ يراعيها بسمين ضعيفٌ وينشدها والسمع في الخلد منهلُ  
أنت وحياضُ الموت بيني وبينها وجادت بوصلي حين لا ينفع الوصلُ  
والبيت الأخير لأعراي وضعه بدقة في موضعه من القطعة ، وقد جعل الحروف المزيل نفسَ  
عشقي شفه المهجر والدم ، ويقول كأنه خيال في ظلام ليس له ظل ، وهي صورة بديعة ويستحلفه  
ما يشهى فيقول قة أو عشب يابس وأحضرها له ، فظل يراعيها بعين ذابلة توشك أن تودع الحياة  
ودموعه منهلة على خدوده ، فقد أته وهو يكاد يلفظ أنفاسه . وجادت عليه بوصل لم يعد ينفعه  
فروحه في الحلقوم .

ويصور ابن عتين بخيلاً شحيح النفس كان يدهو أصدقاءه مرة كل عام ضجراً متبرماً ، متمنياً  
أن لا تتكرر هذه الدهوة أبداً ، ومثت للائلة وأخذ الأصدقاء يتناولون الطعام ، ويصفه ابن عتين  
حيث قال :

صهدى به والبدُ الجنى بكفُ بها غربَ الدمايح والأخرى على الكبدِ  
يقول للخيز : لا يعد مذاك ولا أختى طبعك الذى أختى على كبدِ  
ولبد آخر نسر لقمان في قصة مشهورة ، وهذا الشحيح يتر غرب دمه بيد ويضع الأخرى

على كبده خشية تفتته داعيا لحبزه أن لا يأتي الدهر عليه كما أتى على لبد . وكان يهاجى رشيد الدين عبد الرحمن النابلسي ويزعم أنه صُفِعَ وأنه معتاد الصفح دائما يقول :

تمجَّب قومٌ لصفعِ الرشيدِ وذلك مازال من دأبه  
رحمتُ انكسارِ قلوبِ الثعالِ وقد دُنُوسها بأثوابه  
فواقه ما صَفَموه بها ولكنهم صَفَموها به

وله أهاج كثيرة في القاضي الفاضل وكبار رجال الدولة بدمشق وجهابذة قضاتها وشيوخها ، وهو فيها أو على الأقل في بعضها يفحش إفحاشا شديدا ، مما دفعنا إلى إخلاء هذا الكتاب منها ، لا لفحشها فحسب : بل لأن ما يخلو منها من الفحش أيضا إنما هو افتراء وهتان .

#### ابن<sup>(١)</sup> النحاس

هو فتح الله بن النحاس الحلبي المعروف باسم ابن النحاس اشتهر بطوافه في البلدان الشامية وللمصرية والحجازية ، كان جميل الصورة في صباه ومطالع شبابه ، ثم أصيب بمرض بئس محاسنه وزهده في الحياة . ونراه في شعره يرى تلك الأيام أسفا محزوناً ، ويقال إنه ترى بزي الزهاد ورحل عن بلده ، ودخل دمشق فاستقبله أديباؤها وشعراؤها استقبالا كريما . وكان لهم مجالس يتطارحون فيها الشعر ، وكانوا يجتمعون في نزه دمشق ، ويتحاورون ويتحدثون ويذكرون كثيرا من الدعابات والفكاهات . وانقضت صلة متينة بينه وبين ابن منبج الذي تحملنا عنه بين شعراء المديح ، وله فيه مدائح كثيرة . ورحل عن دمشق إلى القاهرة فوجد من أديبائها أهلا ومكانا طيبا ، وهاجر منها إلى مكة ، وألقى عصا تسياره بالمدينة ، إلى أن توفي سنة ١٠٥٢ للهجرة . ويقول فيه المهي في كتابه : نفحة الرحمة : « أنا لا أجد عبارة تنفي في حقه بالمدح ، فأرسلت البراع وما يأتي به على الفتح ، وناهيك بشاعر لم يطن مثل شعره في آذان الزمان ، وساحر إذا أشرت كلماته العقول استفتت عن الككوس والتلمان » .

وابن النحاس شاعر مجيد ، بالقياس إلى زمنه أيام العثانيين ، وشعره استفده في المديح ، ويكثر في مقلعاته من التزل ، وقد يفرغ إلى الفخر بمثل قوله :

وديران ابن النحاس مطبوع قديما في بيروت بالمطبعة الأنسية .

(١) انظر في ابن النحاس وشعره سلافة العصر ص ٢٧٦ وخلاصة الأثر ٢٥٧/٣ ونفحة الرحمة ٥٠٧/٢ .

ألا إن لي نفسَ الوفورِ وعَفَّةَ الـ  
وما كلُّ مَنسُولٍ اللَّيِّ يستَغْنِي  
وَأَحْتَمَلُ المَكْرُوهَ مَنْ يَمْلِكُ  
إذا أنا لم أدفع عن النفسِ قَيمَهَا  
ولا وَطِئْتُ خَدَّ القِيافِ رِكَائِي  
ولا سَالَ حَزْنٌ بِالطُّيِّ وَسَبَبُهُ  
خَلِيجِ وَقَلْبِي فِي المِهْمَاتِ قَلْبُ

وهو يقول عن نفسه إنه وفور عفيف قلب يحتمل في قوة للأمر ، ولا يستثيره جمال المرأة ولا يطلب ما يطلبه الناس ، بل يطلب الأمانى الكبار ، ويحتمل الأذى من ينصرف عنه ، ولا ينصرف ممن يُعرض عنه من الأوداء الأصدقاء ، ويدعو على نفسه إن لم يدفع الضيم الساقط عليه أن لا ينجاب عنه دجاء المظلم ، وأن تهن قواه فلا تغط القياض ركايبه ولا يسيل بها حزن من الأرض ولا مفازة . ويقول من قصيدة ثانية :

يَادْهَرُ مِثْلِي لَا يُقَلِّدُ	قَلُّ عَنِ سَنَامِ المَهِدِ جَبَّةُ
أَنَا لَا أَبَالِي إِنْ رُمِيَ	تُ وَسَبَّ عَرَضِي مَنْ أَسْبَةُ
العَيْنُ بِدَمِيهَا الدُّبَابُ	بُ وَيُعْجِزُ الآسَادُ دَبَّه
وَالشُّبْرُ يَحْلُوهُ الشُّرَا	بُ وَفَضْلُهُ بَاقِي وَلَهُ
تَكْنِي قَتَى العِرْفَانِ نَحْ	مَلَانَا فَضَائِلُهُ وَكُنْبَةُ
وَارْقُبْ خُفُوقِي إِنْ سَكَنَ	تُ فَعَاصِي يُرْجَى مَهَبُهُ
وَالْبَدْرُ يَشْرِقُ فِي المَطَا	لَع بَعْدَ مَا أَخْأَاهُ غَرَبُهُ
وَالرَّوْضُ يَذْبُلُ ثَمَّ تُكْذِرُ	سَى الثَّوَرِ وَالْأَوْرَاقَ قُصْبُهُ

وهو يقول للدهر إن شئت لا يستطيع أن يزهزعه عن مكانه من سنام المهد ، وإنه ليرمى ، ولا يهيمه ما قد يلقي عليه من أذى السب والشتم ، مثله في ذلك مثل العين يغميها الذباب وحتى الأسد لا تستطيع ذبه ولا دغمه ومثل الثبر يطويه الغراب وتظل له قيمته ونفاسته . ويفتخر بفضائله ومعارفه ، ويقول لحصمه : ترقب حركتي ، فإني كعاصف ساكن لا يلبث أن يثور ويندفع ، وما مثلي إلا كمثل البدر يخفيه مغربه ولا يلبث أن تم أضواؤه الآفاق ، أو كمثل الروض تنبل

أشجاره ، حتى إذا كان الربيع كسى غصونه الأوراق والأزهار الأرجة . ويقول :

لا أقبل الضيم كيف أقبله ؟ والمجد يا بابه في الحسب  
والشمس صَوْنًا لَصُوءِ طلعتها قبل لِحَاقِ الظلام محتجب

يقول إنه لا يقبل الضيم وكيف يقبله ومجد آبائه وعشيرته يستدير من حوله هالة منيرة تحول بينه وبين الرضا بالهوان . وإنه ليصون نفسه وخصاله الكريمة كما تصون الشمس ضوءها ، بل إنها تحتجب قبل أن يلحقها الظلام ويرى الليل سدوله على الآفاق .

### ٣

#### شعراء المرائي والشكوى

المرائي قديمة في الشام منذ عصر بني أمية قلما كان يموت خليفة أموي إلا ويرثيه الشعراء من الشام والعراق والحجاز ، ويدخل عصر الولاة ومنذ أواخر القرن الثاني تشارك الشام بقوة في الشعر العربي ، ولا يلبث أبو تمام الدمشقي أن يحمل راية الشعر وزعامته لا في الشام وحدها بل أيضا في العالم العربي جميعه ، ويحتل المرائي بابا كبيرا في ديوانه ، ويخلفه تلميذه البحرى المنبجى الحلبي المتوفى سنة ٢٨٤ للهجرة وتشغل المرائي حيزا كبيرا في شعره . ونلتقي في أوائل هذا العصر : عصر الدول والإمارات يكشاجم . وله رثاء في أبيه وأمه ، وأروع من رثائه فيها رثاء أبي فراس لأمه حين جاءه نعيها في أسر الروم ، فأحس في عمق بفضيحه فيها وهو غائب عنها لا يملك إلا أن ينزف الدموع الحارة . وله مريئة بديعة في أخت له يقول فيها <sup>(١)</sup> :

أترعم أنك خِذْنُ الوفاء	وقد حَجَبَ التُّرْبُ من قد حجب
فإن كنت تصدقُ فما تقول	فمَنْ قبل موتك مَع من تُحِبُّ
وكنْتُ أقبِلُ إلى أَنَّ رمثك	يَدُ الثَّعْر من حيث لا أحتسب
فلا سلمت مقلَّة لم تُسح	ولا بقيت لِمَّة لم تُشِب
ولو رُدُّ بالُرْزِه ما تستحق	لما كان لي في حياتي أرب

وهو يمتنى لو غُيبَ الترابَ مع شقيقته وصِرَ روحه حبا لها ووفاء ، ويأسى لنفسه أنه لم يستطع أن يرد عنها سهام المنية التي أصابتها في الصميم تحت بصره ، ولم بعد يملك لها إلا دموعا منهمة ويمنى أن لا يتوقف انهيارها ، لعلها تشق غُلة نفسه وحرقة قواده ويقول لو أن الرزء فيها يرد إلى أخته الحياة لما كان له في حياته أرب ولقدّم روحه فداء لها .

ولأى العلاء مرثية رائحة لأمه ، وكان قد بلغه نعيها وهو في طريقه إليها من العراق ، ويقول في مطلعها إنه سمع بداهية أصمت أذنه وصكت سمعه ، ويأسى أن تتخذه إلى الموت ، ويُعظم أن يرثيها بلفظ يمر بلسانه ويسلك مسالك الطعام ، ويقول إن ألفاظ رثائه تحطم نواجذ أضراره فضلا عن مقادم أسنانه ، وينشد <sup>(١)</sup> :

وَمَنْ لِي أَنْ أَصْرُغَ الشُّهْبَ شَيْئًا      قَالَيْسَ قَبْرَهَا سَمَطَى نِظَامِ  
مَضَتْ وَقَدْ اكْتَهَلْتُ وَخَلْتُ أَنِي      رَضِيعٌ مَا بَلَفْتُ مَدَى الْفِطَامِ  
فِيَارْكِبَ الْمَسُونِ أَمَا رَسُولٌ      يَبْلُغُ رَوْحَهَا أَرْجَ السَّلَامِ  
ذَكِيًّا يُصْحَبُ الْكَافِرُ مِنْهُ      بِمَثَلِ الْمَيْلِكِ مَفْضُوضِ الْخَتَامِ

وهو يكبرها عن أن يرثيها بألفاظ ، إذ هي جديرة بأن يصوغ لها النجوم الساطعة عقود رثاء ترين جَدَنَها الطاهر ، ويمس في عمق - وهو في سن الكهولة - كأن السنوات الطويلة التي فضكه عن صدر أمه من القَصْرِ ليست إلا أياما قصيرة إذ لا يزال بشر كأنه رضيع فقد أمه ، وهو في حاجة شديدة إليها ، رضيع ضاع أى ضياع . ويتوسل إلى قوافل النون التي تسرى في ليل الأبدية أن تحمل منه إلى أمه سلاما ذكيا عطرا يتشرأربه من حولها ويسطع سطوعا . ويقول الماهر الدمثي المتوفى سنة ٤٥٢ في مرثية له <sup>(٢)</sup> :

يَرْغَى أَنْ أَحْنَفَ فِيكَ دَهْرًا      قَلِيلًا فَكُرْهُ بِمَعْتَفِيهِ  
وَأَنْ أَرْغَى النُّجُومَ وَلَسْتَ فِيهَا      أَطَا الثُّرَابَ وَأَنْتَ فِيهِ

ويقول الباخريزي تطبيقا على اليتيم : هـ هذا أرق ما يكون في المراتي ، إذ يكاد يفجر حيون الأحجار ، فتسيل بمدود الأنهار ، بل بأمواج البحار .

وتشب الحروب الصليبية ، وفي بعض حملات آبن أمير دمشق على حملة الصليب سنة ٥٠١

يخون الحظ قائدا من قواده يسمى قول بن عثمان ، فيقطه الصليبيون ، ويكبه ابن الحباط شاعر دمشق بمثل قوله<sup>(١)</sup> :

بِالْأَرْجَالِ لَنَازِلٍ لَمْ يُحْتَسَبْ      وَلِحَادِثٍ مَاكَانَ بِالْمَتَوَقَّعِ  
تَأْتِيهِ مَا جَارَ الزَّمَانِ وَلَا اعْتَدَى      بِأَشَدُّ مِنْ هَذَا الْمَصَابِ وَأَوْجَعِ  
بِاقُولٍ قَوْلَةٌ مُكَمَّلَةٌ مُسْتَتَرٍ      مَا الشُّنُونُ لَهُ وَنَارَ الْأَضْلَعِ  
أَشْكُو إِلَى الْأَيَّامِ فَبِكَ رَزَيْتَنِي      لَوْ نَسَمَ الْأَيَّامُ شَكْوَى مَوْجَعِ  
صُلِّ بَعْدَهَا بِأَدَهْرٍ أَوْ فَكُفَّتْ وَخُلِّدَتْ      مَنْ شَتَّ بِاصْرَفِ الْمَنَةِ أَوْدَعِ

وهي مريثة رائعة تملأه أبيات تصور لوحات الدمشقيين في هذا البطل وكرامتهم وفجيتهم التي لا تماثلها فجيعة . وإن الشاعر ليستقل الدموع الغزار فيه وما وراءها من نار موقدة في الصدور كمدًا عليه ، وليتزل الدهر بالدمشقيين بعدها فواجع أوفليكف ، فلن يصيبهم مثلها فاجعة أوكارثة .

وتوفى نور الدين محمود سنة ٥٧٠ هـ تهاوت الشام لفقدته هزة شدة ، وفي رثائه يقول العماد الأصمباني في إحدى مراثيه<sup>(٢)</sup> :

بِمَالِكِنَا أَيَّامُهُ لَمْ تَزَلْ      لِفَضْلِهِ فَاضِلَةٌ فَاعْرِه  
غَاصَتْ بِحَارُ الْجُودِ مَذْغِيَتْ      أَنْمُلُكَ الْفَائِضَةُ الزَّاعِرِ  
مَلَكْتَ دُنْيَاكَ وَخَلَّفْتَهَا      وَسَرَتْ حَتَّى تَمْلِكَ الْآخِرِ

وتوفى بعده صلاح الدين بدمشق ، وكانت لوفاته أوائل سنة ٥٨٩ هـ رنة حزن عميقة في جميع القلوب والديار لكثرة فوجحاته ، وقد أزعج الصليبيين عن صدر الشام وافتتح بيت المقدس ولم يبق معهم إلا عكا وأنطاكية وبعض حصون وبلدان قليلة ، وبكاه الشعراء وفي مقبعتهم عماد الدين الأصمباني ، وله فيه مريثة بديدة ختم بها كتابه البرق الشامي ، وفيها يقول<sup>(٣)</sup> :

أَبْنِ الَّذِي شَرَّفَ الزَّمَانُ بِفَضْلِهِ      وَسَمَتْ عَلَى الْفَضْلَاءِ تَشْرِيفَاتُهُ

(١) ديوان ابن الحباط ص ٢١٣ والخرميدة بداية

بالقاهرة ٢٢٨/١ .

شعراء الشام ص ٢٠٩ .

(٢) انظر نهاية كتاب البرق الشامي للعماد والروصين

٢١٥/٢ وفتحهم الزاهرة ٦٠/٦

(٣) الروصين لأبي شامة (طبع مطبعة وادي النيل

لا تحسبوه ماتَ شخصا واحدا قد عمَّ كلُّ العالمين مماته  
لو كان في عصر النبي ﷺ في ذكره من ذكره آياته  
باراعيا للدين حين تمكنت منه الذئاب وأسلمته رُعاؤه  
فضل صلاح الدين يوسف دائما رِضوانُ ربِّ العرش بل صلواته

وحقا حامى صلاح الدين عن الإسلام حماية هائلة ، عرضنا لها في حديثنا عن السياسة بالشام  
ومصر ، حماية جعلته في الفروة من أبطال العرب الفاتحين ، مع ما عثره من المدارس والمساجد في  
كل بلد بمصر والشام ، ومع كثرة ما وقفه عليها من أموال ، ومع دولته الواسعة لم يتخلف ملكا  
ولا دارا ولا بستانا ولا مزرعة ، إنما خلف بطولةً أحنى لها حَمَلَةَ الصليب رموسهم .  
ولا يكاد يتوفى حاكم طوال هذا العصر ولا وزير ولا عالم ولا قاضٍ إلا ويرثيه الشعراء ، من  
ذلك قول الشهاب محمود في ابن صَصرى قاضى دمشق لأكثر من عشرين عاما المتوفى سنة ٧٢٣  
للهجرة <sup>(١)</sup> :

قاضى القضاة ومن حوى ربيا سَمَتْ عن أن تُسام سَنًا وَبَرَّتْ مَنْ سَمَى  
شيخُ الشيوخ العارفين ومن رَفَى رَبَّيَ السلوكُ نَعْبُدًا وَتَوَرَّعًا  
حاوى العلوم بما تفرَّق في الورى إلا الذى منها إليه نَجْمًا

وطبيعى أن يصفه بالتقوى والورع والعلوم والشرعة والفقه بها فقها دقيقا . ويقولون إنه كان  
يجمع بين الحسينين : للمعرفة بالمتقول والبراعة في المعقول أو ما يحتاج إلى عقل وفهم وقياس  
وبصيرة . ويلقانا رثاء كثير أيام العثانيين ، من ذلك قول أحمد بن محمد الحنفى الحلبي المتوفى سنة  
١٠٥٦ في رثاء أخيه <sup>(٢)</sup> :

رُزُّهُ أَلَمٌ وَحَسْرَةٌ تَسْتَوَالِي وَمَصِيَّةٌ قَدْ جَذَّتِ الْآمَالَا  
وَفِرَاقُ الْغَيِّ إِنْ أَرَدْتُ تَصَبُّرًا عَنْهُ أَرَدْتُ مِنَ الزَّمَانِ مَحَالَا  
كُنَّا كَمُصْنَى دَوْحٍ قَطَعَ الرَّدَى مِنْهَا الْأَخْضَرُ الْأَرَطَبُ الْمَيَالَا  
أَوْ كَالْبَيْنِ لَذَاتِ شَخْصٍ وَاحِدٍ كَانَ الْبَحِينَ لَهَا وَكُنْتُ شَمَالَا

وكان وتر الشكوى من الدهر والملوحين والناس مشلودا في أحوال كثيرة إلى قيثارات الشعراء



يلحّنون عليه نوايب الدهر وتغافل للملوحين ويؤس حظوظهم في دنياهم وما يتجرّعون من صاب الدنيا وعلقمها المرير ، وما يلون في الناس من الطمع والحمد والأنانية مما يوهي العلاقات حتى بين الأقرباء ، ويعلأ النفوس شقاء وعناء والقلوب حشرات ولوعات ، من ذلك قول أبي فراس <sup>(١)</sup> :

أراني وقومي قرّفتنا مذاهبُ وإن جمّعنا في الأصول المناسِبُ  
فأقصاهم أقصاهم من - مساقى وأقربهم مما كرهتُ الأقاربُ  
غريبُ وأهل حينا كُرُ ناظري وحيدُ وحولي من رجالي عصابُ  
وأعظم أعداء الرجالو يُقَاتها وأهونُ من عاديته مَنْ تُحاربُ

وهو يصور المحنة في الناس حوله ، فهم جميعا قومه يرجعون إلى أصل واحد ونسب واحد ، وأقربهم منه لا يجبون له الخير ، ويحبه له البعداء ، مما يحظه يشمر في عمق بالغربة بين أهله وذويه وعصاباته ، ويهوله ذلك ويقلقه ويفزع . وإنه ليوغل في فهم الناس فيشعر بغير قليل من قلق النفس وضيق الصدر ، فإن من يصادقك إنما يصادقك على الخداع ، وهو لذلك ليس صديقا ، بل هو أعظم أعدائك لأنك تأمنه وتجمله محل تقتك ، وهو لا يريد لك خيرا بل يريد لك الشر والأذى ، وهو لذلك أهدى أعدائك ، أما العدو الحقيقي فأنت تعالنه العداوة وتجاهره بالحرب والخصومة ، فلن يصيبك منه أذى لأنك محترس منه دائما متى شره وخيانه وغدره . ويخاطب أبو العلاء الدهر بقوله <sup>(٢)</sup> :

يادَهرُ يامنجزَ إسماعِدهِ وعُظفَ المأمولِ من وَغْدِهِ  
أَيُّ جديِدٍ لك لم تُبْلِهِ وأَيُّ أقرانك لم تُرْدِهِ  
تستأثرُ الصُّبَّانَ في جَوْها وتُترلُ الأعصَمَ من قِنْدِهِ <sup>(٣)</sup>  
إن زمانِي يرزأياه لي صيرني أترجُ في قِنْدِهِ <sup>(٤)</sup>  
أفضلُ ما في النفس بَشْأها فتستعيدُ اللهَ من جُنْدِهِ  
وربُّ ظمآنٍ إلى موردٍ وللموتُ لو يعطى في ورْدِهِ

وهو يشكو من الدهر وأنه ينجز دائما الإبعاد والإنذار بالشرور والمخطوب ، ويُخلف دائما

(٣) الأعمى : الوعل . القند : لغة الجبل  
(٤) القند : ما يُقَدُّ من الجلد ويُقَدُّ به الأسير

(١) ديوان أبي فراس ٢٠/٢

(٢) سقط الزند ١٠١٢/٢

الوعد بالخيرات والطيبات ، وإنه لبأني دائما على كل جديد وكل قرْن يدعى أنه بمائته في القوة أو الشجاعة ، فالكل أسراه : العقبان في أجوائها العليا والعصم أو الرعول في أعالي الجبال ، فلا أحد ينجو من صوته . ويقول إنه ألف رزاياه ونكباته حتى صارت قيدا أو قيلا له ولحياته ، وصار من طول ألفته لها يستحيها ويمرح فيها . ويحجب أن يكون أفضل ما في النفس من حواس البصر والسمع وغيرها يقتاله أو يهلكه ما سُلط عليه من آفات الهوى ، ويجعلها كأنها جنود لله إذ تستقم له من الإنسان بسوء سلوكه وأعماله . وهو لذلك يستعبد من شرها ، ويقول رب ظامئ إلى مورد يريد أن ينهل منه ، فيكون فيه هلاكه . ويقول أسامة بن منقذ <sup>(١)</sup> :

حذرني تجاري صحبة العا لم حتى كرهت صحبة ظلي  
ليس فيهم خيل إذا ناب خطب قلتي مالي لدغته غير خيلي  
كلهم يبدل الوداد لدى اليأس ولكنهم جدي للمقل  
فاهترلهم في انفراذك منهم راحة اليأس من جدار وذلك

وقد بلغ أسامة من ابتلاله للناس واختبارهم أن أصبح بمقتهم ويمقت كل ما في العالم حتى ظله يكره أن يصحبه خوفا أن يكون فيه ما في الناس من علم الوفاء وخيانة الصحبة . ويقول إنه ليس في الناس خل صادق العهد في النعماء والبأساء ، بل إذا نابت ضراء لم يسعفك ولم يساعذك ، إنما يعرفك في اليأس ، أما في العسر فلا يودك ولا يعرف لك طولا ولا فضلا ولا يسد لك ثلثة ولا يقدم لك عونا ، فاهترل الناس وأياس من أن يردوا لك معروفا أو جميلا تعيش أمانا عزيزا . ويقول ابن حنن في التشوق إلى دمشق بعد أن ظل منفيا عنها طويلا شاكيا محزوننا لغربة وما لقي فيها من ضنك العيش بعد أن طوف في العراق ولبيران وخراسان والهند واليمن <sup>(٢)</sup> :

فسي دمشق ووايتها والحصى متواصل الإرعاد متفصم العرى  
فارقتها لا من رضى وهجرتها لا من قلى ورحلت لا متحيرا  
أستقى لرزقي في البلاد مشئت ومن المجانب أن يكون مقرا  
لا عيشي تصفو ولا رسم الهوى يثو ولا جفنى يصاصه الكرى

فهو يدعو للمشق - وكان يكثر من الحنين إليها - أن يسقيها سحاب متواصل الإرعاد

أو الإمطار ، منضم الثرى واهيه يهطل مدرارا . ويقول إنه برغمه فارقه قسرا ، وهو إنما فارقهها لمجوه أهلها وإفحاشه في هجوه . ويقول إنه جاب البلاد يسمى لرزقه فكان لا يصيب منه إلا الكفاف وإلا ما يسد رمقه ، فرزه دائما مقتر أو قليل ، وعيشته دائما نكدية ، وهواه معلق دائما بدمشق ودائما مسهد لا يلم بجفونه الكرى أو النوم لما ملكته عليه من شغاف قلبه .

وكان شعراء الشام وأدباؤه كثيرا ما يتزلون القاهرة في عهد الأيوبيين والمالبيك ويحتنون إلى الشام وبلدانه ورياضها الفيحاء شاكين من القرية وأن عبرتهم لا تكتحل بمنظر وطنهم ومشاهده الجميلة ، فضلا عن رؤية الأهل والأصدقاء . ونزل القاهرة ابن حبيبة الحموى صاحب خزنة الأدب المتوفى سنة ٨٣٧ وكان أحد ندماء السلطان المريد وولى عدة وظائف لمعهده ، ويقول متشوقا إلى بلدته حاة شاكيا غرته وطول فراقه لأهله<sup>(١)</sup> :

ياساكفى عَتَى حَاةً وَحَقَّكُمْ      من بعدكم ماذقتُ عيشًا طَيِّبًا  
أَرْضُ رَضَعْتُ بِهَا ثَدِيَّ شَبِيئِي      ومزجت للثاني بكاسات الصبا  
وقد التفتُ إليك يادهرى بطر      ل تعنى ونحى لى أن أعنبا  
قَرَّرْتُ لى طولَ الشتاتِ وَطِيفَةً      وجعلتُ دمعى فى الخندود مرثبًا

وهو يشكو من غرته عن ملاعب صباه وشبابه وديار أحيائه فى حاة مسقط رأسه ، ويعاتب الدهر الذى قضى عليه بفراقها وطول نشته بعيدا عن قرية عينه ، وإنه ليكيها بدموع غزار . ولذلك عاد إلى حاة بمجرد أن توفى السلطان المريد سنة ٨٢٣ للهجرة .

وتظل الشكوى من الزمان والناس طوال العصر ، ومرت بنا ترجمة الحسين بن الجزرى أيام العثمانيين ، وله يشكو شكوى مرة من الناس متشدا<sup>(٢)</sup> :

قد صرتُ أحتز الأناَمَ وَغَدَرَهُم      إن الطيبَ يخاف من الداء  
وقطعتُ باليأس الرجاءَ لَدَيْهِمْ      واليأسُ يَجْدَعُ أَنْفَ كُلِّ رَجَاءٍ  
ولطالما أَصْغَيْتُ قَلْبَكَ خَلْقِي      من لا أراه موافقا لإخاى  
وبلوت منه وَدَّهَ فَرَأَيْتُهُ      متلُونًا كمثلُون الحيزياء

لقد جرب الناس طويلا فرآهم غادرين ماكرين لا يصونون عهدا ولا يحفظون ودا ، فينس

منهم يأسا لا يداخله أى رجاء ، يأسا لا أمل معه فى وفاء ولا ما يشبه الوفاء ، فقد طالت تجرته وطال اختباره ورجع دائما خائبا بل رجع شاعرا بمرارة ، لرؤيته الصديق وقد تلون ألوانا كألوان الحرياء ، إذ تلون فى ساعات النهار ألوانا مختلفة . فأتخذ منها مثلا لتونه . ونقف قليلا بإزاء نفر من شعراء الشكوى والرتاء .

### ابن سنان <sup>(١)</sup> الخفاجى

هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبي تلميذ أبى العلاء المبرى ، وكان بتشيع وأنشدنا له فى حديثنا عن شعراء التشيع شعرا شيعيا ، ولا نعرف تاريخ ميلاده . ويبدو أنه أحب خوض معمصان السياسة إذ نراه فى حاشية محمود بن نصر بن صالح حين صار إليه أمر حلب سنة ٤٥٢ وقد بعث به رسولا إلى صاحب القسطنطينية ملك الروم يستنجد به على عمه عطية بن صالح ، وظل عندهم مدة وكتب إلى أهل حلب قصيدته المعروفة :

هَذَا كِتَابِي عَنْ كَمَالِ سَلَامَةٍ عِنْدِي وَحَالِي شَرَحَهَا فِي الْجَمَلَةِ  
هُمْ وَإِقَارُ وَعَمْرُ ذَاهِبٌ وَفِرَاقُ أَوْطَانِي وَبُعْدُ أُجْيَةٍ

وحاد إلى حلب فى عهد أميرها ثمال بن صالح سنة ٤٥٣ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه عطية واستولى عليها منه ابن أخيه محمود بن نصر سنة ٤٥٤ ورأى أن يولى فى كل قلعة من قلاع إمارته خليفيا بحيث تكون ذريته وأبناؤه تحت يده . وطلب من وزيره ابن أبى الثريا أن يختار له من يوليه عزازة فقال : لا أجدر لذلك إلا أبا محمد بن سنان الخفاجى وكان أبو نصر بن النحاس حاضرا فصوب الرأى فيه ، فأحضره محمود ، وولاه قلعة عزاز بعد أن امتنع ، وأخيرا أجاب . وبعد سنوات خشيه ابن سنان على نفسه واستوحش منه ، فاستدعاه محمود مرارا إلى حلب وابن سنان يتعلل عليه ولا يجهر ، وكان أبو نصر بن النحاس صديقه فكان يكتب إليه بجلوه . ومع ذلك اضطر - بأمر محمود - أن يحمل إليه طعاما مسموما وكان ذلك سبب موت ابن سنان سنة ٤٦٦ ويقال إنه لما أحس بالموت أنشد .

خَفْتُ مَنْ أَمَنْتُ وَلَا تَرَكْنِي إِلَى أَحَدٍ      فَمَا نَصَحْتُكَ إِلَّا بَعْدَ تَجَرُّبٍ

الزاهرة ٩٦/٥ وكتابتها البلاغة : تطهير وتاريخ (طبع دار المطبوعات ص ١٥٢ . ومجموعه مطبوع بالمطبعة الأنسية بيروت .

(١) انظر فى ابن سنان الخفاجى وشعره زبدة الحب من تاريخ حلب لابن العديم ، الجزء من الأول والثاني (انظر القهرس) وفوات الوفيات ٤٨٩/١ والنجوم

وكان متفقا ثقافة أدبية وبلاغية علمية كما يتبين من وضعه لكتاب سر الفصاحة ، وهو كتاب نفيس . وديوانه مطبوع قديما ، ويكثر الرثاء فيه وهو يفتحه بمرثية في الكاتب على بن محمد بن عيسى العمري ، وكان عطية بن صالح يضطغن عليه لوقوفه مع محمود بن نصر في حصاره لحلب فقتله وصلبه ، وفي رثاء ابن سنان له يقول :

وممذلو جاري على غلوائه يروى حديث نداء عن أعدائه  
عجلت عليه يد الحام وعوده ريان من خمر الشباب ومائه  
عجبا لحذو السيف كيف أصابه ومضاؤه في الرزوع دون مضائه  
ولصعب ملأ الزمان هديره قاده بعد شياه وإيائه  
إن يرفعه قد غترا بعلائه أو يشهروه قد كفوا بشائه

وابن سنان يؤمن صديقه تأيتا حزينا قائلا : إنه كان بحرا فياضا في الجود وطالما كان الناس يلومونه ويروون أحاديث كرمه الذي شهد به أعداؤه . ويقول إن الموت اختطفه شابا غضا نصرا ، ويعجب كيف أصابه السيف وعزمه في الحرب وسفك الدماء أقوى من عزمه . وقد كان صعب القيادة يلهو هدير الفحول ويزار زئير الأسود . ويقول إن كانوا قد رفضوه في الصلب ، فقد أغناهم علاؤه في الساكنين ، وإن كانوا قد شهروا به فقد امتلأت الدنيا بالثناء عليه .

وقال يرى جماعة من أهله وأصدقائه :

أيها الظاعنون لازال للغيث رواح عليكم وبكود  
لست أرضى باللمع فيكم فهل يمد لك رى البحر إلا البحر  
قد رأينا دياركم وعليها أثر من عفانكم مهجور  
عرصات كأنهن لبالو فارقها عند الكمال البور  
بان ذل الأسي عليها فلقية بكاء وللنسيم زفير  
يا نجوم الملا غرثتم وما في الله سبل من بعدكم نجوم تغور

وهو يدعو لأجدانهم أن تظل تمطرها السحب في البكور والرواح بل حري أن تروى البحر من فيها من بحور الكرم . ويقول إنه مر بالديار فرأى آثار العفاة أو طلاب النوال قد هجرت منذ مات أصحابها ، وقد أظلمت عرصاتنا وساحاتها بمغيب بدورها ، وبدا ذل الأسي والحزن عليها

والسحب نبكى بسمع مدرار ، وللرياح زفير وشهيق . ويقول لقد غربت نجومكم وما أظن بعدها  
في الليل نجوم تغور في سماء المجد والعلاء . وقال يرى والدته حين توفيت بعد قدومها من حج بيت  
الله :

أبكبك لو نهضت بحقك أدمعُ وأقول لو أن النواكبَ تسمعُ  
لا يُبطلنَّ على البقاء مرزاً إن المودعَ السفسَ لودعُ  
قُبْحاً ليوملنَّ قالنواكبُ بعده جَلَلُ وكلُّ رزِيَّةٍ لا تُفجعُ<sup>(١)</sup>  
لو كان ينفعني السلو نبلته أسفاً عليك فكيف إذ لا ينفع  
عجباً لمن يئى ذخائر ماله وبطلُ يحفظهن وهو مضجع  
ولغاغلٍ ويرى بكلُّ نَيْبَةٍ مُلقًى له بطن الصنائع مضجعُ<sup>(٢)</sup>  
ياقبرُ فيك الصالحاتُ دفينَةً أها تصيقُ بهنَّ أو تصدعُ

وهو يقول إن أى دموع له لاتفى بحقوق أمه عليه وأى أنين له لاسمعه النواكب ، ويقول إن  
أحدًا لا يُقبطُ على بقاءه ، فما تلبث رعى الموت أن تطعن الباقيين المودعين . وما أقيح اليوم الذى  
سمع فيه رزه أمه . قالنواكب بعده صغيرة والرزايا لا تفجعه ، ولو ينفعه السلو لسلأ ، ولكنه لا ينفع  
أى نفع . ويعجب لمن يجمع المال وما قليل يضيع ، وللغاغل عن الموت وفى كل عطفة بطريق من  
طرقه مضجع معدٌ له : حفرة وصفائحها من الحجارة . ولتفت إلى قبر أمه ويعجب أنه لا يتصدع  
وفيه هذه الأم الكريمة . وفى ديوان ابن سنان وراء ذلك مدائح وغزليات وفيه عظات بديعة .

### الغزى<sup>(٣)</sup>

هو إبراهيم بن يحيى بن عثمان الكلبى الغزى ، ولد بغزة فى فلسطين سنة ٤٤١ للهجرة وبها نشأ  
وتعلم ، وسال الشعر على لسانه ، حتى إذا بلغ من عمره أربعين عاما دخل دمشق وسمع من  
شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وأقام بها فى المدرسة النظامية سنين كثيرة ، ومدح وروى غير مدرس ،  
ثم مضى إلى إيران وخراسان وامتدح بها جماعة من الحكام والرؤساء . ويقول الهاد الأصبهاني فى  
الحريدة : جاب البلاد وتغرب ، وأكثر التنقل والحركة وتظفل فى أقطار كرمان بفارس وأقطار

صفحة وهى العريض من الحجارة والألواح .

(٣) انظر فى الغزى وشعره الحريدة (تكملة الشام) ٣/١

وما بعدها وابن لطفكان ٥٧/١ والنجوم الزاهرة ٢٣٥/٥

(١) جل : بأن بمعنى عظيم ومعنى صغير حقير

فاللفظة من ألقاظ الأضداد .

(٢) التنبه : الطريق والعطفة فيه . الصنائع جمع

خراسان . ومن مداحه ناصر الدين مُكْرَم بن العلاء وزير كَرْمَان ، وعاد الدين طاهر قاضي القضاة بشيراز . ثم أوغل شرقا متقلبا بين الحكام والقضاة والوزراء إلى أن توفي سنة ٥٢٤ بين مرو وبلخ بخراسان ، ونقل جثمانه إلى بلخ ودُفِن بها عن ثلاثة وعشرين عاما .

وكان شاعرا بارعا وأكثر شعره في المديح . وله غزل بديع أنشدنا منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل ، ويث في أشعاره شكوى كثيرة ، إذ كان يحس دائما بغربة وأنه لا يأخذ من الدنيا ما يأمله . شاعرا بأن سوق الآداب كسدت وأن الأجواد المؤمنين قتلوا في البلاد ، وفي ذلك يقول :

قالوا هجرتَ الشعرَ؟ قلتَ ضرورةً      بابُ الدواهي والبواعثِ مُطْلَقُ  
خَلَّتِ الديارُ فلا كريمٌ يَرْتَجِي      منه الثَّوَالُ ولا مَلِيحٌ يُعَشِّقُ  
ومن العجائب أنه لا يَشْتَرِي      ويُخَانُ فيه - مع الكساد - وَيُسْرِقُ

وهو لا يشكو من كساد الشعر فحسب . بل يشكو أيضا من أنه يسرق ، وباب السرقات الشعرية في النقد العربي باب واسع . ويقول العماد تعليقا على هذه الأبيات : « الغزى حسن المغزى وما يميزُ من المعاني الفَرَمَعِي إلا إليه يُعَزَى ، يُعْنَى بالمعنى ويحكم منه اللبى ، ويودعه اللفظ إبداع الدرِّ الصدف ، والبدر السُدف » ويورد طائفة من روائع أبياته منها قوله :

إني لأشكو خطوبًا لا أُمِينَا      ليرأ الناسُ من لومي ومن مَعَلَلِي  
كألشع ييكي ولا يَنْزِي أَعْبَرُهُ      من صحبة النار أم من فُرْقَةِ العَسَلِ

فخطوبه كثيرة بحيث لا يستطيع أن يمين منها خطوبا دون خطب ولا أن يعلل لخطب دون خطب ، فثله كألشع لأبعر هل ييكي من فرقة الرحيق أو من صحبة الحريق . ويقول شاكيا ضجرا من الأيام :

حملنا من الأيام مالا نُطِيقُهُ      كما حمل العظمُ الكسيرُ العصابا  
وليل رجونا أن يَدِبُ عِذارُهُ      فَا اخْتَطَّ حتى صار بالفجر شابا  
فلا نحمد الأيامَ فيما نُفَيْدُهُ      فَا كان منها كاسيًا كان ساليا

والصور في الأبيات بديعة ، فقد حمل من الأيام خطوبًا جعلته أشبه ما يكون بعظم كبير شُدَّت عليه العصاب وهو يتصور ألما ، ويصور قصر الليل فَا اخْتَطَّ عِذاره الأسود حتى أسرع إليه الشيب . ويقول لا نحمد الأيام فيما نحملة إليك من نفع فلذا نتف فيه سموما ، وكل مائظنه منها

كاسيا يسلبك الكساء المظنون ، فإذا بك تَعْرِى حرمانا وإبتاسا . ويقول :

الحظ من جَوَهَرَ الأشياء سَلَهُ ولا      نَسأل من الله قَدًا زَانَهُ الهَيْفُ  
فَالْقَوْسُ في قَبْضَةِ الرامِي لَمَزَتْها      والسهم من هُونِهِ يُرْمَى به الهدفُ  
لَمْ يَتَّقِ لِي زَمَنِي شَيْئًا أُسْرَ بِهِ      فالحمدُ لله لافُوزُ ولا أَسَفُ  
عَرَى أَكَابِرِهِ من ثوبِ مَحْمُودَةٍ      فالقومُ في السابِغَةِ اللَّبَسُ الكُشْفُ  
لَمْ يَقْتَمُوا بِحِجَابِ البُخْلِ فَاحْتَجَبُوا      كما غلا بعد سَوهِ الكَيْلَةِ الحَشْفُ  
وإن جَرَى غَلَطٌ منهم بِمَكْرَمَةٍ      فَيَنْصَةُ العُفْرِ لَا يُرْجَى لها خَلْفُ  
أعجبَ بهم قَطُّ في الآراء ما اتَّفَقُوا      على صوابٍ وفي التقصير ما اختلفوا

فهو يشكو حظه التمس وأن الإنسان حرى أن يطلبه من ربه لا أن يسأل حبا وما يشبه الحب ، فالخط مدار الحياة وقطبها ، يرفع الأدنى ويخفض الأعلى ، وما أشبه الغزى بقوس عزيز في قبضة الرامي تصوب منه سهام الهينة فتصيب الهدف ، ألا ما أتمس الحياة ! . ويقول إن الزمن قضى على كل ما يدخل على نفسه السرور ، فلم يعد هناك شيء ينتظر أن يظفر به أو يأسف على ضياعه . ويقول إن الزمن عرى أكابره من ثياب المامد ، وهم إن بدوا كاسين فحقيقتهم عارون مجردون من كل محمده ، وكأنما لم يكفهم حجاب البخل فاحتجبوا عن الناس جامعين بين سوءتين ، كما يجمع بائع التمر بين حشفه أو أردته وسوء كيله أو ميزانه . وإن غلط أحدهم وجاء بشيء كان ذلك يفضة العفر التي لا تبيض الدجاجة بعدها . ومن عجب أنهم لا يتفقون في الرأي على شيء سوى ما كان من بخلهم وشح نفوسهم . يقول :

وجفَّ النَّاسُ حَتَّى لو بَكِينَا      تَعَلَّرَ ما تَبَلُّ بِه الجُفُونُ  
فَا يَنْدَى لَمَدُوحِ بَنَانُ      وَلَا يَنْدَى لِمَهْجُو جَبِينُ

فالناس قد جفوا بعد خصب وإنباع وورد وريحان حتى لو بكى الباكون ما وجدوا دموعا تبلى جفونهم ، إذ لم يعد هناك ممدوح يندى بنانه ، ويصدق على الناس نواله ، وأيضا لم يعد مهجو ينجى يندى جيئه خجلا وكسفا . ويقول :

حَبْلُ اللَّيْلِ مِثْلُ حَبْلِ الشَّمْسِ مُتَصِلَا      يَرَى وإن كان عند اللَّمْسِ مَبْتُوتَا



فَلَا تَقُلْ لَيْتَ صَرَفَ الدَّمْرِ سَاعِدَتِي      فَإِنْ فِي لَيْتٍ أَوْمًا يَقْطَعُ اللَّيْتُ<sup>(١)</sup>

والصورة في البيت الأول بديعة ، فجعل المتي كجبل الشمس مبتوت غير موصول ، فلا تقل أحداث الدمر ساعدتي فإن في لبت أوما أو عطشا شديدا دون ربه انبتات الليت أو صفحة العتق . فدع للمتي والمعنى فإنها بتعبان ولا بشران شيئا . ووراء هذه الشكوى من الزمن والناس في شعر الغزى مدائح وغزليات - كما قلنا - رائعة ، وهو ديوان كبير جمعه بنفسه في نحو خمسة آلاف بيت ، ومنه نسخ كثيرة في مكتبات العالم .

### فتيان<sup>(٢)</sup> الشاغوري

هو فتیان بن علی الأسدي الشاغوري وُلد في أوائل العقد الرابع من القرن السادس الهجري ببانياس على ساحل حمص ، وانتقل به أبوه صيدا إلى دمشق ، وسكن الشاغور إحدى ضواحيها حينئذ وهي الآن من أحيائها ، وألفه بكتاب حفظ فيه القرآن ، حتى إذا أتم حفظه أكب - مثل لدائه - على دروس الشيوخ اللغوية والشرعية في الجامع الأموي ، وحين أتقن العربية وعلومها فكر في أن يصبح معلما لها ، يعلمها الناشئة ويديرهم عليها . واختار قرية الزبداني بالقرب من دمشق مقاما له للجمال الطبيعة فيها ، فسكنها واتخذ لنفسه كتابا يعلم فيه الناشئة ، وله في هذه القرية أشعار بديعة تصور مفاخر الطبيعة فيها . ومنذ أخذ صلاح الدين في أواسط العقد الثامن من القرن يواقع الصليبيين ويسحقهم يبيش المظفر نراه مثل غيره من شعراء الشام يشيد به وبانتصاراته في مدائح كثيرة . وكان صلاح الدين قد أعطى ابنه الأفضل نور الدين دمشق منذ سنة ٥٨٢ وظل بها بعد وفاة أبيه حتى سنة ٥٩٢ ، واتخذ الأفضل مودود بن المهارك - وهو أخو عز الدين فرخشاه ابن عم الأفضل لأمه - شحنة دمشق أو بهارة أخرى ضابطا لشئونها ومصرفا لها . وملتقى فتیان بخدمة مودود . ويقول مترجوه إنه اتخذ له حلقة لتعليم العربية بالجامع الأموي ، ونظن ظنا أنه ابتدأها في أثناء تلك الخدمة أي منذ العقد التاسع من القرن السادس ، إن لم يكن بعد هذا التاريخ .

٢٧٤/٦ ومطالع البدر للغزول ٢٨/١ والشرات

٦٣/٣ . وديوانه طبعه مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق

أحمد الجندی وتقديمه .

(١) أوما : عطشا شديدا . اللَّيْت : صفحة العتق .

(٢) انظر في فتیان الشاغوري وشعره الخريدة ( قسم

الشام ) ٢٤٧/١ وابن خلكان ٢٤/٤ والنجوم الزاهرة

وكان فيان يمدح بجانب صلاح الدين بعض قواده وكتبه عماد الدين الأصبهاني والأفضل نور الدين وأخاه غازي صاحب حلب منذ أعطاهما له أبوه سنة ٥٨٢ حتى وفاته سنة ٦١٣ . أما مودود بن المبارك فله فيه أكثر من عشرين قصيدة ، ويقول مترجموه إنه عهد إليه - فيما عهد - بتعليم أولاده الخط والعريفة . ونراه حين أصبح العادل مالك زمام الدولة الأيوبية بعد أخيه صلاح الدين ينحصر ببعض مدائحه ويكثر من مدح وزيره المصري صلي الدين بن شكر ، ويبدو أنه كان يرسل إليه بمدائحه ، لأنه لم يغادر الشام طوال حياته . وكان العادل قد جعل دمشق لابنه للعظيم عيسى ، وله فيه عشر مدائح ، كما أعطى العادل ابنه الأشرف موسى الرها والجزيرة وله فيه نحو خمس عشرة مدحة . ومدح كثيرين من البيت الأيوبي في مقدمتهم صاحب حياة تقي الدين عمر ( ٥٧٤ - ٥٨٧ هـ ) أعطاهما له عمه صلاح الدين ، ومدح صاحب بطبك قرغوشاه ( ٥٧٥ - ٥٧٨ هـ ) وابنه بهرام شاه ( ٥٧٨ - ٦٢٧ هـ ) . وعلى هذا النحو ظل يقدم مدائحه للأيوبيين حتى وفاته بدمشق سنة ٦١٥ . وقد أنشدنا له في حديثنا عن شعراء التشيع أشعارا ندل بوضوح على تشيعه . وطبيعي - وهو شاعر مدح كبير - أن تكون له مرثي لمن لبى نداء ربه من مملوحيه ، وخاصة من كان وثيق الصلة بهم ، وكذلك لكبار رجال زمنه وشيوخه وطوائه الأعلام . ومن أروع مرثياته مرثيته لشيخه المحافظ المتروخ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ ، ويقول العماد الأصبهاني إنها مشتملة على حقيقة الشيخ وطريقته ووفاته ووفاته ، وفيها يقول :

أَيُّ رَكْنٍ وَهَى مِنَ الْعُلَمَاءِ	أَيُّ نَجْمٍ هَوَى مِنَ الْعُلَمَاءِ
إِنَّ رُزْءَ الْإِسْلَامِ بِالْحَافِظِ الْعَا	لَمْ أَمْسِ مِنْ أَحْظَمِ الْأَرْزَاءِ
أَقْفَرْتُ بَعْدَهُ رَبْعُ الْأَحَادِبِ	شِ وَأَقْوَتْ مَعَالِمُ الْأَنْبَاءِ
كَانَ مِنْ أَعْلَمِ الْأَنَامِ بِأَسْمَا	رَجَالَ الْحَدِيثِ وَالْعُلَمَاءِ
كَانَ عَلَامَةً وَنَسَابَةً لَمْ	يَخْفَ عَنْهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ
أَنْتَ أَهْلٌ مِنْ أَنْ تُحَدِّثَ بِوصْفِ	بِلِسْنَتِهِ بِلَاغَةُ الْبَلَفْسَاءِ

وفيان في المرثية محزون الفؤاد مكبر لفجيرة دمشق في محدثها الذي لا يبارى ومؤرخها الذي لا يبارى . وهو في البيت الثاني بصور في ألم إقْفَار المدرسة النورية من محدثها الأكبر وإقْفَار أو إقْفَار دمشق من مؤرخها العظيم صاحب تاريخها الذي يقال إنه كان يقع في ثمانين مجلدا . وحقا كان من أعلم علماء عصره - إن لم يكن أعلمهم - بالحديث النبوي ورجالها وتاريخ دمشق وأعلامها من

مختلف الأجيال ، مع الحلم ومع التقوى والورع ، ومع ما ألقى عليه من محبة أهل زمانه وإجلالهم .  
 ويتوفى بعده في السنة التالية القاضي أبو الفضل كمال الدين محمد بن الشهرزوري وكان قد ولي  
 القضاء لهما الدين زنكي في الموصل ، وتوفى فالتحق بابنه نور الدين فولاه القضاء في دمشق  
 وارتقى عنده إلى درجة الوزارة ، وأقره صلاح الدين بعد وفاة نور الدين على عمله ومنصبه ، ولم  
 يلبث أن توفى . وفيه يقول فتيان من مرثية طويلة :

عدم الإسلام معدوم المثل وهو من أوجها شمسُ المعالي  
 ولسانُ الشرع قد ألبسَ عيًّا بعد أن كان جريئًا في المقال  
 وسماه الدين قد ران على بدرها الثَّقَافُ من بعد الكمال  
 والقضايا قاضياتٌ نَحَبُها إثرُهُ حَزَنًا على تلك الحلالِ  
 ماتَ من كان لأهل العلم كَهَفًا وثالًا مُحَبِّيًا أَيْ ثَمَالًا<sup>(١)</sup>

وهو يكي الإسلام والقضاء وعلوم الشريعة فيه ، إذ كان له القضاء والفتوى كما كان له الفقه  
 والشريعة . وكانت له فضائل كثيرة يجانب علمه وفقهه ، إذ كان جوادا وغيثا مددرا ، كما كان  
 مرجعا للعلماء - كما يقول فتيان - وثاملا وسندا لهم وموثلا . ويتوفى تقي الدين عمر صاحب حَماة  
 فيؤنه بمرثية يقول فيها :

أَبَاحَ ثُغُورَ الكُفْرِ بالسيفِ عَتَوَ وسدَّ ثُغُورَ السُّلَمِ بالطُّغْنِ في الثَّقَرِ  
 وكيف يُلامُ المسلمونَ على الأُسى وقد عدمَ الإسلامُ ناصِرَه عُمَرُ  
 لقد كانَ يُلْقَى المُرْهَفَاتِ بوجهِهِ وسَمَرَ القَنَا بالصُّدْرِ في الرُّودِ والصُّدْرِ<sup>(٢)</sup>  
 وكان يَرُدُّ الجَحَظْلَ المَجَرَّ وحده يَمْسُونُ بالأبْدَى الظُّهُورَ من الخَوَرِ<sup>(٣)</sup>

وهو يشيد بيسائه في حرب حملة الصليب ويصور حزن المسلمين عليه ، إذ خسروا فيه بطلا  
 من أبطالهم طالما دُوخ الصليبيين ، وطالما نازلهم راميا بنفسه في أتون الحرب مقبلا دائما معرضا  
 وجهه للسيوف وصدرة للرماح ، وكم ردَّ من جحافلهم الكثيرة ولولا أديارهم فزعين مروعين .  
 ويتوفى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ، فيؤنه بمثل قوله :  
 لَنْ كَانَ خَلَقْتُ الخَلْقَ من طِينِ آدَمَ لَنْ نُوِدَّ خَلْقِي اللهُ خَلَقَكَ يا غَازِي

لَمَنْ لِلْبَاسِ وَالْأَرَامِلِ بَعْدَهُ يَقُومُ بِالْكَرَامِ عَلَيْهِمْ وَإِعْزَازِ  
مَنْصِيْ مُلْكُهُ الْمُرُوسُ مِنْ عِيبِ عَائِبٍ وَمَنْ حَبَسَ الرِّازِيَّ وَمَنْ عَنَتِ الرِّازِيَّ

وكان الغازي مهيبا حازما راعيا لشعبه يكسو العاري ويطعم الجائع على الحمة حسن التدبير  
والسياسة ، محبا للعلماء ، مجزلا العطاء للشراء ، فحصى ملكه - كما يقول فتيان - من عيب  
العائب وزواية للزري وعنت الرازي أو الممتحن المختبر .

ولفتيان بجانب مرثية شكوى مريرة من الدهر والناس والحظ المقسوم كقوله :

عَلامُ نَحْرُكِي وَالْحَظُّ سَاكِنٌ وَمَانِهْتُ فِي طَلَبِي وَلَكِنْ  
أَرَى نَذْلًا تَقْلَعُهُ الْمَسَاوِي عَلَى حُرٍّ تَوَخَّرُهُ الْمَاسِينُ

وهي شكوى قديمة عند الشراء حين يقعد بهم الحظ ولا يتلون مايتنون أو ما يرون أنهم  
جلبون به . ويبلغ بهم ذلك أن يقولوا مايقوله فتيان من أن لافائدة في الحركة وأن للمساوي تقدم  
أصحابها بينما تتأخر الحسن بأهلها وهو بعد في الشكوى وإغراق في التشاؤم .

### مصطفى<sup>(١)</sup> الباني

هو مصطفى بن عبد الملك - وقيل عثمان - الباني ، ولد بالباب إحدى قرى حلب في القرن  
الحادي عشر الهجري أيام العثانيين ، ونشأ بحلب وتعلم على شيوخها وأدبائها ، وتركها إلى دمشق  
سنة ١٠٥١ للهجرة وأقام بها مدة يأخذ عن أدبائها وشيوخها ، ورحل إلى إستانبول وأقام من  
طلاتها وحين قاضيا لطرابلس وتقل قاضيا في بلدان الدولة العثمانية بالعراق والحجاز في المدينة  
للنورة ، وتوفي بمكة في أثناء حجه سنة ١٠٩١ .

وكان الباني شاعرا مجيدا ، وبشغل المبيع أكثر ذبوانه على عادة الشراء في تلك الحقب ،  
ويتخلل المبيع أسراب من الشكوى . وقد يفرد للشكوى بعض القصائد ، من ذلك قوله من  
قصيدة استلها محزوننا لتحول عهد مبة ، ويقول إنه مازال يبكي الأطلال حتى بكته بدمعها إشفاقا  
عليه ، ويلتفت إلى الدهر شاكيا .

سنة ١٨٧٢ وطبع مع ديوان ابن الجوزي وفتح الله بن  
النحاس باسم الطود العربية بتحقيق الطباخ .

(١) انظر في مصطفى الباني وشعره نفحة الرحمة  
٤٣٣/٢ وخلاصة الأثر ٣٧٧/٤ . طبع ديوانه في بيروت

أَيُّ ذَنْبٍ نَعَاتِبُ الدَّهْرَ فِيهِ وَعَتَابُ الْأَيَّامِ دَاءٌ غَضَالُ  
 أَنَا مَا بَيْنَ فَرْقَةٍ تَجْمَعُ السُّقْمَ وَيُعْلِي تَدْنُو بِهِ الْآجَالُ  
 وَخُطُوبُ أَفْعَتِهَا يَسْتَعِذُّ الدَّ خَوْفٌ مِنْهَا وَتَذَرُ الْأَهْوَالُ  
 وَأَمَانِي تَجَاذِبُ الدَّهْرَ ذِكْلَ الدَّ حِطٌّ وَالدَّهْرُ جَاذِبٌ جَدَالُ  
 هِمَّةٌ أَرَقْتُ جَفُونَ الْأَمَانِي بُوْعُودٍ لِلدَّهْرِ فِيهَا مِطَالُ  
 أُنْمَتِي مِنَ الزَّمَانِ وَفَاءُ وَوَفَاءُ الزَّمَانِ أَمْرٌ مَحَالُ

يقول إن ذنوب الدهر عنده كثيرة فلا يدرى لكثرتها ، أى ذنب يعاتبها فيه هل يعاتبها في فرقة  
 الأحباب أو فيما ينزله به من خطوب يستعذ الخوف من شرها وتفرغ الأحوال . وتلك أمانيه ما تزال  
 تجاذب الدهر ذيل الحظ تريد أن تجذبه إليها والدهر أشد جذبا ، بل إنه جدال يصرع من ينازعه ،  
 وفي صدره همة تورق جفون الأمانى بما تعرضه عليها من وعود ما يزال الدهر لا يلقى بها ، وكان وفاءه  
 أمر محال . ويقول من قصيدة يشكو فيها من الزمان :

صَاحِبِي أَتَيْتُنَا لَنَا خَارِجَ الْعَا لَمْ دَارًا فَبِئْسَ دَارُ الزُّحَامِ  
 وَاصْدُقَانِي أَلَسْنَا بَيْنَ لَيْلٍ وَنَهَارٍ مَالِي حَلِيفُ ظَلَامِ  
 وَاسْتَمِرَّا لِمَقْلَقِي هَجْمَةً عَمَّ لَمْ مَنَامِي يَعُودُ لَوْ فِي مَنَامِ  
 مِنْ أُمُورٍ تَقْذِي الْعَيُونَ وَأُخْرَى تَصْدَعُ السَّمْعَ مِثْلَ وَخْرِ السَّهَامِ  
 مَشْرَبٌ كُلُّهُ قَذَى سَوْغَتِهِ إِلْفٌ هَذَى النُّفُوسِ لِلْأَجْسَامِ  
 مَنْ أَرَادَ الْعَيْشَ الْهَنِيءَ فَلَا يُعَدُّ فِكْرًا قَالَتِشُ عَيْشُ السَّوَامِ

وقد بلغ به ذم العالم وكل ما فيه من أناسي وغير أناسي أنه يود لو خرج من هذا العالم جميعه ،  
 ويتساءل أليس يوجد مع الليل نهار بل إنها يتعاقبان فلماذا هو يعيش في ليل مسهدا لا يتنام ولا تنفل  
 عينه ، فهل يجد هجمة أو لحظة من نوم حتى ولو في الخيال والنمام ، وهيات فإن الدنيا مليئة بما  
 يقذى العيون ويصك الأسماع من آلام ، حتى لكانها مورد من غسلى أوزقوم ، وكل ذلك بسبب  
 الأجسام وما تتطلب من متاع مادي . ويقول من أراد أن يعيش هنيئا فلا يفكر ، فالعيش عيش  
 الجهال ومن بشيون السوام الراجعة من الإبل . وكل ذلك تشاؤم شديد ، والغريب أنه كانت فيه  
 مع ذلك كله نزعة صوفية جعلته يمدح القطب الرباني عبد القادر الجيلاني صاحب الطريقة الجبلانية  
 فضلا عما في ديوانه من مدائح نبوية وتوصلات ربانية .

### شعراء الطبيعة وبها نلّس اللهو

لشعراء الشام من قديم عناية بوصف طبيعة ينفهم ومشاهدها الخلابية ، ومرت في كتاب العصر العباسي الأول عناية ألى تمام بوصف الطبيعة في مقلدات مديحه أو مستقلة في بعض أشعاره ، من ذلك وصفه للربيع ، وكذلك وصفه للطير وأحاسبه ، على نحو ما عرضنا هناك من تصويره لقمريٍّ وقمريةٍ يساقيان رحيق الهوى ، بينا هو محزون شديد الحزن . ووقفنا في كتابنا العصر العباسي الثاني عند براعة البحترى في وصفه للطبيعة وكان يحسن تصوير مناظرها الساحرة . وتلتقى في أوائل عصر الدول والإمارات بكشاجم وله كتاب في الصيد سماه المصايد وللطارد وهو منشور ، وله قصائد مختلفة في وصف كلاب الصيد وجوارح الطير وقصائد كثيرة في وصف الرياض والسحب والأمطار من مثل قوله :

هَيْثُ أَنَا مُؤَذِّنٌ بِخَفْضِ	مَتَّصِلُ الرِّبْلِ حَيْثُ الرُّكْضِ
يَضْحَكُ فِي بَرْقِ خَفِ الرُّمَضِ	كَالْكُفِّ فِي انْبِساطِهَا وَالْقَبْضِ
وَالْأَرْضُ تُجَلِّي بِالنَّبَاتِ النَّضَّ	فِي حَلْبِهَا الْمَهْمَرُّ وَالْمِيبَضُّ
وَأَقْحَوَانِ كَاللَّجَيْنِ مَخْضِ	وَنَرَجِسِ ذَاكِي النِّسَمِ بَضُّ
مِثْلُ الْعَبُونِ رُنْفَتْ لِلْعُنْضِ	تَرْنُو وَيَضَاهَا الْكَرَى قُضْضِ

وهو مطر متصل الويل يؤذن - كما يقول - بخفض العيش واتساعه ويسره والبرق يلمع بين السحب ويتوارى كالكمف تنبسط وسرعان ما تنقبض ، والأرض كأنها في خل عرس تجلى بأزهارها وورودها والأقحوان يتلألأ كالفضة الخالصة والزرجس العطر النضر مثل العيون تكسر جفونها للنوم ، وهى تارة ترنو وتارة تستلم للنوم فتغضى أو بعبارة أخرى تطبق جفونها الناعمة ، وتسب إلى سيف الدولة الحمداني الأبيات التالية في قوس قزح <sup>(١)</sup> :

لَقَدْ نَشَرْتُ أَيْدِي الْجَنُوبِ مَطَارًا	عَلِ الْجَوِّ دُكْمًا وَالْحَوَاشِي عَلَى الْأَرْضِ
يَطْرُزُهَا قَوْسُ النَّهَامِ بِأَصْفَرِ	عَلِ أَحْمَرٍ فِي أَخْضَرٍ تَحْتَ مَيْضَرِ

كَأَذْيَالِ خَرْدٍ أَقْبَلَتْ فِي غَلَالِ مَصْبُغٍ وَابْهَضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضِ

يقول : رباح الجنوب نشرت على الجورثا دكتاء مغبرة ملأت الآفاق بالطول والعرض وحواشها على الأرض ، وقوس قزح بطرؤها بألوانه البهجة الكهرمانية والياوتية والزمردية ، وكأنما شابة جميلة أقبلت في غلالات أو ثياب رقيقة صُبِغَتْ بِالْوَانِ مُخْتَلِفَةً بِالطَوَّلِ وَالْعَرْضِ وَبَعْضُهَا أَقْصَرُ مِنْ بَعْضٍ . وهى صورة بديعة . ويقول العرقلة من شعراء الحريرة<sup>(١)</sup> :

الشام شامةٌ وَجَنَّةُ الدُّنْيَا كَمَا إِنْسَانٌ مَقْلَتَا الْفَضِيضَةِ جُلْنُ  
مِنْ آمِيهَا لَكَ جَنَّةٌ لَا تَنْقُضِي وَمِنْ الشَّقِيئِ جَهَنَّمُ لَا تَحْرِقُ  
ضَلَامٌ تَصْحُو وَالْحَامُ كَأَنَّهَا سَكْرَى تَغْنَى نَارَةٌ وَتَصْفَى  
وَتَلُومُ فِي حُبِّ الدَّيَارِ جِهَالَةٌ هِيَ بَاتٍ يَسْلُوها قَوَادُ شَيْقُ

وهو يحمل الشام خالافى وجنة الدنيا ويحمل جُلْنُ اسم دمشق القديم إنسان مقلتها الفضضة التى ترمقها باستحياء ، لجمال أزهارها من آس وغير آس ، وكأنما تختر بجمالها أحاسيس مشاهدتها ، فلا يصحو ، والحام من حوله فرح ببيع يغنى ويصفى طربا . وإن الشام لحليقة بحب أهلها وقتنهم بها لجمال مناظرها الطبيعية .

ويقول فيان الشاغورى في وصف قرية الزيداني بشهر كانون شتاء والثلوج تراكم على أشجارها ونباتاتها في شهر كانون زمن الشتاء مهية لازدهار أزهارها في زمن الربيع<sup>(٢)</sup> :

قَدْ أَجْمَدَ الْخَمْرَ كَانُونُ بِكُلِّ قَدْخٍ وَأَخْمَدَ الْجَمْرَ فِي الْكَانُونِ حِينَ قَدْخٍ  
بِاجْتَةِ الزَّيْدَانِ أَنْتَ مَفْصَرَةٌ عَنْ وَجْهِ حُسْنٍ إِذَا وَجَّهَ الزَّمَانُ كَلْعَ  
فَالْتَجَّ قَطْنُ عَلَيْكَ السُّحْبُ تَنْدِيهِ وَالْجَوُّ يَخْلُجُهُ وَالْقَوْسُ قَوْسُ قَرْحِ

وقد صور فيان كل ما يحمل ماء في الزيداني بأقداح تحمل خمرًا ، وقد جمدها القر الشديد وأخمد الجمر في الكانون أو الموقد حين أُنْقِدَ . ويتصور قرية الزيداني جنة من جنان الدنيا ، وما يلبث أن يصور الثلج وهو ينساق كالريش من السحب مثل قطن ، والسحب تندفه بقوس قزح . والجو يخلجه . صورة بديعة .

ويقول الوداعي على بن المظفر في مناظر رأس العين يعلبك<sup>(١)</sup> :  
 يا حادى الأظعان إن شارفت من بعلبك سفع كبنائه  
 فافرقا نجباني على نازلو في مخجير العين كلنسانه  
 والروض يهدى مع نسيم الصبا نشر خزاماه وربخانه  
 وراسل القسرى ورقاعه شلوا على أوتار عيادته

وقد أشار الوداعي إشارة واضحة بمحجر العين إلى رأس العين منزل صاحبه ، وأبدع في البيت الأخير إذ جعل القصرى للفرم على عيدان الأشجار يرسل صاحبه شلوا وغناه على أوتار تلك العيدان . وتكرر مثل هذه الطوائف التصويرية عند معاصريه في زمن المالك ، وبعضهم في زمن العثانيين كقول فتح الله بن النحاس في وصف الربيع<sup>(٢)</sup> :

نثر الربيع ذخائر الدُّ سوار من جيب القوادى  
 والورد مخضوب البنا في مضرج الوجات نادى  
 حرسه شوكة حسنه من أن تمتد له الأيادى  
 والمندليب أمامه بفصيح نعمته ينسدى  
 من رام يعبث بالحدود د قلوبها خرط القتاد<sup>(٣)</sup>

والصور في الأبيات جيدة فالربيع ينثر الأزهار من جيب السحب الفوادى والورد أحمر البنان والوجات تلمع عليه لألئ الندى ، والشوك يحرسه من قطف الأيادى والمندليب ينادى : دون هذه الوجات خرط القتاد ، وهو مثل يضرب للشىء لا يتأل إلا بمشقة شديدة ، والقتاد : نبات صلب له شوك الإبر وخرطه : انتزاع إبره .

وبجانب وصف الطبيعة كان للهو مجالسه في متزهات الفوطة بدمشق وغير الفوطة بالشام ، إذ تمتلئ بالبساتين ، وكان له مجالس أخرى في الأديرة ، مما أتاح لنظم خمریات كثيرة تارة تكون مستقلة وتارة تمتزج بوصف الطبيعة أو بالزلز ، وتمادى بعض الشعراء في مجونه وأسرف في هزله على نحو ما نقرأ من أشعار لأبي الرقعمق<sup>(٤)</sup> الأنطاكى شاعر للمزلفاطمى وأبنائه ووزرائهم ، وكان

(١) لا بمشقة شديدة.

(٢) خزانة الأدب للحصى ص ٣٤٢

(٤) انظر في أبي الرقعمق البيعة ٣٣٦/١ وابن خلكان

(٢) الديوان ص ٢٣ ونفحة الربيعان ٥١٢/٢

١٣٦/١ والعبر ٧٠/٣ والشفرات ١٥٥/٣ .

(٣) دونه خرط القتاد: مثل يضرب للشىء لا يتأل



لا يستحي من التصريح بالفحش والمآثم على شاكلة أبي الحجاج ماجن المراق الذي تحدثنا عن مجونه وهزله في الجزء الخامس من هذه السلسلة ، ومن نظيف مجونه قوله <sup>(١)</sup> :

تَوَقَّعْتُ أَمْرًا فَلَمْ أَنْبِ بِحَرْفٍ وَنَادَيْتُ بِأَلَاكُوسٍ  
حُمَيَّا كَانَ سَنًا نَوْرَهَا سَنَا بَارِقٍ لَاحٍ فِي الْجِنْدُسِ <sup>(٢)</sup>  
يُعَاطِبُكَهَا رَشَا طَرْفُهُ سَرِيعٌ إِلَى تَلْفِ الْأَنْفُسِ  
يَخُذُ بِرَوْقِكَ تَوْرِيدُهُ وَعَيْنُ تَنْوُبٍ عَنِ الثَّرَجِسِ

وهو يقول إن بعض الأوهام ساورته فلم ينس بينت شفة أو كلمة وانصرف إلى الخمر معشوقته التي تلب حُمَيَّاها بخياله ، فيظن كأن ضوءها يرق لمع في دجى الليل ، وإن ساقية ساحرة الطرف لتقدمها إليك فتصيبك في الصميم بخد مورِدٍ وعين فاتنة .  
ويقول الغزى الذي مَرَّتْ ترجمته <sup>(٣)</sup> :

قُمْ نَفْتَرِعْهَا كَأَنَّهَا الذَّهَبُ بِكَرًا ، أَبُوهَا وَأُمُّهَا الْعِيبُ  
أَرْقَ مِنْ عِبْرَةِ الْيَتِيمِ وَمِنْ عِبَارَةِ الْعُصْبِ قَلْبُهُ وَحِيبُ  
مَدَامَةً تَصْقِلُ الْقُلُوبَ إِذَا رَأَتْ عَلَيْهَا الْمُحُومُ وَالرَّيْبُ  
كَتُوسُهَا أَنْجَمٌ نَفِيلٌ بِهَا لَا يَهْتَدِي مِنْ تَفِيلَةِ الشُّهْبِ  
لَا تَدَمُّ فِتْنًا وَلَا فِدَامًا لَهَا عَرُوسُ دَنْ عَقُودَهَا الْحَبُّ

وهو يقول لصاحبه قم نفتحها أو نفتضها ونشرها ، إنها في رأيهِ - كعروس بكر - أبوها وأُمُّها العيب ، رقيقة رقة عبرة اليتيم وعبارة الصب أو ألهب الوصب للوجع قلبه . ويقول إنها تجلو القلوب وتكشف عنها الموموم والريب ، ويعجب من كثرتها أن تكون أنما ولا تهدي ، بل تفضل صاحبها وأي ضلال يينا حادة النجوم أن تهدي ، ومن فضله لا يهتدي أبدا ، لأنه قد هداه . ويذكر أن ليس في رفاقه ظم أو أحرق وأنه لا فدام لها أو مصفاة إذ هي شديدة الصفاء ، ويقول إنها عروس دَنْ عقود جديدها لآلئ الحَبِّ التي تلو كثرتها حين يمتزج بها الماء . ويدهو خيان الشاغوري صديقا إلى نرمة <sup>(٤)</sup> :

(٣) الحريدة (نصم الشام) ١٨/١

(٤) الديوان ص ٢٦٨

(١) البنية ٣١٢/١

(٢) حيا الحمر: سورتها وشفتها . سنا : ضوء .

الجندس : دجى الليل الشديد السواد .

بأذن إلينا فإن الراح ممكنة والكأس دائرة والشمل مجتمعة  
ويومنا طيب صافي الأديم وما فيه هواء ولا في رأسه قرع  
والطير نرقص في الأغصان من طرب تكاد منه على هاماتها تقع

وتيان يصور لصاحبه مافيه من أنس مع رفاقه ، فالكأس دائرة بينهم واليوم من أيام الربيع  
لا فيه عواصف ولا في سمائه قرع أو قطع من السحاب المنتشر المنذر بالمطر ، والطير نرقص على  
الأغصان طربا وفرحا بالربيع حتى تكاد لشدة فرحها وطربها تقع على هاماتها أو رموسهم .  
وتكثر مقطعات الشعر في مجالس اللهو سواء في الحمر أو في الطبيعة ويشتهر بنظمها أربعة يفرد  
لهم الحموى في خزائنه فصولا طويلة هم بحير الدين بن تميم ، وسنخصصه بترجمة ، وبدر الدين  
يوسف بن لؤلؤ الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ والقاضي محيى الدين بن قرناص الحموى معاصره وعلى بن  
المظفر الوداعي المتوفى سنة ٧١٦ ، ومن طريف ما أنشده الحموى لابن لؤلؤ الذهبي قوله (١) :

باكر إلى الروضة نتجملها فشجرها في الصبح بسم  
والنرجس النض اعزاه الحبا ففض طرفا فيه أسقام  
وبلبل الدوح فصيح على الأ يسكة والشخورو تمتام  
فعاطى الصهباء مشمولة عزراء فالواشون نؤام  
واكتم أحاديث الهوى يتنا ففى خلال الروض نعام

وهو خفيف الروح مثل زملائه المذكورين وكانوا جميعا يعنون بالتورية التي أشاعتها مصر منذ  
المصر الفاطمية غاية واسعة ، وقد ورى في البيت الثاني بكلمة الحيا وهو الخجل عن الحيا بمعنى  
المطر . وجعل للبلبل لجمال غناؤه وشده الفصاحة وللشخورو وهو نوع من المصافير التمتة . ضرب  
من المقابلة . وجعل الصهباء مشمولة أو باردة طيبة واستم الصورة بأنها بكر أو عزراء والواشون  
نؤام . وعاد إلى التورية في البيت الأخير بكلمة نعام - وهو ضرب من الشعر مزهر - عن الثام  
الحقيقى من الأشخاص . ويقول محيى الدين بن قرناص (٢) :

روضة من قرقفنو أنهارها وغناء الورق فيها بارتفاع  
لا تلم أخصانها إن رقصت ففى ما بين شراب وسماع

وقد ورى محي الدين بكلمة قرقف وهو الماء البارد الصافي عن الخمر وهو اسم من أسمائها ، واستتم الصورة إذ جعل أنهار الروضة خمرا مسكرة بأن الحمام فيها أدخله السكر ، بل إن الأخصان نفسها التي رويت من تلك الأنهار سكرت فرقصت ، فلا عجب أن يشدو الحمام شدوا حاليا . وأنشد الحموي في خزانته لابن قرناص مقطعات بديعة كثيرة في الرياض ومثله الوداعي ، وهو يكثر من التورية كثرة مفرطة .

ويظل القرضان : وصف الخمر ووصف الطبيعة حين طوال أيام المالك وبالمثل أيام العمانين من مثل قول علي بن محمد الحشري الشامي المتوفى سنة ١٠٩٠ للهجرة (١) :

قُمْ هَاتِيهَا وَضَمِيرُ اللَّيْلِ مَنْشَرُ      وَالبَدْرُ فِي لُجَّةِ الظُّلُمَاءِ مُسْتَبِحُ  
عَجَلُهَا وَحِجَابُ اللَّيْلِ مَنْسَدُ      مِنْ قَبْلِ يَدُو لَنَا فِي وَكْرِهِ الصُّبْحُ  
وَأَسْتَضْحِكُ الدَّهْرَ قَدْ طَالَ الصُّبُوسُ بِهِ      لَا يَضْحَكُ الدَّهْرُ حَتَّى يَضْحَكَ الْقَدَحُ  
وَلَا يَطِيبُ .      الْهَوَى يَوْمًا لَمُتَبَقِي      حَتَّى يَكُونَ لَهُ فِي الْيَوْمِ مُصْطَبِحُ

وهو يخاطب ساقيا أن يتاوله كأس الخمر والليل من حوله ، مبتهج وأضواء البدر تلمع في جرائبه ويطلب إليه أن يسرع بها وحجاب الليل منسدل عليه قبل أن يرفرف الصبح يجناحه فيملأ الدنيا أنوارا . ويقول إن الدهر لا يقبل عليه ويضحك إلا إذا ضحك الكأس في يده ، ويزعم أن الهوى لا يطيب لمن يشرب الخمر غبوقا وهو شرها بالعشى حتى يكون له منها صبح وهو شرها في الصباح . ونقف عند نفر من شعراء الطبيعة واللاهوت .

### الوَأَوَاءُ (٢) الدَّمَشْقِي

هو محمد بن أحمد الضعافي المشهور بالوَأَوَاءِ الدَّمَشْقِي ، من أهل دمشق ، وُلِدَ بها ونشأ ، وكان ابنا لشخص من عامة الشعب . يدل على ذلك ما رواه الثعالبي في البيعة من أنه لُقِبَ بِالْوَأَوَاءِ لِأَنَّهُ كَانَ مَنَادِيَا بِسُوقِ الْفَاكِهِةِ ، أَوْ كَمَا كَانُوا يَسْمُونَهَا دَارَ الْبَطِيخِ ، يَتَادَى عَلَى الْفَوَاكِهِ جُلُبَا لِلْمَشْتَرِينَ . وقد ذكرنا مرارا في حديثنا عن الشعراء أنهم - في أغلب الأمر - كانوا من عامة الشعب وكانت لهم ملكات هيأتهم لنظمه بل للتفوق فيه . يلقانا ذلك في بغداد وفي القاهرة وفي

طبعه المجمع العلمي العربي بدمشق بتحقيق د. سامي الدمان وراجع مقدمته له .

(١) نفحة الرمانة ٣٥١/٢

(٢) انظر في الوأواء وشعره البيعة ٢٧٢/١ والمحمدون من الشعراء للقفطي ونزوات الوفيات ٣٥١/٢ وديوانه

جميع بلدان العالم العربي . ومكن لهم ذلك أن التحميم كان يحقد بالمساجد ، وكانت دائما هي وحلقات الشيوخ مفتوحة للناشئة ينهلون منها كما يريدون ، فكان من له استعداد حسن للتعلم من أبناء العامة مايزال يتردد عليها حتى يحسن مايريد من الفقه مثلا أو من رواية الشعر . ودائما كان يتخرج في هذه الحلقات كثيرون شعراء وغير شعراء على نحو ما تخرج الوأواء للنادى على الفاكهة في حلقات الشيوخ بمساجد دمشق .

وليس بين أئمتنا ولا في ديوان الوأواء ما يوضح متى وُلد . وأيضا ليس في الديوان أخبار وأحداث تاريخية تصور حياته ، وكل ما فيه أنه ترم شريفا من سادة دمشق ووجهاتها بملحه ، وأنه أعطاه في أول مدحة له عشرين ديناراً ، فأخذ يشتهر اسمه بين الشعراء . ومدحه بثلاث قصائد أخرى ، دل فيها على شاعرية جيدة ، ويذكرون أن اسم هذا الشريف الحقيقي أحمد بن الحسين العلوي ، فهو من أشراف العلويين وربما كان تقيهم بدمشق . ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان جواداً ممتدحاً ، وكان على صلة بسيف الدولة في أول إمارته حلب في العقد الرابع من القرن الرابع الهجري . وربما كان هو الذي قدّم الوأواء إليه حين زار دمشق بين سنتي ٣٣٣ و ٣٣٤ . وفي ديوانه ثلاث قصائد في مدحه ، ولذلك عدّ من شعرائه . ومن عطايا سيف الدولة والعقبي أخذ الوأواء يعيش للشعر متكسبا به ، وكانت فيه نزعة قوية للمتاع بالحياة ، مما جعل أكثر شعره يدور حول محاور ثلاثة : الغزل والخمر ووصف الطبيعة ، وكثيرا ما يمزج بينها جميعا مثل قوله في الفصيدة الأولى من ديوانه :

حاز الجلالَ بأَسْرِهِ	فَكَأَنَّمَا	قَسِيتُ عَلَيْهِ	مَحَاسِنُ	الْأَشْيَاءِ
مَتَبَسُّمٌ عَنْ لَوْثٍ رَطْبٍ	حَكِي	بَرْدًا	تَسَاقَطَ	مِنْ عَقُودِ سَمَاءِ
تُنْفِى عَنْ التَّفَاحِ حَمْرُهُ	خَدَّهُ	وَتَنُوبُ	رِيقَتُهُ	عَنِ الصُّهْبَاءِ
فَأَمْرُجُ بِمَالِكَ نَارَ	كَأَنِّيكَ	وَاسْقَى	فَلَقَدْ	مَزَجْتُ مَدَامِي بِدِمَائِي
وَأَشْرَبُ عَلَى زَهْرِ	الرِّيَاضِ	مُدَمَّةً	تَتَنَّى	الْمَعُومَ بِعَاجِلِ السَّاءِ
لَطَفْتُ فَصَارَتْ	مِنْ لَطِيفِ	عَطْلَاهَا	نَجْمِي	بِجَارَى الرُّوحِ فِي الْأَعْضَاءِ

والوَأَوَاءُ معروف بكثرة تصاويره في أشعاره ، فسأقيته الخمر نبش من أستان لؤلؤية كأنها حبات برد تساقطت من عقود في السماء ، وحمرة خدحا نضرة كحمرة التفاح ، وريقها كأنه الصهباء أو الخمر . ويطلب إليها أن تمزج الخمر الحمراء بالماء كما امتزجت مدامه بالماء . ويقول لصاحبه اشربْ حل زهر الرياض الذكي الراححة تلك الخمر التي تجلب السرور كما يقول ، ويزعم

أنها تجرى في جسمه مجرى الروح في الأعضاء . ومن قوله في وصف الراح :  
 وبنتِ كَرَمٍ كأنها لَهَبٌ نكاد منها الأكفُ تَلْتَبُ  
 تلب في كأسها إذا مُزِجَتْ كأنما يستفرها طربُ  
 في عَرَصَةِ الكأسِ حين تخرجها سماءُ نَيرِ نجومها ذهبُ  
 وهو يتحدث عن الخمر باسم بنت الكرم ، ويقول إنها حارة كأنها لسان لب ، وإن الأكف في زعمه نكاد تلتب لشدة حرارتها . ويزعم أنها تلب في كأسها حين يمازجها الماء فيطفو حبابها وتضطرب بعض الاضطراب ويحمل للكأس عَرَصَة أو ساحة ويقول إنها تشبه فيه - بزعمه سماء فضية من فئات التبر ، نجومها - أى حبابها - ذهب . ويقول من قصيدة :

اسقياني ذبيحة الماء في الكأ س وكفًا عن شرب ماتسقياني  
 إنني قد أنثُ بالأمس إذ م س بها أن أموت موتا ثاني  
 اسقي القهوة التي تبتُ الور د- إذا شئت- في حدود الغواني  
 في رياضي تريك في الليل منها سرجًا من شقائق النعمان  
 كتبها أيدى السحاب بأقلا م دموع على طُروس المكنان

وهو يتصور مزج الماء بالخمر إعدادًا لشربها ذبحًا ، ويطلب إلى صاحبه أن لا يسقيه الماء وإما يسقيه دم الخمر المسفوح . ويزعم أنه لاخوف عليه فقد أمانته بالأمس ولن يموت ثانيًا ، ومثله من مدحى الخمر يموتون مرارا . ويقول إن القهوة أى الخمر تضرج حدود الغواني بالخمره فتصبح كالورد ، ويقول إنه يحتسبها في رياضي تنير بها ليلا الورد المعروفة باسم شقائق النعمان . ويزعم أن أيدى السحاب كتبت تلك الشقائق بأقلام تستمد من عابر غرية هي دموع العشاق التي استحالت دما قانيا وقد دوت على طروس ، هي صحف المغاني أو الرياض . ودالما يعنى الوأواء في شعره بالتساوير والأخيلة ، ومن أكبر الأدلة على ذلك بينه المشهور :

فأمطرت لؤلؤا من نرجسي وسقت وردًا وعصت على العتاب بالبرد

فقد استعار اللؤلؤ للدمع والنرجس للعين والورد للخد والعتاب للأصابع والبرد للإنسان ، وهي صور لا تحمل شعورًا ، فضلا عن وجد ، غير أن معاصريه كانوا يصجون بها عنده ، وقد بنى الحريري على هذا البيت نفسه مقامه الثانية . وذكر صاحب فوات الوفيات أنه بارح الدنيا في عشر التسعين وثلاثمائة ، وأكد أن كلمة التسعين مصحفة عن كلمة السبعين .

ابن قُسيم الحموي<sup>(١)</sup>

هو مسلم بن الحُصَيْن بن قُسيم التُّنُخِي الحموي ، ولد ونشأ بجدة ، ويقول العماد : « كان ثالث القيسراني وابن منير بلغ إلى درجتهما .. وفاق شعرهما شعره ، لكنه خافه عمره ، وظلُّ شاباً ( حدُّ ) شبابه ، وحلَّ شعوب ( الموت ) بشعباه ، وذلك في سنة نيف وأربعين وخمسمائة » . والعماد يقول إنه توفي شاباً ويبدو أن ميلاده لا يبعدو العقد الأول من القرن السادس الهجري كما يبدو أن موته الشعرية نضجت مبكرة ، وسرعان ما عمد إلى التكسب بشعره فدح صاحب حاة ، وتطلع إلى الشهرة بين الشعراء وأحس من واجبه أن يسهم بشعره ضد حملة الصليب ، وكان عماد الدين زنكي قد أخذ في منازلهم . وحدث أن خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه جيش كثيف سنة ٥٣٢ لغزو الشام واستولى على بُزَاغة وحاصر حصن شَيْزَر بالقرب من حاة فاستغاث صاحبه سلطان ابن منقذ يزكي فأسرع إليه في عساكره ، واضطر ملك الروم إلى الانسحاب ، فغنم زنكي وعساكره من جيشه غنائم كثيرة سوى مجانيقه وآلات حصاره للحصن ، ومدحه الشعراء وفي مقدمتهم ابن قسيم بقصيدة رائعة استلها بقوله :

بزمك أيها الملكُ العظيمُ      تذللُّ لك الضعابُ ونستقيمُ

وكان ابن قسيم حيثُذ في ريعان شبابه ، وطارت قصيدته كل مطار ، وفي عام ٥٣٤ حاصر زنكي دمشق ، وأعلن له أنز مدبر دولة أبناء طفتكين وقائد جيشهم دخول دمشق في طاعته . وفي هذه الأثناء يفد ابن قسيم على دمشق ومدح عماد الدين زنكي ويبدو أنه ظل بها مدة فلما نراه يطارح شاعرها ابن منير مرارا ، وأيضا فاتته بمدح أنز مدبر دولة آتق بن محمد بن بوري ، وكان زنكي قد ارتضى أن تظل بها أسرة طفتكين والقائم على دولتهم أنز . فاتصل به ابن قسيم ومدحه ، وأسبغ عليه الجوائز كما أسبغها عليه من قبله زنكي ، وله فيه مدحة أرخصها العماد الأصبهاني بسنة ٥٤٢ . ولا ترتاب في أنه ظل متصلا يزكي بمدحه وخاصة حين استولى على الرها سنة ٥٣٩ وبمجرد أن توفي زنكي سنة ٥٤١ رجع جوسلين صاحب الرها إليها بالاتفاق مع من بها من الأرمن ، وأسرع إليه نور الدين في عسكره ، فهرب جوسلين . وافتتح نور الدين الرها ثانية ،

وهنا ابن قسيم بهذا الفتح المبين بقصيدة رائعة . وتوفى الشاعر سريعا في نفس السنة ويقول العاد الأصماني : إنه مات شابا .

وقد استعرض العاد في خريدته ديوان شعره واقتطف منه مختارات كثيرة ، وهي تدور حول الغزل ووصف الطبيعة والخمر ، ويبدو أنه كان يفرق في اللهو والهجون ، وإنه ليدعو بعض صحبه لمشاركه فيها بقترف منها بمثل قوله :

خير ما أصبحت مخلوع الطيار فانفوخك هم بالكنس المدار  
قم بنا نكهب اللذة في ظل أيام الشباب المستار  
إنما السار الذي تحفره أن تراني من لباس العار عارى  
وسيد من تقضى عمره بين كاسات رصاب وعقار<sup>(١)</sup>  
في اصطباح واغتراب واقرا بر واغتراب وانهاك واستار

وهو يصرح - ولا يخفى - بأنه يشرب الخمر المحرمة ، غير أنه لما يجزئه عليه ذلك من عار بين أصحابه ، إذ يجد فيها هناكه وسعاده ، وهو لذلك يعكف عليها صباحا ومساء أو اصطباحا واغترابا كما يقول ، ويعكف عليها قاراً في بلدته حاة ومغتربا في دمشق وغير دمشق ، وهو يشربها متواريا ومجاهرا بصبيان ربه متهاكاً لحرماته . ومن قوله في خمرية ثانية .

باكرا شمس القناني تُذكر كما كل الأمانى  
وخذا في لئى العيب شرو على رَغَم الزمان  
قهوة ألبها المزج قبصا من جُجان<sup>(٢)</sup>  
كخلود الورد من نحد ستر تُغور الأحوان  
إنما البُجّة أن أصبج ببح مخلوع العنان

وهو يدعو إلى اللذات بالخمر ، ويصورها بصور جميلة ، إذا مزجت بالماء وكأنما لبست قبصا لؤلؤيا . ويصورها في حمرتها وللاء آخذ بتلاييبها بشغور من الأحوان الأبيض تطوها خلود وردية . ولأبلى أن يعلن في آيات تالية عصيانه لربه ، لكل ما يفيقه أن يظل سادرا في خلع عثانه - أو كما قال في المقطوعة السابقة - في خلع عذاره متهاكاً ساجدا في قبلة الكأس لتسيح مثنى العود

وأوتاره . وكأنه بعيد لنا صورة أو صورة من خمريات أي نواس المتهكة الخليفة للارقة .  
ولاين قسم بجانب مجونه وغزلياته أشجار في وصف الطبيعة وأشجارها وأزهارها ونمارها من  
ذلك قوله يصف رمانة :

وصحرة من بنات الفصور ن يمنحها ثقلها أن تميدا  
منكسة التاج في دسها تفوق الحدود ونمكي الشهودا  
تفصر فتفصر عن مبسم كان به من حقيق عقودا  
كان المقابل من حبها ثغور تقبل فيها خدودا

وتصوره للرمانة بأنها منكسة التاج في دسها أو صدرها تصوير بديع لأنها تهدل وتتلل في  
غصنها على صدرها بقية ثوارها . ويتصور حباتها عقودا من حقيق ، وكأنها تحمل بتلك الحبات  
وما يحيط بها من خيوط يضاء ثغورا تقبل خدودا . وكان ابن قسم شاعرا مجيدا ، ومربتا أنه كان  
يتشيع وأنشدنا له أبياتا من شعره الشيبي .

مجير<sup>(١)</sup> الدين بن نعيم

هو مجير الدين محمد بن يعقوب المعروف بابن نعيم ، ولد بدمشق ونشأ بها ، وسال الشعر على  
لسانه وانتقل الى مدينة حماة وعمل في جيش صاحبها الملك المنصور سيف الدين محمد  
(٦٤٢-٦٨٣هـ) جنديا ، إحساسا منه بفتوته وشجاعته ، ويصور إقدامه وبساله في شعره  
قائلا :

دعني أخطر في الحروب بمهجنى إما أموت بها وإما أُرزقُ  
فسواد عيشي لا أراه أيضا إلا إذا احمرَّ السنان الأزرقُ

وقربه منه الملك المنصور وأصبح له اختصاص به . . ويقول صاحب فوات الوفيات : ه هو في  
التضمن الذي عاناه فضلاء التأخرين (من الشعراء) آية ، وفي صحة اللطاني والدوق اللطيف  
غاية ، لأنه يأخذ المعنى الأول ويحل تركيبه وينقله بألفاظه إلى معنى ثان ، حتى كأن الناظم

والنجم الزاهرة ٣٦٧/٨ وفي مكتبة جامعة القاهرة مصورة

خطوات من ديوانه بخط الصفي في ٤٧ ورقة

(١) انظر في مجير الدين بن نعيم وشعره فوات الوفيات

٥٣٨/٢ وعزارة الأدب للحوى ص ٣١٩ - ٣٢٥



الأول ، إنَّه أراد به المعنى الثاني وقد أكثر من ذلك حتى قال :

أطالع كل ديوانٍ أراه ولم أجز عن التضمن طيرى  
أضنُّ كلَّ يت فيه مَنى فثعري نيفه من شيرِ غيري

ويقول أيضا صاحب الفوات فيه « كان جنديا عتثما شجاعا مطبوعا كرم الأخلاق بديع النظم رقيقه لطيف التخيل » ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان من الشعراء للمدودين » . ولانعرف تاريخ مولده ، أما وفاته فكانت سنة ٦٨٤ للهجرة .

ومجير الدين بن نعيم من أصحاب المقطعات الطريفة في الغزل والطبيعة والحمر ، ولا يباذى في ابتكار الصور والأخيلة وحشد التورية في مقطعاته ، مع الظرف ونخلة الروح والتحليلات الحسنة ، وتختلف بعض أمثلة من أشعاره ، من ذلك قوله في الساقية والطبيعة من حولها :

تأمل إلى اللولاب والنير إذ جرى ودمعها بين الرياض غزير  
كأن نسيمَ الروض قد ضاع منها فأصبح ذا يكي وذاك يدور

ولكلمة « ضاع » معنيان : معنى سطوع الرائحة الطيبة التي يحملها النسيم عن الأزهار ، ومعنى افتقد والملاك ، وبذلك تحت لابن نعيم التورية التي يريد بها من استخدامه للكلمة ، وقد أراد المعنى الثاني . ويقول مفاخرنا بين الأرض والسماء :

باجعل الأفق مثل الأرض حُجَّةً بالشمس إذ بزغت والبدر حين وَصَحَ  
كم من شمس وأفارٍ إذا سَرَحَتْ في الأرض طرت إليها خُفَّةً وفرح  
ولا تَقُلْ : قَرَحُ في الجو زَبْتُهُ في كل غُصْنٍ ترى في الأرض قَوْسَ قَرَحِ

فهو يعارض من يطل السماء على الأرض بحجة بزوغ الشمس والقمر فيها قائلا إن في الأرض شمساً وأفاراً من السماء والفتيات أجمل وأكثر حسناً . ويقول لصاحب السماء : لا تحتاج مجال قوس قرح ، فأغصان الرياض في الطبيعة تحمل مالا يحصى من أقواس قرح نضرة أرجة . ويقول :

سفت إليك من الحديقة وردةً وافئك قبلَ أوانها تُطْفِئُ  
طمعت بكلمك إذ رأيتك فجُمعتَ فَمَها إليك كطالِبٍ تَقِيلُ

وهي وردة في بدء تفتحها وهي لا تزال في كمها ، مما جعله يطل نجمها قبل أن تفتح هذا  
التطيل البديع الدال على لطف تخيله كما قال صاحب فوات الوفيات . ويقول في وصف ناعورة  
أوساقية :

ناعورة مذ ضاع منها قلبها ناحت عليه بأثني وبكاء  
وتعلت بلفاته فلاجل ذا جئت تلميم عيونها في الماء

فقواديسها لا تهوى فارغة طلبا للماء والصور به ، وإنما تهوى بجنا من قلبها الذي ضاع منها ،  
وجعل لحونها الحزينة أيتها وبكاء عليه . ويقول :

لِمَ لا أميلُ إلى الرياض وزهرها وأقيم منها تحت ظل ضافي  
والفُضُن بِلِقائي بشير باسم والماء بِلِقائي بقلب صافي

والشعر الباسم هو الأحموان المضحك والشراء بشيونه بالشعر كثيرا ، وفي البيت رقة ودقة حس  
وخفة روح . وقد يغلط الطيعة بالنزل كما في قوله :

كيف السيلُ لأن أتبلَّ خَدَّ مَنْ أهوى وقد نامت عيونُ العرس  
وأصابعُ المشور تُوصي نَحْوَنَا حِداً وتُفَيِّزُهَا عيونُ التَّرجِس

والمشور زهر ذكي يزهر في أعلى سيقانه ، شبه ابن نعيم بالأصابع ، ونشيه الشراء للرجس  
بالميون قديم . وقد استغلها جميعا في هذا التطيل ، إذ لا يستطيع الاقتراب من صاحبة . ويقول  
في الخمر مداحا :

روحي الفداء لمن أدار بلحظه صُهباء في عقل لها تأثير  
قاصب له أثنى بصون بلحظه مشمول وإنّاؤها مكسور

وكلمة « مكسور » إما من كسر الإناء بمعنى تشمه وتخطمه ، وإما كسر مافيه من الخمر بالاء  
وهو كسر حبائها ونورته ، وهو المعنى المراد في البيت . ويقول أيضا في الخمر :

وليلة بثُ أُنقَى في غيابهما راحا نلُ شباي من يد الهرم  
مازلت أشرها حتى نظرتُ إلى غزالة الصبح ترمي ترَجِسَ الظلم

ويريد بالفرالة الشمس ويدرجس الظلم النجوم . ولم يكن ماجكاً مثل ابن قسيم ، ولاندرى هل كان يشرب الخمر حقاً أو كان ينظم فيها محاكاة للمعنى نظراً . ومن طرائفه في الرياض قوله  
 بعت النسيم رسالةً بقدمي للروض فهو بقره قرحان  
 ولطيف ما قرأ المزار بشنو مصونتها مالت له الأخصان  
 والمزار : طائر حسن الصوت يشتهر بلحونه الكثيرة . وواضح مافي ميل الأخصان لسامع شلو  
 المزار من عنصر المفاجأة ، وكل مقطوعات نعيم تقوم على هذا العنصر وما يحدث في النفس من هزة  
 الارتياح والسرور لسامع مثل هذه المفاجآت الكثيرة عنده ، وقد أنشد منها صاحباً الفوات والخرقة  
 بدائع كثيرة .

### ابن النقيب (١)

هو عبد الرحمن بن محمد الحسيني للقب بابن النقيب ، ولد في دمشق سنة ١٠٤٨ للهجرة  
 لأبيه النقيب الشريف ، وهى بقرته ، حفظ القرآن الكريم ، واختلف إلى شيوخ أيامه بالإضافة  
 إلى أبيه وما كان يلقنه من اللغة والحديث . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وانجبه بها إلى وصف  
 الطبيعة ومجالس الأنس والفزل مع الإمام بالمديح ، ولم يكن في حاجة إلى تكسب به ، ولذلك  
 يمكن أن تعد مدائح في باب الإخانيات ، وهى ليست الجواهر في ديوانه المنشور ، إنما الجواهر  
 فتته بالطبيعة المشبعة ومتزاهنا وبجمال المشقيات ووصف الراح من خلال الطبيعة الفاتنة .  
 ويقول المهي « ما أذكره له تشبيه زهر ( حسان ) أوزهر ، أو وصف روض مطلقاً على نهر ، وهو  
 من أغرى بهذين النوعين ، وذلك أما لجبل حريرى في فطرته ، أو لأن دمشق متروحة فكرته . ولم  
 يطل به الدهر بين هذه المفاتيح التى كانت تغلب له . فقد توفى في الثالثة والثلاثين من عمره سنة  
 ١٠٨١ للهجرة . ومن قوله في نهر وروض على حافته :

بَصْدًا مِنَ الْغَيْدِ حَدُّ الصَّارِمِ الذِّكْرِ  
 لَهَا السَّحَابُ مِنْ رَبْطٍ وَمِنْ جَبَرٍ  
 يَحُلُو لَنَا مِنْ جِلَافِهَا أَحْسَنَ الصُّوَرِ (٢)

مردم للديوان .

(٢) التبرج : الحلية من الرشى أو الجواهر .

النَّهْرُ بَصْدًا بِهَاتِكَ الظَّلَالِ كَمَا  
 وَالزَّهْرُ يَفْرَشُ فِي شَطْبِهِ مَارَقَتْ  
 رَيْعَةُ الرَّوْثِ لَا يَنْفِكُ زَرْجُهَا

(١) انظر في ابن النقيب وشعره خلاصة الأثر ٢/٣٩٠

وتنقذ الرمانة ٢/٣٤٨ وديوانه ( طبع المجمع العلمي  
 العربى في دمشق ) وانظر مقدمتى أحمد الجندى وعطيل

ويشبه الشمر الأناجر الضيقة والجداول بالسيف لشدة لمعانها . وقد جعل ابن النقيب النهر  
 يصدأ كما تصدأ السيف ، أما هي فتصدأ بأغادها ، وهو يصدأ بظلال الأشجار من حوله ،  
 والزهر يفرش في شطبه مارلت أو نقشت فيها السحاب من رِيْطٍ وجِرٍّ أو ملامات غططة  
 وحريرية ذات وشى ريمى لازال زبرجه ونقشه يحلو من جَلَى الطيعة وجواهرها أجمل الصور ..  
 ويذكر مجلسا من مجالس أنه في بعض متزهات دمشق قالوا :

ومجلسي حُفَّتِ الفصونُ بنا فيه روجهُ الرياضي متهجُ  
 كأن أوراقها يرفُ بها فوق الندى نسيما الأرج  
 خُضِرُ من الأزدي لا تزال بها مناكبُ الراقصات تختلج

وهي صورة بديعة ، إذ يحل أوراق الأغصان - حين يرف نسيما فوق الندى - كأنها أزرد  
 أو شيلان تُظِلُّ مناكب الراقصات المتلجة للتحركة في أثناء رقصها ودورانها فيها . ويقول في بدر  
 بلوح ويحتجب من خلال أغصان :

كأنما الأغصانُ يثيبها الصبا والبدْرُ من خللي بلوح ويُخجِبُ  
 حساء قد حامت وأزنت شمرها في لُجَّةٍ وللوج فيها يلعبُ

والصورة أيضا بديعة ، فالبدْر وهو يظهر ويضرب من خلال الأشجار كحساء في لُجَّةٍ مرغية  
 ذواب شمرها وموج أصواتها من حولها يلعب في فضاء الطيعة الساحرة . وكان مفرى بوصف  
 زهرة القرنفل ، يصفها يضاء وحمراء ويضاء مشربة بحمرة كقوله :

وزفرِ قرنفل في الروض يحكى حقيق دم حل صفحاتِ ماه  
 رأى وجاتٍ من أهوى فأفصى فبان بوجهه أثرُ الحياه

فاحمرار القرنفل إنما هو حياء وخبر منه حين رأى وجات صاحبه ، فأفصى عينه وقارب  
 بين جفونه استحياء . وله وراء شعر الطيعة واللهم والجهن موشحات مختلفة منها ما عارض به لسان  
 الدين بن الخطيب في موشحته : « جادك الغيث إذا الغيث همى » . وله أيضا شعر دورى تألف  
 المنظومة منه بيتين يتين . ويدون ريب كان شاعرا بارعا ، وحقا ما يقوله الهيمى من أنه كان يتخيل  
 التخيلات البعيدة البديعة في التشايب المعجبة .

### شراء الزهد والصوف والدالح النبوية

الشام من قديم دار عبادة ونسك وتشف ، وبها كان مهبط ديانتين : الديانة اليهودية والمسيحية ، ومربنا في الفصل الأول استعراض لنشأتهما الأولين ورفضهم للمتاع الدنيوي وإقبالهم على ما عند الله من ثواب الآخرة . وحين قام نظام الرهبة في المسيحية شاعت فيها الأديرة وشاع فيها النسك . وتبعها أصواء الإسلام ، ونشيع فيها تعاليمه الزاهدة ويزتها كثيرون من زهاد الصحابة وأتقيائهم النسك ونشيع فيها التقوى ، وتصبح ساحة كهري من ساحات العبادة ، كما تصبح مباءة لكثيرين من صلحاء الأمة ، وتطالير على ألسنتهم كلمات زاهدة تقية كثيرة ، عرضنا لأطراف منها في غير هذا الموضع ، وطبيعي أن يجد ذلك صداه في الشعر والشراء الشاميين . ويلقانا في ديوان أبي تمام باب للزهد ، ويظل الشراء بعده ينظمون فيه كقول أبي فراس (١) :

أما . يَرْدَعُ الموتُ أَهْلَ التَّهَيِّ      ويمنع عن غِيٍّ مَنْ غَوَى  
فيا لاهِبًا آمَنَّا والحِجَامُ      إليه سريعُ قَرِيبُ المدى  
إذا مامرتُ بأهلي القُبُورِ      تبيقُنتُ أنك منهم غدا  
فلا أملُ غيرُ عَفْوِ الإلهِ      ولا عملُ غيرُ ما قد مضى

وأبو فراس يقول : الموت خير واعظ للإنسان وإنه لجلدير أن يردع القوي عن غيّه ويرده إلى رشده ، ويعجب من لاه آمن على نفسه ولا يفكر في هول ما ينتظره من موت يوشك أن ينزل به ، وغدا يطير إلى رمسه ، ولا أمل له سوى غفوره فعري به أن يكف عن كل موقفة ويأخذ من يوم حياته ليوم مماته ، وإنه لقريب . ويتعمق أبو العلاء التكفير في الحياة والموت نهاية كل حي وينشد (٢) :

هي النفسُ تهوى الرُحْبَ في كل موطنٍ      فكيفَ بها إن ضاقت في الأرض قبرها  
وهل يرتجى خُصْرُ الملابسِ ظاعنُ      وقد مرّت في باطن التُّرابِ غُبرها  
نوابُ أَلقت في النفوسِ جرائعًا      عصى كلُّ آسرٍ في البرية سربها  
لي القوتُ قَلْبُغَمَرِ سَرْدِيبِ حظها      من الدرّ أو يكثرُ بغانة يثربها

وأبر العلاء يضع أمام الإنسان مصيره وأنه لابد مفارق للدنيا الرحبة الواسعة إلى القبر الضيق المظلم . وربما كان يتخفى عن كل متاع الحياة بخضر الثياب يلبسها ظاعن راحل عن دنياه إلى قبر موحش تغبر فيه هذه الثياب وتمزق تمزقاً . ويقول تلك نوابس تصيب النفوس في الصمم وتحدث فيها جراحا عميقة يستمصي سهرها همرقة غورها على كل طيب ، وبذكر أنه لا يفكر في طيبات الحياة ولا تمر بخاطره ، إذ هو قانع بقوته وما يسد رمقه ، ولتغنى سرنديب - أو كما تسمى الآن بيلان - بمفاوصي لآلها من الدرر وليكثر بغانة في غرى إفريقيا التبر كما يقولون ، فحسى قوتي . ومر بنا أنه كان زاهدا في الدنيا ونعيمها ، مكفيا بالعدس والتين . ومر بنا أيضا أن ديوانه اللزوميات في مجلدين ، وقد بناه على تمجيد الله والتحذير من الدنيا ومتاعها الزائل كما قال في مقدمته . ويقول ابن سنان الحفاجي <sup>(١)</sup> :

استغفر الله القديم وعُدَّ به من شرِّ غاوي في الحطام مناسي  
وافضل جميلا لا يضيع صنيعة واسمَحْ بقوتك للضعيف البائس  
واقنع فني عيش القناعة نعمة لا تنق كفت الزمان الخالس  
لا تفخرن وإن فطنت فبالقوى ناضل وفي بذل المكارم نافسي

وهو يستغفر الله من شر كل غاوي مناس في حطام الدنيا ومتاعها الزائل ، ويوصي بفعل الجميل ومد اليد بالقوت للبائس الفقير . ويوصي أيضا بالقناعة ويقول إنها نعمة لأن الإنسان معها لا يخاف على شيء يختلسه منه الزمن ، ويوصيه أن لا يفتخر إلا بالثقى ولا ينافس إلا في المكارم والمحامد . ويقول الحسن بن طارق الحلبي من شعراء الحريرة <sup>(٢)</sup> :

عمرت دار فناء لابقاء لها ظلتا بأنك عنها غير متصل  
أنتبت نفسك لا الدنيا ظفرت بها وأنت لاشك في الأخرى على وجمل  
دار الإقامة أولى بالعمارة من دار نعيمك فيها غير متصل  
فاعمل لنفسك ماترجو النجاة به فليس يتجيك إلا صالح العمل

وهو يترقّد في الدنيا والعمل على تحقيق المآرب فيها مع نسيان الآخرة دار الإقامة الحقيقية التي ينبغي أن يعمل لها الإنسان ، وهي حقا الأجدر بأن يقدم لها كل ما يستطيع من تقوى وعمل صالح حتى يفوز برضوان ربه .

ويقول الإمام النورى الفقيه الشافعى الخوف سنة ٦٧٦ للهجرة<sup>(١)</sup> .

وجدتُ القناعةَ أصلَ النِّبَى فصرتُ بأذيناها مُسْتَبْكِ  
فلاذًا يراى على بابي ولاذا يراى به منكم  
وعشتُ غنيًا بلا درهمٍ أمرُ على الناسِ شَبَّةَ المَلِكِ

وكان محيى الدين النورى إماما ورعا زاهدا مثابرا على التقوى والقناعة ، فلا أحد من الحكماء - كما يقول - يراه على بابه طالبا حاجة ، ولا أحد يراه مشغولا به منهمكا ، فانهاكه إنما هو فى العبادة والتجهد والنسك وفقرى الناس فى أمور دينهم وتدريس الفقه والحديث النبوى آخذًا نفسه فى حياته بالتقشف الشديد . ويقول مصطفى البابى الذى مرت ترجمته : إن الأرض مقبرة كبرى تطوّر أقدامنا غير واهين ، بل إنه يبعد فى خياله قائلا .

قد غَنَيْنا عن الدروس بما تُنمـ على علينا صحائفُ الأيام  
من عَطَّاتٍ تَتَلَّى بغير لسانٍ وسطورٍ خُطَّتْ بلا أقلامٍ  
ولو أَنَّ العيونَ زالَ غَشَاها لرَأَتْ كُلَّ أَخْمَصٍ فوق هامٍ<sup>(٢)</sup>  
بل وفى كل وردةٍ أَلْفُ خَدٍّ وقضيبٍ يمسُّ أَلْفُ قِوَامٍ

فالحياة قصيرة وللصبر للجميع الموت ، وحرى بالإنسان أن يفكر فى هذا للصبر المقدم عليه ، وكم ملايين بل مئات الملايين ماتوا وواراهم أهلهم الدراب ، حتى لكأن أى مكان لا يخلو منهم ، وحتى لكأننا نطوّرهم بأقدامنا ، فهم منبثون فى كل بقعة وفى كل مكان . ويقول البابى لو زالت الغشاوة عن أعيننا لرأينا - ويأهول مانرى - أقداما تطأ رءوسا ، ولهاذا أن الورد التابت من الأرض يستمد حمرة من أَلْف خَد ، وبالمثل قضيب الأخصان الأهيف المائس المختال يستمد اختياله من أَلْف قَد . ويلاحظ المهجى أن المشهور فى هذا المعنى قول أبى العلاء .

خَفَّفُوا الوَطءَ ما أَظُنُّ أَدِيمَ أَلْ أَرْضٍ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الأَجْسَادِ

وقول مهيار :

رُؤْيَاكُمْ بِأَخْطَافِ اللَّطِيْ طَنَا مُدَامُ جَاءَ فِي الثَّرَى وَخَلُودُ  
وَكَانَ الْبَابِي نَظَرَ إِلَى مَعْنَى الِيتَيْنِ جَمِيعًا ، وَبُضِيفَ الْهَبْى أَنْ مَتَرَعَ هَذَا كُلَّهُ قَوْلَ اللَّتَيْنِ :

وَيَنْفُخُنَّ بَعْضُنَا بَعْضًا وَيَمْشِي أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي

وَالْأَوَالِي : الْأَوَائِلُ . وَلَا يَكُنْ الْهَبْى بِذَلِكَ ، بَلْ يَقُولُ أَنْ مَعْنَى يَبْقَى الْبَابِي دَقِيقٌ ، وَفِي رُبَايَا عَمْرِو الْحَقِيَامِ بِالْقَارِسِيَّةِ مِنْ نَوْعِهِ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ ، وَبِذِكْرِهِ أَنَّهُ تَرْجَمَ لَهُ رُبَايِعَةٌ تَحْمِلُ هَذَا الْمَعْنَى عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ :

فِي الْإِحْتِبَارِ بَيْنَ مَضَى مِنْ قَبْلُنَا جَيْرٌ وَتِلْكَ هِدَايَةُ الْمُسْتَرْدِ  
فَلَكُمْ طَوْتُ تَرَاوُنَا أَمَّا وَهَلْ مَيْتُ بِغَيْرِ تَرَاتُهَا لَمْ يُلْحَدْ  
حَتَّى كَانَ شَقِيقَهَا دَمٌ أَسْرَقَ سَفَكْتُ دِمَاءَهُمْ عَيُونُ الْحَرْدِ  
وَيَنْفُجُ الرُّوضِ النَّدَى كَأَنَّهُ خَيْلَانُ وَجَنَاتِ الْخُلُودِ الرَّودِ

فَالشَّقِيقُ الْأَحْمَرُ الْقَائِي يَسْتَمِدُّ مِمَّا سَفَكَتْهُ عَيُونُ الْجَمِيلَاتِ مِنْ دِمَاءِ الْمَشَاقِّ ، وَالْبَنْفُجُ الْأَحْمَرُ الْقَائِمُ يَسْتَمِدُّ مِنْ خَيْلَانِ وَجَنَاتِهِنَّ . وَكُلُّ ذَلِكَ بَعْدَ فِي التَّصَوُّرِ وَالْخَيَالِ .

وَكَانَ يَرَاهُنَّ الزَّهْدُ مِنْذُ الْقَرْنِ الثَّلَاثِ الْمَجْرَى نَسَاكًا - كَمَا مَرَبْنَا فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ - أَقْرَبَ إِلَى الْمُتَصَوِّفَةِ مِنْهُمْ إِلَى الزَّهَادِ فِي مَقْلَمَتِهِمْ ابْنُ الْجَلَاءِ ، وَكَانَتْ الشَّامُ سَاحَةً كَبِيرَةً لِلنَّسَاكِ بِمُؤْمُونِهَا . طَوَالَ هَذَا الْقَرْنِ وَالْقُرُونِ التَّالِيَةِ مِنَ الْعِرَاقِ وَإِيرَانَ وَمِصْرَ . وَاشْتَهَرَتْ جِبَالُ لُبْنَانَ وَأَنْطَاكِيَّةُ بِكَثْرَةِ مَنْ كَانُوا يَقْبِيعُونَ بِهَا لِلنَّسِكِ وَالْعِبَادَةِ ، وَامْتَدَّ ذَلِكَ إِلَى دِمَشْقَ وَجِبَالِهَا وَغَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الشَّامِ . وَذَكَرْنَا فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ نَزُولَ الْغَزَالِي بِهَا سَنَةَ ٤٨٨ وَأَنَّهُ أَخَذَ يَسْتَفِئُ بِقَرَّةٍ بِمَا كَتَبَهُ أَبُو نَصْرٍ السَّرَاجُ وَالْقَشِيرِيُّ فِي الْوَصْلِ بَيْنَ أَهْلِ الشَّرِيعَةِ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الْحَقِيقَةِ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ ، فَلَا شَرِيعَةَ بَدُونِ عَمَلِ الْقَلْبِ وَصَدِيقِ السَّرِيرَةِ وَلَا تَصَوُّفَ بَدُونِ آدَاءِ الْفَرَائِضِ وَالنَّوَائِظِ . وَبِذَلِكَ سَدُّ الثَّلَاثَةِ الَّتِي كَانَتْ تَفْصِلُ بَيْنَ الْمَجَاعَتَيْنِ وَأَحْكَمَ الرُّوَابِطَ الدِّينِيَّةَ بَيْنَهَا . وَزَادَهَا دَعْمًا نَزُولَ حَمَلَةِ الصَّلِيبِ بِدِيَارِ الشَّامِ مِمَّا جَعَلَ حُكَامَ دِمَشْقَ التَّالِيَيْنِ لِلدَّوْلَةِ السُلْجُوقِيَّةِ يَكْثُرُونَ مِنْ بِنَاءِ الْحَافِظَاةَاتِ وَالرَّابِطَاتِ لِلْمُتَصَوِّفَةِ . وَبِمَعْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ نُورُ الدِّينِ حِينَ أَصْبَحَتْ الشَّامُ فِي قَبْضَتِهِ ، بَلْ لَقَدْ اتَّسَعَ فِي الْمَتَانَةِ بِهِمْ وَرَّصَدَ النِّفَقَاتِ عَلَيْهِمْ . وَظَلَّتْ هَذِهِ الْمَتَانَةُ مُتَّصِلَةً فِي عَهْدِ صَلَاحِ الدِّينِ وَخُلَفَائِهِ



الأيوبيين والمالِك مما أتاح للتصوف ازدهارا عظيما .

وكان قد أخذ يظهر في التصوف تياران كبيران : تيار سني كانت تتبعه جواهر الشعب ، وفيه تأسست طرق صوفية متعددة ، من أهمها الطريقتان القادرية والرفاعية على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضع . وكان بجانب هذا التيار تيار فلسفي يقوم على أفكار الحلول والاتحاد بالله ، ولم تكن له شعبية التيار الأول ، وقد مكثه في القرن السادس الهجري يحيى السهروردي الذي ترجمنا له في إيران وأنشدنا بعض أشعاره . ومثل هذا التيار في القرن السابع هجري الدين بن عربي الذي نشأ في الأندلس ، ثم رحل إلى البلاد العربية والأناضول وألقى حصاه في دمشق ، وله كتب كثيرة من أهمها الفتوحات للكية . وله أيضا دواوين بديعة ، لأياتها ظاهر وباطن ، ظاهر يتفق مع السنة وباطن يتفق مع تصوفه الفلسفي . وشُفَّف كثيرون من أهل الشام بأدبه وشعره منهم من يقف به عند ظاهره ومنهم من يتغلغل في أعماقه . وأعلنت أشعاره وتعاليمه الصوفية الفلسفية ، وبالمثل أشعار السهروردي وأيضا أشعار ابن الحلاج الصوفي للتفلسف القديم تؤثر في وأشعار التيار الصوفي السني في كثيرين بحيث أصبح للشام تراث صوفي شعري . ويدون ريب أكد هذه التزعة الصوفية في الناس ظهور الطريقة القلندرية التي ظهرت في القرن السابع الهجري مع ما دخلها من انحرافات ذكرناها في الفصل الأول ، وأيضا ظهور الطريقتين النقشبندية والبكتاشية لأواخر زمن المالِك . وستترجم فيما بعد لثلاثة من شعراء الصوفية الذين تمثلوا التيار الصوفي الفلسفي ، وهم ابن سوار وعفيف الدين التلمساني وعبد الغني النابلسي ، أما ابن عربي فعُداده في الأندلسيين ، وقد نزل دمشق بأخرة من عمره .

وكان يقترن بترهقي التصوف والزهد مديح نبوي كثير ، وهو قديم منذ عهد الرسول ﷺ ومديح حسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما من الشعراء له تنوعها بخلفه الكرم ورسالته العظيمة وجهاده في سبيل الله وفضوحه . وحين نشطت الحركات الشيعية نشط معها مديحه ، إذ انبث كثير منه في مدائحهم لأنتمهم الطويين وفي مراثيمهم للحسين على نحو ما نجد عند الصنوبري الذي ترجمنا له في كتاب العصر العباسي الثاني .. ولأني الحلاء في اللزوميات قصيدة في مديحه ، وفيها يشيد به ويرسالته النبوية الخالدة قائلا :

دعاكم إلى خير الأمور محمد  
وليس العوالي في القتا كالسواظر  
دعاكم على تعظيم من خلق الضحى  
وشهب الدجى من طالعات وأظفر  
فصلى عليه الله ماذر شارق  
ومافت مسكا ذكره في المفايل

وعوالى القنا أو الرماح هى الماضية القاطعة ، ويذكر أنه دها إلى توحيد الله الذى خلق الشمس وماتفر به الكون من الضياء وخلق النجوم التى تنبج تارة وتأفل تارة ثانية ، فهو ملبر الكون وملكوته . ويدعو الله أن يحق بركاته عاطلت شمس وماطر ذكره المحافل بمسك لايضايه مسك .

ويحتمد المديح النبوى مع الحروب الصليبية وحروب التكر ، إذ أحس الشراء - بحق - أنها حروب موجهة للإسلام ورسوله الكريم ، فأخذوا يشيدون به وينهون بمعجزاته وسيرته الذكية من مثل قول ابن الساعى شاعر صلاح الدين فى مدحة نبوية (١) :

هو البشيرُ النذيرُ العدلُ شاهدهُ      وللشهادة تجريجُ وتعديلُ  
لولاه لم تك لاشمسُ ولا قرُ      ولا الفراتُ وجاراه ولا النيلُ  
مرئُ الرُحى يطوهُ ويدرسه      ولم يكن لكلام الله ترئيلُ  
وسيدُ الرسلِ حقا لاختفاء به      وشافعُ فى جميع الناس مقبولُ  
بئتُ نبوته الأخبارُ إذ نطقتُ      فحدثتُ عنه توراةُ وإنجيلُ

ويقول ابن الساعى هو البشير النذير الذى أشاع العدل فى أمته ، ويستلمهم الغائلين بالحقيقة الحمديدية وأن الرسول عليه السلام علة الكون ووجوده ، ظلواه لم تك شمس ولا قر ولا حياة فى الأرض ولا أنهار ، ويقول إنه أول رسول رئل الكلام ، وإنه لسبد الحلق وشافع أمته يوم القيامة ، وبه تحدثت الأخبار فى التوراة والإنجيل مبشرة برسائله العظمى . ويقول فتيان الشاغورى من مدحة نبوية مؤملا شفاعته فى يوم المحشر متمنيا زيارته (٢) :

أوملُ من خير الأنام شفاعهُ      بها فى نعيم بالجان أخلدُ  
وِدِدْتُ بأنى زرتُ قبرك راجلا      وقبِلْتُ ترُبا أنت فيها موسدُ  
ومرغْتُ خدِى عند قبرك ضارعا      بأرضي حصاها لؤلؤ وذرَجِدُ  
وذاك ضريعُ يحسدُ اليكُ ترُبة      وكلُّ شريفٍ القدر لاشك يُحسدُ

وهو يؤمل فى شفاعته الرسول بالضران ودخول الجنان ، يوم يطول وقوف الناس فى المحشر ، ويقول لو استطاع لزار القبر راجلا وقبله وعقر خدّه بما حوله من الزاب ضارعا متوسلا بأرض

حصاصا لؤلؤ وزبرجد وإن المسك ليحسد تراه على مايجمل من طيب لا يمثاله طيب . وللخاوى  
على بن محمد شيخ القراء بدمشق المتوفى سنة ٦٤٣ قصائد سبع في المديح النبوى . وفى مدحة نبوية  
يقول الشاب الظريف منوها بالبقعة مثنوى الرسول الكريم (١) :

أَرْضَ الْأَحْبَةِ مِنْ سَفْعٍ وَمِنْ كَثْبٍ      سَبَاكِ مِنْهُمْ الْأَنْوَاءُ مِنْ كَثْبٍ (٢)  
بِاسَاكِنِي طِيَّةَ الْقَبِيحَاءِ هَلْ زَمَنْ      يُدْنِي الْحَبَّ لَتِيلِ الْحَبِّ وَالْأَرْبِ  
أَرْضُ مَعَ اللَّهِ عَيْنَ الشَّمْسِ تَحْرُسُهَا      فَإِنْ تَغِيْبُ حَرَسَتْهَا أَعْيُنُ الشُّهْبِ

وهو يدعو لأرض الحبيب المصطفى أن تهطل عليها الأمطار سفوحا وكتبانا من كتب أو قرب  
لتظل تزهى بالشذى العطر ، ويتنى زمنا يحقق أربه وأمنيته من زيارة الجدد الطاهر . ويقول إن  
عين الشمس تحرسه نهارا وتحرسه أعين النجوم الساطعة ليلا حراسة يرعاها الله جلّ علاه .  
وللشهاب محمود ديوان فى مديح الرسول ﷺ سقط من يد الزمن واحتفظ كتاب المدائح  
النهائية النبوية لإسماعيل النبهانى بطائفة من مداخله ، وفى إحداها يصور الشهاب محمود ساعة  
وصول ركه إلى المدينة المنورة حين بدا لهم العقيق فى غريبها ولم يلبث أن زاروا القبر الركنى ،  
يقول (٣) :

وَإِذَا شَارَفُوا الْعَقِيقَ تَرَأَتْ      مِنْ رُبَاهِ سَنَا الْقِيَابِ الزُّهْرِ  
وَتَلَقَّاهُمْ بِشَبْرِ التَّلَاقِ      بِقَبُولِ تَسْرِ قَبِيلِ الْفَجْرِ  
وَشَدَا الرُّوضَةِ الَّتِي بَيْنَ أَزْكَى      مِنْهُ فِي الدُّنَا وَأَشْرَفِ قَبْرِ  
حَبْذَا ذَلِكَ مِنْ مَقَامِ كَرِيمٍ      يُشْتَرَى يَوْمَهُ بِكُلِّ الْعُمَرِ

وهو يصور فرحة ركه أو قافلته بقرب لقاء الرسول حين أشرفوا على العقيق ورأوا قباب مسجده  
قبيل الفجر . والقبول أو ربيع الصبا العليل تبشرهم بالتلاق وعطر الروضة النبوية يفوح ، وهو يشير  
إلى الحديث النبوى : « ما بين قبري والمبر روضة من رياض الجنة » ويقول إن فرحة المثل أمام  
القبر الطاهر يشتري يومها بالعمركله . ولكمال الدين محمد بن على الزملكانى المتوفى سنة ٧٢٧  
للهمزة مدحة نبوية رائعة يقول فيها (٤) :

(٣) غزوات الوفيات ١٩٧/٢

(١) ديوان الشاب الظريف ص ٤

(٢) المجموعة النهائية ١٧٣/٢

محمّدٌ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ      وفانحُ الخيرِ ماحي كُلِّ إِشْرَاقٍ  
 قد نالَ مرتبةً ما نالها أحدٌ      من أنبياءِ ذوى فَضْلٍ وأَمَلِكِ  
 بِأَصْحَابِ الْجَاهِ عِنْدَ اللَّهِ خَلَقَهُ      مارِدُ جَاهِكَ إِلَّا كُلُّ أَفَّاكٍ  
 ما قد قَصَدْتُكَ أَشْكُو بِغَضِّ مَا صَنَعْتُ      لِي الذُّنُوبُ وهذا ملجأُ الشاكِي  
 عَلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ اللَّهُ الصَّلَاةُ كما      مِنَّا عَلَيْكَ السَّلَامُ الطَّيِّبُ الرَّازِكِي

والزملكاني يقرر حقيقة كبرى ، فحمد عليه السلام خير خلق الله وماحي الكفر والإشراك وقد نال مرتبة لم ينلها الأنبياء ولا الأملاك أو الملائكة . ويتوسل إليه أن يستغفر له ربه وأن يحط عنه أوزاره كما يتبين من أبيات تالية ، وقد زاره وحط رحاله في حماه لنوال هذا الأمل المنشود . وتكثر مثل هذه الاستغاثة في المدائح النبوية كما يكثر معها طلب الشفاعة . ويقول مصطفى البالي من مدحة نبوية بدیعة<sup>(١)</sup> :

إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ جَاءَ ضَارِعًا      أَنُوحُ عَثْرَةٍ يَرْجُو الْإِقَالََةَ مَذْنُبُ  
 فَبَابِكَ اللَّهُ مَا عَنْهُ مَهْرَبُ      وَطَالِبُهُ مِنْ غَيْرِ بَابِكَ بُحْبُوبُ  
 أَعْنَى تَدَارَكُنِي أَجْرُنِي ظَنَنِي      لَقْنِي. إِنْ تَرَخِي عَنْهُ لَطْفُكَ يَطْطَبُ  
 وَأَبْعُدُ شَيْءٌ أَنْ تَضَيِّقَ بِرُحْمِيهَا      شَفَاعَتُكَ الْعَظْمَى بِنَا فَهِيَ أَرْحَبُ

وهو يضرع إلى الرسول الكريم أن يستغفر له ربه ليقبله ويخلصه من ذنوبه ، ويستغث به لئلا أن يكون شفيعه يوم القيامة ، يوم يطول وقوف الناس في المحشر ، والجميع يضرعون إلى الله أن يخلصهم وينجهم من النار ، وسعيد من يشفع له الرسول في هذا اليوم ، فيغفر برضوان ربه . وللبالي يتوسل<sup>(٢)</sup> :

يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ قَدْ      بِرَّ الْعُقُولَ مَتَا بَهَائِكَ  
 إِنِّي سَأَلْتُكَ بِالَّذِي      جَمَعَ الْقُلُوبَ عَلَى وَلَائِكَ  
 نَوَى الْوُجُودَ خِلَاصَةً إِلَيَّ      كَوْنِينَ صَفْوَةً أَنْبِيَاءِكَ  
 إِلَّا نَظَرْتُ لِمَسْتَغِيثٍ      سِوِ عَائِدٍ بِكَ مِنْ بِلَائِكَ  
 فَالطُّفُّ بِهِ فَمَا جَرَى      فِي طَيِّ حِلْمِكَ مِنْ قَضَائِكَ

والبابي يجأر إلى ربه ضارعا متوسلا برسوله الذي جمع أمته على الولاء له ، ويقول إنه نور الوجود ، فنوره يشاهد في كل نور : في نور الشمس والقمر والكواكب والنجوم وهو خلاصة الكونين وصفوة الأنبياء والمرسلين ، ويتخذ وسيلة إلى ربه وشفيعة ، حتى يلطف به في قضائه وما جرى في طي علمه . وحرى أن نترجم لنفر من المتصوفة وأحد شعراء الزهد والمديح النبوي وهو أول من نقف عنده .

### عبد<sup>(١)</sup> العزيز الأنصاري

هو شرف الدين صاحب عبد العزيز بن محمد بن يونس الأومى الأنصاري ، كان أبوه من فقهاء دمشق ، وحين عهد بقضائها في عهد صلاح الدين إلى ضياء الدين الشهرزوري سنة ٥٧٢ جملة من نوابه . ودار العام فاستمعى ضياء الدين من القيام على القضاء ، ولانعرف هل ترك والد الشاعر القضاء أو أنه ظل يعمل فيه مع ابن أبي عصرون خليفة ضياء الدين . وأكبر الظن أنه بقى في منصبه مدة ، أو لعله عمل في منصب آخر . ويقولون إنه كان يشتغل بالتجارة في سوق الخواصين ولاندرى هل كان يجمع بين عمله في القضاء وبين التجارة أو كان يزاولها حين يعنى منه . وولد له ابنه عبد العزيز سنة ٥٨٦ وطبيعى أن يعنى القاضي بترية ابنه ، فأخذ يرعاه حتى حفظ القرآن الكريم ورأى أن يتزود من حلقات الشيوخ بدمشق فدفعه إليها وأكب عبد العزيز على تلك الحلقات ينهل منها ، حتى إذا أحس أبوه أنه استوعب ما فيها نزل به بغداد فاستمع بها إل شيخ المدرسة النظامية ، وكان لا يزال في نحو العشرين من عمره . وسكن الأب حاة وتولى قضاءها لمهد صاحبها السلطان المنصور الأول (٥٨٧-٦١٧هـ) وسكنها معه ابنه عبد العزيز ، ويقربه منه المنصور وينظم فيه بعض مدائحه وكذلك في زوجته عصمة الدين ، ويتوفى المنصور ويغتصب إمارة حاة بعده السلطان قلع أرسلان (٦١٧-٦٢٦هـ) ويظل بها عبد العزيز . وتولى الإمارة السلطان المظفر بن المنصور الأول (٦٢٦-٦٤٢) فابتمت الدنيا له إذ اتخذ المظفر وزيره ومستشاره وشاعره ، ويتوفى ويخلفه ابنه السلطان المنصور (٦٤٢-٦٨٣هـ) وكان صبيا في العاشرة

٢٥٨/٨ والنجوم الزاهرة ٢١٤/٧ والحزنة للحموي ص  
٢٤٩ ، ٣١٤ ودبراته (طبع مجمع اللغة العربية  
بدمشق) بتحقيق د. عمر موسى

(١) انظر في عبد العزيز الأنصاري وشعره فوات  
الوفايات ٥٩٨/١ وفيل مرآة الزمان ٢٣٩/٢ والبر  
٢٦٨/٥ وتذكرة الحفاظ ١٤٤٣/٤ وطبقات الشافعية

من عمره وربما يكون سكن الشاعر لبعلبك ودمشق الذي ذكره مترجموه في هذا التاريخ . وكان يلمُ بحلب ، ونجده سنة ٦٤٧ في صحبة أميرها الناصر يوسف في زيارته لمصر . ويعود إلى حماة وتعتقد صلة وثيقة بينه وبين سلطانها النصور إلى توفي سنة ٦٦٢ للهجرة .

وكانت تُنقَدُ في هذه البلدان جميعا لعبد العزيز الأنصارى الحلقات لسباع الحديث عنه ، ومن سمعه منه المحافظ اللمياطي محدث مصر واليونيني محدث دمشق ، ويقول ابن تَفَرى بَرى عنه : «سرع في السِّفِّه والحديث والأدب وأقوى ودرس وتقدم عند الملوك وترسل عنهم غير مرة ، وكان شاعرا بارعا ، وينقل صاحب القوات عن الصفدى في وصف شعره وشاعريته قوله : لا أعرف في شعراء الشام بعد سنة خمسمائة وقبلها من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح ولا أصنع ولا أبسرى ولا أكثر ، وإن له في لزوم مالا يلزم ديوانا كبيرا ، وما رأيت له شعرا إلا وعلقته ، لما فيه من النكت والتوريات الفائقة والقوافي المتمكنة والتزكيب المذهب واللفظ الفصيح والمعنى البليغ » وهو يمتاز بجمال موسيقاه وعلوية ألفاظه وحسن جرسها حسنا بديعا .

وطبيعى والأنصارى شيخ الشيوخ الفقيه المحدث أن يعنى في شعره بالمديح النبوى والزهد والوعظ ، ومن قوله في أول مدحة نظمها للرسول الكريم وقد أنشدها تجاه حجرته الشريفة :

بِاخْتِامِ الرُّسُلِ الْكَرَامِ وَفَارَجِ الْكَرْبِ الْعِظَامِ بِفَعْلِهِ وَالْمَقُولِ  
هَآ قَدْ وَرَدْنَا مِنْ صَرِيحِكَ مَوْرَدًا نَشْفَى بِهِ مِنْ كُلِّ دَاءٍ مُضْطَلِّ  
أَدْعُوكَ لِلْجَلَّى وَتِلْكَ شِفَاعَةٌ لَمْ تَرْضَ لِي أَنَّى أَخَافُ وَأَنْتَ لِي  
وَلَقَدْ أَتَيْتَكَ مَا دَحَا لَتَجِيزَنِي فِي الْحَشْرِ كَاسَاتِ الرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

وهو يستغني بالرسول الكريم ﷺ خاتم الرسل ومفرِّج الكرب الذى ورد على جدته الطاهر ومعينه العاطر الذى يشفى من كل داء عضال أن يكون شفيعا له يوم الحشر وأن يتيح له فيه - حين يشهد بالناس أوار العطش ولديه - كاسات من الرحيق الصافى . ويقول في مدحة نبوية ثانية :

وَيْلَايَ مِنْ نَوْمَى لِلشَّرِّ وَأَوْ مِنْ شَسْلَى الْمُبْدَى  
غَضَنَ نَقَا حَلْ عَقْدَ صَبْرَى بِلَيْنِ خَصْرَ يَكَادُ يُعْقَدُ  
فَن رَأَى ذَلِكَ الْوَشَاحَ الْهَاصَاتِمَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ

أَشْرَفُ مَنْ فِي النَّهَارِ نَاجِي وَغَيْرُ مَنْ فِي اللَّيْلِ نَهْجِي  
وغيرُ بِذَرٍّ لِمُسْجِرٍ بِهِ إِذَا نَالَ كُلُّ مَقْصِدٍ

وموسيقى الآيات بديعة . وقد تخلص تخلصاً رائعاً من الغزل إلى مديح للمصطفى بذكر وشاح صاحبه الصائم كتابة عن تحول خصرها مع ليله ، فمن رآها - كما يقول - صلى على الرسول إعجاباً بها واستحساناً لها ، ومضى يذكر مناجاة الرسول نهاراً وتهجد ليله وأن من يستجير به يتال كل مأمول ومطلب . وله مدحة عارض بها مدحة كعب بن زهير للرسول مقبلاً منها الشطور الثانية لقصيدته ، فإن لم يقتبس شطراً اقتبس كافة .

وزهديات الأنصاري كثيرة ، وكان يصدر فيها عن زهد حقيق في متاع الحياة الدنيا . وفي إحداها يقول :

مُلْكُ الْقَتَاعَةِ عَزْ بُذْهِبُ الذَّلَّةِ      فَمَنْ حَوَى كَثْرَتَهُ لَمْ يُؤْتَ مِنْ قِلَّةِ  
تَبَا لِمَنْ طَمِعَ بِمُسْتَعْبِدٍ وَمَنْ      لَا تَسْتَعْرِ عَلَى رِيٍّ بَلَا غِلَّةِ  
يَسُومُ إِبْلَاعَةً مِنْ رِيْقِهِ بَلَاءً      وَلَيْسَ يَرَوِي وَلَوْ أَبْلَعَتْهُ دِجَلَةُ  
فَانْقَعَ غَلْبُكَ مِنْ نَهْلٍ بَلَا عَقْلِ      وَاقْنَعْ إِذَا أَكَلَتْهُ أَغْثُكَ عَنْ أَكَلَةِ

فالقتاعة - في رأيه - عز ما بعده عز ، ومن حوى كثرتها الذي لا يفي لم يشك من قلة ، ويقول تباً لصاحب طمع يستعبده ومنى لا تروى أبداً فلماذا صاحبا يعاني من غلة العطش وحرارته ، ولماذا يريد أن يبل ريقه ، إذ لا يروى أبداً ولو أبلعته نهر دجلة ، فاكشف بأن تنقع حرارة ظمئك من النهل أو الشرية الأولى من الماء ولا تطلب العسل أو الشرية الثانية منه . واقنع بكفاف العيش ، وطوى لمن زهد وقع وأعرض عن متاع الدنيا الزائل . يقول :

وَأَنْبِغِ أُخْرَى دَائِمٌ فِيهَا نَعِيمٌ وَشَقَاءُ  
وَتَنْصَلُ مِنْ خَطْبِهَا تِلْكَ لَهَا النَّارُ جَزَاءُ  
وَإِذَا صَحَّ لَكَ الْقَوْتُ عَلَى الدُّنْيَا الْخَوَاءُ  
كُلُّ مَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا قُصَارَاءُ الْفَنَاءِ  
وَلَا هُلْ الْخُلْدِ فِي الْخُلْدِ      لِي وَفِي الْبَقَاءِ

وهو ينصح الإنسان أن يسلو الدنيا ويطلب الأخرى دار النعيم للأتقياء والشقاء للمعصاة ، وأن

يتوب إلى ربه مستغفرا من خطيئته وذنبه . ويقول له يكفيك من دنياك القوت الكفاف ، وإذا حصلت عليه لا تتعلق من الدنيا بشيء فكل ما فيها هالك وفان ، والسعادة إنما هي لأهل الجنة والله البقاء والديوم .

وفي الديوان أشعار كثيرة على طريقة لزوم مالا يلزم . ومرتبا أن الصفدى قال إن له فيها ديوانا كبيرا . وقد عرض له الحموى في خزانته طائفة من تورياته وطائفة أخرى من أشعاره وافرة النعم حسنة الجرس والاداء .

### محمد <sup>(١)</sup> بن سوار

هو محمد بن سوار بن إسرائيل بن الحفصير الشيباني اللمشقي المولود والدار والوفاة ، ولد سنة ٦٠٣ للهجرة . وتوفى سنة ٦٧٧ . وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل للثاته من الناشئة ، واختلف إلى حلقات الشيوخ ، ويبدو أنه شُغف بالتصوف منذ أوائل حياته ، ونظن ظنا أنه لزم ابن عرى المتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ غير أن مترجميه يقولون إنه لزم على بن الحسين الحريري المتصوف المتوفى سنة ٦٤٥ وما يشهد لقولهم مريته له ، وهو فيها يبكيه بكاء حارا بمثل قوله :

خَطْبُ كَمَا شَاءَ إِلَهُ جَلِيلُ ذَهَلْتُ لَدَيْهِ بِصَائِرٍ وَعَقُولُ

ويعمّ بالجناب كل قطر ويزعم أن الحقائق الصوفية أصبح عليها ذلة وخمول وأن السالكين إلى التصوف غرّى نهجهم وضلوا السبيل وسُلب الحجاب الإلهي دون أبصار المتصوفة وتختتم دنان خمر الحب الرباني . وإذا رجعنا إلى الحريري عند من ترجموا له وجلدنا فقهاء دمشق يفتنون بقطه - كما أفق فقهاء حلب بقتل السهروردي - لما اشتهر عنه من الإباحة وقذف الأنبياء والفسق وترك الصلاة ، مما يجعلنا نظن ظنا أنه يتأثر السهروردي المقتول . ويبدو أن ملازمة ابن سوار للحريري لم تؤد به إلى المحرفات ، والسبب في ذلك أنه كان متصوفا حقا ، إذ يقولون إنه تجرّد ولبس الرقعات الصوفية ورحل في البلاد على قدم الفقر والتصوف . ولقى - فيمن لقى - شهاب الدين السهروردي الصوفي السني البغدادي وسمع عليه وأجلسه في ثلاث خلوات . ولقى أيضا ابن الفارض متصوفا

لحريري في الفوات ٨٨٧/٢ وكذلك ترجمة محمد بن عبدالمعطي الحمصي في الفوات ٤٥٨/٢ .

(١) انظر في محمد بن سوار شعره وأخباره فوات الوفيات ٤٣١/٢ والتبجيم الزاهرة ٢٨٢/٧ وشذرات الذهب ٣٥٩/٥ والوفاء ١٤٣/٣ وراجع ترجمة علي بن الحسين



مصر المشهور ، ويذكر الرواه لذلك قصة هي أن ابن سوار حج ، فرأى ورقة ملقاة فيها قصيدة - وكانت لابن الحليمي المتصوف المصري تلميذ ابن الفارض - فادعاهما لنفسه ، فراجع ابن الحليمي وعبثا حاول أن يفتحه ، فتحا كما إلى ابن الفارض فطلب إلى كل منها أن ينظم قصيدة على نفس الوزن والروي ، وكانت القصيدة بائية ، فتنظم كل منها على غرارها قصيدة ، فحكم ابن الفارض بأن القصيدة لابن الحليمي .

ولم نصل بين ابن سوار والسهروردى البغدادى لأنه كان سنى التصوف وتصوف ابن سوار فلبسني ويتصل مباشرة بتصوف ابن عرى وما فيه من فكرة وحدة الوجود ، ولذلك وصلناه به ، كما يشهد بذلك شعره من مثل قوله :

إِنْ أَمْ صَحِي سَمًّا أَوْ أَرَاكَ      فَرَاغًا مَقْصَدُهُمْ أَنْ أَرَاكَ  
وَأِنْ تَرُنَّمْتُ بِذِكْرِ الْحَيِّ      فَرَاغًا عَقْدُ ضَمِيرِي حَاكَ  
وَأِنْ بَكَى صَبُّ حَيًّا فَا      أَحْسَبْ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ بَكَكَ  
مَلَأَتْ كُلَّ الْكُونِ عَشْقًا فَا      أَعْرِفْ قَلْبًا خَالِيًا مِنْ هَوَاكَ

فصنعه إن أموا به شجر السمر والأراك فقصدهم أن يرى ربه محبوبه الذى يحل في كل مكان ، وهو حين يذكر في غزله الحمى إنما يريد حماه ، بل إن كل من بكى حياء إنما يبكيه لأنه يحل في جميع الأشخاص والأشياء ، فما يشق الناس شخصا أو شيئا إلا ويمشقونه ، وكان كل شيء مرآة له ، إذ يتراعى في كل الوجود . ويقول من قصيدة ثانية :

يَا مَنْ يَشِيرُ إِلَيْهِمُ الْمُتَكَلِّمُ      وَإِلَيْهِمْ يَتَوَجَّهُ الْمُتَظَلِّمُ  
وَعَلَيْهِمْ يَجْلُو التَّأْسُفُ وَالْأَسَى      وَيَلْدُ لَوَاعِي الْغَرَامِ الْمُعْرَمُ  
هَذَا الْوُجُودُ وَإِنْ تَعَدَّدَ ظَاهِرًا      وَحَيَاتِكُمْ مَا فِيهِ إِلَّا أَنْتُمْ  
وَإِذَا نَقِطَتْ فِي صِفَاتِ جِهَالِكُمْ      وَإِذَا سَأَلَتْ الْكَائِنَاتِ فَنُكْمُ  
وَإِذَا سَكِرَتْ فَنَ مُدَامَةِ حُبِّكُمْ      وَبَذَكْرِكُمْ فِي سَكْرِي أَنْزَمُ  
وَإِذَا نَظِمْتُ تَزَلًا فِي صُورَةٍ      فَلَأَجَلَ حُسْنِكُمْ الْمَهْجَبِ أَنْظَمُ  
أَنْتُمْ حَقِيقَةُ كُلِّ مُوجُودٍ بَدَا      وَوُجُودُ هَذِي الْكَائِنَاتِ تَوْهُمُ

والآيات صريحة في أنه مؤمن بوحدة الوجود . فاقه يحل في الوجود جميعه ، وكل ما فيه من

أشخاص وأشياء مظاهر له ، وهو لذلك إن تحدث عن جميل أوسأل كأننا من الكائنات إنما يسأل الله ويتحدث عن جلاله للشاهد في كل جميل . وهو إذا سكر فسكروه من خمر الحب الإلهي الذي يترنم به ويشدو آناه الليل وأطراف النهار . وهو إذا تنزل في صورة واستشعر وجدا إنما يستشعر الوجد الرباني . وإنه لينبث في كل موجود وحدة متصلة بين الله ومخلوقاته . وهي نفس الأفكار التي تلقاها عند ابن عربي ، ولذلك تكلم فيه أهل السنة ، ورووه بأنه يؤمن بالانحداد بين الله والموجودات . وعلى هذه الشاكلة قوله :

خلا منه طرقي وامثلا منه خاطري      فطرقني له شاكئ وقلبي شاكئ  
ولو أنني أنصفت لم تشكُّ مُقاني      بعدا وداراتُ الوجود مظاهرُ

فإنه يمتزج بروحه ولا يراه ، لذلك طرفه يشكو وقلبه يشكر ، ويقول إنه كان جديرا بمقتله أن لا تشكو بعد الحبيب لأن دارات الوجود جميعا من حوله مظاهره ، فكيف لا تبصره وهو متحد بكل الكائنات مشاهد في كل الأشياء . وكان للمتصوفة لأهمه ليال يميونها بالدخوف والذكر وإنشاد الشعر عليه إلى السحر ، ويروى أنه حضر مع نجم الدين بن الحكم الحموي ليلة من تلك الليال فضى المنفى من شعره :

وما أنت غير الكون بل أنت عينه      وفيهم هذا السر من هو فاتق

قال ابن الحكم : كسر ، فقال ابن سوار : لا ، ما كسر ، لكن أنت ماتهم ، وتشوش المجلس . وفي البيت وفي بقية الشعر ما يدل على ابن سوار يريد أن يقول - على أساس ما يرضه من فكرة وحدة الوجود - إن الله هو الكون أو الوجود بجميع ما فيه ، والفكرة بأساسها - كما يرضها ابن الحكم - يرضها - كما ذكرنا ذلك أيضا - أهل السنة وأصحاب التصوف السني .

### ضيف<sup>(١)</sup> الدين التلمساني

هو سليمان بن علي بن جده الله الكوفي التلمساني ، وتدل نسبة إلى تلمسان في الجزائر على أنه مغربي الأصل ، كما تدل نسبة إلى الكوفة على أن بعض آباءه نزل الكوفة واستوطنها فيها يدعو ،

الزاهرة ٢٩/٨ والفلسفات ٤١٢/٥ وديوان الحقائق  
ومصروع الرقائق لعبد الله التلمساني ص ٢٨٩ ، ٣٢٦ .  
وديوان ضيف الدين طبع قديما بالقاهرة ويعود .

(١) انظر في ضيف الدين وأشعاره وأخباره فوات  
الروايات ٣٩٣/١ وراجع فيه ترجمة ابن الحمصي ٤٦٣/٢  
وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٦/١٣ والنجوم

ولا نعرف شيئا عن نشأته ، ويدور أنه نشأ بدمشق وأنه اختلف إلى حلقات علمائها يأخذ كل ما عندهم ، ولعل ذلك ما جعله يؤلف في كل علم كما يقول صاحب الوفيات . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وعُرف فضله وأدبه ، ويقول مترجموه إنه خدم بعدة جهات بقصدون عدة مناصب ، وأغلب الظن أنها جميعا كانت في دمشق وفي دواوينها وخاصة في بيت المال . وأخذ مبكرا يتصل بالمتصوفة ولزم صدر الدين القونوي أحد أتباع ابن عربي ، ويدور أنه اعتنق مذهبه في وحدة الوجود على يده . ونزل معه في العقد السادس من القرن السابع خاتناه سعيد السعداء بالقاهرة ، ومكثا بها مدة ، رُزق في أثناءها بابنه الشاب الظريف سنة ٦٦٦ وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزل . ولقى في القاهرة مع أستاذه صدر الدين القونوي ابن سبعين الأندلسي ، وكان على شاكلة القونوي وابن عربي يؤمن بوحدة الوجود ، فأكد لها في نفس عفيف الدين . وعاد إلى دمشق ، وتارة كان يعمل بها في الدواوين ، وتارة ثانية كان يفرغ للتصوف داعيا إلى طريقة ابن عربي ، ومذهبه في وحدة الوجود . وترك دمشق مدة إلى الأناضول ، أو كما كانت تسمى حينئذ بلاد الروم ، وعمل فيها أربعين خلوة صوفية ، يخرج من واحدة ويدخل في أخرى . ويقول مترجموه إنه كان حسن العشرة كريمة الأخلاق له حرمة ووجاهة ، ولعله لذلك لم يتعقبه الفقهاء ، وظل موزعا بين عمله في دواوين دمشق وعمله في ميدان التصوف حتى توفي سنة ٦٩٠ للهجرة .

وكان تصوف عفيف الدين - كما ذكرنا آنفا - تصوفا فلسفيا على طريقة ابن عربي ، مما جعله يُعنى بشرح أعقد كتبه في التصوف وتقصد كتابه : « فصوص الحكم » وفي مكتبة ولي الدين بإستانبول مخطوطة منه . وأشعاره الصوفية أشعار غزلية حسية على طريقة ابن عربي في ديوانه « ترجان الأشواق » من مثل قوله في قصيدته التي نظمها على غرار قصيدة ابن الحيمي المذكورة آنفا في ترجمة ابن سوار :

لولا الحيمى وظباء بالحيى عُرِبُ	ما كان في البارق التجديى لى أُرِبُ
وفى رياض بيوت الحيمى من إضمِر	وَرَدَّ جَنَى ومن أكمامه الثُقبُ
لا تندر الحُجبُ أن تُخفى عَاشَتَه	وإنما في سَناء الحُجبُ تَحَجَّبُ
ياسالما فى الهوى مما أكابده	رققا بأحشاه صَبَّ شَقَه الوَصَبُ
هل السلامة إلا أن أموتَ بهم	وَجَدًا وإلا بُقَيَاى هِىَ العَطَبُ

وعفيف الدين يستشعر وجد الهجين إزاء محبوبه الربانى ، ويتحدث عنه حديثا رمزيا ، فلولا

حياه ما كان له أمل وراء البارق النجدي ، ولا كان له ولوع بورد الخلود في رياض بيوت الحى من اضم . ويعصور كأن الأفعى أو الحجب التي تُسَكَلُ حل تلك الخلود هي أحكام الورد ، ويقول إن الحجب لا تستطيع أن تحنى محاسن إذ تلوب في ساء وضياته للشرق . ويذكر أن أحشائه تستمر أوجاع حبه وأن سلامته إنما هي في أن يموت في حب ربه وجدا وهياما ، وإلا فبقاؤه هلاكه ، ويقول إن السكارى يفيقون من سكرهم ، وهو لا يفيق مما شرب من دَنَ هذا الحب الإلهي :

لأخضروا أنقى عن حبكم مالى وحكم لم يزل حالى بكم حالى  
يا ساكنين قراى وهو منزلكم لاحت يوما أراه منكم خالى  
أنتم بقلبي أدنى من جوائحه حقا على رهم حساى وحلال  
أوضحتم حببكم طريقكم حاشاكم تهجروني بعد إصالي

وفي البيت الأول تورية واضحة في كلمة « حالى الثانية » إذ ليس المراد معناها الظاهر كما في « حالى السابقة » وإنما المراد أن حاله لا يزال بحبه لربه حاليا أومزاجا بجلى بدية . ويقول إن محبوه الإلهي حال بفزاده وأنه أدنى لقلبه من جوائحه وما يحيط بها من صدره ، وكأنما يشير إشارة إلى فكرة الاتحاد بالذات الإلهية التي كان يؤمن بها ابن عربي . ويضرب إلى محبوه الرباني أن لا يهجره بعد وصله . ويقول :

يا أصبحاى بنى سلم من أصبحاى وما السلم  
أنا على اليوم في شغل فادكروني إن نسينكم  
وأشبعوا في الجنى خبرى وأذيعوا السر واكتسبوا  
لا يراى الحب مُكَنَّباً بعد مالاحت لى الخيم  
كنت قبل اليوم في حلم وتفضى ذلك الحلم  
لزمان كل طرب دونه الأوتار والسلم

إنه على وشك أن يحقق أمله في الوصول إلى محبوه الإلهي . وهو لذلك يخاطب أصحابه بنى سلم أحد المواضع النجبية التي يذكرها أصحاب الغزل العلى . ويرجع إلى نفسه وقد لاحت له أيام محبوه ، كما يقول ، فيظن أنه في شغل عن أصحابه وعن السلم ، وأنه لن يتنى عن طريقه إلى محبوه الذى طالما حلم بوصله ولقائه ، وقد انقضى عهد الحلم . وهو لذلك فرح

مبتهج ، وزمانه من حوله كله طرب طربا يفوق طرب الأوتار والأنغام واللحن . ولما في هذه القطعة وسابقتها من وجد صوفي مندلع ختمها عبد الغنى النابلسي مع أبيات متصلة بها لم نشدها ، وهو وجد كان لا يزال يملأ قلب عفيف الدين غبطة وابتهاجا .

### عبد الغنى <sup>(١)</sup> النابلسي

هو عبد الغنى بن إسماعيل النابلسي الدمشقي الحنفي ، كان أبوه من فقهاء دمشق الأحناف ، وكانت له حلقة بجامعها الأموي . ودرس فيها بالمدرسة القيمرية وجامع السلطان سليم ، ورحل إلى حلب والقسطنطينية والقاهرة واستقر بدمشق . وولد له فيها ابنه عبد الغنى سنة ١٠٥٠ للهجرة ، وعُني بتعليمه بعد حفظه للقرآن الكريم ، فلقنه المذهب الحنفي ، ودفعه إلى حلقات العلماء في دمشق بأخذ عنهم العربية والفقه والحديث النبوي والتفسير ، وأكبُّ على كتب الصوفية يقرؤها . وسرعان ما نضج علميا وهو لا يزال في العشرين من عمره فأخذ يقرأ الدروس ويلقيها على طلابه ، مما جعله يكثر من التأليف والتصنيف حتى لتبلغ مصنفاته ٢٢٣ مصنفا ، وقد استغرقت في كتاب سلك الدرر للرمادي سبع صفحات . واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ يعنى بالتصوف ، فانتظم في الطريقة القادرية ثم في الطريقة النقشبندية ، وله فيها مخطوطة بدار الكتب المصرية عنوانها : مفتاح المية في الطريقة النقشبندية ، ثم جذب به إليه مذهب ابن عربي الصوفي الفلسفي ، وكأنما عاش به وفيه وله ، إذ يصدر عنه بوضوح في ديوانه الصوفي . ديوان الحقائق ومجموعة الرقائق ، وهو فيه يجاهر بأنه يؤمن بوحدة الوجود التي آمن بها من قبله إمامه ابن عربي ، ويرد دائما : ليس في الكون سواء ، فلا موجود إلا به ، وما الكائنات إلا صورة له ، يتجلى فيها بأسمائه وصفاته ، يقول :

إنه الله وجود واحد	حكمة فينا حرام وحلال
وهو حق وسواء باطل	قال في القرآن والسبح الطوال
أيها أنتم تولوا ثم وج	له الإله الحق محمود الفعال

الرقائق في صريح اللواجيد الإلهية والتجلات الربانية  
والفتوحات الأسمية : طبع قديما بمصر بالمطبعة الأشرفية  
في ٤٧١ صفحة من القطع المتوسط .

(١) انظر في عبد الغنى النابلسي وأشعاره وأخباره  
كتاب سلك الدرر ٥٣٠/٣ ومفحة الرمانة ١٣٧/٢  
وتاريخ الجبرتي ١٥٤/١ وله ديوان الحقائق ومجموع

وهو يستدل على صحة القول بنظرية وحدة الوجود بقوله تعالى في سورة البقرة : ( وفيه المشرق والمغرب فأبينا نُورُكُم وجه الله ) والآية إنما تشير إلى أن أى مكان من المشرق والمغرب بأمرهم الله باتخاذها قبله تكون هناك جهته التى أمرهم بالاتجاه إليها لا أنه موجود فيها حالاً بها ومتحد معها كما يذهب النابلسي وابن عربى زاعمين أن ذاته هى ذات جميع الكائنات ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ويقول النابلسي متحدنا بلسان الذات العلية :

أَلَا إِنَّ ذَاتِي ذَاتُ كُلِّ الْخَلْقِ وَكَأَنَّ عَنِّي ذَا عِلْمٍ كَرِيمٍ الْخَلْقِ  
وَلَا صِفَةً إِلَّا وَمَنِي تَعَيَّنَتْ لِمَوْصُوفِهَا إِذْ كُنْتُ أَصْلَ الْخَلْقِ  
أَنَا الْجَوْهَرُ السَّارِي بِغَيْرِ سَرَايَةٍ أَلَوْحٌ وَأَخْفَى فِي جَمِيعِ الْخَلْقِ  
أَنَا النُّورُ نُورُ الْعَيْنِ مَنِي تَكُونَتْ عَيُونُ الْبَرَايَا مِنْ مَشُوقٍ وَشَائِقِ

فالله جوهر الوجود ، يلوح ويخفى ولاسواء ، إذ كل ما في الكون مظاهر له ، يصبغها بوجوده . ويحاول النابلسي جاهداً أن يفرق بين القول بالحلول وأن الله يحل في جميع الموجودات وبين ما يزعمه هو وابن عربى من وحدة الوجود ، وإنما لتبلغ به أن يقول في مخاطبة ربه ، « ها أنت أنا وليس في الحضرة ثاني » أو كما يقول :

اثنان نحن وفي الحقيقة واحدٌ لكن أنا الألفى وأنت الأكبر

فهو والله واحد بل جميع الكائنات والله - جل جلاله - واحد . وهى نفسها فكرة وحدة الوجود التى يحاول جاهداً الخلاص منها ولاخلاص فهو غارق فيها . وهو بذلك من أصحاب التصوف الفلسفى على طريقة ابن عربى . وله شرح على ديوان ابن الفارض حاول أن يجعله رموزاً خالصة على نحو ما نجد في شرحه لأول بيت في القصيدة البائية بالديوان :

سَاتِقَ الْأُظْهَانِ يَطْوِي الْيَدَ طَى مَتَمِّمًا عَرَّجَ عَلَى كُتُبَانِ طَى

يقول : « سَاتِقَ الْأُظْهَانِ هو الله تعالى ، والأُظْهَانِ : الناس وكتبان طَى كتابة عن المقامات المهدية التى عددها كرمال الكتيب ، فكأنه يلتمس من الله تعالى أن يوصله - كما يوصل جميع المؤمنين - إليها . وابن الفارض لم يقصد إلى شيء من هذا كله ، إنما خاطب سَاتِقَ الْأُظْهَانِ المتجه إلى منازل طَى على حافى نجد والحجاز ليشمّل قلباً حتى يجيبى من يمر بهم في طريقه إلى الحجاز معبراً بذلك عن حنينه إليه . وطبيعى وهو قد قرأ ابن الفارض وابن عربى وتمثل كثيراً من

أشعار المتصوفة علمها لها ومشطرا كما يتضح في ديوانه الصوفي أن نراه تارة ينزل في بنية وعروة  
وسلى وزينب وسعاد ، وهى كلها رموز للذات الربانية ، وتارة ثانية يصف الحمر وساجيا وكأسها  
وشرايا وحجابها وما تحطت في روحه من نشوة وفي عقله من شطح . ونراه يهاجم علم الكلام  
وللتكلمين إذ يدعو إلى ضرورة العلم بالله عن طريق النظر العقل الفلسفى لا كما يؤمن للمتصوفة بأن  
هنا العلم إنما يستمد من القلب ، وشأن بين علم العقل والفلسفة وعلم الهبة القلبية . وله قصيدة  
بديعة في الاستغفار من ذنوبه وخطاياها امتدت إلى ٩٢ بيتا تلاها بالصلاة على الرسول الكريم وآله  
وأصحابه والتابعين وقصيدة ثانية توسل فيها بأسماء الله الحسنى أن يدفع عنه كل شر ويسبغ عليه كل  
خير ، وختمها أيضا بالصلاة على رسول الله وآله وأصحابه ، وله في الرسول غير قصيدة نبوية وغير  
موشح وقد افتح موشحا له بقوله :

نورُ طَلْعِ المصطفى منه جميعُ الكائناتِ      وبه كان الدفء في جميع الشرجاتِ  
ونحسُّ في الموشح إيمانه بفكرة الحقيقة الحمديدية السارية في الكون بأسره التى تحفظ عليه كيانه  
وتصون وجوده ، فكل وجود مستعار من وجوده وكل نور مستمد من نوره . وفي الديوان  
موشحات ودوبيئات أو رباعيات كثيرة ، وتكثر مثلها للمواليا العامية ، وفي الديوان أيضا منظومة  
صوفية من وزن « كان وكان » العامى .

## ٦

## شعراء شعبيون

لا نقصد بشعية الشعراء في الشام أنهم نشأوا في بيتاتها الشعبية من سلاله حامتها ، فغالما  
جمهور الشعراء في كل بلد عربى انحدروا من أسر شعبية ولم ينحدروا من أسر أرسطراطية ، وإذا  
استثنينا أبا فراس وبعض أفراد أسرته الحمدانية عن أنشد أشعارهم التعاللى وأيضاً بهرام شاه الأيوبي  
صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ للهجرة ونقرأ من أفراد أسرته ممن ترجم لهم الهاد في خريدته  
بقسم الشام ومن جاء بعدهم مثل الملك الأشرف صاحب « حصن كيفا » خفيد الملك العادل أخى  
صلاح الدين المتوفى سنة ٦٣٦ إذا استثنينا هؤلاء الأمراء وهم قلة بجانب الكثرة الغامرة من الشعراء  
وجعلنا منْ عدهم من أبناء الشعب . وكان بينهم غير شاعر يحترف صنلا بكل له عيشه ، مثل  
يحيى الحجاز الحموى الذى أنشد له صاحب الخزانة طرائف كثيرة من تورياته ، وبالمثل صنع مع

شمس الدين محمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٨١١ واشتهر باسم صنعته . شمس الدين المزين : لا نريد إذن بشعية الشعراء التالين نشأتهم في أوساط شعبية ، وإنما نريد أنهم اتخذوا لغة الشعب العامة لسانا لهم في أشعارهم .

وكانت قد أخذت تشيع في الشعر لهذا العصر فنون شعرية عامة هي : الزجل والمواليا ، والقوما والكان وكان ، ومعروف أن الزجل نشأ في الأندلس أولا عند ابن قزمان وصحبه في القرن الخامس ثم شاع في البلاد العربية . أما المواليا والقوما والكان وكان فنشأت أولا بالمراق ثم أخذت تشيع في البلاد العربية منذ القرن السابع . وربما كان الزجل أكثرها شيوعا في الشام يدل على ذلك أكبر الدلالة أننا نجد صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة في كتابه : « العاقل الحالى » ينوه بشيوع الزجل لزمنه هناك ، ويقول إنه لقي من أعلامه بدمشق شهاب الدين أحمد الأمشاطى إمام هذا الفن الشعبى بها كما لقي بجلب راوية ثقة من أكبر رواة هو ابن الضرير الشيخ الصالح إمام الفردوس ، وكان قد جلب لنفسه نسخة وثيقة مقابلة على الأصل من ديوانى الزجالين الأندلسيين الكبيرين : ابن قزمان ومدغليس حملت إليه من المدرسة الأشرفية بدمشق . ويدكر صفى الدين أنه كان قد حصل على الديوانين في زيارته لمصر ( ٧٢٣ - ٧٢٦ هـ ) غير أنها كانت بخط مغربى تعسر قراءة بعضه ، فصصح الديوانين بمقابلة نسخة ابن الضرير ومراجحته ، وأجاز له بخطه ما نقله عن نسخته ، وعرفه بمشايع الزجل في حلب . ومن أعلامه البارعين حيثد بحجة علاء الدين بن مقاتل ، وسنترجم له عما قليل . ولعلنا لانعجب بعد أن رأينا إقبال أهل الشام على قراءة ابن قزمان ورواية أزجاله أن تكون هي القطر الوحيد الذى احتفظ إلى عصرنا بمخطوطة أزجال ابن قزمان الوحيدة التى عثر عليها جتزيرج سنة ١٨٩٦ ونشرها بطريقة الزنكفراف . ولعل من الطريف أن نعرف أن .. فقيها محدثا كبيرا هو شمس الدين بن الصائغ المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة ألف شرحا على بردة البوصيرى باسم رقم البردة ، استشهد فيه بشعر أهل زمنه فيها عرض له من أنواع البديع وأيضا استشهد بطائفة من محاسن أزجالهم <sup>(١)</sup> ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة من هذا الشرح . وهو اعتراف قوى بالزجل وصلاحيته ليكون مادة لتعليم البلاغة والتطبيق على محسناتها المختلفة .

وكانت المواليا شائعة أيضا . وإن لم يقصر بعض الشعراء نفسه على النظم فيها . وكأنما كان الشعراء يضيفونها إلى شعرهم الفصحى استطرافا ، وقلما تُصاغ صياغة فصيحة ، إذ تُطرد فيها



العامية ، وما يلقانا من طرائفها قول جويان بن مسعود الدمشقي المتوفى في حدود سنة ٦٨٠ للهجرة<sup>(١)</sup> :

أفارقهُ وأول إني قد انسلَّيتُ وريختُ قلبي وزال هم وانتخَلَّيتُ  
واذكر مساويه في حق إذا ولَّيتُ وإذا رجعتُ نِسبتُ الكلَّ وانتخَلَّيتُ

والتورية واضحة في كلمة « وانتخَلَّيتُ » المكررة قافيةً لليتين ، والأول من التخلَّى بمعنى أنه أصبح خاليا من الهم والغم ، والثانية كلمة عامية من الخلل ، تقول العامة أصابه خلل واختل عقله . ويريد أنه إذا لقي صاحبه أصابه ذهول ، ففسى كل ما كان فيه من فكر فيها وسلوى عنها وُبعد عن الهم .

ونلتقي بمعاصره عز الدين بن السويدي المتوفى سنة ٦٩٠ وهو من سلالة سعد بن معاذ الأوسى سيد قومه الصحاحي الجليل . وكان شيخ الأطباء بدمشق ، وكان - كما يقول بعض من ترجموا له - من أسرع الناس بديهة في قول الشعر وأحسنهم إنشادا ، وله مواليا<sup>(٢)</sup> :

البدر والسُّعد ذا شِيْبهكُ وذَا نَجْمِكُ والقَدْ واللَّحْظُ ذَا رَعْمِكُ وذَا سَهْمِكُ  
والبغض والحب ذَا قِسْمِي وذَا قِسْمِكُ والمسك والحسن ذَا خَالِكُ وذَا عَمِكُ

فصاحبه تشبه البدر ونجمها أو حظها السعد ، وقدها مستو ممشوق مثل الرمح وحظها فائق قاتل مثل السهم ، والبغض قسمها ونصيبها والحب قسمه ونصيبه ، والمسك خال الحسن على وجبتها والحسن يعم كل أعضائها وفي كلمة « عَمِكُ » تورية واضحة . وله مواليا أخرى فكهة :

ذِي قَابِلِه لآخِنَهَا والقصد تُسَمِّنَا مَا النَحْوُ؟ قَالَتْ لَهَا : نَحْنَا بِأَجْمَعِنَا  
الرفع والنصب نَا وَانْتَى وَمِنْ مَعْنَا للجر ، والزوج حرف جاء للمعنى

والدعابة للنحو والنحاة واضحة ، وكلمة نَحْنَا هي نحن بالفصحى . ونظَّم أصحاب المواليا في جميع أغراض الشعر من غزل ومديح وهجاء وخمر وطبيعة ، واستغلُّوا التصوفة فنظموا مواليات كثيرة . ونلتقي في ديوان عبد القى التابلسي بنحو ثمانين مواليا نكتفي منها بقوله<sup>(٣)</sup> :

نثرى بردى ١٢٧/١

(١) نوات الوفيات ٢١٨/١

(٢) ديوان الحقائق للتابلسي ص ٢٦٨ .

(٣) راجع في هذه المواليا وتاليفها النبل الصافي لابن

الباطن السابق الظاهر هو للسبوق والكل واحد فكن أهل من العيوق  
 واخرج عن الكل أنت الكل يامحتوق أما الجميع هو الخالق أو المخلوق  
 فليس في الكون إلا وجود واحد هو وجود الله المتمثل في جميع مخلوقاته ، أو بعبارة أخرى  
 هي وحدة وجود تغمر الكون كله .

ومعروف أن القوما اخترعها للفتون والفتشون يفتاد لإيقاظ الناس كي يتناولوا سحرهم  
 استمدادا للصوم ، وكانوا يختصمون كل يمين منها أو دور بكلمة « قوما للسحر » ومن هنا أخذت  
 اسمها وشاعت في البلدان العربية . أما الكان وكان فقد اخترع البضاديون وزنه لنظم الحكايات  
 والخرافات وأحداث التاريخ ، ثم اتسوا به فنظموا فيه المواعظ والزهديات والحكم كما مر بنا في  
 قسم مصر . ولابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ منظومة <sup>(١)</sup> منه صور فيها أحداث وباء الطاهون الذي  
 امتحن به الشام ومصر سنة وفاته . وفي ديوان عبد الغني التابلسي منظومة صوفية منه في  
 حشرين <sup>(٢)</sup> يتا تصور عقيدته في وحدة الوجود . وحرى بنا أن نتحدث بكلمة مجملة عن  
 أبي العلاء بن مقاتل الزجال .

### أبو <sup>(٣)</sup> العلاء بن مقاتل

هو علي بن مقاتل الحموي ولد سنة ٦٧٤ هـ ، ويقول ابن حجر إنه « تعالى الأدب فتملم  
 الشعر قليلا ، وغلب عليه نظم الأرجال فاشتهر بها ، وأزجاله في ديوان مفرد في مجلدين .. وكان  
 هذا الفن قد انتهى إليه في زمنه .. وكانت وفاته في أوائل سنة ٧٦١ » ويذكر ابن حجر: أن له  
 زجلا مشهورا في الملك للزيد صاحب حماة ( ٧١٠ - ٧٣٧ ) أنشده إياه وعنده ابن نباتة والصن  
 الحل . وكان الصن قد نزل حماة ومدح المؤيد وابنه الأفضل في أول شعر العقد الثاني وأوائل الثالث  
 من القرن الثامن . ويشيد به ابن حجة الحموي في خزانة كاللا : « وكان الشيخ علاء الدين بن  
 مقاتل إذا ذكر الزجل كان ابن بجندته وأبا طهرته ، ومن سُلِّمت إليه مقابل هذا الفن . وأورد  
 الشيخ صلاح الدين الصفدي تبلة من غرر أزجاله في تذكرته وتاريخه نغى من الإكتار في  
 ترجمته . » وينشد الحموي زجله المشهور آنف الذكر وهو يستله على هذا الخط :

للحموي ص ٤٧ ، ٥٠ ، ١٧٦ والدرر الكاتبة في أحيان  
 ثلاثة أكتبة لابن حجر ٢٠٨/٣ وأشد التولجي له في كتابة  
 عقود هؤلاء سنة أزجال ( انظر فهرس )

(١) تمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي

٣٠٢/٢

(٢) ديوان الخاقاني للتابلسي ص ٣٥٦ .

(٣) انظر في أبي العلاء بن مقاتل وأزجاله خزانة الأدب

قلبى يحب ثياه ليس يمشق إلا إياه  
 فازمن وقف وحيّاه يرصد على مُحْيَاه  
 بنز السما لو يطبع  
 من رام وصاؤو يعطّب  
 صغير يحمر في أمرو غزال قهر يمشرو  
 ليث الهوى ونمرو فاعجب لصغر عمرو  
 رم ابن عشر وأربع  
 أزدى الأسود وأزعب  
 أذكر نهار نبتو وروحي كنت بعنو  
 وخيب ما فيه طمعتو فقال وقد سمعتو  
 ارجع ولالى تبع  
 أخشى عليك لتعب  
 كم قدامو وخلفو مشيت مطيح للحفو  
 ورؤيت لكم كفو قال دغ مأك وكفو  
 فإن لم إصنع  
 من الثريا أصعب

وبمجرد أن نسمع هذا الصوت نعرف أن صاحبه زجال مبدع لقدرته على اختيار الألفاظ  
 بحيث يعانق بعضها بعضا منذ الدور الأول « ثياه » تجذب إياه و « حيّاه » تجذب محياه ، وبالمثل  
 « يطبع » في القفل تجذب يعطّب . وكأننا في مرقص للألفاظ وبذلك يتسق النغم في الزجل اتساقا  
 بديعا ، وكأنه عطر للأذان تستروحه مع روعة التصاوير وخفتها ورشاقها ، فصاحبته بدر في السماء  
 لاتصل إليه الأيدي ، وهي غزال قهر بعينها الكحيلتين أو السمراوين .. مع صغرها الليوث  
 والنمور . وتهلكها وترعبها رهبا . ونصيحته أن لا يتبعها ، فأمله فيها سراب كاذب . ويحاول لثم  
 كفها أو أغلا من أناملها فتقول له الثريا وأخواتها من نجوم السماء أقرب لك . وهي صنعة زجلية  
 رائعة منتهى الروعة . وقد تلاعب بالجناس للقلوب في الأفعال تلاعبا يدل على مبلغ مهارته ،  
 فيطبع تقابلها يعطّب ، وأربع تقابلها أربع ، وتبع تقابلها تبع وإصبع تقابلها أصعب .  
 وبذلك كله يتحول الزجل باللغة اليومية العادية التي لا تخشى فنا إلى لغة زجلية شجية النغم كأنها  
 تغريد عندليب مع ما يحمل العنديل أنغامه من تلاوين الصور والأخيلة ، ويحيى يقول صاحب  
 الحزنة عن هذا الزجل : « سارت به الركبان » . وأنشد له صاحب الحزنة زجلين آخرين بديعين .

## الفصل الخامس

### النثر وكتابه

١

#### الرسائل الليوانية

عرفت الشام الرسائل الليوانية منذ عهد معاوية أول خلفاء بني أمية ، لما كان من اتخاذ ديوان الرسائل ، واتخذ معه ديوانا للخراج وديوانا ثانيا للخاتم <sup>(١)</sup> أو ختم الرسائل التي تصدر عنه إلى الولاة ، وبهذا خاصة الديوان الأول : ديوان الرسائل ، إذ مضى معاوية ومن تلاه من الخلفاء الأمويين على اختيار من يقومون عليه ، بحيث يكونون في اللزومة من البيان والبلاغة لرسائلهم ، وقد ظلوا طوال القرن الأول يختارونهم من العرب ، ويذكر الجهمي أنباء طويلة بأسمائهم . أما ديوان الخراج فكان يقوم عليه كتاب من الموالي فأصبح كتابه من العرب ، وسرعان ما غنى الكتاب الأجانب بتعلم العربية وأدخلوا يشاركون في ديوان الرسائل <sup>(٢)</sup>

ومانصل إلى زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ( ١٠٤ - ١٢٤ هـ ) حتى يصحح زمام ديوان الرسائل في دمشق يد مول هشام هو سالم <sup>(٣)</sup> ، وكان يقن اليونانية ونقل عنها بعض رسائل لأرسطاطاليس <sup>(٤)</sup> ، ومعنى ذلك أنه كان متقفا ثقافة عريضة بالعربية والإسلام واليونانية ، وعده صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأول في تاريخ العرب وأدبهم ويقول إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة <sup>(٥)</sup> واحتفظ الطبري برسالة له كتبها عن هشام إلى خالد القسري ، وهي تحمل عناية واضحة بالأسلوب وما يوفره له من الازدواج والترادف الصوفي . وتجمه في النهوض بالرسائل

(١) الوزراء والكتاب للجهمي ( طبعة الحلبي )

(٣) الجهمي ص ٦٢ .

(٤) الفهرست ص ١٧١ .

ص ٢٤ .

(٥) انظر الفهرست ص ١٧١ ، ١٨٢ .

(٢) انظر في ذلك الفن وملاحقه في النثر العربي ص

السياسة تلميذان : أحدهما من بيته هو ابنه عبدالله ، وثانيها من غير بيته هو عبد الحميد الكاتب الذي انتهت إليه رئاسة ديوان الرسائل في أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وهو أبلغ كتاب اللواوين وأشهرهم حتى زمنه ، لبلاغته وقد ضُربت بها الأمثال ، فقيل : « بُدئت الكتابة بعد الحميد وتُختم بابن الحميد » <sup>(١)</sup> ويقول ابن النديم : « عنه أخذ للقرسلون ، ولطريقته لزمو ، وهو الذي سهّل سيل البلاغة في القرسل » <sup>(٢)</sup> ويقول المسعودي إنه « أول من استخدم التعميدات في الكتب » <sup>(٣)</sup> ، واشتهر برسالة وجه بها إلى الكتاب ، وهي تدل على غموظاتهم وأنهم أخطوا يشكّلون فئة بارزة في حياة الدولة والمجتمع ، وفيها ينصحهم أن يلموا بالثقافة الإسلامية والعربية والأجنبية <sup>(٤)</sup> . وكان يعرف الفارسية ، ويقول صاحب الصناعات إنه استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي فحوّلها إلى اللسان العربي <sup>(٥)</sup> ، وذكر الجاحظ أنه ترجم بعض كتب من الفارسية . وتحتفظ الكتب الأدبية ببعض رسائله السياسية ، ومنها رسالة <sup>(٦)</sup> طويلة كتب بها عن لسان مروان بن محمد إلى ابنه وولي عهده عبدالله حين وجهه لمحاربة بعض الخوارج ، وهي أشبه بكتيب يشتمل على دستور محكم لقواد الدولة يضع لهم نظاما دقيقا لجيوشهم وتدير شؤونها من الوجهتين المادية والحربية . وبمجرد أن تحولت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين وحلت بغداد محل دمشق أصبحت هي والشام جميعه ولاية تابعة للعباسيين ، ولم يعد لديوان الإنشاء كبير أمر في عصر الولاة الطولونيين والإخشيديين ، بل لقد تعطل تماما ، ولم نعد نسمع للدمشق أو للشام بكاتب كبير ، إذ تحولت الكتابة الديوانية وتحول معها ديوان الإنشاء إلى بغداد ، وأصبحت طوال القرون : الثاني والثالث والرابع متشددتين إلى ديوان بغداد وكتابه العظام ، وأخذت الدولة الطولونية تعنى في القساطر بهذا الديوان وظهر فيه ابن جدكان وأضرابه ، واستمر هذا النشاط زمن الإخشيديين ولكن شيئا منه لم يسقط إلى الشام ، إذ كانت حينئذ ولاية تابعة للطولونيين والإخشيديين جميعا ، وظل كثير من بلدانها تابعا لمصر في زمن الدولة الفاطمية ، ولم ينشأ حينئذ في دمشق أو غيرها ديوان إنشاء بنهض الكتاب فيه بالكتابة الديوانية ، حتى إذا أظّل دمشق حكم دولة الأتابكة البوريين ( ٤٩٧ - ٥٤٩ هـ ) رأيناها تعنى

بهذا الديوان ، ويشتهر ببلاغه الكتابة فيه كتاب مختلفون ، لعل أهمهم سني الدولة<sup>(١)</sup> ابن أخى الشاعر ابن الحياض الذى ترجمنا له بين شعراء المديح ، ويذكر له العهد قطعا مختلفة من منشوراته وتقاليد ، من ذلك قوله فى منشور بالوزارة :

« لما كان عمله عندنا خطيرا ، ومكانه لدينا مكيئا أثيرا ، لافرين بحاربه ، ولانظر بمآله ويأريه ، ولا متناول يطمع فى إدراك معاليه ، شدتنا بركته أركانها ، وسدنا به مكانها ، وحوّلنا عليه فيها ، واستنضاه لتوليا ، ورأبناه كنفها وكافيا ».

وكتاباته على هذا النحو دائما مسجوعة سجا فيه غير قليل من الرشاقة والعلوية . وكتب بعده لسلطين دمشق البوريين عبد الله بن أحمد الحميدى المعروف باسم ابن النقاد<sup>(٢)</sup> الكاتب الدمشقى ، وظل يكتب لهم إلى أن تملكها منهم نور الدين محمود ، وكتب له مدة يسيرة ، وتوفى سنة ثمان أوسع وسخن وخمبائة ، ولم يذكر العهد شيئا من كتاباته .

ويُظَلُّ حلب ودمشق . وبلدان الشام الشمالية عهد نور الدين ( ٥٤١ - ٥٦٩ هـ ) وكان وزيره ومستوفى دواوينه وكتابة الإنشاء فيها خالد بن محمد بن القيسرانى ، وهو ابن الشاعر المترجم له بين شعراء المديح ، ويقول العهد فيه : « كان نور الدين رضى واصطنعه ، وبلغ منه مبلغا من الأمركأنه أشركه فى الملك معه »<sup>(٣)</sup> ويذكر له ابن واصل توقيعا كتبه باسم نور الدين لرفع المكوس والضرائب الباهظة عن كاهل رعيته فى البلدان التى أنظفها حكمه جاء فيه<sup>(٤)</sup> .

« وقد علمتم - معاشر الرعايا وفقكم الله ورعاكم - ما كان مرتبا من المظالم المصحفة بأحوالكم والمكوس المستولية على شطر أموالكم ، والرسوم المضيفة عليكم فى أرزاقكم ، وللتون التى تساهمكم فى منافع أملاككم ، واستمرار ذلك عليكم إلى أن قُرض الله - عز وجل - لنا - تدير أموالكم ، واسترحانا على كبيركم وصغيركم ، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولا فأولا ، ولم ينبغ فى إقراره على وجوه شبهة ولا تأولا » .

وبلى ذلك بيان بما أسقط نور الدين عن كل بلد من المكوس والضرائب . وكان من كتابه أبو اليسر<sup>(٥)</sup> شاكِر بن عبد الله للمرى كاتب الإنشاء بدمشق ، واستحقاقه من الخلعة سنة ٥٦٣

(٤) انظر طرح الكروب لابن واصل ٢٧٠/١ وما بعده .

(١) انظر فى سنى الدولة الحريدة (بداية الشام) ص

(٥) الحريدة (قسم الهام) ٣٥/٢ وراجع فى أبي اليسر تعريف القدماء بأبى الطلاء ص ٥٠٤ .

(٢) الحريدة (قسم الشام) ٣١٤/١ وتعليق تاريخ ابن صاكر ٢٧٧/٧ والتجزم الزاهرة ٦٥/٦ .

(٣) الحريدة ١٢٥/١ .

فأقام الهاد الأصمباني مقامه ، وأضاف إليه - كما هو معروف - التدريس في مدرسته المعروفة باسم للمدرسة النورية الشافعية . ووصله القاضي الفاضل بصلاح الدين فرسم باست كتابه في ديوانه بالشام ، وسفرد له ترجمة مجملة ، وهو أكبر كتاب الدولة الأيوبية في دمشق والشام غير منازع . وتحول الشام إلى إقطاعات بعد زمن صلاح الدين ، حتى ليوشك أن يكون لكل بلد أمير أيوبى ، ويتخذ كل أمير لنفسه كاتب رسائل نابه ، وكان بينهم غير مصرى مثل ابن النيه كاتب الأشرف موسى ، وهو مشهور بين شعراء الغزل في مصر ، ومثل عبد الرحيم بن على بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ صاحب ديوان الإنشاء للمعظم عيسى الأيوبي صاحب دمشق ، وله كتاب في عمل الدواوين وتقاليده الكتابة الدبوانية لزمن الدولة الأيوبية سماه « معالم الكتابة ومفاتيح الإصابة » وهو مطبوع قديما ببيروت ، وهو أحد مصادر كتاب صبح الأعيان للقلقشندي . ويكثر منذ هذه الدولة ودولة المماليك أن يعهد برياسة ديوان الإنشاء بمصر إلى من يظهرون تفوقا في إسناد هذا الديوان إليهم بدمشق ، ونذكر منهم تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبي المنشئ للتوفى سنة ٦٩١ للهجرة ، عمل في ديوان الإنشاء بدمشق ، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة في عهد الظاهر بيبرس وقلالون ، وظل يترقى إلى أن ولي كتابة السر ، ويقول ابن تغرى بردى : « لكلامه رونق وطلاوة » ويذكر من إنشائه كتابا عن قلالون إلى صاحب اليمن بفتحته لطرابلس واستيلائه عليها من أيدي الصليبيين ثوره فيه باستملاء قلالون على غيره من الحكام القاعدين عن منازلة حملة الصليب الغارقين في اللهو ، يقول (١) :

« وكانت الحلفاء والملوك ما فيهم إلا من هو مشغول بنفسه ، مكب على مجلس أنسه ، يرى السلامة غنيمة ، وإذا حن له وصف الحرب لم يسأل منها إلا عن طرق الخزعة ، قد بلغ أمه من الرتبة وقنع من يملكه بالسكّة والخطبة ، وأموال تنهب ، وممالك تذهب . »

ويريد بالسكّة ضرب النقود ونقش أسماهم عليها كما يريد بالخطبة دعاء خطباء المساجد لهم في ختام خطابتهم يوم الجمعة . وتولى بعده كتابة السر في القاهرة ابنه عماد الدين حتى توفى سنة ٦٩٩ وشغل مكانه أخوه علاء الدين على في عهد محمد الناصر بن قلالون .

وأكبر كتاب الشام الذين رأسوا ديوان الإنشاء بدمشق والقاهرة الشهاب محمود المتوفى سنة ٧٢٥ ، وقد مرت ترجمته بين شعراء المديح واحتفظ القلقشندي في صبحه بنبأذج كثيرة من رسائله

وتوقعاته الديوانية ، وذكر هو نفسه منها طائفة في كتابه « حسن التوسل إلى صناعته التوسل » وذكر ابن حجر عن الصفدى أن رسالته تدخل في ثلاثين مجلداً وأن بعض الفضلاء اختار منها مجملين ، ومن قوله في النهاية بتقليد سيف<sup>(١)</sup> :

« وقلده ميتاً : سيفاً تلمع عجايب النصر من غمده ، وتشرق جواهر الفتح في فريزته ، وإذا سابق الأجل إلى النفوس عرف الأجل قدره فوقف عند حده ، ومنى جرده على ملك من ملوك العدا وهت عزائم ، وعجز جناح جيشه أن تنهض به قوامه ، وحلم أنه سيفنا الذى على حائق الملك الأحر نجاهه وفي يد جبار السموات قائمه . »

ومن كبار كتاب الشام الذين عملوا فيها وفي مصر في دواوين الإنشاء صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ وسنخسه بكلمة ، ومنهم ناصر الدين محمد بن محمد الحموى المعروف بابن البارزى المتوفى سنة ٨٢٣ تولى قضاء حماه ثم كتابة سرها وصحب السلطان المؤيد شيخ أيام نيابته بدمشق ، وقدم معه إلى مصر حين تسلمن عليها سنة ٨١٥ وعينه كاتب السربا إلى أن توفى ، وقد احتفظ القلقشندى له بمعهد عن الإمام للمستعين ( الخليفة العباسى القيم بمصر حينئذ ) للسلطان المؤيد شيخ ، وفيه يقول<sup>(٢)</sup> :

« الحمد لله الذى جعل الدين بنصره مؤيدا ، وانتصاه لمصالح الملك والدين فأصبح ومن مرهفات حزمه بائدة بائدة العدا ، وفتح على فقر الزمان شيخ ملك زويت له عوارف العدل ومعارف الفضل ، فاستغنى وقته الحمد - بسيد السدا ، وأصلح فساد الأحوال بأحكام رأيه وإحكام حكمه ، فأصبحت مأمونة الرءاء ، آمنة من الردى ، وامتن على أولياء الدولة الشريفة بمن لم يزل سؤم تديره الشريف فيهم مسلدا . »

وقدرة ابن البارزى الإنشائية تتضح في هذه السطور ، إذ يطيل سجعاته وقد جعل الدال قوافيا جميعا ، وهو إنما يطيل سجعاته ليضيف إليها الجناس كما في « بائدة وبائدة » وه أحكام وإحكام » وه الرءاء : الثوب ( كتابة عن الأحوال ) والردى : اللعلاء . ويضج أيضا للسمع الداخلى في المسجعة مثل : « عوارف العدل ومعارف الفضل . »

السيف : حاله .  
(٢) صحيح الألفاظ ١٠٠/١٢١ وانظر في ترجمته التاجم  
الزاهرة ١٤/١٦٦ .

(١) حسن التوسل إلى صناعته التوسل طبع المطبعة  
التركية ص ١٠٠ . ولفظه السيف : لحان صفحة .  
والقوام : ربقات الطائر الكبار في جلاله . ونجاه



وعين ابن البارزى في ديوان الإنشاء أدبيا مواطنا له هو ابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ وسفرد له كلمة قصيرة ، وخلف ابن البارزى في كتابة السراية كمال الدين ، وكان تارة يُعزّل وتارة يعود إلى كتابة السر حتى وفاته سنة ٨٥٦ .

وراء هؤلاء الكتاب الديوانيين الذين بلغ من نبوغهم في الكتابة الديوانية أن نقلتهم الدولة إلى القاهرة في ديوانها الكبير كُتّاب كثيرون كانوا يكتبون لحكام البلدان الشامية ، وأهمهم كُتّاب ديوان دمشق إذ كان بها نائب السلطان ، وكان ديوانها للملك أهم الدواوين الشامية ، ونذكر من كُتّابها علاء الدين على بن محمد بن سلمان المعروف بابن غانم المتوفى سنة ٧٣٧ ومن ندره في وصف قلعة (١) :

« لا ترى الصيولُ لبعدها مرماها إلا شُرّاً ، ولا ينظر سكانها العدد الكثير إلا نَزْراً ، ولا يظن ناظرها إلا أنها طالعة بين النجوم بما لها من الأبراج ، ولها من الفرات خندق يحفظها كالبحر إلا أن هذا غيب فرات وهذا ملح أجاج » .

ونذكر من أهم كُتّاب السر في دمشق أو بعبارة أخرى رؤساء ديوان الإنشاء بها حفيد تاج الدين بن الأنير المذكور آنفاً ، وهو كمال الدين محمد بن إسماعيل ثم ابنه عبد الله ، تولى كتابة السر بدمشق فترة وعُزل سنة ٧٦٤ وتولاها فتح (٢) الدين بن الشهيد حتى توفي سنة ٧٩٣ وكان بارعاً في الشعر وكتابة الرسائل ، ونظم السيرة لابن هشام في رجز بلغت عدته خمسين ألف بيت . ومنهم صدر الدين على بن محمد المعروف بابن الأدهى المتوفى سنة ٨١٦ ولّى نظراً لجيش دمشق ، ثم كتابة سرها ثم قاضى قضاتها ، ونقله معه المؤيد شيخ حين أصبح سلطاناً لمصر سنة ٨١٥ وجمع له بين القضاء والحسبة وفيه يقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان إما مابارعا أدبيا فصيحاً ذكياً (٣) » . وما زالت الكتابة الديوانية مزدهرة بدمشق إلى أن استولى عليها العثمانيون سنة ٩٢٢ وأصبحت اللغة التركية اللغة الرسمية للدواوين فيها وفي غيرها من بلدان الشام . ونقف قليلاً عند ثلاثة من كتابها النابجين .

(٢) النجوم الزاهرة ١٢/١٢٥

(١) فوات الروايات ١٥٩/٢ . النظر الشد : للسيف ،

(٣) النجوم الزاهرة ١٤/١٢٢ .

فوات : حلو . أجاج : شديد للوحدة .

## الحاج (١) الأصماني

هو عماد الدين محمد بن محمد بن حامد ، ولد بأصهان سنة ٥١٩ هـ وقدم به أبوه إلى بغداد واستقر بها . وانتظم هو في سلك المدرسة النظامية مع لداته من الناشئة ، وتفقه بها ، وثقف علوم العربية ، وعاد مع أبيه إلى أصهان سنة ٥٥٢ هـ ، ولم يلبث أن رجع إلى بغداد ، واتصل بوزيرها عون الدين بن هبة فولاه نظر البصرة ثم نظر واسط . وتوفي ابن هبة سنة ٥٦٠ هـ وسُجن العماد فيمن سُجن من أتباعه ، وودّعت إليه حريته سريعا ، غير أنه لم يستطع أن يسرد مَكَاتِهِ ، ورأى أن يفارقها ، وولّى وجهه نحو دمشق ، ونزلها سنة ٥٦٢ هـ وكانت قد أصبحت تابعة لنور الدين محمود ، وقلّعه قاضي دمشق كمال الدين بن الشهرزوري إلى أمير مهم من أمراء نور الدين هو نجم الدين أيوب ، فاكسب حظوته وحظوة ابنه صلاح الدين ، ثم قلّعه القاضي إلى نور الدين فأعجب به واتخذه صاحب سره ، وبعث به رسولا إلى الخليفة المستجد ببغداد ، ولجج في مهمته . وعاد ففوض إليه نور الدين سنة ٥٦٧ هـ التدريس في مدرسته النورية التي أنشأها بدمشق لدراسة الفقه الشافعي ، وقد سماها من أجله تكميلا له للمدرسة العادية . ولم يلبث أن أضاف إليه رئاسة ديوان الإنشاء . ولما توفي نور الدين سنة ٥٦٩ هـ عزلت حاشية ابنه إسماعيل العماد من وظائفه ، فترك دمشق قاصدا بغداد ، ومرض في طريقه إليها بالموصل ، وعلم أن صلاح الدين قد قدم من القاهرة إلى دمشق للاستيلاء عليها ، فعاد ثورا ، والتقى بصلاح الدين في حمص ، وقلّعه إليه وزيره القاضي القاضي القاضل ، ورغبه في إلحاقه معه بمجتمعه ، فاستكبه صلاح الدين وظل يلزمه في الشام ورحل معه ذات مرة إلى الديار المصرية . ولما توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ كتب من بعده لابنه نور الدين حاكم دمشق ، حتى إذا استوزر ضياء الدين بن الأثير استغفاه من عمله . وزار مصر حيث ، ثم عاد إلى دمشق ، فلزم داره بصنف ويؤلف حتى توفي سنة ٥٩٧ هـ .

والعماد الأصماني أديب كبير : كاتب وشاعر ، وكان له ديوان كبير في أربعة مجلدات وديوان صغير كله رباعيات ، وقد أنشدنا بعض شعره في حديثنا عن شعراء المديح والرثاء ، وكان يعيد القارسة

الناحية للسبكي ١٧٨/٦ والنهاية ٣٠/١٣ ومآذ الجنان ٤٩٢/٣ والفرات ٣٣٢/٤ والجزء السادس من النجوم الزاهرة (انظر فهرس) . ولـ كتابه : البقي القاسي والحريدة أخبار وأقطر كعبة له .

(١) انظر في ترجمة العماد : معجم الأدباء ١١/١٨ وابن حطكان ١٤٧/٥ والروضين في مواضع محققة والجزء الثاني من مفرج الكرب لابن واصل وعبر الذهبي ٢٩٩/٤ والرواي بالرفاهات ١٣٣/١ وطبقات

لغة موطنه ، ومنها نقل كتاب كيمياء السعادة للإمام الغزالي . ومُرَبَّنَا في حديثنا عن التاريخ وكتبه ذكر مؤلفاته التاريخية : كتاب البرق الشامي الذي وصف فيه أحداث حياته منذ انتقاله من العراق إلى دمشق وأثناء خدمته لنور الدين وصلاح الدين وخوفاً منها وهو في سبعة مجلدات ، وكتاب الفتح القسي في الفتح المقدسي في وصف فتح صلاح الدين لبيت المقدس ، وكتاب نصرة الفطرة وحُصْرَةُ القَطْرَةِ في تاريخ السلاجقة ووزرائهم : وذكرنا - في غير هذا الموضع - أن الفتح البنداري اختصره باسم « زبدة النصرة ونجدة العصرة » وأنه طبع في القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق . والكتاب الرابع كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ، وهو في شعراء القرن السادس من الأندلس إلى أواسط آسيا حتى تاريخ كتابته في أوائل العقد الثامن من القرن السالف . وله وراء ذلك كتب تاريخية لم تصلنا منها كتاب القُصْبِ والقُصْبِ في بيان الأحداث التي تلت وفاة صلاح الدين حتى سنة ٥٩٢ وكتاب لحظة للرحلة وصف فيه رحلته إلى مصر بعد وفاة صلاح الدين ، وكتاب خطفة البارق وعطفة الشارق في ذكر أحداث من سنة ٥٩٣ حتى سنة وفاته . وقد عمم الهاد في كتاباته التاريخية السجع وبعض المحسنات البديعية وخاصة الجناس ، مما يدل - رغم ما فيها من تكلف - على مهارة أدبية رائعة .

وكانت له رسائل ديوانية كثيرة تشغل المجلدات الضخام ، وكان كلما فتح صلاح الدين فتحاً دَحَرَ فيه حملة الصليب ومُرُفَهُمْ تمزيقاً كتب بذلك إلى الخليفة ببغداد وإلى القائمين على البلدان من المحكام ، يشير بالنصر المبين في سبيل الدين . ونقتطف قطعة من كتاب عن صلاح الدين إلى الخليفة يخبره فيه بضم الموصل - بعد موت صاحبها غازي بن مودود - إلى دولته ومملكته ، يقول فيه الهاد :

« لاخفاء أن مصر إقليم عظيم وبلد كريم ، أنقذها الله من حَيْدِ بنى حَيْدِ الفاطميين وأطلقها بمطلقات أعثنا إليها من عناء كل قيد ، وفيها شعبة القرم ، وهم غير مأموني السر إلى اليوم . وطوائف أقاليم الروم والفرننج بها مطيعة لمن حَقَّقَها أن يتوافر عسكرها ، فلو حصل - والعياذ بالله - بها فتح لأحصل رَحمته ، واتسع على الراقع خرقه ، واحتجتنا لحفظ بلاد الشام ونفوز الاسلام إلى استصحاب العسكر المصري إليها ، وله خمس سنين في ييكارها ( حربها ) مستقاً من كفارها منحلاً لمشائها على غلاء أسرارها » .

وقد جانس الهاد في أول القطعة بين « حَيْدِ وحَيْدِ » وبين « أطلقها ومطلقات » . وتدل القطعة دلالة واضحة على أن جيش صلاح الدين المدمر لحملة الصليب كان مصرياً على الأقل في

جمهوره الأكبر . ويذكر صاحب الروضتين كثرة ما كان يكتبه الهاد من البشارات في كل انتصار لصالح الدين على حملة الصليب ، وما كان أكثر انتصاراته ، ويذكر أنه حين فتح بيت المقدس كتب الهاد سبعين بشارة ، وكانت البشارات رسائل طويلة يصف الهاد فيها المواقع وصفا تفصيليا . ويسوق للورخون بشارته بهذا الفتح العظيم التي كتب بها إلى الخليفة ببغداد ، وفيها يقول ، بعد إطنابه في تمجيدها وشكر الله على سابغ نعمائه على الإسلام والمسلمين .

« هذا الفتح العظيم ، والثَّجِّعُ الكريم ، قد انقضت للولك الماضية ، والقرون الخالية ، على حَرْوِ نَجْمِهِ ، وجيرة ترجِّيه ، ووحشة البأس من نسيه ( انفكاك عقدته ) وتقاصرت عنه طوال الهمم ، وتحاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم ، فالحمد لله الذي أعاد القدس ( الشريعة ) إلى المقدس ، وأطاحه من الرُّجْس ، وحقق من فتحة ما كان في النفس ، وبدَّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس ، وجعل عُرْ يومه ماحيا ذُلُّ أُمس ، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهاد والضللال من البطرك والقُسَّ ، وجدة الصليب ومستقبل الشمس .. وأخرج من يته المقدس يوم الجمعة أهل الأحد ( يريد يوم الأحد ) وقع من كان يقول : إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد . وأعان الله بإزال الملائكة والروح ، وأتى بهذا النصر الممنوح ، الذي هو فتح الفتح » . والطباقي كثير في القطعة ، والجناس يثر فيها من حين لآخر . وقد يُكثر منه في بعض رسائله ككرة مفرطة ، بل هو أهم محسن بلديعي أكثر من استخدامه ، وعابه الصفدي بهذا الإكثار ، متمثلا بقوله في جواب مكاتبة :

« وقف الخادم على الكتاب وأفاض في شكر فضل قَبْضه المستبض ، وتبْلُج ( إشراق ) وجه وجاهته وتأرُّج ( انتشار ) نبأ نباهته ماعرفه من حَوارفه ( فواضله ) البيض » .

يقول الصفدي مخضا على هذه السجعة الطويلة وجناساتها الكثيرة : « انظر إلى قلق هذا التركيب وتعضفه في هذا الترتيب » . ويقول السبكي مطلقا على كلام الصفدي : « الأمر كما وصف ، ولقد مجَّ صمى فواتح أبواب كتاب خريدة القصر ، لما يكثر فيها من الجناس ورد العجز على الصدر » . على أن الصفدي نفسه يلاحظ أنه « حين يخلو كلام الهاد المسجوع في رسائله وكتبه من الجناس الكثير يعذب في السمع وقعه ، وينسج في الإحسان صَفْقه ( جانبه ) ويرشف اللَّبُّ مدامه ، ويكون عند مَنْ له ذوقٌ أطيب من تغريد حمامه » .

الصفدي<sup>(١)</sup>

هو صلاح الدين خليل بن أليك الصفدي ، ولد بصفد في فلسطين سنة ٦٩٦ هـ وفي أول حياته بصناعة الرسم ، ثم اتجه إلى علوم الشريعة والحريّة ، وانتقل بين دمشق والقاهرة بأخذها من كبار العلماء ، وأولع بالأدب . وكان أول ماولى من الأعمال كتابة الدرّج بموطنه صفد ، يكتب مايقع به كبار الكتاب في دواوينها لجودة خطه ، ثم انتقل إلى القاهرة وشغل نفس العمل بدواوينها ، ومضى يختلف إلى حلقات العلماء والأدباء بها ، وتركها إلى دمشق ، وكان رئيس الديوان بها حيثئذ الشهاب محمود إذ نُقل إليها من القاهرة منذ سنة ٧١٧ هـ وأعجب بالشاب الصفدي ، وعينه في كتابة اللُثث ، حتى بطاونه في عمله ومايتصل به من إنشاء بعض الرسائل ، وانعقدت صلة وثيقة بينه وبين ابن نباتة ، وتخرج على يديه شاعرا ، كما تخرج على يدي الشهاب محمود كاتباً مجيداً . وتوفي الشهاب محمود سنة ٧٢٥ هـ على نحو ما مرّ بنا في ترجمته ، وظل الصفدي يعمل في دواوين الشام ، وتعيّن رئيساً لديوان الإنشاء بحلب وقتاً ، وعاد إلى دمشق وإلى وظيفته بها في كتابة اللُثث مساعداً لرئيس ديوان الإنشاء بها وخاصة في كتابة التوقييع والمراسيم الخاصة بتعيين القضاة وكبار الموظفين . وأضيفت إليه حيثئذ وكالة بيت المال ، واستمر في الوظيفتين إلى أن توفي بدمشق سنة ٧٦٤ هـ وكان قد تصدى قبيل وفاته في الجامع الأموى للتدريس ، وكان يحضر حلقة دروسه أحيانا بعض شيوخه مثل الذهبي وابن كثير .

ويقول صاحب النجوم الزاهرة : كان إماما بارعا كاتباً ناظماً ناثراً شاعرا ، وديوان شعره مشهور بأبدى الناس وهو من المكثرين . ويقف الحموى في خزانته مرارا ليدكر أن ابن نباتة لاحظ كثرة سرقاته لحطاني شعره وأنه ألف كتابا في سرقاته منه سماء ، خبز الشعر ، يشير بذلك إلى أن عمله ملموم نفس ملزمة خبز الشعر وأكله : وشعره في جملة متوسط وهو يكثر فيه من التورية ، ومن طريف ماله قوله :

بَسَمَهُمُ الْحَاظِرُ رَمَانِي فَذُبْتُ مِنْ هَجَرِهِ وَبَيَّنْهُ

وشلوات الذهب لابن العباد ٢٠٠/٦ والدرر الطالع ٢٤٣/١  
وخزانة الأدب ص ١٧ وفي مواضع متفرقة من صحيح  
الأعشى وخاصة ٨٦/١٢ ، ٢٥١ .

(١) انظر في الصفدي وترجمته النجوم الزاهرة ١٩/١١  
والدرر الكامنة لابن حجر ١٧٦/٢ والبداءة والنهاية لابن كثير  
٣٠٣/١٤ وطبقات النافعية للسبكي ٥/١٠ وما بعدها

إِنْ مَتَّ مَالِي سِوَاهُ خَصْمٍ فَلَنُفِ قَاتِلِي بِعَمِيْنَةٍ

وبعد من أكبر المصنفين في التراجم والأدب والبدیع والقند ، وعلى رأس مصنفاته في التراجم كتاب الوافي بالوفيات ، وهو في نحو ثلاثين مجلدا ، ونشرت طائفة من أجزائه . واستخلص منه مع إضافات جديدة كتابه «أهوان النصر وأعيان العصر» من الأدباء والشعراء وهو في ستة مجلدات ، وفي دار الكتب المصرية منه مجلدات مفرقة . وألف في مشاهير المكشوفين كتابه : نكت الهميان في نكت العميان ، وهو منشور . وله التذكرة الصفدية وهي مختارات أدبية وكتاب تشنيف السمع في انسكاب النعم : دمع الهبين والعشاق ، وله في المهنات البليغة كتاب فض الحتام عن التورية والاستخدام وكتاب جنان الجناس ، وله في النقد نصرة الناثر (وهو ابن أبي الحديد) على للثل السائر لابن الأثير ، والغيث المسجم في شرح لامية الصجم ، وهو شرح ملهى بالملاحظات النقدية ، وبه دفاع بليغ عن ابن سناء للثلك لزاء مااتهم به خصومه من استخدام بعض الألفاظ العامية ، وشرح رسالة ابن زيدون الجلدية بشرح سماه «تمام للثرون» . وله وراء ذلك كتب أخرى سقطت من يد الزمن ، كما أن له بعض مقامات ، ويقال إنه كتب وصّف مجهن من المجلدات وخلف كثيرا من الرسائل بينها مجموع باسم الحان السواجع في مجلدين سجل فيه الرسائل للتبادة بينه وبين أدباء عصره .

وكانت رسائل الصفدى اللبوانية تشغل مجلدات كثيرة ، ولم يحفظ منها القلقشندى إلا برائل قليلة ، من ذلك توقيع لأمين الملك ومدير شئون دمشق من أمن وضراب وأوقاف وغير أوقاف ، وله يقول باسم صاحب الأمر :

«لما كانت دمشق في الدنيا أنموذج الجنة التي وعد بها المتقون ، ومثال النعم للذين عند ربهم يبرزون ، وهي زهرة ملكنا وثمره سلكتنا .. تحين أن نتدب لها من جربناه بعدا وقربا ، وهزناه مقلقا<sup>(١)</sup> وسلكتاه غضبا<sup>(٢)</sup> وخبتناه في مخزائن فكرنا فكان أشرف مايدخر ، وأحر مايجبأ ، كم نهى في الأيام وأمر ، وكم شد أزرا لما وزد ، وكم غنيت به أماننا عن الشمس وليالينا عن القمر ، وكم علا ذرى رتب نر على الكواكب الثابتة فضلا عن يتقل في المباشرات<sup>(٣)</sup> من البشر ، وكم كانت الأموال جمادى<sup>(٤)</sup> فأعادها ريعا غرد به طائر الإقبال وصفر . فليطق هذه الولاية بالعم الذي نعهده ، والحزم الذي شاهدناه ونشهده ، والتدبير الذي يعترف الصواب له

(١) مقلقا : الأفعال

(٢) غضبا : يريد قلقة

(٣) مقلقا : مقلقا

(٤) جمادى : قلقة

ولا يمحده ، حتى يثمر الأموال في أوراق الحُساب ، وتريد نموا وسعوا فضوق الأمواج في البحار  
وتفوت القطر من السحاب .

وواضح مافي السجدة الأولى من اقتباس لبعض ألفاظ القرآن الكريم ، ويتمس الصفدى  
بعض صور الطباق والجناس ولكن دون إصراف ، كما يتمس بعض الاستعارات ، ويبدو فيها غير  
قليل من التكلف ، كما يبدو التكلف أحيانا في اجتلاب السجعات . ومن توقعاته توقيع كتب به  
لكاتب السر بلمشق : ناصر الدين محمد بن يعقوب بالتدريس في المدرسة الناصرية الجوانية  
جاء فيه :

« إن مدارس العلم الشريف لها الذكر الخالد والشرف الطارف والثالث <sup>(١)</sup> بها تبين فوارس  
الجلاد في مضائق الجدال ، وتجلى بدور الكلام في مطالع الكمال ، وتبدو شمس الجبال فيها لها  
من فيض الجبال . والمدرسة الناصرية - أتاب الله تعالى واقفها - هي الواسطة في عقودها . والذرة  
الغنية بلا كُفء لها بين قيم نفودها ، قد تدبج فيها البناء وتأرج عليها <sup>(٢)</sup> البناء ، وتخرج عنها  
الحسن فإن له بها مزيد اعتناء .. فلذلك رُسم بالأمر العلى أن يعاد إلى تدريسها لأن المود أمدح  
وأحمد ، والرجوع الى الحق أسعف وأسعد .

وواقع مافي التوقيع على هذا النحر من التصنع للجناس المقلوب في مثل « جلاد وجدال »  
و« كلام وكال » و« جبال وجمال » و« أمدح وأحمد » و« أسعف وأسعد » كل ذلك ليقع من  
نفس رئيس ديوان الإنشاء موقعا حسا . ولم يكن الصفدى يتكلف دائما مثل هذه الكلف في  
جناساته ، بل هي تأتي عنده تاجرة إذ كان حسبه أن يأتي بالجناسات الطبيعية دون هذه للشقة في  
التكلف . وكثير من جوانب توقعاته سلس سائغ . وكان يحيا إلى أهل زمانه حسن المباشرة جميل  
للودة .

(١) الطارف والثالث : الحادث والتقدم .

(٢) تأرج عليها : عكسها :

ابن حجة<sup>(١)</sup> الحموى

هو قى الدين أبو بكر بن على بن عبد الله المعروف بابن حجة الحموى ، ولد بحجة سنة ٧٦٧ ونشأ بها ، ودرس على شيوخها وأساتذتها ، وأخذ عنهم فنونا من العلم والأدب ، وارتحل إلى دمشق والقاهرة يتروّد من حلقات علمائها وأدبائها . وانعقدت صلات كثيرة بينه وبين بعض أدياء مصر من مثل ابن مكناس الذى مرّت ترجمته ، وعاد إلى دمشق وأخذ يتردد بينها وبين القاهرة ، ويبدو أنه عمل فى دواوين حاة ثم دمشق حين كان يتولى ابن البارزى موطنه كتابة السربها ، وكانت قد توقفت علاقة ابن البارزى بالمؤيد شيخ حين أصبح نائبا لسلطان مصر بدمشق ، فلما استدعى إلى مصر لتولى السلطنة اصطحبه معه واتخذ له كاتب سره كما مربنا ، واصطحب ابن البارزى معه ابن حجة وولاه كتابة الإنشاء بالقاهرة سنة ٨١٥ فبلغ ذروة مجده الأدبى ، وظل قائما على هذا العمل طوال حياة ابن البارزى وحكم المؤيد شيخ ( ٨١٥ - ٨٢٤ هـ ) وظل كاتبا للإنشاء بعده عاما وأشهرا وشهد حينذاك تحوّل السلطة من الملك للظفر ابن المؤيد إلى الملك الظاهر طغر قابنه الملك الصالح وتولى السلطان برسباى سنة ٨٢٥ وتوقف أمره ، فعاد سريعا إلى موطنه حاة ، وظل بها مكبا على التصنيف والتأليف حتى توفى سنة ٨٣٧ هـ .

واشتهر بقصيدته : البديعية فى المديح النبوى وما حمل أباها من محسنات البديع لزمه ، وهى فى مائة واثنين وأربعين بيتا وكل بيت يحمل محسنا من تلك المحسنات . وشرحها شرحا مطولا ، متوسعا فى سرد الشواهد الشعرية والنثرية الكتابية مع مالا يكاد يحصى من ملاحظات على استخدام الشعراء للمحسنات البديعية ، بحيث أصبح الشرح - كما سماه - خزانة أدب . وتعد مرجعا أساسيا للشعر والشعراء فى زمن الأيوبيين والمماليك حتى أيامه . وله فى البيع كتاب كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام . وله كتاب أدب طريف سماه « ثمرات الأوراق » طبع مرارا بعرض فيه مختارات نثرية وشعرية وكثيرا من المحاضرات والمساجلات ، مع الإلام ببعض القواعد المهمة التى ينبغى ان تراعى فى الكتابة الديوانية ، ومع الإلام أيضا ببعض رسائل القاضى الفاضل وابن ناته وأيضا ببعض رسائله . والكتاب فى مجموعة أشبه بكتب المحاضرات والنوادر . واختصر بعض

٢٨٩/٢ وشرحات اللعب لابن العماد ٢١٩/٧ والتجويد  
الزاهرة ١٨٩/١٥ .

(١) انظر فى ابن حجة وترجمته وشعره ونثره كتابه عزارة  
للأدب فى مواضع كثيرة ، والبدور الطالع للشوكلى ١٦٨/١  
والضوء اللامع للسخاوى ٢٧٧/٦ والروض الطاهر للنعاني



الأعمال ، من ذلك اختصاره للصادح والياغم لابن المبارك بإشارة من ابن البارزى سنة ٨١٣ كما ذكر فى الحزاة بياض لإرسال للثل ، وسمى مختصره تغريد الصادح وصنّره من نظمه بأبيات تقوم مقام الديباجة . وله كتب متعددة مذكورة فى كتاب البدر الطالع سقطت من يد الزمن . وله مقامة سنخرس لها فى غير هذا الموضع ، وكان شاعرا ، كما كان كاتباً ، وأنشد فى الحزاة كثيراً من شعره ، ويقول الشوكاني : « قد بأتى فى نظمه بما هو حسن وبما هو فى غاية الركة والتكلف .. ونفره أحسن من نظمه » . وفى الحزاة رسائل كثيرة له ، وخاصة فى أبواب براعة الاستلال والسجع وحسن الخطاب . وفى « ثمرات الأوراق » كما أسلفنا - بعض رسائله ، وجمع ما أنشأه أولاً بالشام ثم ما أنشأه فى عهد المريد ثم فى عهد الملوك المظفر والظاهر ططر والصادح فى كتاب سماه « قهوة الإنشاء » فى مجلدين ، ومنه مخطوطة فى دار الكتب المصرية ، وفى الدار أيضاً كتاب له محفوظ بأسم تأهيل الغرب يشتمل على كثير من رسائله ومكاتباته مع الأدباء ، ونقتطف قطعة من بشاره له بوقاه النيل كتبها سنة ٨١٩ عن الملك المريد شيخ :

« ونبدي لعلمه الكرم ظهور آية النيل الذى حاملنا الله فيه بالحسن وزيادة ، وأجراه لنا فى طرق الوفاء على أجمل عادة .. دق قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع <sup>(١)</sup> عليه ، وقيل نحر الإسلام وأرشفها ريقه الحلو فالت غصونها إليه .. وحضن مشهى الروضة فى صدره وحنّا عليها حنو المرضعات على القطيم :

وأرشفنا على ظمأ زلالاً ألدّ من المدامة للتدبير

ورواق مديد بجره لما انتظمت عليه تلك الأبيات ، وسقى الأرض سلالته الحمرة فخلعت بجلو النبات ، وأدخله إلى جنات النخيل والأعشاب فاتى الثوى والحب ، فأرضع فى أحشاء الأرض جنين النبات وأحيا له أمهات الصنف والألب .. ونسى الزهر بجلاوة لقاءه مرارة الثوى ، وهامت به مخدرات <sup>(٢)</sup> الأشجار فأرغمت صفائر فروعها عليه من شدة الهوى .. ودارت دوائره على وجنات الدمر عاطفة ، وثقلت أرداف أمواجه على خصور الجوارى واضطربت كالحائفة .

والسجع فيه علوية ودلالة واضحة على طواحيه فوائده لابن حجة ، وأنه كان كاتباً مجيداً إن لم يكن بارحاً ، وأطال السجعات ليحملها ما يريد من التوريات ، وهى كثيرة فى القطعة ، وما غضى فيها حتى يذكر مديد النيل أو امتداده والمديد من بحور الشعر ، يستغل ذلك فى التورية بكلمة

الآيات فلا يريد آيات الشر وإنما يريد الدور والمساكن . واختار أمهات المصنف ، وهو ورق الشجر والزروع مما تأكله الأنعام ليجلب كلمة الأب موزياً بها فهو لا يريد الأب الحقيقي كما يظن من ذكر الأمهات ، وإنما يريد الأب بمعنى المشب أعداً من قوله تعالى : ( ولأكهة وأباً متاعاً لكم ولأنعامكم ) واختار مع حلاوة اللقاء مرارة النوى ، وهو لا يريد نوى الثمر الحقيقي وإنما يريد النوى بمعنى البعد لأن طاء النيل وفيضانه يكون من عام إلى عام ، وبالمثل يمكن أن يكون في كلمة المعوى تورية لأن لها معنيين : المشق والريح ، وأيضاً في كلمة الجوارى تورية إذ لا يريد الجوارى الحقيقيات مع ما يوشع لها من ذكر الخصور وإنما يريد السفن الجارية . وكان تعيين كبار موظفي الدولة من وزراء وقضاة وغير قضاة يصحبه تقليد بتعيينهم في شكل رسالة مطولة يكتبها منشي الديوان ، ولابن حجة تقليد طويل كتبه لجلال الدين البلقيني الشافعي بقضاء القضاة وفيه يقول مصوراً علمه :

« هو أبو العلماء الذي ولد من الأم أفرأهم ، وأبو المهات الذي شهّر من العُدة الكاملة في ميدان الفرسان سلاحهم ، وإليه انتهت الغاية فإنه مابرج يأتيها في وجيز تقريره بالعجاب ، ويغنيها عن موضع القشيمى فإنه يظنينا في إبانته باللباب .. وقد وقع الغريب في الفروق بينه وبين الغير عند أهل التبصرة والهداية ، وهو نهاية المطلب وهيون المسائل وتاج رموسها والمذهب الذي تهديه في أدب القاضي كفاية ، وهو البحر الذي مداخلنا بسيطه المبسوط إلا كالت التورية إنه في البسيط كامل ، ولا نظرننا إلى حليته الجلالية إلا غنيا عن للمصباح بنوره الشامل » .

والقطعة مليحة بتوريات عن أمهات الفقه الشافعي ، وقد بدأها في السجدة الأولى بذكر كتاب الأم للإمام الشافعي ، وتلاه بالإشارة إلى كتاب الغاية في اختصار النهاية للزرين عبد السلام ، والنهاية هي نهاية المطلب في دراسة المذهب لإمام الحرمين الجويني ، وأشار معه في نفس السجدة إلى وجيز الإمام الغزالي وتحريره القفال الشافعي ، ثم ذكر اللباب وهو لباب الألباب للآمدي في علم الأصول ، وأضاف إليه الإبانة مشيراً إلى كتاب الإبانة في فقه الشافعية للقرافي ، ولم يلبث أن أشار إلى التبصرة لأبي إسحاق الشيرازي ونهاية المطلب المذكورة آنفاً والمذهب لأبي شامة المقدسي والتهديب للبغوي وأدب القاضي للآمدي والبسيط للغزالي والشامل لإمام الحرمين الجويني . وقد بلغ ابن حجة من دقة الصنعة أن من يقرأ الإشارة إلى هذه الكتب وغيرها مما جاء في التقليد لا يتنبه إليها إلا بعد روية وتأمل فيها ابتغاء عنها من توريات .

### الرسائل الشخصية

مرّ بنا أن الشام هي التي وضعت التقاليد الأولى للكتابة الديوانية بحكم اتخاذ الأمويين دمشق حاضرة للدولة الإسلامية الضخمة الممتدة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس ، وتنبأ لها حيثذ من كبار الكتاب من لا تزال أحقادهم تتردد على الألسنة مثل سالم مولى هشام ، وعبد الحميد الكاتب وله رسائل شخصية بديعة<sup>(١)</sup> تتداولها كتب الأدب تتميز بأسلوبها الجزل الناصع مع السلاسة والعذوبة ومع ما عُرِف به من إحكام القوافي حتى يروع الأذان كما يروع الأذهان . ومن البلغاء الذين اشتهروا بروعة كتاباتهم في القرن الثاني الهجري وأوائل الثالث العُشْباني كلثوم بن عمرو ، وله بدوره - رسائل شخصية<sup>(٢)</sup> تنوع بالتصاوير ودقائق الأفكار مع حسن التعبير وجمال الصياغة . وكان السجع منذ القرن الرابع أخذ يشيع في الرسائل الديوانية ، فشاخ في الرسائل الشخصية لسبب طبيعي هو أن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين ، وقد أصبح السجع ديدنهم ولغتهم في كتاباتهم فعمّموه في رسائلهم الشخصية . ولعل كتابا في بلاط سيف الدولة الحمداني لم يشتهر بالكتابة كما اشتهر أبو الفرج عبد<sup>(٣)</sup> الواحد بن نصر المعروف بلقبه « البَيْضاء » المتوفى سنة ٣٩٨ للهجرة وكان شاعرا مبدعا وكتابا بارعا ، وفي كتاباته يقول النحّاسي « نثره مستوف أقسام العذوبة وشروط الحلاوة والسهولة » ويتضح ذلك فيما روى النحّاسي من رسائله كقوله مثبّا ، مطربا .

« شهابُ ذكاء ، وطوّد وفاء ، وكعبة فضل ، وغمامة بذل ، وحُسام حق ، ولسان صدق ، فالليالي بأفعاله مشرقة ، والأقدار لحوقه مطرقة ، نحمده أولياؤه ، وتشهد له بالفضل أعداؤه » . وقوله : « من كان جميل رأى سيلنا عُدته ، أمن من الدهر شدته ، ومن فَرَعَ إلى إحسانه ، استظهر على زمانه ، ومن توجه برغبته إليه ، لم تقدم الأيام عليه » .

(٣) انظر ترجمته ورسائله في البيعة ٢٣٦/١ وما

بعدها ، وراجع ترجمته في تاريخ بغداد ١١/١١ والمتنظم ٢٤١/٧ وعبر الدهر ٦٨/٣ وابن خلكان ١٩٩/٣ .

(١) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت

(طبع ونشر مكتبة مصطفى الباني الحلبي) ٢/٣٤٤ وفي مواضع متفرقة .

(٢) جمهرة رسائل العرب ٢٧٤/٣ وما بعدها .

## (١) رسائل أبي العلاء

لأبي العلاء رسائل أدبية مشهورة مثل رسالة الغفران ورسالة الملائكة ، وله بجانب ذلك رسائل شخصية كثيرة ، حُثبت بطبعها المطبعة الأدبية ببيروت لأواخر القرن الماضي سنة ١٨٩٤ وطبعها مرجليوث في أكسفورد بعد ذلك بأربع سنوات ، وحققها الدكتور عبد الكريم خليفة ونشرها بعمان في الأردن سنة ١٩٧٦ وقد بلغت عنده ٤٢ رسالة . ولولاها رسالة السنج وهو القيدح الثامن من قِدادح الميسر التي ليس لها نصيب في القمار ، وكأنه كفى به عن نفسه في تلك الرسالة التي وجه بها إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي ردًا على رسالة أرسل بها أبو القاسم إليه . ونراه يستهل رسالته بقوله :

« إن كان للآداب - أطال الله بقاء سيدنا - نسيم يتصوُّع <sup>(١)</sup> ، وللذكاء نار تشرق وتلمع ، فقد فُتِمَا <sup>(٢)</sup> على بُعد الدار أَرَجُ <sup>(٣)</sup> أدبه ، وبها الليل عنا ذكَاؤه بطلُّه ، ونحو <sup>(٤)</sup> الأسماع شُتوًا <sup>(٥)</sup> غير ذاهبة ، وأطلع في سريداوات القلوب كواكب ليست بقارية ، وذلك أنا - معشر أهل هذه البلدة - وُهب لنا شرف عَظِيم ، وأُتِيَ إلينا كتاب كريم ، صدر عن حضرة السيد الحَبِير <sup>(٦)</sup> ، ومالك أمة النظم والنثر ، قرامته نُسْكُ ، وعِظامه بل سائرهِ يَسْكُ ، وفي ذلك طينَتافس للتفافسون . جَلَّ <sup>(٧)</sup> عن التَّضِيل فظلاله المَقْبَلَة ، ونَزَه أن يتطل فسخة المبتذلة ، وإنه عندنا لكتاب عزيز . ولولا الإلاحة <sup>(٨)</sup> ، على ما ضمن من الملاحاة ، والحشية على دُجى مداده من التورُّع ، ونهار معانيه من التثنت والتقطع ، لمكفت عليه الأفواه بالألُّم ، والمولون <sup>(٩)</sup> بالانتشاء <sup>(١٠)</sup> ، والشَّمُّ ، حتى تصير سطورهُ لَمَى <sup>(١١)</sup> في الشفاء ، وعجلانا على مواضع السجود من الجباه ، ولولا ما حظه الدين من القمار لضربنا عليه بالسجة الفائرة ، والثلاثة التي ليست لحظًا

(٧) جل : تَرَه

(٨) الإلاحة : الإلهام

(٩) المولون : الأثوم

(١٠) الانتشاء : شم الطيب ونحوه

(١١) اللَمَى : سمة حسنة في الشفة

(١) يتصوُّع : يفرح

(٢) فُتِمَا : مَلَأَ أُنُفُوسًا

(٣) أَرَجُ : شدى

(٤) نحو : أحطى

(٥) شتوًا : أفرطًا

(٦) الحَبِير : العالم

بالخاتمة .. فيا شرفه من صَكُّ بالفخر ، يَبْجَعُ به على الثُّغْرَاءِ حَيْرِيٌّ<sup>(١)</sup> الدهر ، موشحًا بكل شِدْرَةٍ أعذب من سُلَافِ العنقود ، وأحس من الدينار المنقود ، فجاء كلوائح البروق ، أويوح<sup>(٢)</sup> عند الشروق .

وإذا مضينا بعد ذلك في قراءة رسالة المنبح - وهى طويلة - أخذت أمواج الألفاظ الغريبة تتوالى ، حتى ليصعب على أى عالم لغوى أن يمضى فيها دون أن يعود إلى المعاجم يستبين منها ما يقرأ لا من حين إلى آخر ، بل مع كل سجمة ، بل مع غير لفظ فى كل سجمة ، وكأنما كان يطلبه طلبا فى سجعاته ، أوكأنما كان يعده زينة بنضى أن لا تخلو منه سجمة . وهو لذلك يملأ الرسالة بالألفاظ الغريبة للبعده فى الإغراب مما قرأه فى الشعر القديم وفى كتب اللغة ، ولا يهمل أن تكون الكلمة مما دَوَّنَ فى المعاجم ، بل لعله كان يطلب ذلك استكمالاً لغرابتها ، ومن هنا تصبح قراءته صعبة إلى أقصى حدود الصعوبة . ولم يكن يكتفى بذلك فى بعض رسائله ، فقد كان يضيف صعوبة ثانية هى حشد ألفاظ المصطلحات العلمية وخاصة مصطلحات العلوم اللغوية على نحو ما نقرأ فى رسالته المعروفة برسالة الإغريض وهو ما ينشئ عنه الطلع من الحيات ، والرسالة موجهة أيضا إلى أبى القاسم المغربى وفيها يقول :

« حرس الله سيدنا حتى تُدْغَمِ الطاء فى الهاء ، فذلك حراسة بغير انتهاء .. وهما فى الجهر والمهمس ، بمترلة غَدْرٍ وأمس ، وجعل الله رتبته التى هى كالفاعل والمبتدأ ، نظير الفعل فى أنها لا تنخفض أبدا ، فقد جعلنى إن حضرت حُرُف شانى ، وإن غبت لم يُجْهَلْ مكانى ، كيا فى النداء ، والمهلوف من الابتداء ، إذا قَلْتُ زَيْدٌ أَقْبَلُ ، والإبْلُ الإبل ، بعد ما كنت كهاء الوقف ، إن أَلْقَيْتُ فبواجب ، وإن ذُكِرْتَ فغير لازم<sup>(٣)</sup> ، إني وإن غدوتُ فى زمن كثير الدِّدِ<sup>(٤)</sup> كهاء العدد ، لزمتم الذكر فانت بالمنكر ، مع إلفى يرانى فى الأصل كآلف الوصل ، وتكون تارة حرف لين ، وتارة مثل الصامت<sup>(٥)</sup> الرصين ، فهى لا تثبت على طريقة ، ولا تُنْزَكُها صورة فى الحقيقة »

وهو يدعو لأبى القاسم أن تظل نغمته عناية الله إلى أبد الأبدىين أوكما يقول إلى أن تدغم الطاء

(١) الدد : الدهر واللب .

(١) ييجع : يضر . حيرى الدهر : أهد الدهر .

(٥) الحروف المحفقة كما سوى حروف اللين والمد .

(٢) يوح : اسم الشمس .

(٣) لازم : لازم .

في الهاء وهي لا تندغم فيها أبداً ، إذ الطاء حرف مجهول الصوت - كما يقول - والهاء حرف مهموس لا يكبد صوته يمين ، فهما من طيحين مختلفتين ولذلك لا بدغان أبداً ولا يتحدان كالأمس والغد . ويدعو أبو العلاء له أن تصبح رتبته أرفع الرتب في الدولة ، كرتبة الفاعل والمبتدأ في النحو ، إذ هما بسبب رخصها في أعلى الرتب . ويدعو له أن لا يلحقه خفض في رتبته كالفعل لا يلحقه خفض ولا جرُّ أبداً . ويقول إن أبا القاسم جعله معروفاً رفيع الشأن حضراً أو غاب مثل باء النداء فكانها محفوظ ذكرت مع اللادى أولم تذكر ، ومثلها للمبتدأ ذكر أو حذف فكانه محفوظ ، فضول : محمد أي يا محمد ، وتقول كتاب الأدب أي هذا كتاب الأدب . ويقول إنه كان قبل أن يضمه أبو القاسم في مترته الرفيعة كالهاء التي تلحق ببعض الكلمات في الوقف ، مثل : لَمْ تقول فيها له ، فهي تطرح وتذكر دون أن يكون لها شأن في الكلمة . ويقول إنه كان يشعر بنبر مكانه على نحو ما يلاحظ في هاء العدد أوتاه من ثلاثة إلى عشرة ، فلما تلحق عددها مع للذكر وتطرح مع المؤنث ، وكان المقياس في العرية المكس . ولا يمكن بذلك فيقول إنه كان كألف الوصل مع أصحابه ، تذكر حين الابتداء بالسكن وتسقط في درج الكلام . ويقول إن حاله كانت مثل الحمزة تبدل أحياناً عينا في لغة تميم ، فيقولون في أن عَنَ ، وقد تنطق بين الحمزة المحققة وأختها للسهلة أو كما يقول « بين بين » وقد تسهل تماماً فتصبح حرف لين مثل سال في سأل ، وقد تحقق وخاصة في أول الكلمات فلا تسهل مثل أمر ، فهي كما يقول أبو العلاء لا تثبت في العرية على طريقة .

وأبو العلاء بذلك يصعب نثره على قارئه ، بحيث لا يستطيع قراءته وفهمه إلا العالم اللغوي لكثرة الألفاظ الغريبة فيه ، وليس ذلك فحسب ، فإن هذه القطعة في الرسالة لا يستطيع أن يفهمها إلا من عرف مصطلحات علمي النحو والصرف ، وقد مضى في الرسالة يستظهر مصطلحات علم التجويد والقراءات وعلم العروض وتلاحين الموسيقى ومصطلحات علم الفلك مع مطارف كثيرة عن الخيل والحجوان . وله مناظرة طويلة بين الصاهل والشاحج أو بين الفرس والبخل ، وهو كتاب نفيس نشرته بنت الشاطئ بدار المعارف . وتتكاثر في الرسالة المطارف عن المرأة وحليها ولا بأس من إيداعها شيئا من التاريخ . وكل ذلك بصمها : سجع وأوابد لفظية وأوابد أو مصطلحات طلمية ومطارف شتى . وكأنما استأثرت بالشرط الأكبر من هذا كله الرسالة الإغريقية . ونقل المصطلحات العلمية في بقية رسائله غير أنه لا يزال يستظهرها فيها من حين إلى حين ، ومرجع ذلك إلى أنه كان يكتب برسالته إلى علماء في عصره ، فكان يسوق إليهم هذه

للمصطلحات تصويراً لمهارته البائية . ونخل الرسائل بنقد خلق واجتماعى وسياسى وأدبى ، وأكثرها فى الثناء على من يكتب إليهم ، وبينها رسائل شفاعة وتهنئة وتعزية وشوق ، وتكثف بسجمات بديعة كقوله فى فواتح رسالة كتب بها من بغداد إلى خاله أنى طاهر المشرف بن سبيكة الحلبي :

« شوق إلى سيدى الشيخ شوق البلاد المُمحلة ، إلى السحابة المُمحلة <sup>(١)</sup> ، وانتفاعى بقربه انتفاع الأرض الأريضة ، بالأمواه الغريضة <sup>(٢)</sup> ، ونشوق لأخباره تشوق راعى أنعام <sup>(٣)</sup> أجلب فى عام بعد عام ، لبارق <sup>(٤)</sup> يمان ، هوّله مرتقب ممان <sup>(٥)</sup> . وأسنى لفقده أسف وخشيّة <sup>(٦)</sup> ، رادت <sup>(٧)</sup> بالمشيّة ، فخالقها السرحان إلى طلال <sup>(٨)</sup> راد فحار <sup>(٩)</sup> فهى تطوف حول أميل <sup>(١٠)</sup> ، ونرى صبرها ليس يجميل . وتذكرى لأوقاته تذكر الفطيم ندى الوالدة ، والمقسم بالملح لبنى خالدة وانتظارى لقدمه انتظار تاجر مكة وقد <sup>(١١)</sup> الأعاجم ، وربّ الماشية ظهور الثبّت الناجم <sup>(١٢)</sup> . »

وبدون ريب تُمدّ رسائل أنى العلاء الشخصية فى اللزوة من البلاغة ، وهو دائماً يُتمى فيها بالسجع إلا قليلا ، وقد يلتزم فيه مالا يلزم كما فى هذه القطعة ، لأن السجعتين فيها تتفقان لاقى الحرف الأخير فحسب للمقابل للروى فى الشعر ، بل فى حرفين أو ثلاثة حروف ، ودائما نلتقى فى رسائله بالألفاظ الآبدة المعنة فى الغرابة وإن لم تمنع فيها بهذه القطعة . وهو يستغل فى سجاته معارفه الكبيرة التاريخية وغير التاريخية على نحو ما يلقانا فى هذه القطعة من إشارته إلى أن العرب كانوا يتعاهدون ويتعاهدون على الملح ، وذكر عهداً لهم أقسموا فيه بالملح لبنى خالدة وهى خالدة بنت أرقم أم كردم وكريلم ابنى شعبة الفزاريين . والجناس الناقص مثل : « للمحلة والمسلحة » واضح فى القطعة ، وكان يوشى سجاته به ويغيره من محسنات البليغ وخاصة الطباق والتساوير .

(٧) رادت : ذهبت تطلب الكلال

(٨) الطلال : ولد البقر . السرحان : اللذ

(٩) حارها : بحر

(١٠) أميل : كتيب عال

(١١) يريد : لعلوم ولورد المصحح الأجانب

(١٢) الناجم : الذى لاساق له

(١) المسحة : المطرة

(٢) الأريضة : الطية . الغريضة : المبكرة

(٣) الأنعام : الابل .

(٤) البارق : السحاب يلح فيه البرق ، وجطه يمينا

حتى لا يخلف مطره

(٥) يمان : متناول

(٦) يريد بقرة وحش

## (ب) رسائل متفرقة

طبعي أن تكثر الكتابات الشخصية على ألسنة الأدباء ، شاكرين صنيعة أومهتين على منصب كبير أومعائين أومثنين مادحون أومعتزين أومستطفين أومعزين عن خطب ألم بأصدقائهم أوفى فقيده عزيز ، وتارة يؤثنون وتارة ييكون وقد خفتهم العبرات . وكثيرا ماكانوا يتراسلون ، من ذلك مراسلات الطغرائي الشاعر الكاتب والفزى إبراهيم بن عثمان الذي مرت ترجمته بين الشعراء ، ويقول الهاد الأصيلاني : « كانت بينها مكاتبات مفيدة وبينها نسب الفضل المؤدة الوكيدة » ويسوق الهاد للفزى رسالة اعتذار كتب بها إلى صاحبه جاء فيها <sup>(١)</sup> :  
لسان الحسود - أدام الله أيام المجلس السامي دام ساميا ، وليبضة المجد حاميا - إذا علق  
بعرض الكرام كان كالتار في المندي <sup>(٢)</sup> ، يوح بسر طيه الحقى .. فإن وقع من السفهاء إظك  
فدايته ما ظهر لهم من انتائه ، وانتساب مؤنته إلى معائه .

وانتخاب الفزى لألفاظه واضح ، فهو يحمد الكتابة كما يحمد الشعر ، وهو يعنى فيها بالتصاوير ، وكان خصب الخيال ، ومرت بنا في ترجمته روائع طريفة من أشعاره . وكان ابن منير الطرابلسي الذي ترجمته له بين الشعراء نزع عن دمشق إلى قلعة شيزر في الشمال خوفا من ابن الصوفى وزير حاكمها آبق ، وحاول صديق له هو زين الدين بن حليم أن يسرجه إلى دمشق فكتب إليه يستدعيه : وأجابه ابن منير برسالة طويلة محتلرا يقول فيها <sup>(٣)</sup> :

« إن جراحى إلى الآن لم تلق حلوة الاندعال ، وقروحها تزداد قرحا مع الحل والترحال ،  
وبين جرائعى من الأين <sup>(٤)</sup> ، لما لقيت بدمشق من الفين ، مالا يحله إلا عقد الكفن ، ولا يرفع  
حدته إلا التيمم بصعيد <sup>(٥)</sup> المدفن . ويلفك فلان وعلان من كل ذى خلق تميم <sup>(٦)</sup> ، وخلق  
ذميم ، وأصل لثيم ، وفرغ زني <sup>(٧)</sup> ، ووجه لطيم ، وقفا كلم <sup>(٨)</sup> ، وهلم جرا من عذاب ألم ،  
وصراط في الود غير مستقيم . »

ولغة ابن منير لغة أدبية بديعة ، وكما كان شاعرا بارعا كان كاتبا بارعا ، تواتيه الكلمة وتترل في

(١) الصمد : الغدب

(١) الحريدة ( قسم الشام ) ٢٧/١

(٢) ميم : ميمح . ذميم : ملموم

(٢) المندي : مرد الطيب

(٣) زني : دعى

(٣) الحريدة ( قسم الشام ) ٩٢/١

(٤) كلم : جريح

(٤) الأين : العاء .



مواقعها ومستقرها من السجع الرائع الذى لاتطول جواراته ، فإذا الكلمات وكأنها تتلاق وتعاانق لجملها في الجرس وحسن الأداء . ويورد الهاد في الخريدة مراسلة بين القاضى الفاضل وذير صلاح الدين وكاتبه وبين أسامة بن منقذ ، ويذكر أولا كتاب القاضى الفاضل ثم يذكر جواب أسامة ، وله يقول من رسالة طويلة مادحا مثنيا على بلاغته ، متحلثا عنه بضمير الغيبة <sup>(١)</sup> :

« ماضى أن يقول مطربه ومادحهُ والفضل نُفَّة من بجره الزاخر ، وقطرة من سحابه الماطر ، نفرد به فاله فيه من نظير ، وسبق من تقدمه في زمانه الأخير ، فتق عن البلاغة أكماماً ترينت الدنيا منها بالأعاجيب ، وأنى بآيات فصاحة كادت أن تُثلى في المحاريب ، إذا استنطقت ازدحمت عليها العقول والأسماع ، ووقع على الإقرار بإعجازها الاتفاق والإجماع . . هو سحر لكنه حلال ، ودُرُّ إلا أن بجره حُرَّ سلسال . »

ونمضى إلى أيام المالك ويلقانا الشهاب محمود رئيس ديوان إنشائهم في دمشق والقاهرة وقد ترجمنا له بين شعراء المديح ، وله - كما أسلفنا - كتاب في رسوم الكتابة الديوانية ، وبه كثير من رسائله الرسمية ، وبعض رسائله الشخصية أو الإخوانية ، سماه « حسن التوصل إلى صناعة التوصل » وله بجانبه كتاب ثان سقط من يد الزمن سماه « زهر الريح في التوصل البديع » وعنه ينقل كثيرا الفلقشندي في الجزء التاسع من صبحه ، وما نقله عنه رسالة في التهئة بعيد الأضحى جاء فيها <sup>(٢)</sup> :

« جعله الله أيرك الأعياد وأسعدنا وأيمن الأيام وأجملها ، وأجمل الأوقات وألناها وأزعمدا ولا بريح مسرورا مستبشرا ، منصوراً على الأعداء مقتندرا ، مسعودا محمودا ، معانا بملائكة السماء معضوداً ، مهتاً بالسعود الجديدة والجلود السعيدة ، والقوة والناصر ، والعمر الطويل الوافر .. ألبه الله من السعادة أجمل حلة ، ومنحه من المكارم أحسن حلة . »

وكان الشهاب محمود يعنى بترتين سجعانه بمحسنات البديع وألوانه الزاهية من جناس وغير جناس ، وكان يشغف شغفا شديدا بصور الجناس للمعكوس كما نرى في قوله : « مهتاً بالسعود الجديدة والجلود السعيدة . »

ونلتقى بعمربن الوردى وكان شاعرا وأديبا كاتباً ، وله تعزية بوفاة الفقيه الشافعى شرف الدين البارزى المتوفى سنة ٧٣٨ هـ ، وفيها يقول <sup>(٣)</sup> :

(٣) انظر ديوان عمربن الوردى ، طبع الجواب في

مجموعة سنة ١٣٠٠ هـ ص ١٦٣

(١) الخريدة (نص الثام) ٥٤١/١

(٢) صبح الأعشى ٤٦/٩

« بلغى انهداد الطود الشامخ ، وزوال الجبل الراسخ ، الذى بكه السماء والأرض ، وقابل فيه المكروه بالنذب وذلك فرض ، فشرقت<sup>(١)</sup> أجنان الملوك بالدموع ، وأحرق قلبه بين الضلوع ، فالطوم نبكه ، والحاسن نغزى فيه ، والأقلام تمشى على الروس لفقده ، والمصنعات تلبس حداد المداد من بعده .. ولاخاص إلا حزن قلبه ، ولعام إلا طار لبه » .

وكان يمتنع فى نثره وشعره إلى استخدام للمصطلحات العلمية ، وقد تصنع فى هذه القطعة القصيرة لحشد المصطلحات الفقهية : المكروه والنذب والفرض ، وأيضاً فإنه كان يمتنع بحجب صور مختلفة من التوريات ، وواضح أنه ورى هنا بالمصطلح الفقهى : النذب عن معناه الحقيقى وهو بكاء المتوفى وتعداد محاسنه . وجعل الأقلام تمشى على رموسها حزنا وهى فعلا تمشى على رموسها أو بمباراة أخرى نكتب برءوسها ، فاستغل ذلك فى نغزته .

ولابن حجة الحموى رسالة يصف فيها سيكيتاً أهدها إليه بعض أصدقائه جاء فيها قوله<sup>(٢)</sup> : « الملوك ينهى وصول السكين التى قطع بها أوصال الجفا ، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البرء والشفاء ، وتلقه ماغابت إلا وصلت الأقلام من تقشيرها إلى الحفا .. ماشاهدها موسى إلا سجد فى محراب النصاب<sup>(٣)</sup> ، وذلك بعد أن خضعت له الروس والرقاب .. أنملة صبح تغممت بسواد الدجى ، ففوذتها بـ ( الضحى والليل إذا سجا ) .. تطرف بأشعتها الباهرة عين الشمس ، ولإقامتها الحد حافظت الأقلام على مواظبة الخمس » .

والتكلف واضح فى القطعة ، فقد ذكر الجفا أى البعد ، وفكر فى سجمة معه فجاء بالشفاء والحفا وأصله رقة الحنف ويريد المبالغة فى تشليب الأقلام ، وكل ذلك تكلف ، ولم يلبث أن جنح إلى التورية بموسى الرسول لما ذكر معه من السجود والمحراب عن موسى الخلاق . وكان نصاب السكين أسود فحاول أن يستغل ذلك ليقبس فاتحة سورة الضحى ، وعاد إلى التورية بإقامة الحد على الجناة وهو يريد إقامة حد السكين ، وورى أيضاً بمواظبة الخمس إذ لا يريد للحنى المتباعد من مواظبة الصلوات الخمس ، إنما يريد مواظبة الأصابع الخمس على الكتابة بتلك الأقلام .

ونخصى إلى أيام الصنانيين ونظل نقرأ رسائل شخصية متعددة فى تراجم الأدباء ، من ذلك قول مرمى الكرمى للتوفى سنة ١٠٣٣ للهجرة فى مطابقة<sup>(٤)</sup> :

(١) شرقت : غطت .

(٢) نصاب السكين : مطبها

(٣) نسخة الرحمة للمجى ٢٤٧/١

(٤) عزارة الأدب للحموى ص ٢٥ ، ٥٢٧

« الصديقُ لفظ على الألسنة موجود ، ومثناه في الحقيقة مفقود ، فهو كالكبريت الأحمر ، يُذكر ولا يُتصر ، أو كالعتقاء والقول ، لفظ يوجد بلا مدلول . وهذه شيم غالب أبناء الزمان ، من الأخلاء والإخوان ، فلثلمهم . . . كلعج السراب ، للمستحيل فيه الشراب ، أو كالحبال الذي يبدو في المنام ، وهو في الحقيقة أضغاث أحلام . »

ويسوق الهبي في نضجة الرحانة رسائل مختلفة لأبيه وجدّه ، منها رسالة هزلية لأبيه كتب بها حل لسان فرس إلى مفت بالقسطنطينية . وانعقدت صداقة وثيقة بين الهبي وبين عبد الغنى التابلسي الصوفي ، وله بقول متوددًا مثنياً مشيداً بنسكه وتصوفه وسلوكه البروسي <sup>(١)</sup> :

« مولاي الذي سار في بروج الفضل مسير الشمس ، وقامت فضائله في جسم العالم مقام الحواس الخمس ، لازال في السكون والحركة ، مراقب الجن والبركة ، يفرح به كل قطر يتأزله ، كأنه البدر والدنيا متأزله ، ومن شايحه مسعود يومه وغده ، وله من العيش أهناه وأرغده . . أنا شعبة من دوحك <sup>(٢)</sup> ، وغصن من سرحك <sup>(٣)</sup> ، بل نبت سفته أباديك ، وزهر تفتح بما أفاضته غواديك <sup>(٤)</sup> . »

وبطبع نثر الرسائل الشخصية حيثذ بنفس الطوايع التي رأيناها في أيام المالك ، فهو يعتمد دائماً على السجع ، ويوشى بالبديع ومحسناته .

### ٣

#### المقامات

كان لبديع الزمان المهداني فضل السبق الى استحداث فن المقامات في العربية ، وقد بناه على أقاصيص تصور حياة أديب متسول لا يزال يحْتال على سامعيه بعباراته المسجوعة الرشيقة كي يسبخوا عليه شيئاً من عطائهم يعينه على سد حاجاته في الحياة . وجعل له راوية يتابعه ويقص حكاياته وأخباره من بلدة إلى أخرى . وتبعه الحريري فأوفى بهذا الفن على الغاية ، سواء من حيث جمال القص فيه أو من حيث جمال الحوار بين الراوي والأديب المتسول أو بين الأديب وبين من يعرض عليهم أفانين بلاغته . وطبيعي أن لا تعرف الشام - مثل بقية البلدان العربية - المقامات قبل بديع

(١) نضجة الرحانة ١٣٩/٢

(٢) السرجة : الشجرة الطويلة العظيمة

(٣) الدوحة : الشجرة الكبيرة للشجرة

(٤) الغوادى : السحب

الزمان ، بل أيضا قبل الحريري المتوفى سنة ٥١٦ للهجرة ، ويدل أنها ظلت طويلا لاتعرفها أو على الأقل لاتحاول محاكاة الحريري وبديع الزمان فيها ، وكأنما اشتغلها بالحروب الصليبية ثم للغولية حتى منتصف القرن السابع الهجري ألقاها عن هذا الفن ، حتى إذا أخذت الأحوال السياسية تستقر فيها لأيام للمالِك وجلساتها تعنى به ، وتلقانا نماذج متنوعة من هذه العتابة منذ النصف الثاني من القرن السابع ، وهى نماذج تختلف عن صورة المقامات عند بديع الزمان والحريري ، إذ لاتعتمد مثلها على أديب متسول وقصّ احتمالاته الأدبية قصّا حواريا ، إنما تعتمد على الوصف أو المناظرة بين بعض الأشخاص أو بين بعض الأزهار أو بعض الثمار ، وقد تعنى بالوعظ أو بعرض بعض المسائل فى العلوم المختلفة ، من ذلك مقامة فى المفاخرة بين التوت وللشمس لتاج الدين بن حيد الصرخدى المدرس بالمدرسة النورية بدمشق للتوفى بعد سنة ٦٧٠ ومن ذلك أيضا مقامة فى مصر والنيل والروضة لمحمد بن عبد الرحمن بن قرناص الحموى للتوفى حوالى سنة ٦٧٢ . وتلقانا مقامة للشاب الظريف محمد بن حنيف الدين التلمسانى الذى ترجمته له بين شعراء الغزل سماها مقامة لو مقامات العشاق ، وفيها يصور شغفه باللهو والتتزه فى الرياض ولقائه فيها ذات مرة لعاشقين وكيف حاورهما حوارا طريفاً ، وهو يفتحها على هذا النمط <sup>(١)</sup> :

« لم أزل مذ بلغت سن التمييز ، أتولع بنظم الأراجيز ، ومذ شبّ صبرى عن الطوق ، مُرّى بالغرام والفتوق ، وأهمم بالشمول <sup>(٢)</sup> والشمال ، وأشرب فى زجاجة صفراء كالأصائل ، وأقدم على رشف ثغور البيض .. وأتتزه فى كل ناد وواد .. فخرجت بعض الأيام إلى الفياض <sup>(٣)</sup> ، وولجت <sup>(٤)</sup> بين حياض ودياض » .

ويذكر صاحب فوات الوفيات للشهاب محمود الذى مرت ترجمته بين الشعراء مقامة تسمى مقامة <sup>(٥)</sup> العشاق ، ولعله حاكى بها مقامة الشاب الظريف . ولعمري بن الوردى للتوفى سنة ٧٤٩ أكثر من مقامة . وصنّعه بترجمة قصيرة ، وللصفدى معاصره الذى مرت ترجمته مقامة سماها « رشف الرحيق فى وصف الحريق » وصف فيها حريق دمشق الذى أتى على كثير من أحيائها وأسواقها وعمارتها لسنة ٧٤٠ ومن قوله فى تلك المقامة للنتاحة <sup>(٦)</sup> :

(١) انظر للنتاحة ملحطة بنيران الظفرى (طبع للطبعة

(٤) ولج : دخل

(٥) فوات الوفيات لابن خاكر ٥٦٥/٢

الأدبية بيروت .

(٦) الجزء الأول من مسالك الأبيصار (طبع دار

(٢) الشمول : الحمر .

الكتب المصرية ) ٢٠١/١

(٣) الفياض : أماكن الحجر للفت

« سألت عن الخبر، ممن غير، فقال إن الحريق وقع قريبا من الجامع، وأنظر إلى شبح الجور كيف انتشرت فيه عَفَاقُ<sup>(١)</sup> اللهب اللامع، فبادرت إلى صَحْنِهِ والناس فيه قطعة لحم، والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشحم، ورأيت النار وقد نشرت في حداد الظلام مُعْصَفَرَاتٍ<sup>(٢)</sup> ذواتها، وصعدت إلى السماء عَذَبَاتُ ذَوَاتِهَا. . . وعلت في الجو كأنها أعلام ملائكة النصر، وكان الواقف في الميدان يراها وهي (ترمي بشرير كالقصر)، فكم زمر أضحت لذلك الدخان جاثية، وكم نفس كانت في النازعات وهي تلو (هل أبتاك حديث الغاشية) ولم تزل النار تأكل مايلها وتنفى مايسفلها ويعتلها. »

وواضح في سجعاته طلبه للجناس. فهو يحانس بين الخبر وغير، والجامع واللامع، واللحم والشحم، ويمضى في مثل هذه الجناسات الناقصة، واشتهر لزمه بالتصنع الشديد للجناس. وجعلته عنايته بالجناس يستخدم كلمة ذواتها مرة من اللوبان جمعا لذائب مرة بمعنى مقدم الشعر في الرأس جمع ذؤابة وجعله هذا المعنى يتصنع للذكر العذبات وهي أطراف العمام التي تطرح عليها، وتكلف أشد التكلف حين ذكر ملائكة النصر مع هذا الحريق الذي إبْتُلِيت به دمشق وأهلها بلاء عظيما. وإنما أغراه به محاولته اقتباس الآية القرآنية (ترمي بشرير كالقصر) وهي في وصف جهنم وما يتصاعد من شررها ووقودها كالقصر في ارتفاع بنائه وعلوه الشاهق. وقد مضى يتصنع للذكر طائفة من أسماء السو، فذكر (الزمر) أى الجهاعات و(الدخان) و(الجبالية) من الجنو وهو الجلوس على الركب من شدة الهول، كما ذكر (النازعات) والآية الأولى في سورة (الغاشية) والغاشية القيامة.

وواضح أن اللقمة أشبه برسالة اتخذت موضوعا لها وصف حريق دمشق، وأكثر المقامات حيث كانت على هذه الشاكلة ينقصها القص والحوار، وكأنها تختص بموضوع أدبي تعالجه. وغلب عليها ذلك أيضا في أيام العثمانيين وثلث في نضجة الرحانة للمحيى بمقامة سميت بالمقامة الريحية لعبد الرحمن بن محمد الدمشقي من بني النقيب، وفيها تتوالى تشبيهات الزهور والطيور على هذا النحو<sup>(٣)</sup>.

« نَرْجِسُ نَفْتَهُ الْفَنُورَ، وورد كأنما انتزع من أوجه الحُورِ.

(١) عَفَاق: جمع عقيق وهو حجر كريم أحمر شبه

(٢) مُعْصَفَرَات: مصبغة بالصفر، وهو صبيغ أصفر

(٣) نضجة الرحانة ٣٥/٢

به الصفدى اللهب

وَشَقِيقُ كَأَنَّهُ أَقْدَاحُ الْعَقِيقِ<sup>(١)</sup> ، قد رَسِبَ بِقَرَارَتِهَا مِسْكٌ قَتِيقٌ  
وَأَذْرَبُونَ<sup>(٢)</sup> . كَأَنَّهُ مَدَاهِنُ عَسَجِدٍ ، عَلَى سَوَاعِدِ زَبْرَجِدٍ  
وَسُوسِنِ كِيَاضِ السَّوَالِفِ ، أَوْجِيَادِ<sup>(٣)</sup> الرِّصَائِفِ  
وَقَرْنَفُلٍ كَأَنَّمَا تَوَقَّدُ بِالْجَمْرِ ، وَانْعَقَدُ مِنَ الْخَمْرِ ،  
وَيَظَلُّ طَوِيلًا فِي وَصْفِ الْأَزْهَارِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى وَصْفِ الْأَطْيَارِ ، بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَسْجَاعِ الْمَلِيَّةِ  
بِالنَّشِيئَاتِ وَالِاسْتِعَارَاتِ .

رَوَى الْهَمِي لِعَبْدِ الْغَنِيِّ النَّابِلِيِّ الصَّوْفِيِّ الَّذِي مَرَّتْ تَرْجُمَتُهُ مَقَامَةً وَصَفَ فِيهَا نَزْهَةً مَعَ صَدِيقٍ  
عَثَرَ فِيهَا عَلَى قَصْرِ عَالِي الْبَنِيَانِ فَدَخَلَهُ ، يَقُولُ<sup>(٤)</sup> :

« فَصَعَلْنَا إِلَى قَصْرِ مَشِيدِ<sup>(٥)</sup> ، مَزَخَرَفِ الْجَوَانِبِ بِالْوَانِ الْأَطْلِيَّةِ وَأَنْوَاعِ الشَّيْدِ<sup>(٦)</sup> ، فِيهِ الْغُرَفُ  
الرَّفِيعَةُ ذَاتُ التَّرْتِينِ ، وَلِلْمَقَاصِرِ الْمَصْنُوعَةِ لِقَاصِرَاتِ<sup>(٧)</sup> الطَّرْفِ عَيْنٍ . قَدْ طَلَّتْ شَبَابِيكَهُ عَلَى  
تِلْكَ الْأَرْجَاءِ الْمَوْفِقَةِ ، وَالْجُدَاوِلِ الْمُتَلَفِّقَةِ ، وَأَرْضِهِ مَفْرُوشَةٌ بِأَفْخَرِ الْوَشْيِ وَالِدِيَاكِجِ ، وَقَدْ أَطْلَقْتَ  
فِيهِ مَبَاخِرَ الطَّيْبِ فَرَادَى فِي الْإِبْتِهَاجِ .. فَطَلَسْتُ أَنَا وَصَاحِبِي عَلَى تِلْكَ الْأَرَاثِكِ الْمَنْعُوعَةِ<sup>(٨)</sup> ،  
وَالْفَرَشِ الْمَرْفُوعَةِ ، نَتَنَاشَدُ الْأَشْعَارَ ، وَنَتَشَبِّثُ بِأَذْيَالِ الْأَفْكَارِ .

وَيَلْقَاهُ هُوَ وَصَاحِبُهُ رَفِيقِي ، فَيَسْأَلُهُ أَيْنَ كُنْتَ ؟ وَمِنْ أَيْنَ تَوَجَّهْتَ ؟ وَمَا يَبْلِثُ أَنْ يَقُولَ لَهُ :  
« مَا ذَلِكَ الْقَصْرِ الْمَوْصُوفِ سِوَى جَنَّتِي هَذِهِ وَثَوْنِي هَذَا الصَّوْفِ ، وَالشَّبَابِيكِ جَيُوبِهِ وَأَطْوَاقِهِ ،  
وَلَا عَجَبُ أَنْ تَفْخَتْ فِيهِ مَبَاخِرُ الطَّيْبِ لِقَرَانِهَا قَرَاتِيهِ وَأَوْرَاقِهِ . وَكَأَنَّ كُلَّ مَا فِي الْمَقَامَةِ رَمُوزُ  
صُوفِيَةٍ جَلَّاهَا عَبْدُ الْغَنِيِّ النَّابِلِيُّ فِي تَصَاوِيرِ الرِّيَاضِ وَالْقَصْرِ وَنَهَاوِيلِهِ . وَحَرَى بِنَا أَنْ نَقِفَ قَلِيلًا  
عِنْدَ ابْنِ الْوَرْدِيِّ أَهْمَ كِتَابِ الْمَقَامَةِ الشَّامِينَ .

- 
- (١) العقيق : حجر كزرم أحمر . قَتِيق : قَاتِح .  
(٢) الأذريون : زهر شديد الصفرة . والصجد : الذهب  
(٣) جِيَادَ هَذَا : جَمْعُ جِيدٍ أَيْ عَتَقَ .  
(٤) نسخة الرحمانه ١٥٢/٢ وما بعدها  
(٥) مشيد : حال مرتفع .  
(٦) الشيد : كَلْبٌ مَاطِلٌ بِهِ الْبَاءُ مِنْ جِصٍّ وَغَيْرِهِ  
(٧) قاصرات الطرف : عَجَلَاتُ حَيَاتٍ . هَيْنَ :  
جَمِيلَاتٌ وَلَسَاتُ الْأَصْبَحِ .  
(٨) الْأَرَاثِكُ : مَقَاعِدُ مُنْجِدَةٍ لِلْمَنْعُوعَةِ : أَيْ عَنْ النَّاسِ

ابن<sup>(١)</sup> الوردى

هو زين الدين عمر بن المظفر المعروف بابن الوردى ، ولد في المرة بلدة أبي العلاء سنة ٦٨٩ وبها نشأ ودرس على شيوخها ، ويقول ابن حجر في الدرر : بل نشأ بحلب وهي حاضرة إقليم المرة ، وخاصة على قاضيهام وفقهيهام ومفتيهام الشافعى شرف الدين البارزى . وتقل في بلاد الشام يأخذ عن شيوخها ، وعُرف فضله في الفقه والفتوى ، فولاه ابن الزملىكانى قاضى قضاء الشام قضاء حلب ، وكان شاعرا . وله في ابن الزملىكانى مدائح كثيرة ، اعترافا منه بصنيعه : ورأى ابن الزملىكانى فيها بعد عزله عن حلب وتوليته قضاء منبج ، فامتضى ابن الوردى لنفسه أن يعزل عن حلب ويولى قضاء بلدة صغيرة من بلدان إقليمها ، وعثا حاول أن يسترضيه وأن يردّه إلى حلب ، فاعتزل القضاء وعاش للتأليف ونظم الشعر وصوغ النثر حتى توفى سنة ٧٤٩ . وله مؤلفات علمية مختلفة شعرا ونثرا ، فقد نظم كتاب الحاوى في الفقه الشافعى في منظومة بلغت أكثر من خمسة آلاف بيت ، وله مصنفات لغوية ونحوية ، منها شرح على ألفية ابن مالك وآخر على ألفية ابن معطى . وهو معدود في شعراء القرن الثامن النابيين ، ويقول ابن شاكِر : « أجاد في المثور والمنظوم ، فنظمه جيد إلى الغاية وفضله بلغ النهاية » . ودويوانه كبير وهو مطبوع في الآستانة من قديم ، وله بعض رباعيات وبعض موشحات ، أنشد منها السبكى في ترجمته ، وله خمس مقامات ، ورسائل كثيرة منشورة مع ديوانه ، وفي رأينا أن نثره أروع من شعره ، ولذلك اخترنا أن نتحدث عن أبده ماله من كتابات أدبية ، ونقصد مقاماته .

وأولى المقامات في الديوان المقامة الصوفية . ومنها يُجرى ابن الوردى حوارا بين مواطن له من المرة سافر إلى بيت المقدس وبين عشرة من الصوفية في مقدمتهم شيخ كبير ، وكانوا يتبادلون فيها بينهم أحاديث وكلمات صوفية رمزية ، وأشركوا معهم في الحديث هذا الوافد المرى ، وأخذ يسألهم عن أحوالهم ورموزهم وإشاراتهم وتقصير ثيابهم وعاداتهم والشيخ يجيب . وأحيانا يتخذ صوفية زمنه وأنهم لا يتبعون للنهج السديد لأسلافهم حتى يقول : « إن التصوفة اليوم أصحاب

والبر الأطلال ١٤٨/١ والشعرات ١٦١/٦ وديوانه ومعه مقاماته ورسالته مطبوع في الآستانة سنة ١٣٠٠ للهجرة .

(١) انظر في ابن الوردى وترجمته طبقات الشافعية للسبكى ٣٧٣/١٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٧٢/٣ وغازات الوفيات ٢٢٩/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٠/١٠

أكل وشرب ونوم ، يروون الأقوال ولا يتبعون الأفعال ، وافقوا أسلافهم ملياً ، وخالفوهم أنفاساً . والمقامة طريفة في عرضها لأحوال الصوفية في تلك الأيام ، وحرى بنا أن نذكر فرائدها لنقف على أسلوب ابن الوردى في مقاماته ، يقول (١) :

« حكى إنسان ، من معرة النعمان ، قال : سافرت إلى القدس الشريف ، سفر منكربعد التعريف ، فاجتزت في الطريق بوادٍ وقانا لفحة الرُمضاء (٢) ، وقال : حكمت على الوادى الذى زرع حصاه حالية العذارى قللتا دائم الحكم والإمضاء ، وإذا عين كعين الخنساء تجرى على صخر ، ويقول ماؤها أنا سيد مياه هذا الوادى ولا فخر ، فرويت كبَدَ صَادٍ (٣) من تلك العين ، ولكن نُخْصَ منظرها الحسن بذكر ظمأ الحسين . »

وقد نصنع ابن الوردى في أول مقامته لمصطلح التعريف والتكثير في النحو ، ولم يلبث أن اقتبس في وصف الوادى ألفاظ يبين مشهورين من الشعر في وصف وادٍ للمنازى معاصر أبى العلاء إذ يقول

وقانا لفحة الرُمضاء وادٍ سقاه مضاعفُ الفيثِ القميمِ  
زروع حصاه حالية العذارى فتلمسُ جانب العقد التنظيمِ

واشتهرت الخنساء بكثرة بكائها على أخيها صخر فاستغلَّ ابن الوردى ذلك في التورية عن هذه العين الحقيقية التى تجرى مياهها على الصخر ، ويقول إن منظرها الحسن ذكره بجادة الحسين ومقطعه في كربلاء وطلبه الماء من أعدائه ومنعه عنه وروحه تصعد إلى بارئها . ولم نخص في قراءة المقامة لئلا وهو يقتبس آى الذكر الحكيم ويتمثل بالأشعار والحكم والأمثال ، مما جعل الكتابة حيثلذ تنوء بكلف كثيرة .

وسمى ابن الوردى مقامته الثانية للمقامة الأنطاكية ، واتخذ فيها أيضاً شخصاً من للمرة يزورها ويصف محاسنها ومحاسن الطبيعة من حوله ، ويحمد الله على أن ردها من حملة الصليب إلى العرب ، ويأسى لما فيها من تباعد بين العرب والروم .

والمقامة الثالثة سماها المقامة النجبية ، ومنهج إحدى القرى الكبيرة في حلب ، وفيها يحكى أيضاً شخص من للمرة أنه دخلها فرأى لما أصاب مساجدها وأبنيتها من دثور . وكان حملة الصليب قد استولوا عليها قديماً وعاثوا فيها . ويلم ابن الوردى بملرسها النورية ، فإذا مدرسها

(١) الديوان (في مجموعة طبعة الجواب) ص ١٣٣ (٢) عاد : عطشان شديب العطش

(٢) الرُمضاء : شدة الحر



القاضى حدث السن ، فظن أنه ليس بشيء ، فلما سأله من حاجته قال : « نحن عشرة ذورونب وأولو علم وأدب ، وقد أنشد كل منا بيتي شعر ، سامها <sup>(١)</sup> فضل سر ، وأقام وزنها ، وقال إنها وإنها ، وأنا رسول أصحابي إليك لتتصف بيننا وقد دُلت عليك » فقال له : قل ما أردت أن تقول ، فأخذ يعرض عليه أبياتا في الغزل وغير الغزل ، والقاضى يطلق تعليقات نقدية بديعة . وحيتذ رجع للمرى إلى نفسه يلومها لسوء ظنها بالمدرس ، وأطال شكره .

وسمى المقامة الرابعة المشهدة وفيها يلقي شخصٌ معرّياً أميراً يحدّثه عن الاحضالات واللوازم حول بعض الأضرحة وما يجري فيها من اللهو واختلاط النساء بالرجال كأعياد النصارى والمجوس ، وينهاه الأمير عن الاشتراك في هذه البدع المحرمة ، وينوه بقاضى القضاة ابن الزملىكانى الذى أمر بإبطالها وشدد في التكفير عليها ، ويدهو له قائلا :

« لا زال نداء <sup>(٢)</sup> مثل حرف النداء ، كفيلا بضم الأخرين والبناء ، من وصل به قال مرّة <sup>(٣)</sup> ، واكتسب تابعه على اللفظ والمحل عطفا ، حتى يكون علمه علما منصوبا ، وهواطفه للمعارف خيرا مبتدأ به منصوبا ، ولا يرح مرفوعا بفعل الحسنى ، وسيوف بجوئه ماضية فهي على الفتح ثبتي . »

وواضح مدى ما تكلفه ابن الوردى من حشد مصطلحات النحرف في عبارات الثناء على ابن الزملىكانى وسججاته ، فلزال ابن الزملىكانى مثل حرف النداء في النحو ينادى به القريب والبعيد ، والتابع مفرد التوابع ، وهى العطف والنعت والتوكيد والبدل ، ولذلك ذكر مع التابع العطف ، وجلب من النحو كلمة « منصوبا » وأراد بها أن العلم مرفوع ، وذكر الما طرف والخبر وللبتداء والنسب والرفع والمضى والبناء على الفتح . كل ذلك حشده في هذه السججات القليلة ، ولم يكن يصنع ذلك دائما ولكن من حين إلى حين تلقانا في نثره هذه المرقع التى تدل على التكلف الشديد .

ومقامته الخامسة في وصف حريق دمشق الذى وصفه معاصره الصفدى . ومرت بنا قطعة من وصفه ، وسمى ابن الوردى هذه المقامة باسم « صفو الرحيق في وصف الحريق » ورواها عن شخص يسمى غيث بن سحاب عن ندى بن بحر ، والصلة بينها وبين رسالة الصفدى في الموضوع نفسه قوية ، ويبدو أن الصفدى اقتبس كثيرا منه حتى عنوان مقامته وهو « رشف الرحيق في

(١) سامها فضل سر : (٢) العرف : المرفوع

(١) سامها فضل سر . قال بها في السر

(٢) نفاة : كرمه

وصف الحريق . وله رسالة بديعة في وصف وياه الطاهون الذى فك بأسيا وامتد من الصين والمند إلى الشام ومصر لسنة ٧٤٩ ويسميا ابن حجر مقامة ، وتسميتها - كما جاء في الديوان - باسم رسالة أولى لغيا ب الرواية والحوار فيها ، ومثلها رسالته التى كـب فيها مفاخرة بين السيف والقلم ، وهى رسالة طريقة .

## ٤

### المواظظ والآهالال

فرض الإسلام الوظظ في خطب للساجد كل يوم جمعة وفى العيدين : عيد الفطر وعيد الأضحى ، ومعنى ذلك أن جميع البلدان الإسلامية طوال الأزمنة الخطفة كانت تموج بخطب الوظظ وإن لم تمن كـب الأدب بتسجيلها ، لأنها كانت أكثر من أن يحيط بها حصر أو استقصاء ، غير أنها بقيت منها شظايا ، وأول مايلقانا من ذلك في الشام خطب الخلفاء منذ معاوية ، ولعمر بن عبد العزيز من ذلك الحظظ الأوفر . وكان القصاص منذ معاوية يعظون الناس ، وقد أمر معاوية أن يكون ذلك مرتين : مرة بعد صلاة الصبح ومرة بعد صلاة المغرب وعين للقصاص مرتبات <sup>(١)</sup> خاصة . ويشتهر في زمن عمر بن عبد العزيز غير واحد مثل رجاء بن حيوة المتوفى سنة ١١٢ ومثل غيلان الدمشقي وكانت له رسائل مليئة بالوظظ . وظلت الشام تمتلئ بالوظظ طوال القرن الثاني وفى مقدمتهم الأوزاعي صاحب الملعب المشهور . وبالمثل ظل الوظظ حيا مزدهرا في القرنين الثالث والرابع ، ويلقانا في حلب لزمن سيف الدولة واحد كبير هو عبد الرحيم بن محمد المعروف باسم ابن نباتة ، وستقف قليلا عند خطبه ، ولانلبث أن نلتقي بأبي العلاء ، والحظاظ وتمجيد الله والزهد في متاع الدنيا يكثر في أشعاره وكتبه ، ومانفح الصفحة الأولى من اللزوميات حتى نلجده يقول : « إن من هذه الأوراق ما هو تمجيد لله الذى شرف عن التمجيد .. وبعضها تذكير للناسين ، وتنبية للرقدة الظالمين ، وتعليم من الدنيا » . وله بجانب اللزوميات ديوان ثان في العظة والزهد والاستغفار سماه : « استغفر واستغفري » سقط من يد الزمن ، وكان يشتمل كما يقول مترجموه على نحو عشرة آلاف بيت . وكان له في النثر دعاء

(١) انظر في ذلك كتابنا الفن وسلامه في الفن العربى

يعرف بدعاء ساعة ودعاء يعرف بدعاء الأيام السبعة ، وكتاب يعرف بالسجعات العشر في الوعظ ، وكتاب يعرف بسيف الخطب ، وفيه خطب الجمع والعيدين والحسوف والكسوف والاستسقاء وعقد الزواج ، وقد بنى سجعها على الحروف السهلة مثل المهزة والباء والتاء والدال واللام والميم والنون ، لأن الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون ليثا سهلا . وله كتاب تاج الحرة ، وهو في عظات النساء خاصة . وكل هذه الكتب سقطت قديما من يد الزمن ، وبقي من عظامه قسم كبير من كتابه الفصول والغايات ، وسنخصه بمحدث عما قليل .

ويحتدم الوعظ منذ نزول الصليبيين الشام لبث الحمية اللبينة في نفوس الناس ، حتى يجاهدوا في سبيل الله ، ويضربوا حملة الصليب الضربات القاضية . واشتهر كثيرون حيثذ بروعة وعظهم ، منهم بنو العديم في حلب لعهد نور الدين ، ومنهم ابن نجا خطيب دمشق للمولود بها سنة ٥٠٨ والمتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٩ ، ومنهم يحيى الدين محمد بن الزكي قاضي دمشق وخطيبها ، وهو الذي خطب أول جمعة صُلِّيَتْ بالقُدس بعد فتحه ، وسلم بخطبته .

ومن الوعاظ المشهورين حيثذ المذهب الدمشقي الذي لقيه العماد الأصمباني - كما يقول بنجرينه - بدمشق سنة ٥٧١ وسلم برسالة أدبية له ذكرها العماد ويُعَدُّ سبط ابن الجوزي يوسف بن قزوغل أكبر واعظ شهدته دمشق طوال النصف الأول من القرن السابع الهجري حتى وفاته سنة ٦٥٤ وقد نزلها سنة ٦٠٠ واتخذها مسكنا ودار إقامة . وكان قد نشأ في حجر جده ابن الجوزي واستمع إلى مواعظه الرائعة التي نوهنا بها في حديثنا عن العراق ، وطارت شهرته في الوعظ كما طارت شهرة جده ، وكان يحضر مجلسه القضاة والأشراف والأعيان « ونالته السعادة والوجاهة عند الملوك ، لاسيما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق فإنه كان عنده بالمتزلة العظمى ، وكان له لسان حلو في الوعظ والتذكير ولكلامه موقع في القلوب »<sup>(١)</sup> . ويصف أبوشامة مجلس وعظه في كتابه « ذيل الروضتين » فيقول : « كانت مجالس وعظه من محاسن الدنيا ولذاتها . وكان يزدحم في مجلسه مالا يحصى من الخلق رجلا ونساء ، والنساء يمجزل عن الرجال في جامع دمشق ، وجامع الجليل ، حضرت مجلسه صغرى وكبرى في الموضوعين مرارا ، وكان لا يفارق أحد مجلسه إذا انفصل إلا وشوقه مستمر إلى عودته في الأسبوع الآخر . وكان مجلس [ للوعظ ] كل سبت وتُبْسَطُ السجادات والحُصُر والبسط في كل المواضع القريبة من المنبر ما بين وبين القبة في يوم الجمعة ،

وبيت الناس ليلة كل سبت حلقا ، يقرءون القرآن بالشموع ، كل ذلك فرحا بمجلسه ومسابقة إلى الأماكن <sup>(١)</sup> .

ومن كبار الوعاظ في أوائل أيام المماليك ابن غانم المقدسي ، وله حوار طريف مع إبليس سماه « القول النفيس في تغليس إبليس » وهي رسالة صغية ، أراد بها أن يُعلم شياطين الإنس من أتباعه ضلالهم ومدى مايتخططون فيه من الخي . وأطرف من هذه الرسالة رسالة له سماها « كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار » وستحدث عنها بين الرسائل الأدبية . ومن خطباء دمشق ناصر الدين ابن البارزي المتوفى سنة ٨٢٣ ولى خطابة الجامع الأموي فترة ، ويقول ابن حجة : « لما فوضت إليه خطابة الجامع الأموي لم يبق أحد من أعيان دمشق إلا حضر في تلك الجمعة لأجل سماع خطبته ، وكانت براعتها ( قانتحتها ) : الحمد لله الذي أيد محمدا بهجرته ، ونقله من أحب البقاع إليه لما اختاره من تأييده ورفعته <sup>(٢)</sup> » . ولاريب أن الخطابة الدينية اطردها ازدهارها أيام العثمانيين ، وأن كانت كتب التراجم لم تصور ذلك تصويرا واضحا . وتقف عند طائفة من خطب المواعظ ورسائلها وكتبها البديعة .

### (١) خطب ابن <sup>(٣)</sup> نباته الفارق

ابن نباته الفارق هو الخطيب عبد الرحيم بن محمد ، وفيه يقول ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة . وقع الإجماع على أنه ما عمل مثله فيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته ، وكان خطيب حلب أيام سيف الدولة الحمداني وكان كثير الغزوات ، ولهذا أكثر ابن نباته من خطب الجهاد ليحض الناس عليه ، ويحثهم على نصره سيف الدولة . ولد سنة ٣٣٥ وتوفى سنة ٣٧٤ . وخلفه في الخطابة ابنه أبو طاهر محمد المتوفى سنة ٣٩٠ ثم حفيده أبو الفرج طاهر المتوفى عام ٤٢٠ . وطُبعت خطبته جميعا مرارا ، وطُبعت خطب عبد الرحيم مفردة وقد جعلها على عدد جُمع السنة ابتداء من شهر المحرم إلى نهاية شهر ذي الحجة ، ومن قوله في الخطبة الثالثة لشهر صفر ، بعد حمد الله والصلاة على رسوله الكريم :

« أيها الناس ! تترها عن حب الدنيا فإن متاعها قليل ، وتزودوا بتقواكم فإن السفر طويل ، ولا تظمروا في هذه الدنيا فإن البقاء فيها مستحيل ، كيف لا والمتادى يتادى كل يوم باعباد الله

(١) ذيل الروضتين ( طبعة سنة ١٩٤٧ ) ص ٤٩ (٣) انظر في ابن نباته الفارق ابن خلكان ١٥٦/٣

وعبد اللهجي ٣٦٧/٢ والشوات ٨٣/٣

(٢) غزاة الأدب ص ٢٠

الرجل الرحيل ، هو اللوت الذى مافيه ثوث ولا تمجيل ، ولا يقبل الله فيه الفداء ولا يرضاه من بدليل ، كم ألحق حليلا بصحيح وصحيحا بعليل ، وكم أخذ قريبا من قريب وغليلا من غليل ، فكيف تظعمون فى الدنيا بالإقامة فيها وقابض الأرواح عزرائيل ، ظل منى هذه الخفة والقساوة ولم يبق من العمر إلا القليل ، ثم ترجعون إلى ربكم للمتاع فى كماله عن الشيه والمثيل .  
ولغة ابن نباتة فى خطابه حلبة سائفة ، وقد بناها على السجع شأنه فى ذلك شأن الخطباء والكتاب فى العصر ، قد عم السجع حتى فى الكتابات التاريخية كما مرنا عند العاد الأصماني ، وسجعه يلد الأذان حين نصنى إليه ، لسهولته ونخفته وبراغته فى صوغه حتى لتتوالى الخطبة مسجوعة على روى واحد ، ويقول فى الخطبة الثانية من خطب شهر رمضان :

« عباد الله إن شهركم هذا شهر البركات والسرور ، شهر ضاعف الله أجره وهو بالخيرات مغمور ، والتجارة فيه لن تبور .. عباد الله ! أوصيكم بالإكثار من كل عمل مبرور ، وأنهاكم أن تُحبطوا صيامكم بالقيّة والغيمة وقول الزور .. يامفطرا بالحرام لأى شىء يكون الإفطار والسمور ، يا غافلا عن طاعة الله ما هذه الخفة والفتور ، يا هانئا فى نية الهوى أما تخشى ظلمات القبور .. ياماثلا إلى زهرة الدنيا ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، يا عادلا عن طريق الهدى منى تهتدى ليوم الثور » .

وبهذه اللغة الصافية الحلوة كان ابن نباتة يعظ الناس فى أيام الجمع ، فيبلغ الأهلان من قلوبهم وأفتدتهم ونحس بصلة قوية بين خطبه وخطب على بن أبى طالب فى نهج البلاغة ، وبدون ريب كان يتأثر فى خطابه ببيانه الرائع .

### (ب) الفصول (١) والغايات

هذا كتاب جميعه وعظ لأبى العلاء للمرى قصد به إلى تمجيد الله العلى الأعلى ، بدناؤه قبل ذهابه إلى بغداد وأتمه بعد رجوعه ، وقد أثار ضجة حوله منذ ظهوره ، إذ زعم بعض خصومه منذ زمنه إلى أنه وضعه مطارضة (١) للقرآن الكريم ، ولجحد تلميذه ابن ستان الحفاجى الذى مرت ترجمته ينقل عنه بشدة هذه التهمة (٢) ، ولعل من أسبابها أنه سمى الكتاب :

طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١١ ودنية  
القصر ١٣٠/١ وتعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢١  
(٣) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢٦

(١) انظر الفصول والغايات (طبعة محمود زتاني) وقد  
نشر القسم الأول منها وبتنقى فى الغايات إلى حرف  
الحاء .  
(٢) راجع سفرنامه لناصر خسرو (الترجمة العربية).

الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات ، وهو لا يريد محاذاة القرآن في أسلوبه وإنما يريد محاذاته في تمجيد الله وتحميده والثناء عليه ، وهو نفسه يقول في كتابه : « علم ربنا ما علم ، أنى ألقت الكلم ، أمل رضاه المسلم ، وأتى سخطه اللؤلؤ ، فهب لي ما يبلغ به رضاك من الكلم واللطف الغراب » . والكتاب جميعه وعظ وزهد ونحرف من الله وتقوى وودع وعبادة ونسك ، مع الشعور الدائم بالتقصير إزاء ربه وعبادته المثلث حتى يقول <sup>(١)</sup> :

« لو تقلت مياه اللجج على منكبي في قُداف <sup>(٢)</sup> ، وألغضت على مناكب الجبال ، وجرت كنبان الأرض وصرائعها <sup>(٣)</sup> في جرٍّ أو مِشاة <sup>(٤)</sup> ، فألقيتها في الحُضْر <sup>(٥)</sup> الدائمات ، حَفَفاً <sup>(٦)</sup> هـ كنتُ أحدَ العجزة المقصرين ، ولو أذن لي وأبذنت فأبذنت مراهص <sup>(٧)</sup> من الثرى الأسفل إلى الثرى ، ومن الرند ، الشَّحَذ من عود إلى وتد السُعود <sup>(٨)</sup> ، لم أودَّ ما يوجب جلال الله ، فكيف وأنا أقصر الصلاة ، وأداني بين الركعات » .

وهو يقول : مها تنسك ومها أدى من العبادات والأعمال فإنه لن يبرحه شعوره بعجزه وقصوره إزاء جلال الله وهيبته العظمى ، حتى لو تقل مياه اللجج الزائفة على منكبي في جرار تلو جرار مفرطاً لها على مناكب الجبال ، وحتى لو جبر كنبان الأرض كنباً وراء كعب في زنايل وألقاها في لجج البحار تقرباً إلى ربه ، وحتى لو أبنت من الثرى طبقات بعضها فوق بعض وبلغ بها عنان السماء إلى الثرى أو لو اتخذ من أوتاد العبدان أو تادا يتراكم بعضها فوق بعض ، حتى يصل إلى وتد السُعود ، لظل شاعراً بومته وقصوره أمام ما توجبه تجلته الله وعظمته . وإنه ليصبح مبتهلاً إلى ربه في جزع لا يبدانه جزع : « إن كان اللمع يطفئ غضبك فهب لي حينئذ كأنها غامتا شتى <sup>(٩)</sup> تَبْلان <sup>(١٠)</sup> الصباح والمساء <sup>(١١)</sup> » إنه سيظل ما حاش باكياً فارطاً للدموع سائلاً من ربه رضاه وودوانه . ولهذا الصبيحة أخوات كثيرة في الكتاب ، فأبى الطلاء فيه دائماً يتاجى ربه ضارحاً بل وجلاً خائفاً .

(١) الفصول والغايات ٥٩/١

(٢) قُداف : جرة

(٣) صرائع : جمع صريمة وهي القطعة من الرمل

(٤) جرٍّ ، مِشاة : زليل

(٥) الحُضْر : اللجج

(٦) حَفَفاً : عذمة

(٧) مراهص : طبقات

(٨) وتد السُعود : سعد الأنحية : نجوم مروة

(٩) شتى : من الشاء ويريد سحاباً قائم للطر

(١٠) تَبْلان : تهللان ، من التويل وهو للطر القير

(١١) الفصول والغايات ٢٥٩/١

والكتاب منقسم إلى ثمانية وعشرين فصلاً بعدد حروف المهجم ، وكل فصل لحرف ينقسم إلى فقر ، وكل فقرة تنتهى بالحرف الذى اختاره للفصل ويسمى غاية ، ويلتزم أبو العلاء قبل غايته الألف دائماً . وليس هذا كل ماصحبه على نفسه فى الكتاب ، فقد التزم فى كثير من الفقر أن تشترك سجعاتها فى حرفين أو أكثر على طريقة مانعرف فى لزومياته . والتزم بجانب ذلك أن يجلب إلى سجعات الكتاب كثيراً من الألفاظ الغريبة ، وإنها لتغلب على سجعاته غلبة شديدة ، حتى يمكن أن نقول إنها إحدى خصائصه أو أحد التزاماته . وعلى عادته فى أشعاره كثيراً ما يضيف بعض ألوان البديع وخاصة الجناس . وكما رأينا فى اللزوميات يكثر فى الفصول والغايات من ذكر المصطلحات العلمية يملأها من جميع العلوم ، وكأنما يراها وشياً خليقاً أن يضاف إلى فصوله وغاياته وفقره فيه ، من ذلك قوله مستظهراً لبعض مصطلحات علم الصرف <sup>(١)</sup> .

« لا تجلطن ربُّ محتلاً كواو يقوم ، ولا مبدلاً كواو موقن من الياء ، ولا أحب أن أكون زائداً مع الاستثناء ، كواو جدول وعجز ، فأما واو عمرو فأعوذ بك ربُّ الأشياء ، إنما هى صورة لاجرس لها ولا غناء ، مشيها لا يحسب من السمات » .

وعلماء الصرف يقولون إن واو يقوم أصلها يقوم فاستقلت الضمة على الواو فنقلت إلى ما قبلها واعتلت ، وأن كلمة « موقن » أصلها ميقن ، قلبت الياء واواً لسكونها وانضمام ما قبلها ، وأن الواو فى جدول وعجز زائدة لأنها مشتقتان من الجدول والعجز . ومعلوم أن واو عمرو تكتب ولا تنطق تمييزاً للكلمة من كلمة عمر . وكل ذلك يحسده أبو العلاء فى بعض وعظه بل إنه ليحشد كثيراً من دقائق المصطلحات العلمية لم نر حاجة إلى ذكرها . وحسبنا ما قدمناه لناخذ صورة عن كتاب الفصول والغايات ، وفى كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » كلمة عنه أكثر بساطة وتفصيلاً وتحليلاً .

(ج) خطبة القدس بعد فتحه لمحي الدين بن الزكي

أما الخطيب فهو محي<sup>(١)</sup> الدين محمد بن الزكي على من سلالة حنان بن عفان رضى الله عنه ، كانوا قضاة في دمشق ، وكانت ولادته سنة ٥٥٠ ، وكانت له عند صلاح الدين منزلة عالية ، فلما صارت له حلب ولاء قضاءها ، حتى إذا فُتحت القدس ، وكان محي الدين حاضرا فحسبها تطاولت الأحناف إلى الخطابة بها في أول يوم جمعة ، وأعد من كانوا في حضرته خطبا بليغة يخطبون بها في هذا اليوم واختار صلاح محي الدين ، فألقى خطبة ضافية ابتدأها بفاتحة الكتاب ثم تلاها بالتحميدات في أول سور الأنعام والإسراء والكهف والنمل وسبأ وفاطر ، ثم شرع في الخطبة . وقال <sup>(٢)</sup> فيها .

والحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومنزل الشوك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذي قلدر الأيام دولابعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضلته ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله .. أحمده على إظهاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهيره يته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ..

أيها الناس أبشروا بروضان الله الذي هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة<sup>(٣)</sup> ، من الأمة الضالة ، وردّها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإماطة <sup>(٤)</sup> الشرك عن طريقه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه .. ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم في شرفها مبار . وهذا هو الفتح الذي فُتحت له أبواب السماء ، وتبلّجت <sup>(٥)</sup> بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقُرّب به صيّا الانبياء المرسلون .. فاحفظوا - رحمكم الله - هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بمروئيتها نجا وحُصم ، واحلّوا من اتباع الهوى ومواقفة الردى ،

١١٠/٢

(١) انظر ترجمة محي الدين في طبقات السبكي

(٣) الضالة هنا : كل ماضل وضاع ، وفي اللؤل :

١٥٧/٦ وابن خلكان ٢٢٩/٤ وعبير الدهلي ٢٠١/٤

الحكمة خالة المؤمن

والبدابة والنهاية ٣٢/١٣ والنجوم الزاهرة ١٨١/٦

(٤) إماطة : تحية وإبعاد

والشكرات ٣٣٧/٤

(٥) تبلجت : أفرقت

(٢) انظر الخطبة كاملة في ابن خلكان والروضتين



ورجع القهقري .. الله أكبر ، فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، وأذل الله من كفره .  
والخطبة طويلة ، وقد اكتفينا منها بهذه الشظايا الرائعة التي تصور فرحة السلمين بهذا الفتح  
المبين والنصر العظيم ، وكأنما عادت المعجزة النبوية وأيام بَنُو قُحَظٍ وفُتُوح الشام ومصر والقادسية  
وهجرات خالد والصحابه الأولين ، وما النصر إلا من عند الله .

### (د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار

مؤلف هذا الكتاب الطريف ابن <sup>(١)</sup> غانم عبد السلام بن أحمد المقدسي الواعظ المشهور  
لزمته المتوفى سنة ٦٧٨ ، والكتاب في ٣٠ صفحة ، ذكر في مقدمته مايفصح عن موضوعه قائلا :  
« قد وضعت كتابي هذا مترجما عما استغلته من الحيوان يرمزه ، والجماد بغمزه ، وما خاطبني به  
الأزاهير بلسان حالها ، والشحارير عن مقار ارتحالها . وسعيت كشف الأسرار عن حكم الطيور  
والأزهار ، وجعلته موعظة لأهل الاعتبار ، وتذكرة للنوى الأبصار والاستبصار . ويقول إنه  
خرج يوما ليتأمل في الطبيعة وأسرارها ، وانتهى إلى روضة رق نسيمها وغنى عندليها ، وكان  
وحيدا وأخذ كل ماحوله يخاطبه بلسان الحال دالا على القدرة الإلهية وحكمة الله في خلقه وعظيم  
صنعه ، وسجل من ذلك عظات بليغة على ألسنة الأزهار ثم ألسنة الطير ثم ألسنة الحيوان . وبدأ  
بالنسيم رسول كل محب إلى حبيبه ، وحامل شكوى كل عليل إلى طبيبه ، ثم تركه إلى الأشجار  
وأحد عشر نوعا من الأزهار استلها بالورد قائلا على لسانه « أنا الضيف ، فاقضتموا وقتي فالوقت  
سيف ، أعطيت نفس العاشق وكسيت ملاحه المعشوق ، وأنا الزائر وأنا الزور ، ومن طمع في  
بقائي فإن ذلك زور ، ثم من علامة الدهر المكذور ، والعيش المحرور ، أني حينما نبت رأيت  
الأشواك تراحمني وتجاورني ، فانا بين الأدغال مطروح ، ونبال شكوى مجروح . وهذا دمي على  
حنّلى يلوح ، وهذا حالي وأنا أطف الأوراد ، وأشرف الرّؤاد ، فن صبر على نكد الدنيا بلغ  
المراد » .

وعن ابن غانم الكلمة بالعظة التي يريد بها ، وجعل الورد ضيفا على الطبيعة ، لأن مدة بقائه  
فيها قصيرة ، واستغل ماينبت حوله من شوك ليدل على أن الدنيا مهما أذقت الناس فيها من حلاوة  
العيش لابد أن تجمع إليهم شيئا من مرارته فليست الدنيا وردا خالصا ولا حياة لإنسان فيها دائما

مشرقة زاهية بل لا بد من ظلمة تغشاها ، بل هي مزيج من خير وشر وأمل وآس وسرور وحزن ،  
وحريٌّ بالإيمان فيها أن يصبر ويصابر حتى يبلغ مأمله . ويقول على لسان شجر البان الذي ظلما  
ذكر المهجور في ليله وتمايل أعضانه محبوباتهم .

« انظر إلى الورد وقد ورد ، وإلى البرد وقد شرد ، وإلى الزهر وقد أُنقِد ، وإلى الحبِّ وقد  
انقُذ ، وإلى الفصن اليابس قد اكتسب بطعما انجبد ، وإلى اختلاف المطامع ومشربها قد أُنقِد ،  
واعلم أن خالقها أحد ، وصانها صمد ، وموجدنا بالقدرة قد انقُذ ، لا يشاركه في ملكه أحد ،  
ولا يخفى هو إلى أحد <sup>ل</sup> لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . »

وهي عظة بليغة على لسان البان ، فالريح أقبِل ، وأقبل الورد معه ، وشرد الشتاء والبرد :  
وأضاء الزهر بألوانه واتقَد ، وحسب النار قد انقُذ ، واكتسب الفصون بعد العرى وسقوط  
الأوراق عنها ، ودبت فيها نضرة الحياة ، وما أعظم قدرة الله فالنباتات والأشجار تسقى بماء واحد  
وتختلف ثمارها وطعمها بين حلو وحامض ، وكل ذلك شاهد على قدرة الله التي لا يشركه فيها  
أحد ، إنه واحد صمد ليس كمثله شيء وهو على كل شيء قدير .

ويستقل ابن غانم من الحكاية على لسان الأزهار إلى الحكاية على لسان الأطيَّار ، ويستهل كلامها  
بكلام المزار وهو طائر حسن الصوت متعدد الألحان وعلى لسانه يقول :

« أنا العاشق الولهان ، أنا الهائم اللفهان ، إذا رأيت فصل الريح قد حان ، تجنبي في الرياض  
فرحان ، وفي الفياض <sup>(١)</sup> أردد الألحان . . وأرقص على الأخصان كأن الزهر والنهر لي  
عبدان <sup>(٢)</sup> ، وانت تحسني في ذلك حاتبا ، لا والله العظيم ولست في يميني حاتبا ، أنا أنوح حزنا  
لا طربا ، وأبوح زحلا لافرحا ، لأجد روضة إلا نُحْتُ على انضمامها ، ولا خضرة إلا تبللت  
على زولها ، لأنني مارأيت قط صفوة إلا تكدرت ، ولا عيشة طوبة إلا تمزرت ، فقرأت في تمثال  
المرغان ، كلٌّ من عليها ظان . »

والمزار في أول العظة فرح بمقدم الريح ، وسرحان ما يفكر في انتهائه ، فيتعب وينوح ،  
إذ لا يجد روضة إلا وتضمحل بعد ازدهارها . ويتعق تفكيره حتى يشمل الحياة ، فإذا كل ما فيها  
من صفاء لا يلبث أن تغشا كدرة قائمة ، وكل ما فيها من عيش حلو لا يلبث أن يتقلب عيشا مرا ،  
بل إن كل ما فيها هالك ظان . وسيد من كُتِب له السعادة ، وشق من كُتِب له الشقاء . ويستقل إلى

(١) الفياض : جمع غيبة وهي الشجر للثقف للمروءة

(٢) عبدان هنا : جمع عود ، وهو الآلة الموسيقية

الحيوانات ويختم حديثه عنها بكلام على لسان الخلة إذ تقول :

« إذا رمالك الدهر بجرى قضم له ، وإذا رأيت من تها للسمر فسر قبله ، ولا تكن في تدبير  
حيثك أبله ، تعلم منى قوة الاستعداد وتحصيل الزاد للمعاد .. كلفت جمع المثونة بتيسير المعونة ،  
وأعطيت قوة الشم من الأماكن البعيدة فأدركت بالشم من بعد الفراسخ ، ما لم يدركه ذو العلم  
الراسخ ، ثم أعطيت بالتقدير ، حسن التدبير ، فأدبر ما أذخره من الحب لقوى ، في بيوت » .  
والكتاب بذلك كتاب تعليم ووعظ ودفع للإنسان يسير في الطريق السديد ، وإعيا لحكمة الله  
في خلقه ، متعظا بما تورد عليه الحيوانات والأطيار والأزهار من مواعظ وحكم وأمثال وأصواء  
تتم له دنياه ، وتعدده إعدادا حسنا لأخراه . ولغة الكتاب سهلة بسيطة قريبة من لغة الحياة اليومية  
لأنه أريد به إلى الوعظ والإرشاد ، وهو حق مسجوع ، ولكن ليس فيه ألفاظ أبدية غريبة ،  
وتسخره أبيات شعرية سائفة ، تدل على حسن ذوق المؤلف ودقة اختياره . وبجانب الأبيات  
المختارة أبيات من نظمه تدل على أن ابن غانم كان يحسن الشعر والنثر جميعا .



### أعمال أدبية : رسائل وظهر رسائل :

خلقت الشام في هذا العصر أعمالا أدبية كثيرة ، ويلقانا في مفتحه كشاجم ، وله كتاب  
المصايد والمطارد عرض فيه الصيد وآلاته وما قبل فيه من الأشعار عرضا طريفا ، وله بجانبه كتاب  
في البرزة أو بعبارة أخرى في جوارح الصيد ، وكتاب في أدب النديم . ولأبي الطلاء للمرى أعمال  
أدبية نثرية كثيرة ، لعل أهمها رسالة الغفران ، وسلم بها عما قليل ، وفي خريدة القصر قسم الشام  
رسالة أدبية بديعة هي رسالة النسر والليل ، وسفر لها كلمة موجزة ، وفي الخريدة أيضا  
رسالة <sup>(١)</sup> طريفة ليعمر بن عيسى للتوفى شابا سنة ثمان أوتسع وستين وخمسمائة ، وموضوعها  
معاشرة الإخوان واغتنام الفرصة قبل أن تصبح غصة في دنيا لا يدوم نعيمها ولا تدمل كلومها ،  
وعنده أن الفرصة هي الإقبال على اللهو والقصف والصيد والقتل . وبفيض في وصف الصيد  
وماركبوها فيه من خيل وماحملوها فيه معهم من فهود وكلاب وبيزة وشواهين ، وبطيل في بيان صيد

(١) انظر الرسالة في الخريدة ( قسم الشام )

له مع بعض رفاقه إلى نحو عشرين صحيفة ، وهى رسالة أدبية بارعة كتبها أدیب حافظ فى فنه وسججاته وجرسها الموسيقى وفى تصاويره وتلاوينه .

وربما كان أهم من عنى فى القرن السادس الهجرى بكتابة أعمال نثرية أدبية أسامة بن منقذ الذى مرت ترجمته بين الشعراء ، وله كتاب الحصاص جمع فيه مناظم من شعر ، وهو منشور ، وله كتاب لباب الآداب ، وهو زاخر بالأشعار والحكم والنوادر والآداب الفردية والاجتماعية ، جطه فى سبعة كتب : فى الوصايا والسياسة والكرم والشجاعة والآداب والبلاغة والحكمة ، واشتمل منها كتاب الآداب على خمسة عشر فصلا : فى الأدب وكتبان السر والأمانة والتواضع وحسن الجوار وحفظ اللسان والقناعة والصبر والحياء وترك الرياء والإصلاح بين الناس والتعفف عن السؤال والتحليم من الظلم والإحسان والحض على فعل الخير . وعادة يورد فى كل كتاب ما يتصل به من القرآن والأحاديث النبوية والأشعار وما روى عن العرب والمجم من أقوال . ولأسامة كتاب ثالث هو للنازل والديار ألقه بعد حدوث زلزال شديد سنة ٦٥٢ ألقى على حصن شيزر موطنه وأحاله أنكاثا وأتقاضا ، ويقول فى مقدمته : « دعانى إلى جمع هذا الكتاب مانال بلادى وأوطانى من الحروب ، فإن الزمان جرّ عليا ذيله ، وصرف إلى تعفينا <sup>(١)</sup> حوله وحيله <sup>(٢)</sup> ، فأصبحت (كأن لم تكن بالأمس) موحشة العرصات بعد الأسس ، قد دثر عمارتها ، وهلك سكانها ، فبادت مغانيها <sup>(٣)</sup> رسوما ، والسررات بها حشرات وهوما ، وهو كتاب ضخيم فى نحو ٥٠٠ صفحة ، اختار فيه أطرف ماله ولسابقه من أشعار بديعة ، وقد جطه فى ستة عشر فصلا : فى للنازل والديار والمخاني والأطلال والربيع والشمس <sup>(٤)</sup> والرسم والآثار والمساكن والأرض والأوطان والمدن والبلاد والديار والبيت ويكاء الأهل والإخوان . وأطرف أحواله الأدبية جميعا كتابه الاعتبار وهو سيرة شخصية وسنخسه بكلمة . ونغضى إلى زمن المالك ويقاننا بدر الدين بن حبيب وكتابه نسيم الصبا ، وهو أشبه بمقالات أدبية فى الطيعة والطير والحیوان والأخلاق وسلم به عما قليل .

ونلتقى فى زمن المالك بآبن حجة الحموى وكتابه « ثمرات الأوراق » وقد طبع مرارا وهو أشبه بكتب المحاضرات ، فيه نثر ورسائل وشعر ونوادر وعظات وأخبار وقصص عن الأجواد والبخلاء والطماء والحق والأطباء ، مع بعض الأحداث فى زمن المؤلف وبعض الحكايات والفكاهات .

(٣) مغانيها : متازها  
(٤) الشمس : آثار الديار

(١) تعفينا : دفنوها وطمسها  
(٢) الحبل : لمحول والقرعة

وبأخرة من عصر الماليك نلتقى بآبن حرب شاه وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » وسنفرده له كلمة .

وننظم إلى أيام العثانيين ، ونلتقى ببياه الدين العامل الذى ترجمنا له بين شعراء الشيعة ، وله الخلاصة ، وهى كتاب شعر ونثر وحكم وأمثال ومواعظ وأخبار ونوادر ، وأهم منها كتابه الكشكول ، وهو فى مجلدين ، وبه شفرات من مختلف العلوم الإسلامية والرياضية والطبية ، ومن بحوث التاريخ والفلسفة والتصوف ، ويفيض بمختارات بديعة من الشعر لمصنوفة ومظلفة ولشعراء الغزل والحكمة والحكمة ، وحرى بنا أن نلم بما وعدنا بالحديث عنه من أهال أدبية .

### (١) رسالة (١) الضفران

رسالة طويلة فى نحو مائتى صفحة من القطع الكبير أملاها أبو العلاء ردا على رسالة لعل بن منصور الحلبي المعروف بآبن القارح ، وهى تنقسم قسمين : قسما يتحدث فيه عن نبوض آبن القارح من قبره يوم البعث ويتصور له نزعة فى الجنة يلقى بها طائفة من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ويسألهم : يَمَّ غُفْرَ لَهم ، ويتردد السؤال فيها بعد مما جعل الرسالة تسمى رسالة الضفران ويرد أبو العلاء بن القارح إلى يوم المشرق ليصور أهواله وأهوال الصراط مع الناس انتظارا لمصيره وقد ظل فى المشرق واقفا حتى نمب من شدة الحر والظما ، وكان معه صك التوبة فذكر فى دخول الجنة عن طريق خداعه ليلسنتها ونظم القصائد الطوال فى مدح رضوان ولم يفهم عنه شيئا ، وتركه إلى سادن آخر ، فنبهه إلى أن يشفع بالرسول ﷺ وحاول الوصول إليه . ولقى حمزة بن عبد المطلب فتوصل به إلى الإمام على بن أبى طالب ، ورأى أباه على الفارسي يحاوره نفر من شعراء البادية فى تأويله لبعض كلامهم ، وطلب على بن أبى طالب منه شاهدا على نوبته فاستشهد بقاض من حلب ، وسقاه على من الحوض ، وقال له : لاسيل إلى دخول الجنة قبل الحساب ، ورأى استخدام الحيلة فتعلق بركاب إبراهيم بن الرسول ﷺ : ويسأله رضوان هل معك من جواز ؟ ويحذبه إبراهيم معه ، فيدخلها ويلتقى ثانية بالشعراء ويحاورهم . ويقم آبن القارح مأدبة يدعو إليها كل من فى الجنة من شعراء وحطماء وأدباء ، ثم يركب بعض دواب الجنة ويسير فيصلى إلى مدائن غربية ، ويطلع فىرى طائفة من الجن ، ممن آمنوا بالرسول ﷺ ، ويسأل شيخهم عن

(١) تنظر فى رسالة الضفران ( طبعة أمين حنابلة ) الطرف

(و) طبعة د. بنت الشاطىء وهى طبعة مختلفة (نشر دار

أشعارهم التي جمع منها المرزباني قطعة صالحة فيقول الشيخ : إنما ذلك هذيان لا يعتمد عليه ، ثم يترنم من عتات دابته حتى يصل إلى أقصى الجنة حيث يلتقي بالحطيط والحنساء وهي تنظر إلى أخينا صخر في الجحيم ، وينظر مثل الحنساء ، فيجد إبليس وبشارا ولمرأ القبيس وعترة واثني عشر شاعرا معهم من شعراء الجاهلية والأخطل التظلي وعاورهم جميعا . ويعود فيلتقي بآدم عليه السلام ويبيض الحيات التي ظلمت في الدنيا ، وكوفئت في الآخرة بدخول الفردوس ونزولها في روضة الحيات . ويمر بجنة الرُّجَاز ، وعاورهم في أرجازهم حوارا طريفا . وتنتهي رحلة ابن القارح على الصراط وما شاهد من خطاب في الجحيم ومن نعم لا يحاطه نعم في الجنة ، ويفضي ابن القارح إلى المتاع بهذا النعم .

وهذا هو القسم الأول في الرسالة ، وقد كان له تأثير عميق في الآداب العلمية ، إذ كتب داتق الشاعر الإيطالي للتوفى سنة ١٣٢١ م على غرار الكوميديا الإلهية ، وشغل بالبحث في ذلك كثير من الباحثين الغربيين ولا يزالون مشغولين .

والقسم الثاني من الرسالة خاص بسؤال ابن القارح لأبي العلاء عن الزندقة والزنادقة ، وقد استلها أبو العلاء بالثناء على ابن القارح لوفائه في زمن يعز فيه الوفاء : ونحلت عن حرقة الأدب وهووما ، ودفع عن التبتى ما يقال من زندقته أو إلحاده إذ كان متألفا كما تشهد بذلك أشعاره ، وشك في عقيدة دجل . وذكر بعض الشعراء الزنادقة وفي مقدمتهم بشار وصالح بن عبد القدوس والوليد بن يزيد ، وتعرض لكثير من النحل المارقة في زمنه ، وفي مقدمتها القرامطة وخلافة الشيعة كعبد الله بن سبأ وعبد الله بن ميمون القداح رأس العقيدة الإسماعيلية والقاتلين بالتناسخ كالحنود وبالخلول من الصوفية كالحلاج ، وأصلى ابن الراوندي الزنديق<sup>(١)</sup> هو وكتبه : التاج والدامغ والقضب والفريد والمرجان التي طعن فيها على الدين الحنيف نارا حامية من الدم والتفريع ، ومن قوله في التاج وهو أهم كتب ابن الراوندي الكافرة : لا يصلح أن يكون نعلا ، وأف وثف ، وجورب وثف وهما واديان يجهم . ويعود إلى حديث ابن القارح ، ويعرض لتزيت وتمثله جالسا للوعظ في مسجد بجلب ، ويلم بأول سماعه عنه وشيوعه ويبعض علماء حلب وبطليات العرب في الجاهلية ويبعض مسائل فرعية .

(١) راجع في ابن الراوندي وإلحاده والرد عليه كتاب

عن تاريخ الإلحاد في الإسلام ، لعبد الرحمن بدوي

والرسالة نضية إلى أبعد حد لالأن أبا العلاء صَوَّرَ فيها المهتر والمجيم والنعيم فحسب ، بل أيضا لأنه ساق في حوارهِ مع الشراء نقدا لغويا وعرضيا ونحويا ، مع تعرضه لقضية الانتحال على القدماء ، ومع جودة استحضانه لما ساقه من أبيات الشراء وما ذكر من قصائدهم . وقد عرض في القسم الثاني للنحل الكثيرة في زمنه وما فيها من خروج على الدين وإلحاد ومروق ، وقد أنحى بلم حنيف على كل المارقين الملحدين ، ومع ذلك يقال إنه حمل الرسالة سخرية من الدين الحنيف ، والرسالة من ذلك بريئة كل البراءة .

ولم نعرض لأسلوبه فيها ، وهو نفس أسلوبه العام الذي ألفناه ، أسلوب يقوم على استخدام الألفاظ المبعدة في الغرابة ، تعبيرا عن ثقافته وعلمه الواسع بالعربية ، علما لعل أحدا من أدباء العرب على مر أزمتهم وعصورهم لم يحظَ به ، وهو لا يكتفى بالإغراب في ألفاظ سجعه ، بل يضيف إليها كما قلنا في غير هذا الموضع وشيا من المهينات البديعية وخاصة الجناس . وقد ذكر فيها أبو العلاء شبل الدولة بن صالح بن مرداس أمير حلب ( ٤٢٠ - ٤٢٩ هـ ) مما يؤكد أنه أُمِّلَ رسالته لهذه في العقد الثالث من القرن الرابع .

### (ب) رسالة<sup>(١)</sup> النسر والبلبل

هي رسالة بديعة للمهذب أبي طالب محمد بن حسان الدمشقي ، ترجم له العباد الأصماني في خريدته . وقال إنه زاره في مدرسته الهادية التي كان يدرس بها لطلابه في ربيع الأول سنة ٥٧١ وأنشد بعض أشعاره ، ثم قال : ونقلت له من رسالة وسَمَّها « بالنسر والبلبل » فاختصرتها وأولها .. ثم ذكر - فيما يلو فاتحتها ، وهي تصور نسرا شاهد روضا فاتنا خلب لبه ، ولم يلبث أن استمع إلى بلبل ملاء غبطة وقتة ، فسأله من أين لك هذا الصوت الساحر وأنا مع أني ملك الطيور ليس لي شيء من سحره وجماله ؟ وأجابه إن الصانع الحكيم لا ييب الأصوات حسب الأجسام . والرسالة تبدأ بوصف النسر على هذا النخط :

طار طائر عن بعض الشجر ، وقد هب نسيم السحر ، وانفلق عمود الفلق<sup>(٢)</sup> وانغرق قيصر الفسق<sup>(٣)</sup> مشهور بالقسر<sup>(٤)</sup> ، موسوم بالنسر ، والبلبل قد شاب ذؤابه<sup>(٥)</sup> ، وايضت فته ..

(١) انظر الرسالة في الخريدة ( قسم الثام ) ٣٤٠/١ (٣) الفسق : اللبل .

وانظر معها ترجمة صاحبها محمد بن حسان وانظره في (٤) القسر : القهر

كتاب المحدثون من الشراء والواق بالوفيات ٣٣٠/٢ (٥) الذؤابة : شعر مقدم الرأس ، والاستعارة

(٢) الفلق : المصباح واضحة

كأنما أجنحته رُكبت من العواصف ، واستُلِبت من البروق الخواطف . كأنه سهم رشيق <sup>(١)</sup> عن قوس القضاء ، أو نجم أشرق في أفق السماء .. يقبض أجنحته ويسط ، ويصعد إلى السماء ويبسط يمرح بأسنة قواده <sup>(٢)</sup> أعطاف القبول <sup>(٣)</sup> وأطراف الصبا ، وَيَقْدُ الشَّالَ بِخَوَالِفَ <sup>(٤)</sup> كأنها غروب <sup>(٥)</sup> الظُّلَا ، ويفتق بخوابه <sup>(٦)</sup> جُيُوبَ الجنوب <sup>(٧)</sup> ، ويغرق بصدوره صدر الرياح في المبوب .. حتى أشرف .. على روض أريض <sup>(٨)</sup> . وظلٌ حريص ، وأنهار متدفقة ، وأشجار موقفة ، وظلٌ متور ، ووَرْدٌ ومتور <sup>(٩)</sup> ، ومكان بهج ، وزهر أريج .. فن ورد فُضِيَ الأوراق ، ذهبي الأحداق ، كافوري الصبغة ، مسكى الصبغة ، مائي الجسم ، هوائي الرسم ، حاكِت <sup>(١٠)</sup> الصبا إهابه ، وخاطت الشال أثوابه ، وقُتِحت الجَنُوبُ أكمامه ، وحسرت <sup>(١١)</sup> الدُّبور عن وجه جماله لثامه ، فظهر في أفق الشجر ، كأنه شهب السحر ، أو خلود الجُور في القصور ، ظهرت في غلاثل من الكافور ، ومن غصون تجتمع وتفتق ، وترنح وتعتق ، والنسائم تُخلُّ عَقْدَ أزرار الزَّهر ... والشمس تُسفر وتتقب ، وحاجب الغزاة <sup>(١٢)</sup> يبدو ويحتجب .. فوقف [ النسر ] في الهواء حين رآها وقال : هذه غاية النفس ومناها .. أين المذهب ، وقد حصل المطلب ، وأبين الرواح وقد أسفر الصباح .. وينا هو صاف الأجنحة عليها ينظر من الأفق بعين التعجب إليها ، إذ سمع صوتا من بلبل سحري على وَكْرٍ شجري ، يناض النسيم بنخمة مزماره ، ورنّة أوتاره .. وألحان أعذب من نقرات المزار ، ينثردا من عقود ألحانه ولؤلؤا من صَدَفِ اختانه بين أفئانه <sup>(١٣)</sup> ، ويرجع قراءة مكتوب غرامه ، ويتلو آيات حزنه من مصحف آلامه .. كأنها ماقيل عن مزامير آل داود وتسايحهم في الركوع والسجود .. أو أصوات رهبان الصوامع ، أو تلاوة من تتجافى <sup>(١٤)</sup> جنوهم عن المضاجع .. ثم هوى إلى القرار ، لينظر من النافع في المزار ، فرأى البلبل يرجع سجع ألحانه في ريع أحزانه .

(١) رشق : رمى

(٢) القوادم : الريش الطويل في مقدم الجناح

(٣) القبول : ريع الصبا الشرقية

(٤) خوالف : جمع خالقة هي الريش في مؤخر النسر

(٥) غروب : جمع غرب وهو طرف الحد - والظبا :

جمع ظبة وهي الحد للرمح ونحوه

(٦) الخواي : الريش القصير في الجناح

(٧) الجنوب : ريع جنوبية

(٨) أريض : كثير النباتات حسن المنظر

(٩) المتور : زهر له رائحة ذكية

(١٠) حاكِت : نسجت

(١١) حسرت : كشت . والبعور ريع نهب من المغرب

(١٢) الغزاة : الشمس .

(١٣) أفئانه : ألحانه .

(١٤) هم للمسكون الأضياء تتجافى جنوهم عن

المضاجع ليلا للعبادة والصلاة .



وإذا كان العباد قد اختصر الرسالة ، واكتفى بمطالعها أو قرائنها ، فلنا زلفاها اختصارا ، وأكبر الظن ، أنه قد انتضح جلال الأسلوب في هذه الرسالة البديعة ، فسجها يطير عن الأفواه بخفته لرشاقة ألفاظه وبدع تصاويره . ويقتن النسر صوتُ البلبل وجمال تلاحينه ، فيجبه إليه مسلما عليه ، ويظهر العجب لأنه صغير حقير في منظره ، وله هذا اللحن المطرب ، والصوت المصحب ، ويصارحه بما في نفسه ، وأنه مع ضخامة جسمه ليست له حلاوة نغماته ، فيقول له : « أما علمت أن الأرواح لطائف وهي أشرف من الأجسام ، والأجسام كثائف والمعتبر فيها جودة الأفهام ، وإنسان العين صغير ويدرك الأكوان والألوان ، والإنسان عظيم والمعتبر منه الأصفران : القلب واللسان ، ما يكون الدر بقدر الصدف ، وشان ماينها في القيمة والشرف ، ولا الأدنى كالقيل ، وبينها بؤن في التفصيل .. وأما النعمة التي قرع سمعك سوط لذتها .. فإني رصمت شئرها<sup>(١)</sup> في عقد ألعاني على نغم بعض الأغاني . »

ويذكر البلبل للنسر أنه كَوْنُ ألعانه من احتفال يعقد في الروضة كل ليلة للملك يأتيها مع نغماته ، إذا ولَّى النهار وصَبَّحَ الليل ثوب الكون بظلمته وتَشَتَّلُ له الشموع وتصطف القيان وصفوف المحور والولمان وترجُّع الأنظام والألحان ، وينقضي ليلهم في لهو وسماع وطرب ، ومنهم أخذ ألعانه وأنظامه . وظله إذا أراد أن يكون له صوت حسن أن يخلو حطوه في الاستماع إلى رنات الغناء في هذا الحفل العجيب . ويدعو النسر إلى البيت في الروض غير أنه يتم ، ويضيع منه مراده ، ويحاتبه البلبل عتابا مرا قائلا : إن من استلذ المقام ، عدم المرام ، ووَجَّه إليه اللام . وأكثر البلبل على النسر العتاب ، فودَّعه وطار ، وقد عدم الأوطار . ويطلب المهلب في العظة من هذه القصة وأن يلوح المراد إنما يكون مع الاجتهاد ، ويصدق الطلب يُدرك الأرب . ويقول العباد إن المهلب أتم الرسالة بفصل وعظي ليس من شرط كتابه ذكره ، وواضح أن وعظها دار حول الجدل في طلب التي هون مهلة أو مايشبه المهلة فضلا عن النغلة ومايشبه النغلة .

### (ج) كتاب الاحتيال<sup>(٢)</sup>

ملذكريات طريقة لأسامة بن منقذ أحد أبطالنا في الحروب الصليبية ، وقد مرت ترجمته بين الشعراء ، والملذكريات أشبه بترجمة شخصية لأسامة ، إذ صور فيها ذكرياته عن تربيته الأولى في

(١) الشار : قطع اللعاب وصغار القزقز

(٢) ١٩٣١ راجع ماكتبته عنه في كاتينا : الترجمة

التخصبة والرحلات (طبع دار الطارف)

(٢) نشر بلبل حتى هذا الكتاب في برسمون سنة

شيزد حصن آبائه وما وقع له فيها من أحداث ، وقد عاش طويلا نحو مائة عام من سنة ٤٨٨ إلى سنة ٥٨٤ وتنفّل - كما مر في ترجمته - بين دمشق والقاهرة وللوصل .. ووصف مشاهدته واشترك فيه من المارك الحربية بين المسلمين وحملة الصليب ، وشارك - كما مر بنا - في أحداث مصر قيل نهاية التولية القاطبة ، وروى ما كان فيها من مؤامرات وخصومات بين الوزراء . ووصف وصفا حيا حربه تحت لواء نور الدين وأبيه للصليبيين ، كما وصف وصفا حيا معيشة حملة الصليب بديار الشام إذ كانت تتصل بينهم وبين المسلمين - حين تضع الحرب أوزارها - علاقات من حسن الجوار ، مما جعله يتزل بينهم في بعض الأوقات . وقد وصفهم بأنهم « بآثم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير » ويصورهم متأخري حضاريا عن المسلمين . ويدكر في صراحة أن المودة انقضت بينه وبين بعض فرسانهم ، ويقول إنه لا توجد صلحهم غيرة حل ناسهم ، ويصورهم متخلفين في الطب غلظا شديدا ، ويقص هذه النادرة :

« من عجب طبهم أن صاحب المنيطرة ( في أعالي الشام ) كتب إلى عمى أمير شيزد يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل إليهم طبيا نصرانيا يقال له ثابت لما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع ما داويت المرضى ! قال : أحضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دُمْلَةٌ وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس ليخة ففتحت الدملة وصلحت . وحببت المرأة ورطب مزاجها . فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم : هذا ما يعرف شيء ( فكيف ) يداويها ؟ وقال للفارس : أيما أحب إليك ؟ تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال : أمشي برجل واحدة ، قال : أحضروا إلى فارسا قويا وقاسا قاطما ، فحضر الناس والقاس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة ( قطعة ) خشب ، وقال للفارس : اضرب رجله بالقاس ضربة واحدة ، اقطعها ، فضره وأنا أراه ضربة واحدة لما انقطعت وضره ضربة ثانية ، فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة ، فقال : هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها ، فحلقوه . وعادت تأكل من ماكلهم : الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف ، فقال ، الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ اللوسى ، وشق رأسها صليا ، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس فحكّه بالملح ، فقلت لهم : أبق لكم إلى حاجة ؟ قالوا : لا فجت وقد تطلمت من طبهم ما لم أعره » .

وثابت الطبيب إنما قال الجملة الأخيرة سخرية من طبهم . ويتحدث أسامة طويلا عن

عاداتهم وماأخلوه من العادات الإسلامية الشرقية في اللطم والملبس ، مما يؤكد أنهم إذاكانوا قد غزوا ديارنا فقد غزتهم بمدنيتها وحضارتها .

وليس في هذه الترجمة الشخصية لأسامة أى ترتيب زمنى ولاأى نسق تأليفي ، بل الأخبار أو قل الذكريات يأخذ بعضها برقاب بعض ، ذكرى من الكهولة وذكرى من الشباب وذكرى من الشيخوخة ، أو قل إنها ذكريات مبعثرة ، غير أنها كتبت بأسلوب قصصى ممنع لاتنصع فيه ولاتكلف ، فلا سجع بداخله ولاحسن من محسنات البديع ، بل يترك أسامة نفسه على سجيته يصف ما شاهد وصفا نابضا بالحياة في لغة سهلة ، حتى تقترب أحيانا من العامية . وتشهد بذلك القطعة المارة آنفا ، ففيها بعض الخطأ في الإعراب وفي نسق الأسلوب ، غير أن ذلك لايتصل في الذكريات اتصالا من شأنه أن يخرجها من المجال الأدبي الفصيح ، وجعل هذا المنحى أسامة يستخدم أحيانا كلمات إفريقية وأخرى فارسية أو تركية ، وكأنما يريد أداء الواقع بكل مايتصل به من لغة الناس لزمه . وفي الحق أن هذه الذكريات نفيسة إلى أبعد حد لما تحمل من أحداث حرة وسياسية وأحوال اجتماعية وخاصة لحملة الصليب ، سجلها مشاهد لها رآها تحت بصره .

### ( ٥ ) نسيم (١) الصبا

مؤلف هذا الكتاب الذى يُعدُّ طريقة أدبية نفيسة بدر الدين الحسن بن عمر الدمشقي المعروف باسم ابن حبيب أحد أجداده ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٧١٠ ولم يلبث الأب أن عيّن محسبا بجلب ، فنشأ بها بدر الدين ، ورحل في طلب العلم والأدب إلى دمشق وأخذ عن ابن نباتة ثم إلى القاهرة والفسطاط سنة ٧٣٦ وأقام في الاسكندرية مدة ، ثم تركها إلى القدس والحليل ومكة . وعاد إلى حلب فطرابلس سنة ٧٥٨ وناب عن الحاكم بدمشق في عهد الأمير سيف الدين منجك ، وولى كتابة الإنشاء فترة وعاد إلى حلب وبها توفى سنة ٧٧٩ . وله تاريخ في سلاطين المماليك سماه درة الأسلاك في دولة الأتراك وهو مسجوع ، وله تذكرة النيه في أيام المنصور ( قلاوون ) ونيه ، وله في السيرة النبوية كتابان : النجم الثاقب في أشرف المنائب ، والمفتى في ذكر فضائل المصطفى .

وأهم أعمال ابن حبيب الأدبية « نسيم الصبا » وهو ثلاثون فصلاً أو مقالة بتعبيرنا الحديث ، اتخذ موضوعها الطبيعة أحياناً ، إذ له فيها ثمانية فصول في وصف السماء ، والشمس والقمر ، والمطر ، والليل والنهار وفصول العام والبحر والنهر ، والأشجار والثمار والروض والأزهار ، وأحياناً اتخذ موضوعها الحيوان والطير ، إذ له فيه أربعة فصول في الخيل والإبل والوحش ، والطيور ، ورمى البندق أو الصيد . وأحياناً أخرى اتخذ موضوعها الأخلاق الاجتماعية كالكرم والشجاعة والعدل والإحسان . وقد يتخذ موضوعها الإنسان كوصف غلام أو وصف جارية ، أو بعض علاقاته الإخوائية كالاستعطاف والشكر والثناء والتهنئة والثناء ، أو بعض شئونه المدنية كالكتابة ، أو بعض شئونه الحربية كالسلاح والمبارك الحاطمة للاعداء ، أو بعض علاقاته بالمرأة وما قد يحدث بينها من الفراق أو بضميه من العشق ، وقد أدار الفصل الخاص به على مدحه وضمه ، يذكر فيه محاسنه ومساويه . وبعض الفصول - كما يتضح من موضوعها - مفاخرات أو مناظرات ، على نحو ما يلقانا عن فصول السنة في الفصل الخامس . ونشر دائماً بالقدرة على التعبير المسجوع والتصوير الرائع كقوله في الفصل السادس يصف البحر وسفينة شق بها حُبابه :

« هزَّتْني رِيّاح الأمل البسيط ، إلى امتطاء نَيْج <sup>(١)</sup> البحر المحيط ، فأُنبت سفينة يطيب للسفر متواها ، وركبت فيها ( بِسْمِ الله مَجْرَاهَا وَتُرْسَاهَا ) .. بإلها سفينة ، على الأموال أمينة ، ذات تُسْرٍ <sup>(٢)</sup> وألواح ، تَجْرى مع الرياح ، وتطير بغير جَنَاح ، وتتناص عن الحادى <sup>(٣)</sup> بالملأح ، تخوض وتلب ، وتَرْد <sup>(٤)</sup> ولا تشرب ، لها قِلَاع كالقلاع <sup>(٥)</sup> ، وشرار يحجب الشُعاع ، وسكينة وسُكَّان <sup>(٦)</sup> ومكانة وإمكان ، وجُوجُؤ وقَقَارٍ <sup>(٧)</sup> ، وأضلاع محكمة بالقار <sup>(٨)</sup> .. بريدة ما بين السَّحَر والتَّحَر <sup>(٩)</sup> ، من أحسن الجوارى <sup>(١٠)</sup> المنشآت في البحر ، محفوفة بنواصيا <sup>(١١)</sup> الخمر كالخَيْل ، لا تَمَلُّ من سير النهار ولا من سَرَى الليل :

(٧) الجُوجُؤ : صدر السفينة . القفار : جمع قفارة

(١) نيج : وسط .

وهي الواحدة من عظام سلسلة الظهر

(٢) دسر : حبال :

(٨) القفار : القطران

(٣) الحادى : سائق الإبل بالحذاء وهو الغناء للإبل

(٩) السحر : الرثة ، النحر . أهل الصدر

(٤) ترد : من ورود الماء وبلوغه

(١٠) الجوارى : السفن

(٥) قلاع الأول : شرار السفينة جمع قلع . وقلاع

(١١) نواصيا : مقدماتها . وفي الخيل : الشعر في

الثانية : جمع قلعة وهي الحصن

مقدمة الرأس

(٦) سكينة : وقار . وسكان السفينة : دلفها

ما رأى الناس من قصور على الماء . سواها تَسِيرُ سِيرَ الْقِدَاحِ (١)

كَأَنهَا وَجِلٌ (٢) يَنْحَطُّ مِنْ شَاهِقٍ ، أَوْ عِرْيَاضٍ (٣) سَابِقٍ بِحُلَّةٍ سَاقِ ، أَوْ عَقْرِبَ شَائِلَةٍ (٤) ،  
أَوْ عَقَابٍ صَائِلَةٍ (٥) .. حَاكِمَهَا (٦) عَادِلٌ فِي حِكْمِهِ ، عَارِفٌ بِتَقْضِ أَمْرِهَا وَيَرْمِي (٧) ، يَيْتَدِي  
بِالنُّجُومِ ، وَيَيْتَدِي بِأَسْمِ الْحَيِّ الْقَيُّومِ .. وَيَبِينَا نَحْنُ مِنَ الْبَحْرِ فِي قَامُوسِهِ (٨) ، كَسَبَ الْجَوْ حُرُوفَ  
الْفَيْمِ فِي طَرُوسِهِ ، وَثَارَتْ رِيحُ عَاصِفٍ ، يَتَجَمَّعُ رَعْدُ قَاصِفٍ ، فَالَتْ بِنَا الْفُلُكُ (٩) وَاضْطَرَّتْ ،  
وَدَنَتْ شَفَتَهَا مِنْ رَشْفِ الْمَاءِ وَاقْتَرَبَتْ ، وَاسْتَمَرَّتْ تَطْوِي حُلَى الْأَوْتَادِ (١٠) ، وَتَهَيَّجَتْ فِي كُلِّ وَادٍ .  
وَتَضْرَمُ فِي الْكَبُودِ نَارَ نَاجِرٍ (١١) ، إِلَى أَنْ ( يَلْفِتَ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ (١٢) ) .. ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْنَا مِنْ لَأْ  
نَحْنُ عَلَيْهِ السَّرَائِرُ ، وَأَمَرَ الْجَارِيَةَ (١٣) بِحَمْلِ عَيْبِهِ إِلَى بَعْضِ الْجَزَائِرِ .

ونزلوا الجزيرة وتزهبوا في رياضها ورأوا فيها نهرا أرضه ذهب وحسابه ددر . ويمضي ابن  
حبيب في الوصف بهذه اللغة النقية الصافية وذلك السجع القصير الذي يمتع الآذان والأذهان  
يحرره وما بين الألفاظ من ملامعات تجعل السجع بلذ الألسنة حين تنطق به ، ويسر القلوب حين  
تستمع إليه . ويحق يقول ناصر الدين بن البارزي في الكتاب مقررًا له : « لقد أشبه الدر في  
انتظامه ، والثغر في ابتسامه ، وقطر الندى في انسجامه ، وزهر الروض في البكر إذا غنت على  
غصونه مطربات حامه .. فهو في اللطافة كالماء في إروائه ، وكالهواء المعتدل في ملازمة الأرواح  
يبحر صفاته ، وكالسلك إذا انتش جهره وأجيد في انتقائه » . وقد خُصمه ابن حبيب بفصلين  
بديعين في الحكم والمواظ ، ودائما يوشى أسجاعه بمحسنات البديع من الجناس وغيره .

(٩) الفلك : السفينة

(١٠) الأوتاد : الجبال

(١١) ناجر : أشد أشهر الصيف حرارة

(١٢) أي نبت عن أماكنها في الصدور فلفت

الحلاطم ، والآية كناية عن شدة ما أصاب القلوب من

الفرح

(١٣) الجارية : السفينة

(١) القيداح : السهام

(٢) الوجل : مازج الجبل الوحشي

(٣) العرياض : البحر الضخم

(٤) شائلة : رالعة ذنبا

(٥) صائلة : واثبة جائلة

(٦) حاكمها : ربانها

(٧) يرم الحبل ضد تقصه والاستشارة واضحة

(٨) القاموس : البحر ويريد هنا لغة العظم

## (هـ) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

مؤلف هذا الكتاب ابن عربشاه أحمد بن محمد اللمشقي الحنفي ، ولد بدمشق سنة ٧٩١ ونشأ بها وطلب العلم فيها ، حتى كانت طائفة تيمور ومهاصرته للدمشق ونهب جنوده التار لها وإشغالهم التيران فيها ، مما جعل أسرة ابن عرب شاه ترحل إلى الأناضول ، ومنها رحلت إلى إيران وأوغلت إلى سمرقند عاصمة تيمور ، واستوطنها ابن عربشاه مدة . وحُببت الرحلة ولقاء الشيوخ إليه ، فطاف بكثير من البلدان وأخذ عن علمائها وأدبائها ، واستقر في الأناضول أو آسيا الصغرى عند السلطان المماني محمد الأول (٨٠٥-٨٢٤هـ) وولاه ديوان الإنشاء فكان يكتب عنه إلى أمراء الأطراف باللغات الثلاث التي كان يحسنها : العربية والفارسية والتركية ، وترجم له عن الفارسية كتاب جوامع الحكايات لمحمد عوفى الذي أتم تأليفه سنة ٦٣٣ للهجرة ، ويقال إن عدد حكاياته كان يزيد على ألفي حكاية . وعاد بعد وفاة هذا السلطان المماني إلى الشام وأقام بحلب ، وخلص حيثل للدرس والتصنيف ، وهاجر إلى القاهرة في عهد السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ) ومر بنا في الفصل الثاني أنه كتب له سيرة ، وتحتفظ دار الكتب المصرية منها بمخطوطة . ومر أيضا أنه كتب سيرة لتيمور سماها عجائب المقدور في نوابغ تيمور ، وهي مسجوعة ، وطبعت مرارا . وكان يحسن النظم والنثر ويمجد الكتابة - كما أسلفنا - في العربية والفارسية والتركية ، وصنف في الفارسية كتابا على غرار كتاب محمد عوفى سماه « مرزيان نامه » طُبع قديما ، وعنه نقل كتابه « فاكهة الخلفاء » نثرا مسجوعا . وتوفى بالقاهرة عام ٨٥٤ للهجرة . وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » يشتمل على حكايات كثيرة ، وهي موزعة على عشرة أبواب مروية عن الشيخ أبى الحسن حسان يرويا عن الحكيم « حبيب » ، وهو الابن الصغير للملك ، ترك خمسة إخوة فملك أحدهم وأطاعه إخوته ، ثم دب الحسد في نفوسهم ، فرأى أخوهم الصغير « حبيب » احتراهم ، فاستأذن أخاه الملك في العزلة وذكر له أنه يحترم تأليف كتاب يشتمل على فنون من الحكمة ، فاستصوب رأيه غير أن وزيرا له شككه في مقصد أخيه وأن ذلك منه مكر وخديعة ، وأشار عليه أن يجمع بينه وبين حبيب ليظهر زوره ومينه أو كذبه . فجمع الملك

٢٨٠/٧ والبر الطالع ١٠٩/١ ومقدمة كتابه : « فاكهة

الخلفاء »

(١) طُبع هذا الكتاب في مصر مرارا وانظر في ابن عربشاه

النجم الزاهرة ٥٤٩/١٥ والنفس اللاع للسحوى ١٢٦/٢

وكذلك كتابه البحر المسبوك ص ٣٢٥ وشلوات الذهب

أعيان الدولة وعلماءها وفضلاءها وأخذ حبيب يسوق حكمه ووعظه في أسلوب قصصى مسجوع بديع ، وكان من ذلك هذا الكتاب بأبوابه العشرة الطريفة . والباب الأول في ذكر ملك العرب ، ومعه أربع قصص : قصة الضحاك الملك الفارسي الأسطوري القديم ، وقصة قابوس بن وشمكير أحد أمراء الأسرة الزيارية التي حكمت طبرستان وجرجان في القرن الرابع الهجري وتُقل أعوانه له ، وقصة بهرام جور الملك الساساني الذي كان مشهوراً بالفروسية وكثرة الصيد مع الفتاة التي رآها وسرعان ماصادته - كما يقول ابن عرب شاه - بلحظها المكسور فأسمى قلبه وهو في يدها مأسور وما كان من اقترانه بها ، وقصة ابن آوى مع الحمار وكان قد حاول أن يقدمه مأدبة لذئب فقدم الحمار مأدبة للكلاب . والباب الثاني في وصايا ملك المعجم وفيه قصص طريفة منها قصة نحكي ماجرى لابن سلطان بابل مع عمه الظالم الحاتل . والباب الثالث في قصة خاقان الأتراك مع خنته أو صهره الزاهد شيخ النساك . والباب الرابع قصص عن الإنسان وعالم الجن والعمارة . وقصص هذه الأبواب جميعاً تدور حول السيرة الحميدة للحكام وما ينبغي أن يأخذوا به الرعية من العدل مع بيان الأخلاق الذميمة ومع استعمال الحكمة وحسن التدبير حتى ينال الإنسان ما يأمّل ، ويأمن ما يحذر .

والأبواب الخمسة التالية قصص عن الحيوان والطير على طريقة كليله ودمنة ، وقد أشار إلى ذلك المؤلف في مقدمة كتابه قائلاً إن الحكمة إذا قُلت على ألسنة الوحوش وما هو غير مألوف الطباع من البهائم والسباع وأصناف الأطيّار وسائر المهن مالت إليها الأسماع ورغبت في مطالعتها الطباع ، لأنّ المألوف منها اقتراف الشرور والافتراء ونقص المعرفة والفطنة فإذا أسندت إليها مكارم الأخلاق من الوفاء وغير الوفاء أصغت الآذان إلى استماع أخبارها ، وتلقن الصلور بالإنشراح ، ونفوس الناس بالارتياح . وتخلل هذه الأبواب جميعاً قصص بديعة ، وكثير منها فارسي الأصل كما يدل عنوانها مثل قصة كسرى القديم مع وزيره بزرجمهر الحكيم وسقوط خاتمه الثمين منه في الماء والتقام بطة له وحزنه عليه ورجوعه إليه . وذكر في الباب العاشر قصة كسرى أنوشروان مع الشيخ الهرم الذي رآه يفرس في بعض البساتين مع انحناء قامته وبياض هامته ومع شدة عنائه وتعبه في زرع غرسه ونصبه . وختم الكتاب ابن عرب شاه بقصة جنكر خان الذي طمّ العالم بالفساد ، وأهلك العباد والبلاد .

والكتاب زاخر بدقائق الحكمة والفطنة التي تهذب النفوس والتي تعود على الناس بالتهذيب في معاملتهم والعدل في حكمهم والكسب في معاشهم والعمل الصالح لمعادهم . ويلج الكتاب على

أن المال الذى فى خزائن الحاكم إنما هو مال الرعية فينبى أن يتفق فى مصالحها وحوائجها ، وهو فى يد الحاكم أمانة ، وصرفه فى غير وجهه خيانة . ويرسم الكتاب دائما لقارته الأخلاق الحميدة والشائى الكريمة مع نفسه ومع أبناء جنسه مع رفق ولين للمساكين ، ومع صلابة فى الدين . وفى كل قصة وكل جانب منها تلقانا النصائح والحكم المينة على الرشاد فى الحياة ، مع الاستضاءة من حين إلى حين بالآيات القرآنية . والكتاب مسجوع ، غير أن لفته واضحة وظلمة يكون فيها لفظ غريب . وقصصه رائعة ، وحرى أن تعرض على الناشئة مع إختلاها مما جاء فى بعضها من ألفاظ مفحشة أوثانية . ولانثك فى أن ابن عرب شاه جلب فيها من الأكاصيص خير ماقراه فى الفارسية والعربية من قصص الملوك والحكام وعليّة الناس وصعاليكهم . ولا بد أنه أضاف إلى ذلك بعض القصص من خياله ، وقد رأى أن يحاكي كليله ودمنة بقصص كثيرة ، كما أسلفنا . والقصص جميعا تكتظ بالحكم على شاكلة ماقراه فى كتاب سلوان المطاع فى عدوان الأتباع الذى ألمتا به فى حديثنا عن الجزيرة العربية ، وقد ذكر ذلك صراحة فى مقدمته للكتاب ، وجعله كحكم هذا الكتاب ترود بين الشعر والنثر .

وفى الحق أنه كتاب بالغ الروعة بما يطعم من شئون السياسة والحكم وبما يهدى إليه من البصر بالحياة وما فيها من فضائل تكتسب ، ووذائل تجنب ، وما أروع الحكمة التى أجراها على لسان بعض الملوك فى قوله لأبنائه ناصحا : « يا بنى اكتسبوا العلم والفضل وأدخروا الحلم والعدل ، فإن احتجتم إلى ذلك كان مالا ، وإن استغنىتم عنه كان جمالا » .



## خاتمة

تحدثنا في هذا الجزء عن الشام وتاريخها الأدهى في عصر الدول والإمارات وبدأنا حديثنا عنها بالكلام عن فتح العرب لها مع الإمامة موجزة بتاريخها القديم وبيان حياتها السياسية زمن الدولة الأموية وأيام الولاة العباسيين ، وفي عهد الدولتين الطولونية والإخشيدية وأيام الحمدانيين ومن تداولها أو تداول أجزاء منها زمن الدولة الفاطمية ، وقد ظلت معها فلسطين ، وظلت دمشق أيضا معها خفية من الزمن . واستولى بنو مرداس على حلب واستولى السلاجقة منهم عليها كما استولوا على دمشق . ونزل الصليبيون الشام وأسروا بها ممالكهم واستخلص منهم مواد الدين زنكى الرها وخطفه ابنه نور الدين على حلب وأنزل بالصليبيين ضربات قاصمة وضم إليه دمشق . ولم تلبث الشام جميعها أن انضوت بعده تحت لواء صلاح الدين ، وحطم حملة الصليب في حطين وغير حطين واستقل منهم بيت المقدس وأكثر بلدان الشام . وظل يدفعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه خفاؤه الأيوبيون ثم المماليك وسحقهم للمغول في عين جالوت مشهور . وكانت مصر والشام في أيام المماليك دولة واحدة إلى أن نزلتها جماعات التتاريين وأصبحت ولاية عثمانية . وقد عرضنا المجتمع في الشام وحياته الاقتصادية والاجتماعية وما كان ينعم به من الرخاء إلى أن حكمه العثمانيون حكما ظلالا غامضا فانتكست فيه الزراعة والصناعة والتجارة . ومن قديم أعطت تتكاثر في الشام فرق الشيعة من نصيرية ودروز وإمامية وإسماعيلية زلزالية وهى المسماة بالفدائية وبالحشاشين . وقد مضت الشام تُعنى بالزهد والتصوف وكثرت فيها - مثل مصر - الزوايا والمخانقات والطرق الصوفية والدرافيش.

وكان بالشام قبل الإسلام تراث يوناني علمي وفلسفي ، وقد نفلت بمجرد دخولها في الإسلام إلى حركة علمية خصبة ، وتكاثر في بلدانها المدرس منذ أيام السلاجقة ككرة مفرطة ، وكان طيعيا أن تشارك في حركة الترجمة للتراث اليوناني وفي المائة بطون الأوائل من رياضيات وطبيعات وطب وجغرافيا بالإضافة إلى ما حُثيت به من علوم اللغة والنحو والبلاغة النقد . ومنذ القرن الرابع الهجري يتألق اسم كثر من تحتها أمثال الزجاجي وابن خالويه وابن يعيش ونزيلها ابن مالك الأندلسي ، ولعل لغويا عربيا لم يبلغ من الشهرة ما بلغه أبو العلاء المعري ، وتلقى بحققة نقدية مجلب زمن سيف الدولة ، وتوالى فيها النقد من أبي العلاء إلى يوسف البديعي أيام العثمانيين ،

وتنشط بها الدراسات البلاغية منذ ابن سنان الخفاجي إلى عبد الغني النابلسي في بلجيته للشهورتين. وتُغنى الشام بالقراءات ويشتهر بها في القرن الثاني الهجري أحد القراء السبعة، ويتصل فيها هذا النشاط من أيامه إلى أيام ابن الجزري في القرن التاسع الهجري. وينشط بها التفسير وتؤلف فيه كتب نفيسة، كما تنشط دراسة الحديث النبوي ويتكاثر حفاظه التابعون، وبالمثل تنشط دراسة للمذاهب الفقهية الكبرى، ويشتهر فيها غير إمام مثل النووي الشافعي وابن تيمية الحنبلي، وتكون الغلبة بين الكلاميين للمذهب الأشعري. وتنشط الكتابة التاريخية بجميع صورها من سيرة مفردة إلى تاريخ الدول أو دولة معينة وتاريخ المدن وخاصة دمشق وحلب والتراجم أو كتب الرجال والطبقات في مختلف العلوم والمذاهب والأدب والأدباء.

وكانت الشام قد أخلت في التعرب قبل الإسلام لاحتل الحدود بينها وبين الجزيرة العربية حيث كان يقم النبط والفسانة بعلمهم فحسب، بل أيضا في داخل البلاد الشامية، ولها وحل الحدود كان العرب يحيون حياة الروم البيزنطيين، وكانوا يدينون بدينهم المسيحي. وكان ذلك سببا قويا في أن يتم تعرب الشام سريعا بعد الفتح الإسلامي، وأن تصبح العربية لسان سكانها جميعا مسلمين ومسيحيين. ولم يكن للشام نشاط يذكر قبل الإسلام في الشعر، حتى إذا هاجرت إليها القبائل القيسية النجدية المشتهرة بالشعر أخذ يكثر على ألسنة أهلها، وطوال عصر بني أمية كان يغد عليها شعراء الحجاز ونجد والعراق وشارك غير خليفة في نظم الشعر مثل يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد بن عبد الملك، وظل للشام نشاطها في الشعر طوال عصر الولاة والدولتين الطولونية والإخشيديّة إذ يلقانا للشام غير شاعر نابه مثل أبي تمام والبحتري. وينشط الشعر في القرن الرابع وخاصة في حلب وبلاد سيف الدولة، على نحو ما يصور ذلك الثعالبي في البيعة.

ويظل نشاط الشعر مطردا ويخصي العهد الأصيلاني شعراء الشام في القرن السادس بثلاثة أجزاء من كتابه الخريدة. وترخر كتب التاريخ والتراجم بشعراء الشام في القرن السابع الهجري وما بعده. ويكثر الشعر الدوري والرماعيات كما تكثر الموشحات ويشتهر بالنظم فيها أئمة المهجوي والمخار الحطبي، وبلثل البديعيات والتحييدات، ويروج سوق للمبيع رواجا كبيرا على نحو ما نجد عند ابن الخطيب وابن القيسراني وابن الساعاتي والشهاب محمود ومنجك. وتدبج صفحات زاهية لشعراء الحكمة والفلسفة من مثل أبي العلاء المعري ومنصور بن مسلم وابن الجزري. ويكثر شعراء التشيع من مثل كشاجم وابن حيوس وبهاء الدين العاملي.

ونلتقي بطوائف كثيرة من الشعراء، وأول طائفة تلقانا منهم شعراء القزل وما يثير في النفوس من

المعاطف والحواطر والمشار على نحو ماقرأ عند عبد الحسن الصوري وابن منير والشاب الظريف وحسن البوريني . وكان شعراء كثيرون يحاولون أن يملثوا الدنيا ضجيحا بمفاخرهم وبسالهم في سحق الأعداء وبفضائلهم أو بهجائهم وما يرمون لبعض الشخصيات من صور ذميمة ، على نحو ماقرأ عند أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ وابن النحاس من جهة وعند عرقلة وابن عنين من جهة ثانية . وولتق بكثيرين من شعراء المراثي والشكوى مثل ابن سنان الحجاجي والغزي وفتيان الشاغوري ومصطفى الباي . وكثيرون من الشعراء كانوا يتغنون بحال الطبيعة ويشفون بمجالس اللهو في المتنزهات والأديرة على نحو ماقرأ عند الواواء الدمشقي وابن قسيم الحموي وبجير الدين بن نعيم وابن النقيب . وشعراء كثيرون كانوا يتغنون بمشاعر الشعب الدينية وما يتصل بها من الزهد والتصوف والمدائح النبوية مثل عبد العزيز الأنصاري ومحمد بن سوار وعفيف الدين التلمساني وعبد الفتي التالبي . وبجانب ذلك كان هناك شعراء شعيون قصروا شعرهم على الأرجال ولغتها اليومية مثل أبي العلاء بن مقاتل .

وَتَعْنَى الشام بالرسائل الديوانية وخاصة في عهد الدولتين : الأيوبيه والمملوكية على نحو ما نجد عند الهاد الأصبهاني النائر الشاعر والصفدي وابن حجة الحموي وكانا أيضا نائرين شاعرين ، وتكثر الرسائل الشخصية ، واشتهر أبو العلاء بكثرة ما أملى من رسائله . وتلقانا بعده رسائل شخصية كثيرة كان يكتبها الأدباء للشكر وللهنئة أو للعتاب أو للاستعطاف أو للزراء وكثيرا ما كانوا يرأسلون ، من ذلك مراسلات الطفراني والغزّي ، ودائما تلقانا هذه الرسائل الشخصية حتى نهاية العصر وربما قصدوا بها إلى المهارة الأدبية أو إلى المزول . وتكثر المقامات . ولا تعتمد على أديب منسول كما كانت عند الحريري ، إذ تُعْنَى بالوصف أو بالوعظ أو بالمفاخرة بين بعض الأزهار ، وكأنما أصبحت نخوص في موضوعات متنوعة على نحو ما نجد عند ابن الوردى . وتكثر المواعظ وفي مقدمتها خطب ابن نباته وكتاب الفصول والغايات لأبي العلاء وخطبة القدس بط فتحه لهماي الدين بن الزكي وكشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار لابن غانم المقدسي . وتتكاثر في العصر الأعمال الأدبية من رسائل وغير رسائل مثل رسالة الغفران ورسالة النسر والبلبل وكتاب الاعتبار وكتاب نسيم الصبا وفاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء .

# الفهرس

صفحة	
٥	مقدمة .....
٥٩- ١	الفصل الأول: السياسة والمجتمع .....
١	١ - فتح العرب للشام والحقب الأولى .....
	(أ) فتح العرب للشام
	(ب) زمن الدولة الأموية
	(ج) زمن الولاة العباسيين
	(د) الطولونيون - القرامطة
	(هـ) الإخشيديون - الحمدانيون (سيف الدولة)
	٢ - الفاطميون - بنو مرداس - السلاجقة - الصليبيون - آل زنكي
٢٣	(نور الدين) .....
٢٩	٣ - الأيوبيون (صلاح الدين) - المماليك - العثمانيون .....
٣٧	٤ - المجتمع .....
	٥ - التشيع: الإسماعيلية والإمامية - النصيرية - الدرزي - الإسماعيلية
٤٥	التزارية أو القداوية أو الحشاشين .....
٥٢	٦ - الزهد والتصوف .....
١١٩- ٦٠	الفصل الثاني: الثقافة .....
٦٠	١ - الحركة العلمية .....
٧٠	٢ - علوم الأوائل - علم الجغرافيا .....
	(أ) علوم الأوائل
	(ب) علم الجغرافيا
٨١	٣ - علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة .....
٩٣	٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام .....
١١١	٥ - التاريخ .....
١١٨- ١٢٠	الفصل الثالث: نشاط الشعر والشعراء .....
١٢٠	١ - عرب الشام .....
١٢٤	٢ - كثرة الشعراء .....
١٢٨	٣ - شعر دوري - رباعيات - موشحات - بديعيات - تعقيدات .....

(أ) الشعر الدورى

(ب) الرباعيات

(ج) الموشحات: أبهر الميموى. المخار الحلى

(د) البيهات

(هـ) التعقيدات

١٤١ ..... ٤ - شعراء المديح

ابن الخطاط - ابن القيسراقى - ابن الساعاقى - الشهاب محمود - منجك

١٦٣ ..... ٥ - شعراء الفلسفة والحكمة

أبو العلاء الميموى - منصور بن المسلم - حسين الجزرى

١٨٣ ..... ٦ - شعراء التشيع

كنشاجم - ابن حوس - بهاء الدين العامل

٢٩٤-١٩٩ ..... الفصل الرابع: طوائف من الشعراء

١٩٩ ..... ١ - شعراء الغزل

عبدالمحسن الصورى - ابن منير - الشاب الظريف - حسن البورى

٢١٦ ..... ٢ - شعراء الفخر والمجاء

أبو فراس الحمدانى - عرقلة - أسامة بن منقذ - ابن عتير - ابن النحاس

٢٤٠ ..... ٣ - شعراء المراثى والشكوى

ابن سنان الخفاجى - الغزى - فتان الشاهورى - مصطفى الهامى

٢٥٧ ..... ٤ - شعراء الطهبة ومجالس اللهو

الوآء اللمشقى - ابن قسيم الميموى - مجير الدين بن تميم - ابن النقيب

٢٧٢ ..... ٥ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

عبد العزيز الأنصارى - محمد بن سوار - عفيف الدين التلمسانى -

عبد الفى النابلسى

٢٩٠ ..... ٦ - شعراء شميمون: أبو العلاء بن مقاتل

٣٤٧-٢٩٥ ..... الفصل الخامس: النثر وكتابه

٢٩٥ ..... ١ - الرسائل الديوانية

الماد الأصهبانى - الصفدى - ابن ججة الميموى

٣١٠ ..... ٢ - الرسائل الشخصية

(أ) رسائل أبى العلاء

(ب) رسائل متنوعة

٣١٨ ..... ٣ - المقامات: ابن الوردى

## صفحة

٢٢٥	٤ - المواعظ والابتهالات .....
	(أ) خطب ابن نباتة الفلوقم.
	(ب) الفصول والغايات
	(ج) خطبة القدس بعد فتحه لمحي الدين بن الزكي
	(د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار
٢٢٤	٥ - أعمال أدبية: رسائل وغير رسائل .....
	(أ) رسالة النفران
	(ب) رسالة السر والبهل
	(ج) كتاب الاعتبار
	(د) نسيم الصبا
	(هـ) فاكهة الخفاء ومفاكهة الطرفاء
٢٥٠-٢٤٧	خاتمة .....

